

دبر القديس أنبا مقار

المدخل لسرح

الإيجيكت

بحسب القديس يوحنا
دراسة وتحليل



الأب متى المسكين

كتاب: المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا
(دراسة وتحليل).
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولى: ١٩٨٩.
الطبعات اللاحقة: ١٩٩٧ - ٢٠٠٠.
الطبعة الرابعة: ٢٠٢١.
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.
ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب. ٣١ شبرا
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٨٩/٥٤٧٥
رقم الإيداع الدولي: 6-580-448-077-ISBN
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين - محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠

أو من: مكتبة الدير

أو من خلال الموقع على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org





محتويات الكتاب

الصفحة

١٧

المقدمة

الباب الأول

٢٧ إنجيل القديس يوحنا كاتبه وظروف كتابته وطابعه الأساسي

الفصل الأول:

- ٢٨ القديس يوحنا الرسول
- ٢٨ ١ - شخصيته
- ٢٩ ٢ - ألقابه
- ٣٠ ٣ - صفاته كما تظهر في الإنجيل
- ٣٢ ٤ - بوانرجس
- ٣٢ ٥ - رسول المحبة
- ٣٤ ٦ - القديس يوحنا الرسول كما يظهر في سفر الأعمال
- ٣٥ ٧ - القديس يوحنا الرسول في أفسس
- ٣٧ ٨ - ترتيبات طقسية يقوم بها القديس يوحنا الرسول في أفسس
- ٣٩ ٩ - رعاية القديس يوحنا لأسقفية
- ٤١ ١٠ - القديس يوحنا في جزيرة بطمس
- ٤٢ ١١ - تلاميذ القديس يوحنا
- ٤٣ ١٢ - «يبقى إلى أن أجيء»

الفصل الثاني:

- ٤٥ ظروف وملايسات كتابة إنجيل يوحنا وزمانها
- ٤٥ ١ - شهادات من التقليد الكنسي المبكر
- ٥٢ ٢ - الأسباب الملحة التي حثت بكتابة إنجيل يوحنا
- ٦٢ ٣ - الغرض الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا كما يراه القديس يوحنا نفسه
- ٦٣ ٤ - تنفيذ بعض الآراء فيما يخص غرض الكتابة لإنجيل يوحنا

الفصل الثالث:
طابع إنجيل يوحنا

٦٦

الباب الثاني

علاقة إنجيل القديس يوحنا بالعهد القديم

٧٣

الفصل الأول:

الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا

٧٥

الفصل الثاني:

التوراة والناموس في إنجيل القديس يوحنا

٨١

أ - التوراة والترجمة السبعينية

٨١

ب - مفهوم الناموس في العهد الجديد

٨٢

ج - الناموس في إنجيل القديس يوحنا

٨٣

د - الحياة الأبدية بين التوراة والمسيح

٨٥

هـ - ماء الحياة بين التوراة والمسيح

٨٦

و - خبز الحياة بين التوراة والمسيح

٨٦

ز - الخمر بين التوراة والمسيح

٨٧

ح - النور بين التوراة والمسيح

٨٨

الفصل الثالث:

المسيا في إنجيل القديس يوحنا

٨٩

أ - لقب المسيا خالياً من المفهوم السياسي

٨٩

ب - المسيا، لا يعرف أحد من أين يأتي

٩١

ج - المسيا لا يموت

٩١

الفصل الرابع:

«جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله»

تفرّد إنجيل يوحنا في الكشف عن سر كيف ولماذا «خاصته لم تقبله»

٩٣

الفصل الخامس:

- ٩٦ دراية إنجيل القديس يوحنا بالنسبة للعهد القديم
٩٦ ١ - درايته بالإمتيازات الفائقة التي مُنحت لليهود
٩٧ ٢ - درايته بالمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية
٩٩ ٣ - درايته بالنبوات وخاصة ما كان يشير فيها إلى المسيح

الباب الثالث

- ١٠٣ المعايير الروحية التي يقوم عليها إنجيل القديس يوحنا

الفصل الأول:

الحق والشهادة:

- ١٠٦ أ - الحق
١١٢ ب - الشهادة
١١٢ ١ - شهادة الآب
١١٣ ٢ - شهادة المسيح لنفسه
١١٤ ٣ - أعمال المسيح تشهد له
١١٥ ٤ - شهادة الأسفار المقدسة
١١٦ ٥ - شهادة يوحنا المعمدان
١١٧ ٦ - شهادة التلاميذ
١١٧ ٧ - شهادة الروح القدس

الفصل الثاني:

النور والمجد:

- ١١٩ أ - النور
١٢٣ ب - المجد

الفصل الثالث:

الحياة والدينونة:

- ١٢٩ أ - الحياة
١٣٠

- ١٣٠ - الحياة كما جاءت في أسفار العهد الجديد عامة
 ١٣١ ٢ - الحياة عند القديس بولس الرسول
 ١٣٥ ٣ - الحياة في إنجيل القديس يوحنا
 - الإيمان عنصر أساسي لنوال الحياة الأبدية
 ١٣٦ في إنجيل يوحنا
 ١٣٩ - المحبة والفرح ثمار الحياة الأبدية
 - الحياة الأبدية ترفع الغطاء عن أسرار الله
 ١٤١ وتوصل المعرفة بأعماقه
 ١٤٢ ب - الدينونة

الفصل الرابع:

الإيمان والمعرفة:

- أ - الإيمان
 ١٤٦ ب - معرفة الله
 ١٥٣ ١ - معرفة الله في الفلسفة اليونانية
 ١٥٣ ٢ - معرفة الله عند العبرانيين
 ١٥٣ ٣ - معرفة الله عند القديس يوحنا
 ١٥٥ ٤ - تعرفون أبي «أنا هو»
 ١٥٧ ٥ - الفرق بين معرفة «التأله» ومعرفة «الإتحاد»
 ١٥٨ ٦ - معرفة الحق
 ١٥٩ ٧ - معرفة الله للإنسان
 ١٥٩ ٨ - رؤية الله
 ١٦١

الفصل الخامس:

الخطية والخلاص:

- أ - الخطية
 ١٦٤ ب - الخلاص
 ١٦٧

الفصل السادس:

المحبة والإتحاد بالآب والابن:

- أ - المحبة
 ١٧٠ ب - الإتحاد بالله
 ١٧٣

الباب الرابع

١٧٧ المفاهيم اللاهوتية الأساسية في إنجيل القديس يوحنا

الفصل الأول:

١٧٨ النظرة اللاهوتية إلى المسيح وعلاقته بالله الآب

١٧٨ — ألقاب المسيح كما جاءت في الأوصاح الأول

١٨٥ — المعنى اللاهوتي لألقاب المسيح في إنجيل يوحنا

١٨٥ ١ — «الكلمة»

١٩٥ ٢ — «المسيا»

(قد سبق عرض هذا اللقب في الباب الثاني — الفصل الثالث ص ٨٩—٩٢)

١٩٦ ٣ — «ابن الإنسان»

٢٠٤ ٤ — «ابن الله»

٢٠٤ — لقب «الكلمة» كأساس لاستعلان بنوّة المسيح لله

٢٠٥ — صفات المسيح في إنجيل القديس يوحنا تثبت أنه ابن الله

٢٠٧ — «الآب» و «الإبن» في إنجيل القديس يوحنا

٢٠٨ أولاً: «الإبن» ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة

٢١٠ ثانياً: «الآب» ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة

٢١٠ أ — «الآب الذي أرسلني»

٢١١ ب — «الآب» يعطي الإبن

٢١٢ ج — «الآب» يحب الإبن

٢١٣ د — «الآب» يشهد للإبن

٢١٤ ثالثاً: «أبي» ورود الكلمة بصورتها التخصصية في فم المسيح

٢١٦ — الطريق من الآب وإليه

٢١٨ هـ — «أنا هو»

الفصل الثاني:

٢٤٧ الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا

الفصل الثالث:

٢٥٥ الكنيسة والأسرار في إنجيل القديس يوحنا

| | |
|-----|---|
| ٢٥٥ | ١ - الكنيسة بالمفهوم اللاهوتي في إنجيل القديس يوحنا |
| ٢٥٦ | أ - تعريف شعب المسيح |
| ٢٥٦ | ب - قاعدة العبادة للكنيسة |
| ٢٥٦ | ج - الفردية والجماعية في الكنيسة |
| ٢٥٦ | ١ - في مثل الكرمة |
| ٢٥٨ | ٢ - في مثل الراعي الصالح |
| ٢٥٨ | د - سر الكنيسة كعروس المسيح |
| ٢٦٠ | هـ - سر الكنيسة وخروج الماء والدم من جنب المسيح |
| ٢٦٠ | و - الكنيسة في جوهرها وحدة في الآب والإبن |
| ٢٦١ | ز - النظام وتدير الخدمة في الكنيسة في إنجيل يوحنا |
| ٢٦٢ | ح - الإرسالية وتنصيب الرعاة ومنحهم سلطاناً لغفرة الخطايا والكراسة |
| ٢٦٣ | ط - مركز الرسل في الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا |
| ٢٦٣ | ي - رؤية الكنيسة من الداخل |
| ٢٦٤ | ٢ - الأسرار الكنسية في إنجيل القديس يوحنا |

الفصل الرابع:

| | |
|-----|--|
| ٢٦٨ | الرموز (أو اللاهوت الرمزي) في إنجيل القديس يوحنا |
| ٢٦٨ | ١ - رمز الراعي الصالح |
| ٢٧٠ | ٢ - رمز الكرمة |
| ٢٧٣ | ٣ - رمز الخبز النازل من السماء |
| ٢٧٥ | ٤ - رمز الماء النابع من جنب الصخرة |
| ٢٧٥ | أولاً: رمز المياه في القديم |
| ٢٧٥ | أ - الوجه السلبي للمياه |
| ٢٧٦ | ب - الوجه الإيجابي للمياه |
| ٢٧٦ | ١ - المياه الثابتة من جنب الصخرة |
| ٢٧٧ | ٢ - مياه التطهير |
| ٢٧٩ | ٣ - الله مصدر المياه الحية |
| ٢٧٩ | ثانياً: رمز المياه في العهد الجديد |
| ٢٨٢ | ٥ - رمز الخبز والماء معاً |

الفصل الخامس:

- ٢٨٩ «المعجزات» و «الآيات» و «الأعمال» في إنجيل يوحنا
٢٨٩ — معنى المعجزة في الأنجيل الثلاثة الأولى
٢٩٠ — «الآيات» في إنجيل القديس يوحنا
— مقارنة بين مفهوم المعجزات في الثلاثة الأنجيل
٢٩٣ ومفهوم الآيات في إنجيل القديس يوحنا
٢٩٤ — «الأعمال» في إنجيل القديس يوحنا

الفصل السادس:

- ٢٩٧ الشخصيات الواردة في إنجيل يوحنا
٢٩٧ أولاً: الرافضون: أ — الجموع
٢٩٨ ب — اليهود
٣٠٤ ثانياً: المؤمنون:
٣٠٧ — إيمان فيلبس
٣٠٩ — إيمان توما

الفصل السابع:

- ٣١٢ الرباط السري الذي يربط إنجيل القديس يوحنا

الباب الخامس

- ٣١٧ علاقة إنجيل القديس يوحنا بأسفار العهد الجديد

الفصل الأول:

- ٣١٨ الرسائل المنسوبة للقديس يوحنا

الفصل الثاني:

- ٣٢٤ العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا
٣٢٥ — نقاط التلاقي بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا
٣٢٩ — مقارنة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا

الفصل الثالث:

- العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى
- ٣٣٥ — ما هو الإنجيل وكيف تقترب إليه؟
- ٣٣٥ — تمايز إنجيل يوحنا عن الثلاثة الأناجيل الأخرى
- ٣٣٦ — ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل، وما يقابله في إنجيل القديس يوحنا
- ٣٣٨ — المسيح في الأربعة الأناجيل
- ٣٣٩ — أهم نقاط التلاقي والاختلاف بين
- ٣٤٣ إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى
- التقابل بين إنجيل القديس يوحنا، وكلٌّ من
- ٣٤٧ إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس لوقا
- ٣٤٧ أولاً: التقابل بين إنجيل يوحنا وإنجيل مرقس
- ٣٥٠ ثانياً: التقابل بين إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا
- مجمل الأبحاث التي انتهى إليها العلماء من جهة
- ٣٥٥ علاقة إنجيل يوحنا بالثلاثة الأناجيل الأخرى

الباب السادس

- ٣٦٠ شرح ونقد إنجيل القديس يوحنا على مدى العصور

الفصل الأول:

- ٣٦١ شرح إنجيل القديس يوحنا عند آباء الكنيسة
- ٣٦١ تراث الشرق: شرح العلامة أوريجانوس
- ٣٦٤ شرح القديس يوحنا ذهبي الفم
- ٣٦٥ شرح القديس كيرلس الإسكندري
- ٣٦٦ القديس أثناسيوس
- ٣٦٧ تراث الغرب: شرح القديس أغسطينوس

الفصل الثاني:

- ٣٦٨ تتبّع حركة شرح إنجيل القديس يوحنا في العصر الحديث
في ضوء عمليات النقد والدفاع

- ١ - اللاهوتيون العلماء التقليديون ذوو الشهرة العالمية
 وشروحاتهم للإنجيل القديس يوحنا ٣٧٢
 ٢ - مدارس شرح إنجيل القديس يوحنا في الوقت الحاضر ٣٧٧

الفصل الثالث:

- النقد الموجّه لإنجيل يوحنا والرد عليه ٣٨٠
 أولاً: المصادر المزعوم أنها أثّرت على القديس يوحنا في كتابة إنجيله ٣٨٢
 ١ - فلسفة هرمس وإنجيل القديس يوحنا ٣٨٢
 ٢ - الفلسفة الغنوسية وإنجيل القديس يوحنا ٣٨٣
 ٣ - المانديون وإنجيل القديس يوحنا ٣٨٥
 ٤ - مخطوطات وادي القمران وإنجيل القديس يوحنا ٣٨٦
 ٥ - فيلو العلامة اليهودي وإنجيل القديس يوحنا ٣٨٧
 ٦ - أسفار الحكمة وإنجيل القديس يوحنا ٣٨٩
 ثانياً: النقد الموجّه للخط التاريخي في إنجيل القديس يوحنا ٣٩٢
 الرد على النقد التاريخي لإنجيل القديس يوحنا ٣٩٥
 ١ - إنجيل القديس يوحنا له هدف محدد يتجاوز مفهوم التاريخ ٣٩٥
 ٢ - تحرك الأصحاحات نحو الهدف اللاهوتي ٣٩٦
 ٣ - مميزات القديس يوحنا التي أقلته ٣٩٧
 لاستعلان أسرار المسيح، وتدوين إنجيله
 ٤ - إنجيل القديس يوحنا اختص بالناحية اللاهوتية ٤٠٢
 معتمداً على التقليد الرسولي العام
 ٥ - مقياس التاريخ يتجه ناحية الظاهر ٤٠٦
 ومقياس اللاهوت يتجه ناحية الجوهر
 ٦ - منطق التاريخ يلزم أن يخضع لمنطق اللاهوت ٤١٠
 ٧ - التحليل التاريخي لحياة المسيح لا يصلح وحده أن يكون قاعدة للإيمان ٤١١
 ٨ - صيغ الأفعال الزمنية فقدت حدودها بدخول الله إلى ملء الزمن ٤١٢
 ٩ - التاريخ يبحث في الماضي والإنجيل يعيش المستقبل ٤١٣

مراجع الكتاب :

Bibliography I

Ancient Literary Sources : أ - المراجع الآبائية

AUGUSTIN, St., *Homilies on the Gospel of St. John*, NPNF, 1st Ser., Vol. VII, Eerdmans, Grand Rapids, 1956.

CYRIL of Alexandria, St., *Commentary on the Gospel according to St. John*, LFC, London, 1874.

EPIPHANIUS, *Adversus Haereses*, PG 41-42.

EUSEBIUS, *Historia Ecclesiastica* (= Hist. Eccl.), or *Church History*, NPNF, 2nd Ser., Vol. I, Eerdmans, Grand Rapids, 1971.

IRENAEUS, *Adversus Haereses*, (= Adv. Haer.), *Against Heresies*, ANF, Vol. I, Eerdmans, Grand Rapids, 1973.

JOHN CHRYSOSTOM, *Homilies on the Gospel of St. John*, NPNF, 1st. Ser., Vol. XIV, Eerdmans, Grand Rapids, 1956.

ORIGEN, *Commentary on the Gospel of John*, ANF, Vol. X, Eerdmans, Grand Rapids.

Bibliography II

Modern Works : ب - المراجع الأجنبية الحديثة

BARCLAY, WILLIAM, *The Gospel of John*, vol. 1,2, USA, 1955.

BARRETT, C.K., *The Gospel according to St. John, An Introduction with Commentary and Notes*, SPCK, London, 1955, reprinted 1958.

BERNARD, J.H., *A Critical and Exegetical Commentary on the Gospel According to St. John*, edited by the Rev. A.H. McNEILE, 2 vols., Edinburgh, 1928, reprinted 1958.

BLACK, MATTHEW, *An Aramaic Approach to the Gospels and Acts*, 3rd ed. 1967.

BROWN, Raymond E., S.S., *The Gospel according to John*, Introduction, Translation, and Notes, The Anchor Bible, London, 1984.

- BULTMANN, Rudolf, *The Gospel of John, a Commentary*, translated by G.R. Beasley-Murray, the Westminster Press, Philadelphia, 1971.
- BURNEY, C.F., *The Aramaic Origins of the Fourth Gospel*, Oxford, 1922.
- CINTI, *Current Issues in N.T. Interpretation*, New York, 1962.
- DANIELOU, JEAN, *Christian Centuries*, translated from French "Nouvelle Histoire de l'Eglise", New York, 1964.
- DODD, C.H., *The Interpretation of the Fourth Gospel*, Cambridge, 1953.
- EDERSHEIM, Alfred, *The Life and Times of Jesus the Messiah*, Eerdmans, Grand Rapids, 1965⁴⁰.
- EXELL, Rev. Joseph S., *The Biblical Illustrator, Saint John*, London, 1905.
- HENGSTENBERG, E.W., *Commentary on the Gospel of St. John*, translated from the German, Edinburgh, 1871.
- HOSKYNS, Edwyn Clement, *The Fourth Gospel*, edited by Francis Noel Davey, London, 1967⁸.
- HOWARD, M.A., *Christianity According to St. John*, London, 1943, reprinted 1958⁵.
- HUNTER, A.M., "Recent Trends in Johannine Studies", ET 71 (1959-60), 164-67, 219-22.
- JONES, Clifford M., *Old Testament Illustrations*, Cambridge, 1984.
- KITTEL, G., *Theological Dictionary of the New Testament*, Eerdmans, Grand Rapids, 1964.
- LAGRANGE, M.-J., *Evangile selon Saint Jean*, Paris, 1925.
- LEON-DUFOUR, Xavier, *The Gospels and the Jesus of History*, London and New York, 1968.
- LIGHTFOOT, J.B., *The Epistle of St. Paul to the Galatians*, Zondervan, 1962.
- LIGHTFOOT, R.H., *St. John's Gospel, a Commentary*, Oxford, 1960.
- MARSH, John, *The Gospel of St. John*, the Pelican Gospel Commentaries, London, 1968.
- MORRIS, Leon, *The Gospel According to John*, London, 1974⁴.
- NEANDER, Aug., *General History of the Christian Religion and Church*, Transl. by J. Torrey, Vol. I, Edinburgh, 1847.

QUASTEN, J., *Patrology*, 3 vols., 1st published 1950, reprinted by Christian Classics, Inc., 1933.

REYNOLDS, H.R., *Gospel of John, Introduction and Exposition*, The Pulpit Commentary, Vol. 17, Eerdmans, Grand Rapids, reprinted 1981.

SCHAFF, Ph., *History of the Christian Church*, Vol. I, Apostolic Christianity, Eerdmans, Grand Rapids, 1966.

SCHNACKENBURG, Rudolf, *The Gospel According to St. John*, New York, 1982.

TEMPLE, WILLIAM, *Readings in St. John's Gospel*, London, 1952.

WESTCOTT, B.F., *The Gospel According to St. John*, Eerdmans, Grand Rapids, 1962.

WESTCOTT, B.F., *The Epistles of St. John*, 1st edition 1883, reprinted by Eerdmans, Grand Rapids, 1966.

WIKENHAUSER, Alfred, *New Testament Introduction*, New York 1958, 1967⁶.

مقدمة

مقدمة

في ختام القرن الأول المسيحي كتب القديس يوحنا الرسول إنجيله في مدينة أفسس تحت إلماح أساقفة كنائس آسيا الصغرى الذي كان هو أسقفاً على أهمها وهي كنيسة أفسس. هذا بحسب مصادر التقليد الكنسي المنحدر إلينا من القرن الثاني ومن مصادر عديدة أخرى سنأتى على ذكرها.

ومعلوم أن القديس بولس الرسول هو الذي أسس كنيسة أفسس قبل ظهور إنجيل القديس يوحنا بما يقرب من ثلاثين أو أربعين سنة تقريباً. وتأسس كنيسة بالمفهوم اللاهوتى يعنى إرساء قواعد الإيمان المسيحي بكل أركانه. والرسالة التي أرسلها القديس بولس الرسول إلى أهل أفسس تكشف عن المستوى اللاهوتى الذي بلغه ليس القديس بولس فحسب، بل والذين كُتبت الرسالة لهم، هذا الشعب الذي اتخذ هذه الرسالة منهاج إيمان وعقيدة و حياة وسلوك. من هذا نفهم لماذا كان هذا العمق اللاهوتى الذي اجتهد القديس يوحنا بإلهام الروح أن يستودعه إنجيله لهذا الشعب! إذ تحكمه نسبة المثل للمثل، لذلك حُسب إنجيل القديس يوحنا كضرورة تحمّمها المناسبة. فالقديس يوحنا كتب إنجيله لشعب كان قد بلغ شأواً كبيراً في النضج الإيماني والوعي المسيحي، وقدم نماذج لإيمانه بحالات استشهاد رفيعة المستوى. ولكن كان يعوز هذا الشعب الإطار الإنجيلي الذي يشرح لهم المصادر الفائقة التي انحدر منها الإيمان المسيحي بكل أسرارها، ويفتّن لهم المفاهيم الجديدة التي نشأت نتيجة لكراسة القديس بولس الرسول محققاً إياها من فم المسيح مباشرة. الأمر الذي اشتاق أن يتممه القديس بولس الرسول يوماً ما بصفة خاصة وشخصية، كما يقول هو نفسه: «ثم بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضاً إلى أورشليم... بموجب إعلان وعرضتُ عليهم (أي على القديسين بطرس ويعقوب ويوحنا) الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم ولكن بانفراد على المعتبرين لئلا أكون أسعى أو قد سعتُ باطلاً» (غل ٢: ٢٠١). وها هو القديس يوحنا يضع ختم إنجيله على كل تعاليم بولس الرسول ليس بالإنفراد ولكن على الملأ على مشهد من الدنيا كلها.

وواضح أن إنجيل القديس يوحنا لا يهب الكنيسة في أفسس أو غيرها إيماناً جديداً بل يوثق ويشرح الذي وُضع. ولا يستحدث لها أسراراً ولكن يستعلن اللاهوت فيها حياً مشروحاً من فم

الرب. كما أنه لم يرفع إدراكات الكنيسة لترى مخلصها جالساً في السموات، فهذا وضح أول من وضح الشهيد إستفانوس بعد يوم الخمسين بقليل، كما قالت به الأناجيل وصوره سفر الرؤيا أروع تصوير. فكانت هذه كلها حقائق يعيش الشعب على هداها ويستمد منها إيمانه وحرارته. ولكن جاء إنجيل القديس يوحنا محمولاً بالروح ليتتبع هذه الحقائق في أصولها وينابيعها الأولى قبل أن توجد الأرض أو تُصور السماء مستقياً عن المسيح – صاحب هذا الإيمان والخلص والنور – لا في التاريخ في سجلات هيرودس ملك اليهودية ولا في منشور أوغسطس قيصر للإكتتاب العام ولكن في الأزلية، متعرفاً على المسيح ليس ضمن أسباط إسرائيل بل في حضن الله بصفته الكلمة الأزلي الكائن معه وفيه منذ البدء وهو الخالق، وقد صاحبه بالإستعلان فيما وراء الدهور والأزمان في خلقه الأكوان حتى إلى تجسده حيناً صار الكلمة جسداً، نازلاً من السماء حاملاً رسالة حب الآب للخلص العالم. واضطلع الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا وعلى يد القديس يوحنا بعمل هو من أعظم أعمال الروح القدس إذ استعلن علاقة الآب بالإبن وعلاقة الإبن بالآب الكائنة منذ الأزل في ذات الله الواحد: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠). وهكذا كشف عن لاهوت المسيح بأبلغ بيان وبأوثق بنیان. هذا السر أي سر بُنوة المسيح لله الذي نلنا منه وفيه بتجسد الإبن وتكميل الفداء حق التبتّي وتكميل الخلاص وانفتاح الحياة الأبدية علينا. وقد صور إنجيل القديس يوحنا ومن فم المسيح سر انكشاف علاقة الله الآب بالمسيح هكذا: «تأتي ساعة حين لا أكلّمكم أيضاً بأمثال (كما في الثلاثة الأناجيل على قدر نموهم الروحي) بل أُخبركم عن الآب علانية» (يو ١٦: ٢٥). فكانت هي ساعة كتابة هذا الإنجيل بلا شك!

هذا هو إنجيل القديس يوحنا الذي قدّم للكنيسة في ميعاده المحدد منذ الأزل، حيناً بدت الكنيسة في نُضحها متعطشة غاية التعطش لمعرفة المزيد عن المسيح إلهها لتردّ به شوقها إليه وترد على الذين يعيرونها كل يوم أين ومن أين جاء إلهها!! حيناً وقفت أمام نشاط وثني وفلسفي منقطع النظير ولا قبّل لها بمواجهته إلا بقوة إيمان وحب!

ونحن نعلم ما هي أفسس ومن هم الذين كانوا في أفسس سواء أيام بولس الرسول أو أيام كتابة سفر الرؤيا. فسفر الأعمال يحكي ضمن ما يحكي عن مغامرات بولس الرسول هناك هكذا: «ثم سگن الكاتب الجمع (الهائج ضد بولس) وقال أيها الرجال الأفسسيون من هو الإنسان الذي لا يعلم أن مدينة الأفسسيين متعبدة لأرطاميس الإلهة العظيمة والتمثال الذي هبط من رُقس» (أع ١٩: ٣٥). فأفسس كانت إحدى مواطن الحضارات اليونانية وكانت تموج بالآلهة الكاذبة وعبّادها هم أقوى الفلاسفة والمعلمين وغيرهم من أدباء اليونان ذائعي الصيت، وشعرائهم الأفاذ الذين ألهوا الفكر البشري للجري وراء المعرفة والجمال والحب والمجون والفن، واجتذبوا إلى صفوفهم

حتى من الطبقات العليا ذوي المعارف الفلسفية من المسيحيين وأصلوهم. ولقد جال القديس بولس الرسول جولاته الأولى في هذه المناطق، واستقطب غليان هذا النشاط المفرط في المعرفة الفلسفية وطوّعه بكل الجهد، وعن أصالة روحية وإقناع إلهي، وذلك لحساب المسيح باعتراف الوثنيين أنفسهم «وأنتم تنظرون وتسمعون أنه ليس من أفسس فقط بل من جميع آسيا تقريباً استمال وأزاع بولس هذا جمعاً كثيراً... فليس نصيبنا هذا وحده في خطر من أن يحصل في إهانة بل أيضاً هيكل أرطاميس الإلهة العظيمة أن يحسب لا شيء وأن سوف تُهدم عظمتها هي التي يعبدها جميع آسيا والمسكونة.» (أع ١٩: ٢٦ و ٢٧)

فلما دخل الإيمان المسيحي في الصراع مع منطق الفلاسفة، كان الإيمان مجرد قوة فعّالة تستمدّها الكنيسة من حياة المسيح، كما في الأناجيل الثلاثة، تلهبها قوة صلبه. ولكن كان يعوزها منطق «الكلمة»: مَنْ هو المسيح ومن أين أتى؟ إزاء آلهة الفلاسفة التي هبطت من زَفْس؟ وهكذا ظهرت الحاجة أشد ما تكون الحاجة إلى «اللوعس» النازل من السماء باسم الآب، والصاعد إليها بمجد الله، والعتيد أن يأتي في مجده ومجد أبيه مع ملائكته. ثم كان يعوز الكنيسة في محنة هذا الصراع الفلسفي التعبير عن الحق الذي لها وفيها، لا بالمنطق الفلسفي الأرضي، بل بالمنطق والإقناع الإلهي بحسب فكر المسيح ونطقه، فجاء دور المعايير الروحية الفائقة التي هي كنوز الكنيسة والتي غطّأها المسيح جميعها في عظاته المتوالية في إنجيل القديس يوحنا. ونجحت أيّما نجاح على أساس خبرة القديس يوحنا «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة... أما النعمة والحق فيسوع المسيح صارا» (يو: ١٦ و ١٧). وقام الروح القدس في هذا الصراع الرهيب بعمله السري والعلني: «ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو: ١٦: ١٣). ولما عزّت الشهادة شهد: «فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً» (يو: ١٥ و ٢٦ و ٢٧). ولما شاءوا أن يعرفوا من قدر المسيح ويمجّدوه في أعين المتعظمين بعلمهم انبرى الروح يمجّد «ذاك يمجّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو: ١٦: ١٤). ولم تكن الوثنية ولا الفلاسفة والأدباء اليونان هم وحدهم الجناح الذي دخل الحرب الطاحنة ضد المسيحية أيام القديس يوحنا الرسول، بل واليهود أيضاً كانوا يشكّلون الجناح الأكثر حقداً وإثارة، الذين كانت لهم أكبر جالية في العالم بجوار مدينة أفسس، وكان لها مجمع ضخم ذكره المسيح في سفر الرؤيا بالأسى والحزن «اكتب إلى ملاك الكنيسة التي في فيلادلفيا هذا يقوله القدوس الحق... ها أنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون. ها أنذا أصيرهم يأتون ويسجدون أمام رجلك ويعرفون أنني أنا أحببتك.» (رؤ: ٩ و ٧)

كان هذا هو دور إنجيل القديس يوحنا الذي أعدّه الله وسلّحه بكل أسلحة الدفاع عن الحق والحياة للمحنة الكبرى التي أتت على الكنيسة من جناحي عالم الظلمة. ولكن نجحت الكنيسة

بإنجيلها وواجهت أخطر منحدراتها التاريخية بعد أن انتقل مركز وجودها الرسولي الأول من موطنه فلسطين بعد أن حُرِّبت أورشليم وهدِّم وحُرِّق هيكلها، إلى أفسس في قلب العالم الوثني المتسلح بضراوة بكل أسلحة الضلال.

ولكن لم تكن الكنيسة تواجه صراع الخارج السافر وحده سواء من فلاسفة أو يهود متعصبين — غير يهود^(١) — بل وكانت تواجه فراغاً مخيفاً من داخلها شعر به أساقفتها وشعبها خاصة من اليهود الذين دخلوا الإيمان المسيحي بتراث عبادتهم الأولى الزاخر بالقوانين والنواميس. الكل بدأ يطالب بعلاج المشاكل والتساؤلات التي نشأت كحتمية فرضتها توقف العبادة اليهودية بعد خراب أورشليم ونزوح اليهود منها سنة ٧٠م. فأين سيكون مركز العبادة المسيحية؟ في أورشليم أم في جرزيم؟ أم في روما. ثم كيف ينبغي أن يكون السجود؟ وما عدده وما أصول التطهيرات اللازمة لحصوله؟ كل هذا وخلفية الكنيسة الذهنية نشطة من جراء تعاليم القديس بولس الرسول الذي شجب هذا كله وأمر ببطلان الإتكال على أعمال الناموس، وعدم توسُّط الفرائض التي تؤدَّى جسدياً، والمناداة بحرية البنين، وإعطاء الأهمية القصوى للإيمان الشخصي للفرد، وعمومية الإنجيل والإيمان لكل الأمم، واستعلان لاهوت المسيح كأساس للإيمان وكقوة فعالة تعمل عملها لخلقة الإنسان خلقاً روحياً. هذا كله أصبح على ألسنة الأساقفة قبل الشعب، أسئلة تحتاج إلى شرح إنجيلي، تقدم بها الأساقفة رسمياً إلى القديس يوحنا بإلحاح ضاغط مع توسل وصلاة وصوم لكي يكتب إنجيله بصفته الرسول الوحيد على قيد الحياة وهو الذي عاين وشهد وشهادته حق باعتبار الجميع. وبحسب التقليد ارتضى القديس يوحنا بضغط آخر من الروح القدس أن يكتب إنجيله. وهذا ما يقوله التقليد من الشرق والغرب.

يقول القديس إكليمنديس الذي عاش (١٥٠-٢١٥م):

[إن التقليد الذي استلمناه هو أن يوحنا وهو آخرهم جميعاً (آخر الإنجيليين) عندما لاحظ أن الحقائق الجسدية τὰ σωματικά صارت واضحة في الإنجيل (الثلاثة أناجيل الأولى) ألحَّ عليه أجبأؤه. وبإلهام الروح القدس كتب إنجيله الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον.]^(٢)
هذا تقليد الشرق.

ثم جاءنا التقليد من الغرب في وثيقة موراتوري والمعروف أنها لهيبوليتس. وهذه الوثيقة يرق تاريخها إلى سنة (١٦٠-١٧٠م). تقول الوثيقة:

(١) «وتحديف القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.» (رؤ: ٢: ٩)

² Euseb., Eccl. Hist. VI, 14, 7.

[الإنجيل الرابع هو بواسطة يوحنا أحد التلاميذ، إذ عندما توسل إليه زملاؤه التلاميذ والأساقفة في ذلك قال صوموا معي ثلاثة أيام ونحن نتفاوض مع بعض بكل ما يوحي به الله إلينا. وفي هذه الليلة عنها أعلن لأندراوس أحد الرسل (السبعين) أن يوحنا عليه أن يكتب كل شيء تحت اسمه والكل يصدّق على ذلك. فإن كانت أمور كثيرة قد علّمت بها الأنجيل الأخرى وكلها استُعلت بالروح الواحد فيما يخص الميلاد والآلام والقيامة وحديثه مع تلاميذه وفيما يخص مجيئه الأول والثاني، الأول باتضاع وتواضع وقد أكمله، والثاني يأتي بالمجد وبالقوة الملكية. فأني عجب، إذن، أن يوحنا بجرأة وشجاعة يحقق كل نقطة متكلاً عن نفسه في رسالته: «الذي رأيناه بعيوننا وسمعناه بأذاننا ولمسناه بأيدينا». هذه الأمور كتبها Scripsimus لأنه وضع على نفسه أن يكون لا شاهداً فقط بعينه وسمعه بل وكاتباً بكل عجائب أعمال الرب بترتيب.] (٣)

كما يصادق القديس إيرينيئوس على ما جاء في الوثيقتين، وقد سجّلنا كل أقواله في هذا الكتاب.

بهذا يتأكد لنا أن إنجيل القديس يوحنا اختص في التقليد بالروحانية واللاهوتية. وهذا تسجّل في قانون الأسفار المقدسة عدة مرات. ويقول عنه القديس أغسطينوس ما يلي:

[إن كل هذه الأنجيل الثلاثة لم تفارق نظرتها للأمور الأرضية إلا قليلاً يعني الأشياء التي أكملها المسيح على الأرض. أما بخصوص لاهوته فإنها جاءت قليلاً جداً. إذ تحدّثوا بصفتهم بشراً يسيرون معه على الأرض، أما هذا الأخير هذا «النسر» يوحنا المبشر بالحقائق العليا فهو الذي حدّد بنظره مثبتاً إياه نحو النور العميق الأزلي] (العظة السادسة والثلاثون).

كذلك جاء في نفس هذه العظة:

[إن القديس يوحنا ليس كأنه بلا استحقاق من جهة العمق في الروحانيات شبهه بالنسر فهو قد رفع بشارته أعلى وأسمى كثيراً عن الثلاثة أنجيل الأخرى] (العظة السادسة والثلاثون).

ولكننا مع كل هذه الشهادات بخصوص القيمة اللاهوتية التي اختص بها إنجيل القديس يوحنا، نود لو نخفّض قليلاً من علياء أغسطينوس وعلوّاته، فالأنجيل الأخرى وإن كانت قد قسّطت في استعلان لاهوت المسيح إلا أنها ما قصّرت قط وما أنقصت، فلاهوت المسيح يدمغها منذ بدء

³ Muratori, cited by: Barrett, Acc. to St. John., pp. 96, 97.

صفحاتها: «وهو ابن العليّ يُدعى» (لو: ١٠: ٣٢)، «القدوس المولود منك يُدعى ابن الله» (لو: ١٠: ٣٥)، «ويُدعى اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (مت: ١: ٢٣)، «وهذا هو الذي سيعمّدكم بالروح القدس ونار» (مت: ٣: ١١، لو: ٣: ١٦)؛ وهل ننسى أول آية جاءت في إنجيل القديس مرقس هكذا: «بدءُ إنجيل يسوع المسيح ابن الله» (مر: ١: ١)، وهي آخر آية جاءت في إنجيل القديس يوحنا «لكي تؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله» (يو: ٢٠: ٣١)؛ ولكن كانت كل هذه الشهادات تحتاج بالفعل إلى شرح لاهوتيّ مفصّل من فم المسيح مع تطبيق بالآية المباشرة.

نفهم من هذا أن كتابة إنجيل القديس يوحنا في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الكنيسة كان حصيلة إرادة إلهية استجابة إلى حاجة كنسية أمثلتها ظروف تتعلق بحياة المؤمنين ونضجهم الروحي وبحياة الكنيسة واستمرار وجودها.

لذلك صحّ القول أن إنجيل القديس يوحنا هو أصدق وثيقة تصوّر لنا حالة الكنيسة المسيحية في ختام القرن الأول.

ولكن يلزم قراءة هذه الوثيقة، أي إنجيل القديس يوحنا هذا، على أصول لاهوتية قبل الأصول التاريخية مع دراسة واستقراء لنفهم ما فهمناه معاً الآن وأكثر.

ونحن لا نستطيع أن نختتم مقدمتنا هذه عند هذا الحد؛ إذ يتحتمّ علينا أن نضيف، أن إنجيل القديس يوحنا كُتب في زمانه ليس لمواجهة صعاب زمانه وحاجة زمانه فحسب. فقد أسس الروح القدس هذا الإنجيل لكي يكون سهماً مبرياً في كف الكنيسة وسلاحاً مشهوراً في وجه الباطل أينما وُجد في أي زمان ومكان، والتاريخ يقص علينا ذلك:

فقد دخلت الكنيسة في القرن الرابع الميلادي في حرها الضروس ضد آريوس الكافر الذي أنكر لاهوت المسيح ودوّخ الكنيسة مع أتباعه، وأتباعه كانوا أساقفة صفّاً وراء صف، لأنها كانت رجعة تنذر بالخطر الوبيل، وقف فيها القديس أثناسيوس أسقف الإسكندرية ورئيس أساقفة مصر يحارب وحده، ولكن كان إنجيل القديس يوحنا هو معتمده، وكان سلاحه الأول والأسمى «تجسد الكلمة»، فهذا المعيار خير من يدافع به عن لاهوت المسيح. وكان إنجيل القديس يوحنا بمثابة الحصاة الناعمة في مقلع داود التي غرسها في جبين جليات فأرداه صريعاً إزاء ما عيّر به إله إسرائيل، هكذا فعل أثناسيوس وهكذا صرع الآريوسية التي عيّرت الكنيسة في إلهها، فخرّت صريعة تحت رجليه وهو رافع إنجيل القديس يوحنا نحو السماء ينطق بقانون الإيمان الذي اعتمده الكنيسة حتى اليوم.

وبعد القديس أثناسيوس بقرن من الزمان قام نسطور ليزعج الكنيسة من نحو إيمانها وأيضاً من جهة لاهوت المسيح وناسوته ففرَّقها إلى اثنين كما إلى مسيحين. وهكذا بطعنة مسمومة أراد هدم الإيمان الأرثوذكسي من أساسه. فانبرى له القديس كيرلس الكبير أسقف الإسكندرية أيضاً ورئيس أساقفة مصر، شاهراً نفس السلاح - إنجيل القديس يوحنا - و «بالكلمة صار جسداً»، وما يؤول إليه هذا المعيار اللاهوتي من الحقائق الزاهرة بالمعاني؛ انطلق القديس كيرلس الكبير في حربه حتى دارت دائرتها على نسطور فانهمز وولّى، وارتفع قرن كنيسة الإسكندرية فوق العالمين وفي يدها أيضاً إنجيل القديس يوحنا مع الإيمان القويم.

ولكن كان لا يزال يخفي الدهر حربه الأمضى سلاحاً ضد هذا الإنجيل نفسه لأنها كانت حرباً مزبنة بالعلم ومسلّحة بالفلسفة والتاريخ فكانت أخطر الحروب. لأن الحروب السالفة صوّبت ضد الكنيسة من خارجها، فكان إنجيل القديس يوحنا دِرْعَهَا وسلاحها فغلبت به وغلّب هو لها! أما هذه الحرب فجاءت مصوّبة ضد صحة هذا الإنجيل ومضداقته وكأنما شاء رئيس هذا العالم أن ينتزع من الكنيسة أعزّ وأمضى سلاح لها، فعلى مدى مئتين من السنين تضافرت قوى العقول الجبارة لمؤرخين وفلاسفة وعلما لاهوت من ألمع الشخصيات قامت تنقذ إنجيل القديس يوحنا: من جهة زمان كتابته قالوا أنه من وضع ما بعد منتصف القرن الثاني، ومن جهة كاتبه أنكروا على القديس يوحنا الرسول كتابته، ومن جهة تقليده الخاص قالوا أنه مأخوذ من رسائل بولس الرسول، ثم قالوا لا بل مأخوذ من الثلاثة الأناجيل الأخرى، ومرّة وهذا هو الأمر قالوا أنه من مصادر عديدة منها الغنوسية والمانوية التي تعتبر يوحنا المعمدان مسيحها، ومنها مخطوطات وادي القمران اليهودية، ومنها فيلو العلامة اليهودي ومنها الأسفار الخاصة بالحكمة. وأخيراً وما أخطر هذا الأخير قالوا أنه يجانب التاريخ ولا يتبع خط التقليد التاريخي للأناجيل لذلك لا يُعتبر إنجيلاً! غير ما قالوا أن الكنيسة ليست ممثلة فيه، وأن الأسرار الكنسية غائبة عنه. ولم يُثَقِّوا فيه على شيء صالح!

ولكن الله - في وسط هذه الترهات التي بُليت بها جامعات وكليات اللاهوت في أوروبا وأمريكا - قيّض لهذا الإنجيل نخبة من أنقى رجال الروح واللاهوت تبوأ أغلبهم رئاسة جامعات وكليات لاهوت أيضاً وكراسي أسقفيات، حيّا الله أساقفة كراسي أكسفورد ودورهام ومانسفلد بانجلترا لأنه من بين الذين جلسوا على هذه الكراسي بالذات انبرى ثلاثة منهم على التتابع هم علماء لاهوت عظام مشهود لهم بالقوى والإقتدار تصدوا لهذه التيارات فصنّوا وفتّدوا وردّوا حتى كسروا جِدّة هذا الهجوم النقدي المرير وذلك مع غيرهم من عشرات العلماء الأوفياء في ألمانيا وفرنسا، وانجلترا على وجه الخصوص، وقد أتينا على ذكر كثير منهم في كتابنا هذا. وبدفاعهم الحرّ أخرجوا إنجيل القديس يوحنا بعد مائتي سنة سليماً مبرّءاً على قدر ما أعطاهم الروح وعلى قدر ما سمحت به

تَقْنِيَّةُ الْعِلْمِ الشَّيْخَةِ فِي تَمْشِيهَا مَعَ الرُّوحِ .

وهنا يمكننا بشيء من الإطمئنان أن ننهي هذه المقدمة، لهذا الكتاب الذي سميناه «المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا». وقصدنا من إصداره أن يكون تمهيداً لكتاب شرح إنجيل القديس يوحنا، لأنه يصعب إلى حد كبير البدء في شرح هذا الإنجيل قبل أن يكون القارئ قد أصبح على وعي عام بالمبادئ والإصطلاحات والرموز والخطوط العامة التي يسير عليها هذا الإنجيل .

وأملنا أن يقرأ القارئ ويتأني ولا يعبر على التوضيحات التي فيه سريعاً بل يحتفظ بها في ذاكرته . فهذا هو قصد الكتابة الأساسي من هذا المدخل حتى يتجلى الشرح فيما بعد أمامه ، وتُستعلن له كنوزه ومكنوناته .

مقِّمًا الشكر لله الذي قَوَّاني حتى أنتهي من هذا الكتاب ،
بالرغم من ضعفي وهزال إمكانياتي ،
داعياً للقارئ بالنعمة الإلهية الفائضة من هذا الإنجيل ؛؛؛

الأب متى المسكين



الباب الأول

إنجيل القديس يوحنا

كاتبه وظروف كتابته وطابعه الأساسي

الفصل الأول

القديس يوحنا الرسول

١ - شخصيته:

هو كاتب الإنجيل الرابع بحسب التقليد الكنسي، الأمر الذي سنعود إليه بالتفصيل. وهو - غالباً - الإبن الأصغر لأبيه «زبدي» وأمه «سالومة» التي استقرنا اسمها من مطابقة الآيتين: «وكانت أيضاً نساءً ينظرن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسي وسالومة» (مر ١٥: ٤٠)؛ «وكانت هناك نساءً كثيرات ينظرن من بعيد وهن كُنَّ قد تَبَعْنَ يسوع من الجليل يخدمنه، وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسي وأم ابني زبدي» (مت ٢٧: ٥٥ و٥٦). وواضح أنها كانت تتبع المسيح أيضاً كتلميذة وتخدمه من أموالها الخاصة، وظلت تتبعه حتى الصليب والقبر، فكانت من اللواتي حملن الطيب يوم الأحد لتحنيط الجسد: «وتبعته نساءً كُنَّ قد أتين معه من الجليل ونظرنَ القبرَ وكيف وُضِعَ جسدهُ، فرجعن وأعدذن حنوطاً وأطياباً. وفي السبت استرخن حسب الوصية» (لو ٢٣: ٥٥ و٥٦)؛ «وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطاً ليأتين ويذهنه.» (مر ١٦: ١)

والإنجيل يرکز بشدة على تقوى هذه السيدة العظيمة سالومة (سالي، كما يختصرها الفرنجة)، فيوحي إلينا بأنها كانت مشبعة بروى المجد الآتي ومتيقنة من شخصية المسيا الذي كانت تخدمه. فهي التي يقدمها لنا إنجيل القديس متى: «حينئذ تقدمت إليه أم ابني زبدي مع ابنيها وسجدت وطلبت منه شيئاً، فقال لها: ماذا تريدين؟ قالت له: قُلْ أن يجلس ابناي هذان واحد عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك» (مت ٢٠: ٢٠ و٢١). وهذا يعطينا انطباعاً عن خلفية الأسرة التي نشأ فيها القديس يوحنا الذي كان يصغر الرب بعشر سنين، ولكن لشدة غيرته ومحبه للمسيح صار أقرب إلى قلب المسيح لأنه كان أيضاً أصغر التلاميذ سنّاً. وفي التقليد اليهودي، فإن الأصغر في الأولاد يجلس دائماً على شمال أبيه تعبيراً عن الأقرب للقلب، وهذا سنراه في طقس العشاء الأخير.

أما «زبدي» أبوه فكان صاحب مركب للصيد في بحيرة جنيسارت (طبرية) وبقّتي صيادين أجراء مما يدلُّ على تيسُّر حاله (مر ١: ٢٠). وكانت العائلة من بيت صيدا تحترف الصيد: «ثم اجتاز من هناك قليلاً فرأى يعقوب بن زبدي ويوحنا أخاه وهما في السفينة يصلحان الشباك» (مر ١: ١٩). ودعوة يوحنا جاءت مع دعوة أخيه يعقوب لأن بقية الآية السابقة تقول: «فدعاها للوقت فتركا أباهما زبدي في السفينة مع الأجرى وذهبا وراءه» (مر ١: ٢٠). ولكن يعقوب المدعو بـ«الكبير» استشهد كأول شهيد من الرسل سنة ٤٤م.^(١) والمعروف في التقليد أن سالومة هي أخت مريم أم الرب، فيوحنا يُعتبر بالتبعية ابن خالة الرب. ومن هنا بدأت التلمذة على كل مستوياتها التي أهلتها أن يسجل حتى نبضات قلب الرب.

٢ - ألقابه:

لقد لُقِّبته الكنيسة بـ«اللاهوتي» و«يوحنا البتول» و«يوحنا الحبيب» و«التلميذ الذي يحبه يسوع» و«ابن الرعد» و«النسر الطائر في الأعالي» و«رسول المحبة» و«رأي العهد الجديد المبشَّر بالسماوات الجديدة والأرض الجديدة، الذي قاس أورشليم الجديدة طولاً وعرضاً ونظر العرش السماوي وعان الحياة الأبدية وعاشها».

ويوحنا في التقليد^(٢) يُرسم دائماً بوجه هاديء وديع كوجه امرأة ويجعلون تحت قدميه نسرًا حادَّ البصر شديد المراس كمحاولة للتعبير عن شخصية يوحنا الوديعة المتحفظة والذي هو في نفس الوقت جسور ملتهب غيرة. وهكذا يراه القديس أغسطينوس في عظته السادسة لشرح إنجيل يوحنا: [ليس جديداً على آذانكم، يا أحبة، أن يوحنا الإنجيلي يشبه النسر الذي يخلق في العالَم مرتفعاً فوق أجواء الأرض المعتمة ليثبت نظره بعينين تحترقان نور الحق.]

وتحفُّظه الشديد هو الذي دعاه لِيُسْقِطَ اسمه عمداً من إنجيله ليتوارى عن أعين الناس، بل وأسقط اسم أمه سالومة واسم أخيه يعقوب واسم القديسة العذراء مريم، وفي نفس الوقت هو نفسه الذي طار وخلق في الأعالي واخترق لا السموات فحسب بل والزمان أيضاً وعان أسرار الله في الأزل وكشف طبيعة «الكلمة»: «في البدء كان الكلمة.» (يو ١: ١)

ويوحنا متحفِّظ، محترق بالمحبة الإلهية متحد بالرب ذهنًا وقلباً.

وليس من بين البشر جميعاً من استطاع مثل يوحنا أن يخترق أعماق طبيعة الله فيرى جوهره،

(١) أع ١٢: ٢.

² Jerome, Comm. ad. Matt., PG VIII, 10.

المحبة، «الله محبة» (١ يوحنا: ٤: ٨)، ويرى لاهوت المسيح قبل مولده بالجسد: «وكان الكلمة الله» (١ يوحنا: ١)، بل ويستعلن «الحياة الأبدية» ويلمسها: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسناه أيدينا من جهة كلمة الحياة؛ فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا.» (١ يوحنا: ١٥ و١٦)

عاصر المنادة بالملكوت على يد المعمدان منذ أول لحظة وتفتحت أذناه على البشارة الأولى لعهد النعمة المجانية: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (١ يوحنا: ٢٩). لم ينسَ يوحنا قط هذه اللحظات الأولى من حياته وهو ينتقل من تحت يد المعمدان إلى تحت رجلي المسيح وهو ابن عشرين سنة، فظل محتفظاً بها في قلبه يرددها على مدى الليالي والسنين حتى سجلها وهو ابن مئة سنة (٣).

٣ - صفاته كما تظهر في الإنجيل:

يوحنا كباقي التلاميذ كلهم من الجليل، وإن كانت اليهودية هي الوطن الأصلي للعائلة - بيت لحم اليهودية. أما يهوذا الإسخريوطي فكان من اليهودية. ولو أن الجليليين كانوا في عُرف المتحذلقين من الفريسيين جهلة (أع: ٤: ١٣)، أي لا يجيدون حفظ تقاليد الربيين، إلا أنهم كانوا معروفين بغيرتهم الملتزمة ذوو بأس وأبطال لهم نفس مسحة أجدادهم الأوائل وروحهم المكافحة الوثابة. ونحن لا ننسى كيف اتحدت كلمتهم مرة أن يمسكوا المسيح بالقوة ويجعلوه ملكاً، لولا أنه خرج من وسطهم واختفى عنهم (١ يوحنا: ١٤ و١٥).

كان يوحنا واحداً من هؤلاء، إلا أن الإنجيل يذكر أن يوحنا كانت له صلة برؤساء الكهنة «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر (يوحنا) يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ معروفاً عند رئيس الكهنة» (١ يوحنا: ١٨: ١٥)، (التقليد في الكنيسة يشير إلى أنه كان كاهناً^٤)، مما يكشف عن المستوى الخاص الذي يلمح به يوحنا عن نفسه من جهة درايته بالشؤون الدينية العليا وسياسات رؤساء الكهنة وعن درايته التعليمية الخاصة. ومهنة الصيد لا تمنع أن يكون يوحنا كاهناً - كما يظن بعض المؤرخين - وأن يدرس تحت رعاية أمه سالومة التقية على أيدي معلمي اليهود. وبقيناً أنه تعلم كثيراً أثناء تلمذته للمعمدان عن كل ما يختص برجاء إسرائيل وملكوت الله الآتي سريعاً.

ولم يكن يوحنا فقط من الإثني عشر بل وكان أيضاً المحبوب من بين الثلاثة المختارين بطرس

(٣) القديس يوحنا ذهبي الفم يؤكد أنه كتب إنجيله وهو ابن مائة سنة وعاش بعدها عشرين سنة أيضاً:

Exell, Rev. J.S., The Biblical Illustrator, Saint John, London 1905, vol. 1, p. vii.

⁴ Euseb., Hist. Eccl., III, 31; V, 24.

ويعقوب ويوحنا. وإنه وإن ذكر على مدى الأحداث كآخر الثلاثة، إلا أنه في النهاية وعند الصليب انكشف سِرُّ العلاقة العظمى التي كانت تربطه بالرب، ومستوى الثقة التي لا تُحدُّ عندما تسلَّم من فم المسيح أغلى وديعة تركها المسيح على الأرض: «فلما رأى يسوع أمَّهُ والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه: يا امرأة هوذا ابْنُكَ. ثم قال للتلميذ هوذا أمُّكَ. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته.» (يو: ١٩: ٢٦ و٢٧)

وهنا يقول المؤرخ «فيليب شاف»^(٥) أنه يبدو أن القديس يوحنا كان يمتلك بيتاً خاصاً في أورشليم وهو الذي أخذ إليه القديسة مريم حالما سلَّمها له المسيح على الصليب، لذلك أيضاً لم يحضر القديس يوحنا ولا العذراء مريم مراسم دفن المسيح. وهنا يتحفنا العلامة أوريجانوس^(٦) في تأملاته بخصوص قول المسيح «هوذا ابنك» فيقول إن العذراء ليس لها إلا ابن واحد هو المسيح^(٧)؛ فبقول المسيح للعذراء «هوذا ابنك» فكأنه يقول لها عن يوحنا، وهذا هو المسيح!!، ثم يعود أوريجانوس ويقول: «أليس كلُّ من يحيا بتقوى المسيح يمكنه أن يقول أيضاً لستُ أحميا أنا بل المسيح يحيا فيّ؟» وهكذا يريد أوريجانوس أن يرفع من مرتبة القديس يوحنا كاتب إنجيل المسيح، وكأنه يقول أنه مع شركة سِرِّ الأُمِّ وبروح المسيح كتب يوحنا إنجيل المسيح، وهكذا كلُّ [من أراد أن يشرح هذا الإنجيل أو يفهمه فعليه أن يتكلم على صدر يسوع وأن يأخذ العذراء شفيعة].

ويوحنا هو التلميذ الذي اتكأ على صدر يسوع وعرف سِرَّ الخائن. فعندما خرج يهوذا في الظلام بعيداً عن قلب المسيح كان يوحنا في النور أقرب ما يكون من القلب المجروح يُطَيَّب بالأمانة جُرح الخيانة.

يوحنا عاين مع التلميذين الآخرين يوم التجلي وسمع الصوت من المجد الأسنى يشهد للإبن الحبيب. ولكن العجيب أن يوحنا لم يسجل في إنجيله حادثة التجلي متشبهاً بأنه كان يعيش التجلي كل يوم مع المسيح: «ورأينا مجده مجدداً كما لوحد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو: ١٤: ١٤). ويوحنا أيضاً أحد الثلاثة الذين رافقوا الرب مع باقي التلاميذ في جثسيماني وكانوا على قُرْب. ولكن لم يسمع أحد الصلاة التي صلاها وسجلها كلمة كلمة إلا يوحنا!!

ولكن يوحنا كان الوحيد الذي حضر كل محاكمات الرب عن قرب؛ ولا يفوتنا هنا أن ننوّه أن القديس يوحنا رافق الرب بشجاعة نادرة وجرأة وإقدام، فكان وهو في وسط المحاكمات

⁵ NPNF, 2nd series, vol. XIV, p. 4, note 9.

⁶ Origen, Comm. on John, ANF, vol. X, p. 300.

(٧) شهادة متقدمة من تقليد الكنيسة على أن المسيح لم يكن له أخوة من أمه.

والإتهامات في أمان كل الأمان ونجا. أما بطرس فرافق من بعيد والخوف والرعدة جعلاه يستبقي نفسه مع العبيد والخدم، وخوفه وبُعده عن الرب أوقعاه في الإنكار والتجديف. وسار القديس يوحنا في موكب الصليب والعذراء تتوسد كتفه حتى الجليظة، فاستحق أن يفوز بهذه الجوهرة في بيته. وتمّ رجاء سالومة أمه، فقد وقف عن يمين عرش الصليب في مُلكه الغالب! ولكن كم بكى وكم سألت الدموع! وظل يوحنا رابط الجأش يتأمل ملياً في معلّمه المصلوب ولكن دون أن تلمحه الأم الحزينة التي وقف يشاركتها وقفتها المصلوبة وقد جاز في قلبها السيف تماماً كنبوة سمعان الشيخ (لو: ٢: ٣٥).

يوحنا كان أول من نظر القبر فارغاً والأكفان وحدها موضوعة، فأمن أنه قام. يوحنا أول من تعرّف على الرب عندما ظهر بعد القيامة لتلاميذه على بحيرة طبرية (يو: ٢١: ٧). وهذا ليس بمجدح العين الفاحصة بل بالروح الكاشفة.

٤ - «بوانرجس»:

عجيب هذا الإسم الذي أعطاه الرب ليوحنا وأخيه يعقوب: «ابني الرعد» (مر: ٣: ١٧). فالمعروف عن «الرعد» أنه التعبير اليهودي عن صوت الله «إله المجد أردد» (مز: ٢٩: ٣)، وكان التسمية تحمل سر التعبير عن صوت أو كلمة الله. والمعروف أن المسيح شبّه نفسه أيضاً بالبرق «... كما أن البرق الذي يبرق من ناحية تحت السماء يضيء إلى ناحية تحت السماء كذلك يكون أيضاً ابن الإنسان في يومه» (لو: ١٧: ٢٤). ولا يمكن أن تبرق السماء دون أن ترعد. وهكذا تأتي التسمية بإحكام أن يوحنا ابن الرعد سيشهد للنور والكلمة.

وعجيب أن يشهد يعقوب للمسيح مبكراً، فكان بداية الرعد، إذ كان أول من استشهد من الرسل تحت سيف هيرودس «وفي ذلك الوقت مدّ هيرودس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة. فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف» (أع: ١٢: ١ و٢١). فطارت روحه ترعد بالشهادة في أنحاء السموات كلها. أما يوحنا فكان آخر دممة للعهد الرسولي أرعدت بالشهادة للنور ولا يزال صداها تتجاوبه السموات والأرض بإنجيله الحي حتى يجيء يوم البرق الموعود: «قال له (أي لبطرس الرسول) يسوع: إن كنتُ أشاء أنه (أي يوحنا) يبقى حتى أجيء فماذا لك؟...» (يو: ٢١: ٢٢). وإن وعد الرب ببقاء يوحنا حتى يجيء أليس يعني استمرار صوت إنجيل يوحنا الذي ما يكفُّ عن أن يرعد معلناً عن النور الحقيقي في العالم كله حتى اليوم وإلى النهاية؟

٥ - رسول المحبة:

هذا اللقب هو صدق لروح بشارته الملتبهة بالمحبة سواء في إنجيله أو رسائله. اسمعه يقرر: «كلُّ

من يجب فقد وُلد من الله ويعرف الله. ومن لا يجب لم يعرف الله، لأن الله محبة» (١ يوح٤ : ٨و٧). هكذا عاش يوحنا الرسول بهذا المفهوم اللاهوتي للمحبة معتبراً أن محبة المسيح هي الحياة الأبدية كمعادلة عملية لا تقبل النقاش: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة»، «من لا يحب أخاه يبق في الموت»، بل إن «كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه» (١ يوح٣ : ١٤و١٥). هكذا المحبة عند القديس يوحنا الرسول تعادل الحياة الأبدية بل وتعادل «النور»: «من قال إنه في النور وهو يبغض أخاه فهو إلى الآن في الظلمة. من يجب أخاه يثبت في النور وليس فيه عثرة.» (١ يوح٢ : ١٠و٩)

والمحبة عند القديس يوحنا الرسول ليست مسألة فكر أو عاطفة: «يا أولادي لا تحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق. وهذا نعرف أننا من الحق ونسكن قلوبنا قدامه.» (١ يوح٣ : ١٩و١٨)

أما مصدر المحبة العامل والمتأجج في القلب فصدره الوحيد محبة الله التي استعلنت بجميـء المسيح: «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١ يوح٤ : ٩). وكان عمل محبة الله في حياتنا متركزاً ومتأسساً في رفع قوة الخطية المميتة عن طبيعتنا: «في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحبنا الله (أولاً) بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا» (١ يوح١٠ : ١٠). لهذا أصبحت المحبة تعني رباط الحياة، أو شركة في عدم الموت! «نحن نحب لأنه هو أحبنا أولاً.» (١ يوح٤ : ١٩)

أما أي من الإثنين أولاً، هل نحب الله أم نحب الإخوة؟ فيرد يوحنا على ذلك هكذا: «ولنا هذه الوصية منه أن من يحب الله يجب أخاه أيضاً» (١ يوح٤ : ٢١)، ولكن هو نفسه يقول: «من لا يحب أخاه الذي أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره» (١ يوح٤ : ٢٠). بمعنى أن النجاح في محبة الإخوة دليل على النجاح في محبة الله. هكذا يضع القديس يوحنا الطريق العملي للمحبة ويكشف سرها العجيب أنها دائماً تبدأ من الله وإلى الله لتفيض على الآخرين.

وإن هذين اللقبين «ابن الرعد» و«رسول المحبة» يظهران بصورة واضحة في حياة القديس يوحنا الرسول، فرة نجاهه في غيرته وحماسه للرب يسأل — بصفته ابن الرعد — أن ناراً تنزل من السماء لتفني أهل السامرة حينما رفضوا أن يعبر الرب في أرضهم وهو متجه إلى أورشليم (لو٩ : ٥٣و٥٤). ثم هو نفسه وبغيرته نفسها — بصفته ابن المحبة ورسولها — يذهب بعد ذلك مغلوباً من محبته إلى أهل السامرة أنفسهم ليكرز لهم ويهبهم الشفاء والعماد وإعطاء موهبة الروح القدس «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا اللذين لما

نزلاً صلّياً لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس، لأنه لم يكن قد حلَّ بعد على أحد منهم. غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع. حينئذٍ وضع الأيدي عليهم فقبلوا الروح القدس.» (أع ٨:

١٤-١٧)

كما يظهر تبادل انطباع هذين اللقبين في كل مواقف كتاباته، فإن أشدَّ وأعنف مواقف المسيح مع أعذب وأرقِّ مجاملاته وتعاليمه يجمعها معاً في سهولة ويُسرٍ. فخير عرس قانا الجليل بلطفه وبركاته المشبَّعة بروح المجاملة والإيناس استطاع أن يجمعه القديس يوحنا في أصحاب واحد مع خبر تطهير الهيكل تلك العملية العنيفة التي استلزمت استخدام السياط وقلب موائد الصياقة وتوبيخه الصارم لحفظة الهيكل ورؤسائه.

وحتى سفر الرؤيا المملوء بالرعود والبروق والويلات لا يعدم مواقف للسلام ونشيد الراحة مع صورة مشرقة للسماء الجديدة والأرض الجديدة ونهر الحياة البللوري وأورشليم العروس المزينة لعريسها وانتهاء عهد الحزن والكآبة والتنهّد.

٦ - القديس يوحنا الرسول كما يظهر في سفر أعمال الرسل:

أصبح القديس يوحنا معتبراً في الكنيسة الأولى أحد الأعمدة الثلاثة: بطرس ويعقوب ويوحنا. أما عمله في هذه الفترة الأولى من حياة الكنيسة فيكاد يكون بلا مظهر براق مع أنه كان من أهم وأخطر الأعمال التي قام بها الرسل المسئولون بالنسبة للكنيسة الخالدة على عمر الدهور وهو التوفيق بين كنيسة الختان (اليهود) وكنيسة الغزلة (الأمم) ووضع الأساس اللازم للداخلين إلى الإيمان من الأمم. ويذكر ذلك القديس بولس الرسول: «فإذ علم بالنعمة المعطاة لي يعقوب وصفا ويوحنا المعتبرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا يمين الشركة لنكون نحن للأمم وأما هم فللختان» (غل ٢: ٩). وهذه إشارة إلى تبادل أسس الإيمان بين القديسين يوحنا وبولس وبطرس.

ويقدّم سفر الأعمال يوحنا الرسول باعتباره الشخصية الثانية بعد بطرس الرسول في قوة البشارة وإتيان الأشفية والعجائب وقيادة كنيسة المسيحية الأولى. وهكذا أيضاً اعتبره سنهدريم اليهود حينما قبضوا على القديسين بطرس ويوحنا للمحاكمة، ولكنها أفحماهم بإجابات قاطعة فأطلقوهم. «فدعوهم وأوصوهم أن لا ينطقا البتة ولا يُعلّموا باسم يسوع. فأجابهم بطرس ويوحنا وقالوا إن كان حقاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا. لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا. وبعد ما هدّدوهم أيضاً أطلقوهم إذ لم يجدوا البتة كيف يعاقبونها بسبب الشعب. لأن الجميع كانوا يمجّدون الله على ما جرى. لأن الإنسان الذي صارت فيه آية الشفاء هذه كان له أكثر من أربعين سنة.» (أع ٤: ١٨-٢٢)

وقد تصدر القديس يوحنا مع القديس بطرس أول إرسالية للكنيسة خارج أورشليم: «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا» (أع: ٨: ١٤). وعاد القديس بطرس مع القديس يوحنا إلى أورشليم مركز كرازتها: «ثم إنها بعد ما شهدا وتكلمتا بكلمة الرب رجعا إلى أورشليم وبَشَّرَا قَرَى كثيرة للسامريين» (أع: ٨: ٢٥). ولكن عند هذه الإشارة يتوقف سفر أعمال الرسل عن متابعة رسالة القديس يوحنا. إذ يبدو أنه غادر أورشليم حوالي سنة ٤٩ م.^(٨) أي بعد مجمع الرسل الأخير الذي حضره جميع الرسل والمشايع وكل الكنيسة (أع: ١٥: ٢٢ و٣٢؛ غل: ٢: ٩). إذ لا نسمع عنه عند زيارة القديس بولس الرسول إلى أورشليم في المرة الخامسة والأخيرة التي حدثت سنة ٥٨ م.، وربما يكون ذلك بسبب نياحة القديسة العذراء مريم، لأنه معروف في التقليد أنها تنيحت حوالي سنة ٤٨ م.، بينما غادر هو أورشليم بعد نياحتها مباشرة^(٩)، وربما يكون قد ذهب إلى أنطاكية ومكث هناك مدة قبل استدعائه إلى أفسس^(١٠).

٧ - القديس يوحنا الرسول في أفسس:

سفر الرؤيا يقدم لنا تأكيداً قاطعاً أن القديس يوحنا الرسول كان على رأس كنيسة أفسس، وكان مسؤولاً أمام الله عن جميع كنائس آسيا السبع في ذلك الوقت: «يوحنا إلى السبع الكنائس التي في آسيا»، «وسمعت ورأيت صوتاً عظيماً كصوت بوق»، «الذي تراه أكتب في كتاب وأرسل إلى السبع الكنائس التي في آسيا، إلى أفسس وإلى سميرنا وإلى برغامس وإلى ثياتيرا وإلى ساردس وإلى فيلادلفيا وإلى لاودكية.» (رؤ: ١: ٤ و١٠ و١١ وراجع رؤ ٢ و٣).

وقد شهد جميع الآباء القديسين الأوائل بهذه الحقيقة، وبأن القديس يوحنا قضى أيام حياته الأخيرة في أفسس؛ أمثال القديس إيرينيئوس^(١١) وهو تلميذ القديس بوليكرابوس الأسقف الشهيد والذي كان تلميذاً للقديس يوحنا الرسول سنين طويلة؛ والعلامة اكليمنديس الإسكندري يؤكد أن القديس يوحنا الرسول رُسم أسقفاً على كل نواحي آسيا^(١٢)، والعلامة أوريجانوس والعلامة ترتليانوس والمؤرخ يوسابيوس والقديس جيروم، هؤلاء كلهم شهدوا شهادة قاطعة أن القديس يوحنا الرسول عاش في أفسس حتى زمن حكم تراجان (٩٨-١١٧ م). فإذا علمنا أن القديس يوحنا يصغر الرب بعشر سنوات فإن سني حياة يوحنا الرسول تكون حوالي ٩٠ سنة. ولكن القديس يوحنا ذهبي الفم يؤكد - من جهة أخرى - أنه عاش ١٢٠ سنة.

⁸ Daniélou, Jean, Christian Centuries, translated from French "Nouvelle Histoire de l'Eglise", New York, 1964, p. 41.

⁹ Ph. Schaff, History of the Christian Church, I, p. 424.

¹⁰ Temple, William, Readings in St. John's Gospel, London 1952.

¹¹ Adv. Haer. III, 1,1; 3,4; II, 22,5; Epiph. Haer. XXX, 24.

¹² Daniélou, Jean, op. cit., I, p. 41.

ولكن لم يتعرف المؤرخون المدققون على السنة التي دُعي فيها القديس يوحنا إلى أفسس ولكنهم استقروا جميعاً على أنها ليست قبل سنة ٦٣ م. لأنه حتى هذا التاريخ كان القديس بولس الرسول لا يزال حياً وعلى صلة بأفسس، ولم يُذكر في أيِّ من رسائله ما يدلُّ على أن القديس يوحنا قد وصل إلى هناك.

ويُظن أن استشهاد القديسين بطرس وبولس هو الذي دفع القديس يوحنا لتبني كنائس آسيا المترسلة، بحسب ترتيب الله ودعوته لإنقاذ هذا البناء الروحي الضخم الذي شيده القديس بولس الرسول بالجهد والدموع والآلام التي لا حصر لها قرابة ٣٠ سنة، والذي كان هدفاً لهجمات شريرة مفسدة من اليهود الدخلاء والوثنيين المترصين للانتقام لأهتهم المدحورة.

وأفسس كانت في ذلك الوقت عاصمة آسيا الصغرى ومركزاً للثقافة اليونانية وللتجارة والدين أيضاً، فكان بها أكبر جالية يهودية مستوطنة منذ أن تفرقوا بعد السبي من بلاد ما بين النهرين. وقد وصف القديس يوحنا مجتمعه بمجمع الشيطان (رؤ ٢: ٩). كما كان بها هيكل أرتاميس المشهور مركز عبادة «ديانا». وكانت أفسس ذائعة الصيت بسبب اشتغال شعرائها بأغاني هوميروس وفلسفة طاليس وأناكسيمينوس وأناكسيماندر.

وقد ظل القديس بولس يخدم فيها ثلاث سنوات متتالية من سنة ٥٤ إلى سنة ٥٧ م. حتى أسس فيها كنيسة مركزية ظلت مصدراً للإشعاع في كل ظلمات آسيا الوثنية قروناً عديدة وهي التي كانت تباشر رعاية الكنائس الفرعية في البلاد الأخرى المتاخمة.

وفي ذلك يقول الوثنيون أنفسهم كما سجل عليهم ذلك سفر الأعمال: «... إنه ليس من أفسس فقط بل من جميع آسيا تقريباً استمال وأزاع بولس هذا جمعاً كثيراً قائلاً: إن التي تُصنع بالأيدي ليست آلهة، فليس نصيبنا هذا وحده في خطر من أن يحصل في إهانة بل أيضاً هيكل أرتاميس الإلهة العظيمة أن يُحسب لا شيء وأن سوف تُهدم عظمها هي التي يعبدها جميع آسيا والمسكونة.» (أع ١٩: ٢٦-٢٧)

وهكذا مهَّد القديس بولس الرسول آسيا الصغرى كلها لتكون إِبَارَشِيَّة صالحة تقبل خدمة القديس يوحنا الهادئة العميقة، وذلك بأن مهَّد الفكر الفلسفي لتقبُّل حقائق لاهوت المسيح - كما جاء في إنجيل يوحنا - مع المبادئ الروحية العميقة التي كان يستحيل أن تجد في ربوع فلسطين التربة التي تخصب فيها وتنمو. لذلك أصبحت أفسس بالنسبة لخدمة القديس يوحنا أعظم مركز يمكن أن يُطلَّ منه على كل العالم المسيحي لا من جهة جغرافيتها المكانية الملائمة فقط بل وأيضاً من

جهة تزعمها لكل التيارات العنيفة المعادية للمسيحية سواء كانت يهودية أو وثنية بأن واحد، إذ كانت أفسس أم البدع التي لا حصر لها ومهبط كل التعاليم الفاسدة.

لذلك كان تقلد القديس يوحنا لهذه الأسقفية عملاً إلهياً محكماً. وهذا يبدو بصورة أوضح لو علمنا أن هذا قد تم قبيل خراب أورشليم وسقوطها بسنوات قليلة. وهكذا انتقلت القيادة الرسولية انتقالاً هادئاً طبيعياً من أورشليم — موطن اليهودية الذي كان يضغط بشدة على المسيحية المتفتحة حديثاً — إلى أفسس حيث البيئة المتفتحة الخصبه المهية نمو حقائق الروح المسيحية العميقة. وظلت أفسس تنبض بالروح الرسولية الحرة بأنفاس يوحنا إنما تحتفظ شديد حتى نهاية القرن الأول أو أكثر قليلاً. ومن بعد القديس يوحنا استلم هذه الروح تلميذه القديس بوليكاربوس الذي كان أسقفاً على سميرنا (١١٠—١٥٥ م.)، ثم القديس إيرينيئوس الذي استمد دفاعه عن الإيمان من روح يوحنا وإنجيله قبل أن ينتقل إلى أسقفية ليون بفرنسا.

وإنجيل يوحنا ورسائله يعتبران المصدر الوحيد للتعرف على حالة المسيحية والكنيسة على مدى أربعين سنة تقريباً أي منذ استشهاد القديس بولس الرسول حتى ختام القرن الأول^(١٣)، والتي لولاها لظلت هذه الحقبة مظلمة في صفحات التاريخ الكنسي.

٨ — ترتيبات طقسية يقوم بها القديس يوحنا الرسول

في كنيسة أفسس:

إن الكنائس التي أنشأها القديس بولس الرسول في أفسس لم تحتفظ من جميع الإحتفالات الكنسية الطقسية إلا بطقس خدمة السواعي، وطقس شركة كسر الخبز أي سر الإفخارستيا والصلاة كل يوم أحد من كل أسبوع^(١٤)، والعماد طبعاً. ثم يسجل لنا المؤرخ الكنسي يوسابيوس نقلاً عن القديس بوليكراتس أسقف أفسس في نهاية القرن الثاني أنه بمجيء القديس يوحنا الرسول تثبت الإحتفال السنوي بطقس عيد الفصح، أي القيامة، إنما بالمعنى المسيحي الكامل. وقد حدد له الرسول اليوم الرابع عشر من نيسان كما هو تماماً في الطقس اليهودي^(١٥) — وذلك بخلاف جميع كنائس العالم آنئذ وبعده التي رفضت أن يكون عيدها الفصحى مع اليهود^(١٦) — ولكن ليس بالمعنى ولا بالممارسة اليهودية، فالقديس يوحنا الرسول لم يكن يرى في طقوس اليهود وأعيادهم أي

¹³ *Iren., Adv. Haer. II.22.5.*

¹⁴ *Neander, Aug., General History of the Christian Religion and Church, Transl. by J. Torrey, Vol. I, Edinburgh 1874, p. 388.*

¹⁵ *Hist. Eccl., III.31; V.24.*

(١٦) وقد صارت أسقفيات الكنائس في العالم تعيد للفصح في الأحد الأول بعد ١٤ نيسان.

معنى مسيحي . ولكن كان العامل الأول لتحديد هذا اليوم بالذات هو الذكرى المقدسة لليوم الذي تألم فيه الرب ودُبح وصار فصحاً أبدياً . فهذا وحده هو الذي كان يملأ كل قلبه وإحساسه .

كذلك يقول القديس بوليكراتس إن القديس يوحنا الرسول عيّد للعنصرة الذي هو عيد الخمسين على أن يكون في اليوم الخمسين تذكراً أبدياً لحلول الروح القدس على الكنيسة (١٧) . علماً بأن إنجيل يوحنا هو الإنجيل الذي اهتم اهتماماً بالغاً بموضوع إرسال الروح القدس وإعطائه اسمه «الباراكليت» وصفاته وأعماله أي وظائفه في الكنيسة . وقد أسهب الإنجيل في موضوع شهادته للمسيح وتمجيده بصورة كبيرة . وطبعاً كان القديس يوحنا يكتب بعد حلول الروح القدس وعمله واستعلان قوته على مدى أكثر من خمسين سنة ، فجاء الوصف مطابقاً للواقع وخصوصاً لدى القديس يوحنا الذي كان ممتلئاً وفائضاً من نعمته .

كما يصف المؤرخ الكنسي يوسابيوس نقلاً عن بوليكراتس أسقف أفسس (١٨) أن القديس يوحنا الرسول كان كاهناً (إپريزيتروس πρεσβύτερος) ، وكان يحتفظ بملابس للخدمة الكنسية وكان يلبس الصدر المقدسة على طقس نظام خدمة رؤساء الكهنة في العهد القديم (١٩) . وهذا يرجح ما جاء في سفر الرؤيا أصحاح ١٧:٢ .

ومن عدة ملابس يمكننا أن نتأكد من صحة تقرير القديس بوليكراتس من جهة كهنوت القديس يوحنا . فنحن نعرف أن أمه اسمها سالومة (٢٠) وهي أخت القديسة مريم العذراء (٢١) ، كما نعلم أن العذراء القديسة مريم هي نسيبة أليصابات (لوقا: ٣٦: ١٠) ، وأن زوج أليصابات هو الكاهن زكريا (لوقا: ٥: ٥) ، أي أن هناك صلات قوية للقديس يوحنا بالكهنوت والهيكل . ومن هنا جاءت معرفة القديس يوحنا برؤساء الكهنة وحضوره في دار رئيس الكهنة محاكمة المسيح دون التلاميذ جميعاً (يوحنا: ١٥: ١٨) ، كما يتضح لنا سبب وصية المسيح على الصليب للقديس يوحنا أن يعتني بالعذراء أمه كأُم له (يوحنا: ١٩: ٢٥-٢٧) فهي خالته .

كذلك نفهم سراً تركيز القديس يوحنا على خدمة المسيح في اليهودية وأورشليم دون بقية الأناجيل لأن العائلة كلها سواء العذراء أو يوحنا هما من اليهودية — بيت لحم (٢٢) .

17 Neander, op. cit., p. 391.

18 Eccl. Hist., III,31; V,24.

19 Ibid., V, 24,3.

(٢٠) أنظر صفحة ٢٨ .

(٢١) أنظر صفحة ٢٨ .

22 Raymond E. Brown, The Gospel acc. to John, p. xcvi.

كما نفهم سيرَّ انفراد القديس يوحنا بذكر المعجزات التي تمت في اليهودية وأورشليم، إذ أنه كان مرافقاً دائماً للمسيح هناك.

كما نفهم سيرَّ التقليد القديم في إنجيل يوحنا، أي الأقدم من المسجّل في الثلاثة الأناجيل، لأن القديس يوحنا التحق بتلمذة المسيح مبكراً جداً أثناء وجود المسيح في اليهودية مع يوحنا المعمدان، ولأن القديس يوحنا انتقل من التلمذة ليوحنا المعمدان إلى التلمذة للمسيح (يو: ٣٥-٣٩)، حيث كان المسيح يسكن في اليهودية: «فأتيا ونظرا أين كان يمكث.» (يو: ٣٩)

كما نفهم أيضاً سيرَّ تركيز القديس يوحنا على ذكر شهادة المعمدان بدقة وإسهاب دون الثلاثة الأناجيل لأن القديس يوحنا كان تلميذاً للمعمدان ورأى وسمع كلَّ ما قاله المعمدان عن المسيح. كما نفهم سيرَّ المركز العالي الذي كان يحتله القديس يوحنا مع أخيه القديس يعقوب بصفتها من عائلة كهنوتية ومع القديس بطرس الرسول في الكنيسة الأولى في أورشليم، دون بقية الرسل، كأعمدة للكنيسة؛ إذ يقول القديس بولس الرسول عندما ذهب إلى أورشليم ليعرض خدمته على الكهنة وليأخذ منهم سلطان الخدمة هكذا: «ثم بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضاً إلى أورشليم مع برنابا آخذاً معي تيطس أيضاً... وعرضتُ عليهم الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم، ولكن بالإنفراد على المعتبّرين... (فهؤلاء) المعتبّرون... يعقوب وصفا ويوحنا المعتبّرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا ميين الشركة...» (غل: ٢: ١-١٠)

كما نفهم سيرَّ تسجيل القديس يوحنا لتقرير مجمع السهديم ونبوة رئيس الكهنة قيافا كلمة كلمة (يو: ١١: ٤٧-٥٠) باعتباره واحداً من عائلة زمرة الكهنوت.

ويعود القديس إبيفانيوس أسقف قبرص ويردد لنا حقيقة استخدام القديس يوحنا للملابس الكهنوتية نقلاً عن القديس هيچسبوس. ويتفق المؤرخون الكنسيون دين ستانلي (٢٣) ولايتفوت (٢٤) وفيليب شاف (٢٥) أن هذه الإشارة تُعتبر أقدم وثيقة عن قدسية الملابس الكهنوتية المستخدمة في الكنيسة الآن.

٩ - رعاية القديس يوحنا لأسقفية:

ينقل لنا العلامة اكليمنديس الإسكندري (نهاية القرن الثاني) (٢٦) صورة مبدعة للقديس يوحنا

²³ Stanely, A.P., Sermons and Essays on the Apostolical Age, 1847, p. 285.

²⁴ Lightfoot, J.B., The Epistle of St. Paul to the Galatians, Zondervan, 1962, p. 362.

²⁵ Schaff, Philip, op. cit., p. 431.

²⁶ Clement of Alex., What Rich Man, 42; Cited by: Eusebius, Hist. Eccl. III, 23.

الرسول كأسقف حاراً بالروح وخادم خلاص أمين على نفوس رعيته، فيقص لنا كيف أنه حتى بعد أن صار متقدماً في السن كان يطوف بالكنائس يزور رعيته ويفتقدهم ويسأل عن التائبين الذين تابوا على يديه. ويقصُّ ضمناً قصة الشاب الذي ضلَّ بعد توبته، وكان قد سلَّمه لكاهن المدينة لرعايته، فصار لَصاً خطراً. فلما علم بذلك لم يرحم شيخوخته بل ذهب يبحث عنه في الجبال حتى وجده. فلما حاول الهرب منه جرى وراءه حتى لحق به وأعادته إلى حظيرة الإيمان مرة أخرى. هكذا كان القديس يوحنا الرسول نموذجاً لخدمة الأسقف.

وينقل لنا كلُّ من القديس إبيفانيوس^(٢٧) والقديس إيرينيئوس^(٢٨)، وذلك على لسان القديس بوليكاربوس أسقف أزمير الشهيد، قصة واحدة عن أن القديس يوحنا تقابل مرة مع أحد المراطقة، وهو كيرنثوس الذي كان ينكر التجسد ولاهوت المسيح، تقابل معه في حمام عمومي وتحت سقف واحد، فرفض أن يبقى معه في الحمام لئلا يسقط السقف بسبب غضب الله. وبالفعل فإنه بعد خروج القديس يوحنا سقط السقف على مَنْ فيه. وهذا السلوك الذي اتَّبعه القديس يوحنا مع كيرنثوس يتوافق مع دعوته في رسالته: «إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلامٌ. لأن من يسلم عليه يشترك في أعماله الشريرة» (٢ يوحنا ١٠ و١١). وهذا بدوره يتفق مع الآية: «إن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة.» (١ كورنثوس ١٥: ٣٣)

كما ينقل لنا يوسابيوس القيصري على لسان أبولونيوس الكاتب الكنسي الذي يُظن أنه كان أسقفاً على أفسس، خبر معجزة أجراها القديس يوحنا الرسول إذ أقام ميتاً بمعونة القوة الإلهية في مدينة أفسس^(٢٩).

وهناك تواتر في التقليد الكنسي المبكر قد وصل إلينا عن طريق العلامة تروتليانوس يفيد بأن القديس يوحنا قد أُلقي في غلاية بها زيت مسخن إلى درجة الغليان ولكنه نجا منها بمعجزة^(٣٠).

كما ينقل لنا القديس جيروم^(٣١) صورة عن القديس يوحنا الرسول وهو يمارس خدمة المحبة حتى آخر لحظة من حياته وكان قد بلغ الشيخوخة. فكان يحمله تلاميذه على أذرعهم ذاهبين به إلى الكنيسة ليقول عظته القصيرة التي كان يكررها بلا ملل: «يا أولادي الصغار أحبوا بعضكم بعضاً. هذه وصية الرب. وإذا عملتم بها وحدها فهذا يكفيكم.»

27 Adv. Haer. XXX,24.

28 Adv. Haer. III,3,4.

29 Euseb. Hist. Eccl. V, 18,4.

30 Tertullian, Praescrip. Haer. 36.

31 Comm. ep. ad. Galat. VI:10.

كما يعطينا الراهب كاسيان (٣٢) (حوالي ٣٦٠-٤٣٥ م.) صورة وديعة عن القديس يوحنا الرسول تكشف لنا عن نموذج حياته البسيطة واتساع إدراكه لمتطلبات النفس البشرية، فيقصُّ علينا كيف مرَّ بالقديس يوحنا يوماً من الأيام صيَّاداً يصطاد بسهم وقوس، فوجد القديس يوحنا يلعب طائراً صغيراً فاندھش، فابتدعه القديس قائلاً: «لماذا يدھشك أسلوبي البسيط في الترويح عن النفس والعقل الذي بدونه تتأذى الروح من الضغط والإرهاق؟ هل يمكنك أن توتّر قوسك وتتركه هكذا دون أن ترخيه؟» فأجابه الصياد: «إنه يتلف». فقال له القديس يوحنا: «وهكذا ذهن الإنسان أيضاً».

ومن رسائل القديس يوحنا الرسول ندرك مدى قرب هذا الرسول المحبوب من شعبه بصورة فريدة لم نلاحظها قط في رسول قبله بترديده: «أكتب إليكم أيها الأولاد» ... «أكتب إليكم أيها الآباء» ... «أكتب إليكم أيها الأحداث» (١ يو٢: ١٣ و١٤) ... «أيها الأولاد هي الساعة الأخيرة... والآن أيها الأولاد اثبتوا فيه» (١ يو٢: ١٨ و٢٨)، وكأنه بذلك يعكس روح المودة التي لمسها في الرب يسوع في تعامله مع التلاميذ في أيامه الأخيرة: «يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد.» (١ يو١٣: ٣٣)

١٠ - القديس يوحنا في جزيرة بطمس:

مؤثراً للغاية مطلع رسالته الرؤيوية هكذا: «أنا يوحنا، أخوكم وشريككم في الضيقة وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره، كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بظْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح.» (رؤ١: ٩)

وتقع جزيرة بطمس في بحر إيجه في الاتجاه الجنوبي الغربي من أفسس. وهي جزيرة صخرية قاحلة ما تزال قائمة حتى الآن تحمل الشهادة لصدق الإنجيل والرأي. وكلُّ مَنْ فيها وما فيها يشهد للقديس يوحنا حتى جبالها وصخورها والمغارة العميقة في سفح أحد الجبال الشمالية المنفردة حيث رأى القديس يوحنا رؤياه، وحيث قامت هناك الآن مئات الكنائس وبيوت كثيرة سكانها عُشاق لسيرة القديس يوحنا الرسول. وقد سمعت من أحد السائحين أن كل بيت يحتفظ بمبخرة يملأونها بخوراً كل صباح ويفتحون النوافذ المطلَّة على المغارة ويبخرون بخوراً مع صلوات عطرة تشفُّعاً بصلوات صاحب الرؤيا والإنجيل.

أما الزمان الذي نُفي فيه القديس يوحنا إلى هذه الجزيرة فغير محقَّق تاريخه، ولكن معظم

³² John Cassian, Conference XXIV,21.

المؤرخين يؤكدون أنه كان حوالي سنة ٩٥ ميلادية، ومنهم جيروم ويوسابيوس وبالأكثر إيرينيوس (١٣٠-٢٠٠م.) الذي يقول بأن نفي القديس يوحنا كان في أواخر حكم الإمبراطور دوميتيان (تولى الحكم من ٨١-٩٦م.). ولكن العالم «وستكوت» وهو مؤرخ وعالم لاهوتي يرى أن مضمون سفر الرؤيا يفيد أن النفي كان قبل خراب أورشليم أي قبل سنة ٧٠م. والمعتقد أنه بمجرد موت دوميتيان (سنة ٩٦) عاد القديس يوحنا إلى أفسس وكتب بعد ذلك إنجيله.

١١ - تلاميذ القديس يوحنا الإنجيلي:

يعرّفنا التقليد الكنسي المبكر أن تلاميذ القديس يوحنا الرسول ثلاثة هم: القديس إغناطيوس والقديس بوليكاربوس والقديس پاپياس (٣٣).

أ - القديس إغناطيوس: وقد سُجِّل في رواية استشهاده أنه «تلميذ يوحنا الرسول ورجل له كل الصفات الرسولية». وينص التقليد الكنسي أنه هو الولد الصغير الذي قرّبه إليه الرب (وربما حمله على ذراعه) في وسط التلاميذ كرمز للتواضع، ولهذا سُمِّي حامل الإله «ثيوفوروس» θεόφορος. وقد صار أسقفاً للكنيسة السريانية بأنطاكية. وتقبَّل الإستههاد على يدي تراچان الإمبراطور، في روما حيث أُلقي للأسود.

ب - القديس بوليكاربوس: يقول عنه القديس إيرينيوس إنه تعلّم على يد الرسل وكان رفيقاً لكل من رأوا المسيح. وكان بحسب قول القديس إيرينيوس هو أسقف أزمير (سميرنا). ولما أمر قبل استشهاده أن يحلف باسم الإمبراطور ويحشد المسيح قال قولته المشهورة: «سنة وثمانين عاماً خدمت المسيح ولم يسيء إليّ قط، فكيف أجدد ملكي ومخلّصي؟» وفي وسط هيب النار التي أُلقي فيها سبح الله قائلاً: «أشكرك لأنك حسبتني أهلاً أن أكون شريكاً في عداد شهدائك الذين شربوا من كأس مسيحك لقيامه الحياة الأبدية للنفس والجسد في عدم الفساد بروحك القدوس.» (٣٤)

ج - القديس پاپياس: وهو أسقف كنيسة هيرابوليس بفريجية مكان ميلاد القديس إبيكتاتيس. ويقول عنه القديس إيرينيوس (٣٥) إنه من الأقدمين الذين استمعوا لتعاليم القديس يوحنا الإنجيلي، وهو رفيق لبوليكاربوس واستمع لكل من استمع للمسيح مباشرة. وقد جمع خمسة

33 Exell, Rev. Joseph S., op. cit., p. viii.

(٣٤) رسالة أهل سميرنا عن استشهاده لبوليكاربوس - فصل ١٤.

35 Adv. Haer. V,33,4.

كتب من أقوال الرسل والذين رافقوا المسيح ولم يتبقَّ منها إلا قصاصات. كما أنه هو الذي قال إن القديس مرقس الرسول كتب إنجيله عن إملاء من فم القديس بطرس. وهو الذي بلَّغنا أن القديس متى الإنجيلي كتب إنجيله باللغة العبرية. وقد استشهد في نفس الوقت مع القديس بوليكارپوس^(٣٦).

١٢ - «يبيق إلى أن أجيء»:

قول المسيح هذا الذي خاطب به بطرس الرسول: «فلما رأى بطرس هذا (يوحنا) قال ليسوع: يا رب. وهذا (يوحنا) ما له (أو ما الذي سيصيبه)؟ قال له يسوع: إن كنتُ أشاء أنه يبقَى حتى أجيء فإذا لك؟ اتبعني أنت! فذاع هذا القول بين الإخوة إن ذلك التلميذ لا يموت...» (يو ٢١: ٢٣-٢١)؛ على هذه الرواية تألفت مئات القصص وقد قرأت منها الكثير الذي يحكي أن يوحنا لا يزال يعيَش. ولكن أطرف ما قرأت هو هذه الرواية، وقد وردت في أخبار أيام «يوحنا برومتون» كما يقصها كتاب:

The Biblical Illustrator, Saint John, by Rev. Joseph S. Exell, p. IX.

[حدث في أيام ملك إنجلترا المشهور القديس إدوارد الثامن المعترف (١٠٠٣-١٠٦٦ م.) (٣٧) وهو قديس قنَّته الكنيسة الإنجليزية سنة ١١٦١ م. وتعيَّد له في ١٣ أكتوبر من كل سنة، أن كان يسير بعد خروجه من الكنيسة عقب الإحتفال بعيد القديس يوحنا الإنجيلي. وكان هذا الملك التقي يوفِّر القديس يوحنا بعد الرب يسوع والعدراء مريم، وكان ذلك في دير وستمينستر. وإذا بشحاذ يعترضه وطلب منه حسنة على اسم المسيح ومحبة في القديس يوحنا الإنجيلي. وكان الملك بطبعه كثير العطف على الفقراء. ففي الحال خلع خاتمه الملكي من أصبعه وأعطاه له دون أن يراه أحد. وبعد أن حكم الملك إدوارد أربعاً وعشرين سنة حدث أن إنجليزيَّين كانا يججَّان في أورشلِيم في الأرض المقدسة. ولما همَّما بالرجوع إلى وطنها إنجلترا قابلهما سائح. وكعادة السَّواح استفسر منهما عن وطنها، فقالا له إنها من إنجلترا، فقال لهما: «عندما تعودان إلى بلدكما اذهبا إلى الملك إدوارد وبلِّغاه السلام باسمي واشكراه على الحسنة التي أعطاني إياها في الشارع الفلاني في وستمينستر، لأنه حدث في يوم أني طلبت منه حسنة فأعطاني خاتمه هذا (يبدو أن اسم الملك كان منقوشاً على الخاتم). وقد احتفظت به حتى اليوم، والآن احمله إليه وقولا له إنه بعد ستة أشهر من اليوم سوف يغادر

³⁶ Exell, Joseph, loc. cit.

(٣٧) ورد اسم هذا الملك القديس وتاريخ حياته الحافل بأعمال القداة وتلقيبه بالمعترف وتقنيته قديساً للكنيسة الإنجليزية في

قاموس: Oxford Dict. of Chr. Church, Cross, p. 439.

العالم وينضم إليّ ليكون معي إلى الأبد». فاندھش السائحان وقالوا له: «ومَنْ أنت؟ وأين تسكن؟»، فأجابها قائلاً: «أنا يوحنا الإنجيلي، وإدوارد ملككم هو صديقي، ولأجل قداسة حياته أعتبره عزيزاً عندي، فاذهباً وبلغاه هذه الرسالة وأعطياه الخاتم على أني سأصلي لله من أجله». واستلم الملك الرسالة والخاتم بابتهاج وأكرم السائحين الإنجليزيتين وعمل لهما وليمة ملكية. وابتدأ يعدُّ نفسه للرحيل. وفي عشية عيد ميلاد سنة ١٠٦٦م. مرض، وفي عشية عيد الظهور الإلهي أي «الغطاس» لنفس السنة توفي. أما الخاتم فسلمه لرئيس رهبان دير وستمينستر ليحفظه كأثر هناك. [



الفصل الثاني

ظروف وملابسات كتابة إنجيل يوحنا وزمانها

١ - شهادات من التقليد الكنسي المبكر:

بحسب التقليد الذي استلمته الكنيسة الأولى وفي أول عصورها، فإن القديس يوحنا الرسول ابن زبدي أخا يعقوب الكبير هو الذي كتب الإنجيل الرابع في سنّ شيخوخته الأخيرة وذلك في مدينة أفسس بآسيا الصغرى وذلك في نهاية القرن الأول.

وسنقّم فيما يلي أقدم الشهادات التي وصلت إلينا من التقليد الكنسي المبكر عن نسبة هذا الإنجيل للقديس يوحنا الرسول:

أ - معروف أن علم اللاهوت الكنسي المهتم بفحص قضايا الإنجيل واللاهوت عامة يتبدىء بالقديس إيرينيوس أسقف ليون الذي عاش وترى في سني حياته الأولى في آسيا الصغرى وترى تحت يدي القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا (أزمير الآن). فهو مواطن أزميري. عاش ما بين عام ١٣٠ إلى ٢٠٠ م. ويُعتبر وُصلة هامة بين الشرق والغرب. وأهم مغلّقاته كتابه المعروف بـ «ضد الهرطقات» والذي فيه استخدم إنجيل يوحنا في دفاعه ضد الغنوسية والتي كان أهم زعمائها «قالنتينوس»، وضد المونتانيين، وقد كتبه سنة ١٨٠ م. وهو الذي سجل أن الإنجيل الرابع هو من عمل القديس يوحنا الرسول حيث قال: (ويسجل المؤرخ يوسابيوس القيصري هذه الشهادات في كتابه «التاريخ الكنسي» - ٣: ٢٣: ٣):

[... وإن جميع الشيوخ Elders الذين رافقوا يوحنا تلميذ الرب في آسيا يحملون الشهادة أن يوحنا سلّمه (أي سلّم الإنجيل) إليهم. لأنه بقي معهم حتى حكم تراچان.] (١)

¹ Adv. Haer. II, 22; 5.

ب - وفي نفس الكتاب يؤكد ذلك مرة أخرى بقوله:
[ولكن الكنيسة في أفسس أيضاً التي أسسها بولس والتي بقي فيها يوحنا حتى زمان تراجان
هي شاهد أمين للتقليد الرسولي.]^(٢)

ج - هذا الكلام عينه الذي للقديس إيرينيئوس يعود المؤرخ يوسابيوس ويوضحه في كتابه
«التاريخ الكنسي»^(٣) وذلك بلسان القديس إيرينيئوس نفسه هكذا:

[ولكن بوليكارپوس ليس فقط تعلم على أيدي الرسل وتعرّف على كثيرين من الذين عاينوا
المسيح؛ بل أيضاً قد عيّنهُ الرسل في آسيا (الصغرى) على كنيسة سميرنا (أزمير الآن). ونحن
أيضاً رأيناه في شبابنا المبكر لأنه عاش زمناً طويلاً وتوفي شيخاً متقدماً جداً في العمر، وقد
مات مائة شهيد، جليلة ومجيدة. وكان يعلم دائماً الأمور التي تعلّمها من الرسل والتي كانت
الكنيسة قد استلمتها أيضاً والتي هي الحق وحدها. وكنائس آسيا كلها تشهد بهذه الأمور.
وكذلك يشهد بهذا حتى اليوم كل الذين جاءوا تباعاً بعد بوليكارپوس الذي كان أميناً
وموثمناً ومستحقاً يتفوق كبير عن المدعو قانتينوس ومارسيون (هرطوقيان) وبقية الهرطقة.
وكان بوليكارپوس أيضاً في روما على عهد أنيسينتوس Anicentus، وقد ردّ هناك كثيرين
من الذين وقعوا تحت تأثير هؤلاء الهرطقة وعادوا إلى كنيسة الله. وكان يعلن أنه قد استلم
من الرسل هذا المنهج الوحيد للحق الذي كان قد سلّم إلى الكنيسة. كما أنه يوجد (عندنا)
من سمع منه أن يوحنا تلميذ الرب عندما كان ذاهباً إلى الحمام في أفسس ورأى كيرنثوس
في الداخل، خرج مسرعاً من الحمام دون أن يستحم زاعقاً: «نخرج ونهرب لئلا يقع سقف
الحمام لأن كيرنثوس عدو الحق فيه». وحدث مرة أن قابل مارسيون بوليكارپ فابتدره
قائلاً: «ألا تعرفني من أنا؟» فأجابه بوليكارپوس. «نعم! أعلم: الإبن البكر
للسيطان»].

د - كذلك احتفظ لنا التاريخ بصورة واضحة للعلاقة بين القديس إيرينيئوس والقديس
بوليكارپوس في خطاب أرسله القديس إيرينيئوس إلى «فلورينوس» نقله لنا يوسابيوس المؤرخ
الكنسي^(٤)، يصحح له جنوحه عن الأرثوذكسية لأن تعاليمه الغنوستية لم تكن هي التعاليم التي
استلمها من معلميه الأرثوذكس الأوائل. فيقول له القديس إيرينيئوس:

² Adv. Haer. III, 3,4; all cited by Barrett, Acc. to John, p. 83.

³ Hist. Eccl. IV, 14, 3-8.

⁴ Ibid., V, 20, 4-8.

[عندما كنت صبياً رأيتك في آسيا الصغرى مع بوليكارپوس تتمشى في خيلاء في الدهاليز الملكية محاولاً أن تلقى الإستحسان. إني أذكر حوادث تلك الأيام بأكثر وضوح من حوادث هذه الأيام. لأن ما يَحْصُلُ النشء فإنه ينمو مع عقولهم ولا يفارقها. حتى إني أستطيع أن أصف نفس المكان الذي كان يجلس فيه المغبوط بوليكارپوس عندما كان يتحدث، كما أذكر دخوله وخروجه وهيأته وشكله وحديثه للناس وتصريحه عن علاقته مع يوحنا ومع الآخرين الذين رأوا الرب. وكان يتذكر كلامهم وكل ما سمعه منهم عن الرب فيما يخص معجزاته وتعاليمه، باعتبارهم شهوداً لـ «كلمة الحياة». وكان يقصُّ هذه الأشياء التي كانت متفقة مع الأسفار. هذه الأشياء التي قيلت لي برحمة الله، كنتُ أستمع إليها بانتباه وكنت أحفظها ليس بورق وقلم ولكن في قلبي. وكنت أرددها باستمرار بنعمة من الله، وأستعيدها بأمانة].

هـ — وتوجد أيضاً شهادة أخرى للقديس إيرينيئوس يسجلها له المؤرخ يوسابيوس^(٥):
 [وبعد ذلك (أي بعد كتابة الأناجيل الثلاثة) فإن يوحنا تلميذ الرب الذي اتكأ أيضاً على صدره أخرج ἔξεδωκε إنجيله بينما كان في أفسس].
 وهذه الشهادة غاية في البساطة والكفاية.

وتعتبر شهادة القديس إيرينيئوس هذه ذات وزن عالٍ، لأنه وكما يجربنا هو بنفسه أنه وهو شاب كان يستمع إلى القديس بوليكارپوس أسقف سميرنا (أمير الآن) الذي استشهد سنة ١٥٥م. ومعلوم أن القديس بوليكارپوس أدرك القديس يوحنا وعاش في أيامه^(٦).

و — وثمة مصدر آخر يسجل أن القديس يوحنا عاش ومات في أفسس يجيء لنا من بوليكراتس أسقف أفسس كاتباً ذلك سنة ١٩٠م. للبابا فكتور بابا روما الذي خدم أسقفية روما ما بين عام ١٨٧—١٩٩م ذاكراً له:

[إن من بين النجوم الراقدة في أفسس يوحنا الذي اتكأ على صدر الرب الذي كان كاهناً والذي كان يلبس حزام الصدر الكهنوتي (الصدر)، والذي كان شاهداً (للرب) ومعلماً. هذا أيضاً رقد في أفسس.]^(٧)

⁵ Ibid., V, 8, 4.

⁶ Ibid., V, 20, 6.

⁷ Ibid., III, 31, 3; V, 24, 2f.

وقد دلت الحفريات الحديثة في سلقوك **Selcuk** وهي تلة بجوار أفسس وتحت كنيسة البازيليكا التي كانت قد أُقيمت تكريماً للقديس يوحنا الإنجيلي، على وجود قبر فخم البناء يعود زمنه إلى القرن الثالث الميلادي. وقد فحص العالم براون **Brown** في شرحه لإنجيل يوحنا (الجزء الأول صفحة ٣٧٤) هذه الأبحاث وقال إن هذا الأثر يؤكد شهادة بوليكرأثس عن قبر القديس يوحنا الرسول.

ز — كذلك تأتينا الشهادة أيضاً من الإسكندرية من العلامة اكليمنديس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، وهو تلميذ بننتينوس رئيس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وقد خلفه عليها عام ١٩٠م، فيقول:

[إنه بعد موت الطاغية (يقصد الإمبراطور دوميتيان) رجع يوحنا إلى أفسس من جزيرة بطمس.]^(٨)

ح — كذلك يسجل لنا في كتابه المدعو «**Hypotyposis**» :
[إن التقليد استلم أن يوحنا وهو آخرهم جميعاً (آخر الإنجيليين) عندما لاحظ أن الحقائق الجسدية (الخارجية) **τὰ σωματικά** قد صارت واضحة في الإنجيل، وإذ ألح عليه أحياءه، وبإلهام من الروح القدس، ألف الإنجيل الروحي **πνευματικὸν εὐαγγέλιον**]^(٩)

ونعتقد أن المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري أخذ عن العلامة اكليمنديس الإسكندري قوله عن رجوع القديس يوحنا الرسول من بطمس بعد موت دوميتيان^(١٠).

ط — كذلك يأتي ذكر إنجيل يوحنا ضمناً في وثيقة قديمة تصف أسفار العهد الجديد رداً على أتباع ماركيون (نهاية القرن الثاني) **Anti-Marcionite Prologue** وأيضاً في وثيقة «الموراتوري»^(*) **Murator** المنسوبة لهيبوليتس، التي اكتشفت سنة ١٧٤٠م. وهي ترقى إلى ما بين سنة ١٦٠-١٧٠م. وتعتبر هاتان الوثيقتان من أقدم المصادر للتقليد الكنسي الغربي وللكنيسة الرومانية، وقد جاء في الأولى أنه:

[بحسب شروحات الكتب الخمسة التي ألفها پاپياس التلميذ المحبوب ليوحنا (الرسول) أن إنجيل (يوحنا) كان قد أكمل تأليفه وأرسل لكنائس آسيا بواسطة يوحنا نفسه أثناء حياته.]^(١١)

⁸ Ibid., III, 23, 6.

⁹ Ibid., VI, 14, 7.

¹⁰ Ibid., III, 23, 1.

(*) وثيقة الموراتوري منسوبة لكتشفها المدعو: L.A. Muratori

¹¹ Cited by: New Testament Intr. by Alfred Wikenhauser, p. 284.

علماء بأن باپياس عاش في حقبة زمنية معاصرة جداً للقديس يوحنا الرسول (٦٠-١٣٠م). وكان أسقفاً على هيرابوليس في آسيا الصغرى ووصلتنا أجزاء من كتبه الخمسة على يدي القديس إيرينيئوس والمؤرخ يوسابيوس. ومن تسجيلات باپياس يبدو بوضوح أن إنجيل يوحنا كان منسوباً للقديس يوحنا الرسول منذ سنة ١٣٥م. ومن هذا يتضح أن قبل حلول منتصف القرن الثاني كان قد رسخ في الكنيسة في كل أنحاء العالم أن إنجيل يوحنا هو للقديس يوحنا الرسول.

كما أن التسجيلات التي وصلت إلينا من مؤلفات اللاهوتيين والكنسيين والمدافعين إيرينيئوس واكليمنندس الإسكندري وترتليانوس، والتي بها نصوص من الدفاع عن الإيمان المسيحي تحوي شواهد من إنجيل القديس يوحنا لا حصر لها، ففي دفاع القديس إيرينيئوس في رده على هرطقة فالنتينوس توجد استشهادات من الأناجيل الثلاثة، ومن الإنجيل الرابع وحده أي إنجيل يوحنا أكثر من ١٠٠ شهادة. كذلك اكليمنندس الذي كان معلماً لأوريجانوس، وهيبوليتس يحتفظ لنا التاريخ في دفاعه على أكثر من ٥٠٠ استشهاد من الأناجيل الأربعة وأكثرها من إنجيل يوحنا.

ي — وأما وثيقة الموراتوري فتقول:

[الإنجيل الرابع هو بواسطة يوحنا أحد التلاميذ. إذ عندما توَّسل إليه زملاؤه (التلاميذ) والأساقفة في ذلك قال: صوموا معي ثلاثة أيام ونحن نتفاوض مع بعضنا بكل ما يوحي الله به إلينا. ففي هذه الليلة عينها أعلن لأندراوس أحد الرسل أن يوحنا عليه أن يكتب كل شيء تحت اسمه والكل يصدِّق على ذلك. فإن كانت أمور كثيرة قد علّمت بها الأناجيل الأخرى وكلُّها استُعلنَت بالروح الواحد فيما يخص الميلاذ (ميلاد الرب) وآلامه وقيامته وحديثه مع تلاميذه وفيما يخص مجيئه الأول ومجيئه الثاني، الأول باتضاع وتواضع وقد أكمله والشاني بالمجد والقوة الملكية الذي سيأتي؛ فأني عجب إذن، أن يوحنا بجرأة وشجاعة يحقق كل نقطة متكلماً عن نفسه في رسالته: «الذي رأيناه بعيوننا وسمعناه بأذاننا ولمسناه بأيدينا... هذه الأمور نكتبها إليكم *Scrpsimus*» (١يو: ١٠١)، لأنه وضع على نفسه أن يكون لا شاهداً فقط بعينه وبسمعه بل وكاتباً بكل عجائب أعمال الرب بترتيب.] (١٢)

وعلى الباحث أن يلاحظ أن كُلاً من القديس إيرينيئوس وكاتب وثيقة الموراتوري Muratori يؤكد أن القديس يوحنا إنما كتب إنجيله بإلحاح وتوَّسل من أحبائه وزملائه الأساقفة. وهذا الإتفاق في التسجيل له وزنه التاريخي؛ وإن كانت هذه الوثيقة تخطيء في وضع اسم

¹² Cited by: Barrett, Acc. to St. John, pp. 96, 97.

أندراوس الرسول ضمن سرد ملابسات كتابة إنجيل يوحنا لأنه لم يكن أحدًا من الرسل على قيد الحياة وقت كتابة إنجيل يوحنا.

ك — كذلك يجيئنا من كتابات القديس بوليكاربوس الشهيد اقتباسات أصيلة من إنجيل يوحنا وباسمه واضحة غاية الوضوح علماً بأن القديس بوليكاربوس وبحسب أدق البحوث العلمية قد ثبت أنه استشهد سنة ١٥٥ م. وكان له من العمر ٨٦ سنة. وهذا معناه أنه أمضى مع القديس يوحنا معظم حياته. بل ومن المعروف أنه عاش غيره من الرسل إذ أنه [تعيّن أسقفاً على كنيسة سميرنا من الرسل أنفسهم الذين كانوا معانين وخذّاماً للرب.] (١٣)، كما سجل ذلك أيضاً القديس إيرينيئوس في كتابه ضد الهرطقات (٣: ٤٣). وفي إحدى رسائله يتكلم عن القديس بوليكاربوس بخصوص ذلك:

[... كما أذكر دخوله وخروجه وهيأته وشكله وحديثه للناس وتصريحه عن علاقته مع يوحنا ومع الآخرين الذين رأوا الرب. وكان يتذكر كلامهم وكل ما سمعه منهم عن الرب ...]
عن رسالة القديس إيرينيئوس إلى فلورينوس (١٤)

لهذا فإن القديس بوليكاربوس يُعتبر بحسب التاريخ الكنسي مصدراً في غاية الأهمية، لأنه الشخصية التي تُعتبر العلاقة الحية للوحدة الإيمانية بين القرن الأول والقرن الثاني، وشهادته تُعتبر أحد البراهين الرسولية لإنجيل يوحنا الرسول. هذا ما كان يعتقد ويمسك به جداً القديس إيرينيئوس الذي كان يمسك بجبل التقليد الرسولي بكل قواه، والكنيسة تفتخر به على أنه أبو التقليد الكنسي.

ل — وأيضاً العلامة ترتليانوس (١٦٠-٢٢٠ م.) وهو أب كنائس شمال أفريقيا، مواطن قرطاجنة. عاد من الوثنية كمحامي إلى المسيحية كمُدافع سنة ١٩٥ م. وصار موعظاً ثم كاهناً — بحسب القديس جيروم — وقد دافع عن المسيحية بعد ذلك كل أيام حياته. وقد استشهد في دفاعه ضد هرطقة «مركيون» ذاكراً اسم إنجيل يوحنا مع الأناجيل الأخرى في دفاعه. ويقول العلماء أن النسخة من إنجيل يوحنا التي كانت في حوزة ترتليانوس كانت تُعتبر أقدم وثيقة لإنجيل يوحنا في ذلك الوقت إذ كانت في حيازته قبل قيام هرطقة مركيون (١٣٩-١٤٢ م.). ومن حياجة مركيون الهرطوقي مع ترتليان يتضح بسهولة أن مركيون نفسه كان حائزاً على نسخة من إنجيل يوحنا.

وعلى سبيل الملاحظة للمعرفة فإن ترتليانوس هو أول كاتب لاتيني علّم بكلمة «الثالوث»

¹³ Euseb., Hist. Eccl. IV, 14,3.

¹⁴ Ibid., V, 20,6.

باللاتينية Trinitas (١٥) تعبيراً عن الآب والإبن والروح القدس. وهو أول لاهوتي مسيحي يكتب باللاتينية قاطبة، بل ويُعتبر أول مَنْ نَحَت العبارات اللاهوتية باللغة اللاتينية للغرب كله. ولكن للأسف فقد فقد كل عظمتة الكنسية بسبب انحيازه للمونتانية (هرطقة العصر آنذاك). ولولا ذلك، لكان مُضارعاً للقديس أغسطينوس في رصانته وقوة محاجاته ودفاعه عن لاهوت الثالوث الأقدس وباقي التعاليم الأرثوذكسية (١٦).

م — كما يوجد لدينا شهادة لإنجيل يوحنا ساطعة من قبل عام ١٥٠م. وهي للقديس الشهيد يوستين (١٧) الذي كان لديه كل كتب الرسل وكان يسميها مذكرات Memoires الرسل. وقد استشهد في كتاباته بآيات من إنجيل يوحنا واستخدم اصطلاح «الكلمة» λόγος (الذي ورد في مطلع إنجيل يوحنا).

وفي حوار مع تريفو اليهودي الذي تم سنة ١٣٦م (١٨) الذي استشهد فيه بموضوع الألف سنة الذي جاء في سفر الرؤيا، قال فيه:
[إن إنساناً بيننا اسمه يوحنا، وهو واحد من رسل المسيح، الذي تنبأ في رؤيا أخذ فيها ...]

وفي دفاعه بعد هذا التاريخ بعدة سنوات أظهر أنه على دراية بتعاليم إنجيل يوحنا وسردها ناسباً إياها إلى مسئولية القديس يوحنا.

ن — كذلك توجد شهادة من هرماس صاحب كتاب «الراعي» (١٤٢-١٧٤م.) الذي كان أسقفاً في هذه السنين على هيراكلييس. ويشير في كتاباته إلى آيات من إنجيل يوحنا.

س — القول الفصل: وأخيراً ظهرت شهادة قاطعة مانعة من تحت رمال مصر من نجح حمادي من صعيد مصر ظهر فيها جزء من إنجيل يوحنا، عبارة عن ورقة مخطوطة وعلى إحدى صفحاتها نص من إنجيل يوحنا الأصحاح ١٨ الأعداد من ٣١-٣٤. وعلى الوجه الآخر الأعداد من ٣٧-٣٨ لنفس الأصحاح. وهي الآن معروفة باسم بردية «رايلاند» ومحفوظة في مانشستر تحت رقم ٥٢.

15 Cross, Oxford Dict. of the Christ. Church., p. 1334.

وأما باللغة اليونانية فقد سبقه في استعمال هذه الكلمة τριὰς ثاوفيلس الأنطاكي حوالي سنة ١٨٠م.

16 Ibid.

17 Westcott, Acc. to St. John, p. XXXI, XXXII.

18 Ibid., p. 12, Justin, Dial. 81.

وبحسب بحوث العلماء تأكد أن يكون تاريخها ليس بعد عام ١٣٠م. وهذا هو البرهان النهائي أن الإنجيل الرابع خرج خارج آسيا الصغرى في تاريخ لا يمكن أن يتعدى الجيل السابق على بداية القرن الثاني. وبهذا يكون زمن كتابة إنجيل يوحنا ليس بعد سنة ١٠٠م. وذلك بحسب كل علماء الكتاب المقدس بلا استثناء أي في الزمن الرسولي بكل تأكيد! بل إن كثيراً من العلماء يقول إنها النسخة الأولى الأصلية.

* * *

وفي ختام بحثنا عن أصالة نسبة إنجيل يوحنا للقديس الرسول ابن زبدي، نبه ذهن القارئ إلى حتمية تفرض نفسها بشأن الإنجيل، فليس كاتب الإنجيل فقط هو الذي يضفي على الإنجيل صدقه وأصالته وقانونيته، وإن كان هذا لازماً أيضاً. ولكن صحة التقليد الرسولي الذي يقوم عليه الإنجيل وأصالته تعليمه والنور الإلهي الذي يشع منه هو الذي يعطي للإنجيل أصالته بل ويعطي لكاتبه أيضاً صفته الرسولية بالضرورة. كذلك فإن شهادة الكنيسة الحية من فم لضم وأخيراً الممارسة الروحية، وهذا هو التاريخ العريض الطويل الممتد للأساقفة المدافعين عن الإيمان والقديسين والعباد والسَّاك واختباراتهم الفاخرة على مدى ألفي سنة، تنطقان بالقيمة الروحية واللاهوتية العظمى لإنجيل يوحنا وبالفضل لكاتبه. فلقد نصح إنجيل يوحنا في حمل وتوصيل الروح الرسولية والتقليد الرسولي الإيماني من جيل إلى جيل عبر عشرين قرناً من الزمان. وهوذا نحن نشهد مع القديس يوحنا القرن الأول ومع الرسل والكنيسة عبر الزمان كما شهدوا «ورأينا مجده مجدداً كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.» (يو: ١٤)

٢ - الأسباب الملحة التي حثمت بكتابة إنجيل يوحنا:

حسب التقليد المبكر جداً المسلّم للكنيسة فإن القديس يوحنا الرسول كتب إنجيله تحت إلحاح شديد ومتواصل من رجال الكنيسة الذين كانوا يعيشون ويعملون معه والذين سمعوا منه كل ما كان يعظ ويعلم به بما كان ينقله عن فم الرب، راغبين أن يكون تحت أيديهم وثيقة من فم يوحنا تلميذ الرب تشهد لصحة ما يعلمون به هم أيضاً وتهديهم الطريق. وبهذا يقول التقليد إنهم اضطروا يوحنا لكتابة إنجيله بعد أن تعهدوا بالصوم والصلاة.

وتوجد وثيقة من زمن مبكر تُدعى «تعاليم في سفر الرؤيا» لمؤلفها «فيكتورينوس» Victorinus الذي من مدينة بيتاو Pettau ، والذي توفي سنة ٣٠٤م. تقول:

[إن يوحنا الرسول كتب إنجيله بعد كتابة سفر الرؤيا وذلك بعد أن أذاع كلُّ من الهراطقة فالنتينوس Valentinus وكيرنثوس Cerinthus وإييون Ebion وآخرون من مدرسة

الشیطان تعلیمهم وذاع في كافة أركان الدنيا مما اضطر الأساقفة الذين على كل البلاد
المجاورة أن یجتمعوا إلى القديس یوحنا واضطروه أن یكتب إنجیل شهادته. [١٩]

ویقرر القديس إیپانیوس نفس هذه الحقائق مؤكداً أن القديس یوحنا الرسول كتب إنجیله في
نهاية العصر الرسولي رداً على هرطقات القرن الأول بناءً على رجاء الكنائس (٢٠).

إذن، فیسرُ الإلحاح على القديس یوحنا لكتابة إنجیله واضح لأن بلبلة الأفكار بسبب مهاجمة
المراطقة للإیمان المسيحي وتركيزهم على المسيح بالذات وإنكار لاهوته وقوة الخلاص والفداء الذي
أكمله، مع عدم كفاية المكتوب والمتناقل عن التقليد الرسولي، هذا هو الذي أفنع القديس یوحنا
للرضوخ لإلحاح الأساقفة والشعب. ولماذا ألحوا عليه إلاً لكونهم قد سمعوا منه ما یصلح أن یكون
إنجیلاً بالحق؟ ولماذا وثقوا فيه. إلاً لكونه تلميذاً ورسولاً؟

وفي هذا المعنى یقول العالم هوسكنز (٥) أسقف دورهام بإنجلترا في شرحه لإنجیل یوحنا:
[إن تقديم حياة المسيح على هيئة أخبار متقطعة (كما جاء في الأناجيل الثلاثة) لا بد وأن
یكون قد أنشأ خطورة عظيمة في نهاية القرن الأول. لأن الجماعات المسيحية المتفرقة لم تكن
قد استكملت بعد قانوناً للإیمان یمكن أن یحفظ هذه الأخبار في قالب لاهوتي. كما لم تكن
هناك بعد عبادة أيّاً كان شكلها قائمة على قراءات رسمية ذات سلطان تهدف إلى غاية محددة
مثل التي نقرأها مثلاً في مقدمة إنجیل یوحنا (وهذا أدى إلى مجرد معرفة تاريخية بالمسيح).
لذلك فبسبب خطورة احتمال سوء فهم المسيح وعدم الدراية بالتقليد الصحيح الشفاهي
والمكتوب آتذ عن المسيح، صُمم إنجیل یوحنا لتثبيت المؤمنین.] [٢١]

وقد أجمع الباحثون العلماء في الكتاب المقدس أن مادة إنجیل یوحنا تأتي من حيث الصياغة
الزمنية متأخرة عن ما جاء في الأناجيل الثلاثة وتحمل مضمون شكل الحياة المسيحية في وضعها
اللاحق على صيغة الحياة في زمان الأناجيل الأخرى وتنطق بما أصاب أورشلیم من الخراب بعد
حرب عام ٧٠م. وتبُدد الشعب اليهودي.

19 PG V, 333, cited by: Westcott, op. cit., p. XXXVI.

20 Epiph., Adv. Haer. XLI, 12.

21 Hoskyns, According to St. John, p. 83; Schnackenburg, The Gospel according to St. John, New York
1982, p. 43.

(٥) افراً فكرة عنه في الفصل الثاني من الباب السادس.

فبشيء من التعمق في الملاحظة بين ما أورده القديس يوحنا خصيصاً وبين الوضع السائد في آسيا الصغرى عموماً نجد الردود واضحة. فهو يعني أن يورد كل ما جاء على لسان المسيح مما يصلح أن يكون رداً على المساءلات التي كانت تُطرح عليه كأسقف عاش مع المسيح، وحلاً للمشاكل اللاهوتية والروحانية والفلسفية التي كانت تعترض الكنيسة في مواجهتها للأجواء الجديدة معتمداً على وعد الرب أن الروح القدس يعرفكم بكل الحق ويخبركم بأمر آتية وأنه سيتكلم في فمكم، بينما تردُّ الثلاثة الأناجيل على مقاومة اليهود للمسيح ورفضهم للإيمان بالتحذيرات المرعبة وبالكارثة المحتمة التي ستحل بالأمّة اليهودية والقضاء المزمع أن يأخذ مجراه وشيكاً، كما ورد في إنجيل متى الأصحاح ٢٤ وفي إنجيل مرقس الأصحاح ١٣ وفي إنجيل لوقا الأصحاح ٢١.

— «لأن هذه أيام انتقام ليم كل ما هو مكتوب. وويل للحبالي والمرضعات في تلك الأيام. لأنه يكون ضيقٌ عظيمٌ على الأرض المقدسة وسُحُط على هذا الشعب. ويقعون بفم السيف ويُسبَوْنَ إلى جميع الأمم. وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكَمَّلَ أزمنا الأمم.» (لوقا ٢٢: ٢٢-٢٤)

كل هذا كتبه القديس لوقا وأورشليم لم تكن قد سقطت بعد ولا حدث أي شيء من هذا الوعيد. أما في إنجيل يوحنا فالأمر جدّ مختلف، لأن كل شيء من هذه الأمور المرعبة كان قد حدث بالفعل. فإنجيل يوحنا كُتِبَ سنة ١٠٠م. وخراب أورشليم تم سنة ٧٠م. لذلك لا نسمع في إنجيل يوحنا لا نبوة عن خراب أورشليم ولا ذكراً لهذه الويلات والحروب وما لابساها من ضيق عظيم سيلقى اليهود. إذن، فالقديس يوحنا يكتب موضحاً العاقبة، تصديقاً لما وعد به الرب فقد تم كله وأصبح على القديس يوحنا أن يوضح في كل مناسبة السرّ وراء هذا السخط الذي تم عليهم. فكان يمعن في كشف كذبهم وريائهم وعنادهم في مصادمة الحق ورفضهم للنور والحياة والبركة كشعب بكر مختار؛ تماماً كما رفض عيسو البركة والبكورية رمز الإختيار!

وبهذا كشف إنجيل يوحنا السبب وراء رفضهم للمسيح ورفض المسيح لهم، لأن الداء كان متأصلاً ومتجذراً في أخلاقهم وسلوكهم ولذلك كان الجزاء محتماً: «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم.» (يو ١٠: ٢٦)

ثم يسجّل القديس يوحنا كيف وعلى طول المدى أخفقت الأمّة اليهودية في الإختيار ورفضت المخلص الموعود والفادي الذي انتظرته الأجيال «إلى خاصّته جاء وخاصّته لم تقبله» (يو ١: ١١). وهو بذلك يشير إلى سبب خراب أورشليم بصورة مخفية وبالتالي إلى سبب وجوده هو في أفسس بدل أورشليم واختياره للعمل بين الأمم. ولكنه أيضاً وفي شعور بالإخفاق والمرارة يعود ويصف رفض كثيرين للنور بين الأمم أيضاً: «إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن

أعمالهم كانت شريرة» (يو:٣:١٩). وهكذا يتساوى معاً كل الراضين للنور في الدينونة بلا تمييز «اليهودي أولاً ثم اليوناني» كما يقول القديس بولس الرسول (رو:٢:٩). ثم يضع القديس يوحنا القانون الذي سيسري على الجميع: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو:٣:١٨ و١٩)

ثم يواجه القديس يوحنا الإلحاح العام الذي كان يختلج في قلوب كل المؤمنين بعد رفض الله للشعب اليهودي رفضاً دعت الضرورة القصوى إليه وبعد خراب أورشليم وانقطاع العبادة بكل مراسيمها اليهودية وفقدان كل الميراث الأول بكل غناه وكل عمقه مرة واحدة. ما هو، إذن، إطار العبادة المسيحية؟ وماذا سيكون أساس العلاقة التي لله بشعبه الجديد؟ وكيف سيحقق الشعب المسيحي وعد الله في أن يقيم خيمة داود الساقطة (عا:١١:٩، أع:١٥:١٦)؟ وما هي الوصايا الجديدة المفروضة على الكنيسة لتحل بصورة إلهية ومجيدة محل العبادة المؤقتة والشكلية المعبر عنها بـ «شبه السماويات وظلها» (عب:٨:٥) التي كانت لإسرائيل؟

علماً بأنه عندما بدأ القديس يوحنا يكتب إنجيله، كانت الجماعات المسيحية — كما هو واضح من رسائل القديس بولس الرسول — في أوج نضوجها وانتظامها. ولكن السؤال الكبير الذي كان يواجهه الأساقفة مع الشعب في كل مكان هو كيف تُحكّم وتُدبّر هذه الكنائس لتحقيق نموذج ملكوت الله الذي نادى به المسيح؟ كان على القديس يوحنا أن يستلهم من كل حياة الرب وأقواله وتعاليمه بكل دقة وكل عمق وبكل وعي روحي تنبؤي ما يلزم تقديمه ليصلح أن يكون هو الأساس الإلهي الذي يُبنى عليه لاهوت المسيح بكل معنى الكلمة، وليكون هو أساس بنيان الكنيسة الخالدة على مدى كل العصور والأجيال، وليكون هو قوام بنيان النفس البشرية لتحيا وتلتصق وتمتجد بالرب.

فها هو من قصة السامرية يستوحي القانون الشامل الكامل لكل جوهر العبادة التي أعطاها الرب للكنيسة: «... آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون أن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه. قال لها (للرأفة السامرية) يسوع: يا امرأة (وكأنها الكنيسة وكل الأمم) صدّقتني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب... تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب هؤلاء الساجدين له، الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا.» (يو:٢٠:٢٤—٢٤)

وهكذا يضع القديس يوحنا، من فم المسيح، الحدّ الفاصل بين العبادة بالشكل والحرف التي

نُقِصَتْ يوم نُقِصَ الهيكل وتوقفت يوم صلبوا رب المجد، لتقوم العبادة بالروح والحق والتي أُعْطِيت لتكون جوهراً لدستور العبادة لكنيسة المسيح في كل أنحاء العالم وإلى الأبد.

ثم عاد القديس يوحنا في قصة نيقوديموس ومن خلال الحوار الساخن مع القديم الذي عتق وشاخ ليشرح كيف وضع المسيح القانون الجديد لدخول الحياة الأبدية لكل إنسان مهما كان وكيف يؤهل لقبول الروح لميلاد جديد ليأخذ عضويته السامية والجليلة في الهيكل الجديد أي جسد المسيح الذي كان يسمّى أيام القديس يوحنا بقانون الإنضمام!! ليصير واحداً في شعب الله الجديد «الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو: ٣: ٥)

ويعود إنجيل القديس يوحنا وبصفة فريدة ليوضح سلطان الخدمة والإرسالية الذي لا يعتمد على مدرسة للربيين ولا شهادة من السهديم بل على الروح القدس القوة الإلهية الناطقة في أفواههم والمبيرة لعقولهم وأفهامهم والموضحة والشارحة للحق كل الحق: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياهم وتغفر له ومن أمسكتم خطاياهم أمسكت.» (يو: ٢١-٢٣)

وهكذا أرسى إنجيل يوحنا الأساس لقانون متكامل للعبادة والخدمة على أنقاض الناموس الذي توقف لإنهاء مدة صلاحيته بقيام الكنيسة وبدوام مسيرتها الجديدة في كل أنحاء العالم بقيادة الروح القدس وسلطانه.

وبدراسة إنجيل يوحنا نكتشف أنه كما اهتم ليعالج مشاكل وتساؤلات نشأت كحتمية فرضها توقف العبادة بعد خراب أورشليم والهيكل؛ كذلك من جهة أخرى نجده وقد انشغل إلى أقصى حد لتقنين المفاهيم الجديدة التي نشأت نتيجة كرازة القديس بولس الرسول في هذه المناطق. وهذه المفاهيم تتركز في معنى «حرية البنين» و«بطلان الإنكال على أعمال الناموس» و«الأهمية القصوى للإيمان الشخصي في الفرد» و«استعلان لاهوت المسيح» و«عمومية الإنجيل للأمم». فإنجيل يوحنا يوضح أن كل هذه الإتجاهات الجديدة التي انبثقت من كرازة الروح القدس على يدي القديس بولس لم يغفلها المسيح في تعاليمه، فقد كان لكل واحدة منها موقف وتعليم.

وهكذا بدأ الروح القدس يعمل بصورة نشطة في ذهن القديس يوحنا ليرفع الغموض عن مواقف وتعاليم المسيح التي لم تكن مفهومة عندئذ يوم أن قيلت للرسول وهي على بُعد من زمانها، كقول المسيح للقديس بطرس (عند تمنّعه من غسل المسيح لقدميه): «أجاب يسوع وقال: لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد» (يو: ١٣: ٧)؛ «... أما هو فكان يقول عن هيكل

جسده، فلما قام من الأموات تذكّر تلاميذه أنه قال هذا. فأمنوا بالكتاب وبالكلام الذي قاله يسوع.» (يو: ٢١ و٢٢)

وحينما كشف القديس يوحنا المواقف والكلمات والتعاليم التي تركتها الأناجيل الأخرى ولم تأتِ على ذكرها، ظهرت شخصية المسيح بوضوح بالنسبة للعالم وكل المسيحيين. فالمسيح في إنجيل يوحنا أعظم من صانع معجزات، وأكثر من الملك الآتي، وليس هو المسيا موضوع انتظار اليهود لتخليص إسرائيل من عبودية الرومان كما خلّصهم موسى من مصر؛ بل هو «مخلّص العالم» كله كما ورد على لسان أهل السامرة. وهو ابن الإنسان بمعنى يَجِبُ البشرية كلها، وهو ابن الله الوحيد الواحد مع الآب. وهنا يرفع إنجيل يوحنا الغطاء عن مفهوم ميلاد المسيح في بيت لحم ليكون على مستوى «التجسد». «فالكلمة صار جسداً» هو السر الأساسي وراء حياة المسيح وأقواله جميعاً وهو الآية من وراء المعجزات العظمى التي عملها لكي تشير كلها إلى مصدرها أنها هي أعمال الله المكتملة والمجدّدة للخلق التي اضطلع بها سابقاً المسيح نفسه قبل تجسده. وهكذا لم يتم في أذهاننا وضع اللمسات الأخيرة على قصة الميلاد في المغارة وسفر فرح جند السماء مع الناس على الأرض إلاّ بعد أن استوعبنا إعلان إنجيل يوحنا أن «الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا» (يو: ١٤: ١). وبإعلان المسيح عن نفسه: «أنا هو القيامة والحياة»؛ «والذي رأيته فقد رأى الآب»؛ و«أنا والآب واحد.» (يو: ١١٠: ٢٥؛ ١٤: ٩؛ ١٠: ٣٠)

كذلك فإن إنجيل يوحنا وضع على نفسه أن يضع الخلفية التاريخية مشروحة بفهم المسيح ومفثنة روحياً كإنجيل الله لكل تعاليم القديس بولس الرسول التي أذاعها بين الأمم وغرسها غرساً جيداً في قلوب وأذهان كنائس آسيا الصغرى السبع، وواجهها القديس يوحنا كتلميذ مسئول عن تحقيقها وانطباقها على تعاليم الرب نفسه. وهكذا وجد الإيمان المسيحي — مطبقاً على إنجيل المسيح بيد القديس يوحنا — طريقه إلى كل مسيحي أممي. فصراخ فيلبس الرسول المتعطش لرؤية ومعرفة الآب باعتبار ذلك منتهى أمله في الإيمان بالمسيح والله كتلميذ، هو في الحقيقة تصوير عملي لكل صراخ الأمم وصراخ المستقبل المسيحي كله في كل العالم فيما بعد. هذا صورته القديس يوحنا في إنجيله تصويراً مُبدعاً وأعطاه الرد كاملاً ومختصراً ملأ كتب اللاهوتيين شرحاً وتأمللاً: «الذي رأيته فقد رأى الآب». فهو — أي الكلمة المتجسد — الصورة المنظورة لجوهر الله بالقول والعمل!! «قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي. لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه. قال له فيلبس: يا سيد أرنا الآب وكفانا. قال له يسوع: أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رأيته فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت: أرنا الآب؟ ألسنتك تؤمن أنني أنا في الآب والآب فيّ.» (يو: ١٤: ٦-١٠)

من أجل هذا كتب القديس يوحنا إنجيله ليصير الله لدى كل العالم في متناول الرؤيا القلبية بالتقوى والإيمان في نور أقوال المسيح وأعماله وإعلانه الصريح والواضح عن نفسه. فالمسيح في إنجيل يوحنا هو الإستعلان الكامل لله.

أنظر كيف يتتبع القديس يوحنا تعاليم القديس بولس الرسول، فيستخرج أصولها الإلهية من فم المسيح:

تعاليم المسيح في إنجيل يوحنا

تعاليم القديس بولس الرسول في رسائله

« كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم. » (أف ١: ٤)
« أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم. كانوا لك (٢٢)، وأعطيتهم لي. » (يو ١٧: ٦)

« لست أسأل من أجل العالم بل من أجل الذين أعطيتني لأنهم لك » (يو ١٧: ٩)
« والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عنده قبل كون العالم. » (يو ١٧: ٥)

« لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم. » (يو ١٧: ٢٤)

« سبق فعَيَّننا للتبني بيسوع المسيح لنفسه. » (أف ١: ٥)
« أما كل الذين قبلوه (أي قبلوا المسيح) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه الذين وُلدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله. » (يو ١٢ و١٣)

« الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. » (يو ٣: ٣)

(٢٢) « كانوا لك وأعطيتهم لي » تعني أنهم كانوا يؤمنون بالله (الآب) حسب توراة العهد القديم، وفتح الله بصيرتهم واجتذبتهم إلى المسيح لينالوا بواسطته التبني والخلاص من العبودية والدينونة. هكذا أعطاهم الآب للمسيح ليردّهم المسيح إليه كأبناء. وهذه الآية تُفهم جيداً في ضوء كلمات المسيح: « أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بي. » (يو ١٤: ١)

«المولود من الجسد جسّد هو والمولود من الروح
هو روح.» (يو: ٣: ٦)

«الذي فيه أيضاً نلنا نصيباً، معيّنين سابقاً
حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي
مشيئته.» (أف: ١: ١١)

«ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم
وأفتكم.» (يو: ١٥: ١٦)

«كل ما يعطيني الآب فالإيُّ يُقبل. ومن يُقبل
إليّ لا أخرجه خارجاً.» (يو: ٦: ٣٧)

«لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب
الذي أرسلني...» (يو: ٦: ٤٤)

«لا يقدر أحد أن يأتي إليّ إن لم يُغظّ من
أبي.» (يو: ٦: ٦٥)

«إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال
موعده في المسيح.» (أف: ٣: ٦)

«ولي خراف أخر ليست من هذه الخطيرة.
ينبغي أن آتى بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون
رعية واحدة وراع واحد.» (يو: ١٠: ١٦)

«ألستم تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء
المسيح.» (١ كو: ٦: ١٥)

«أما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً.»
«ليأتى بثمر أكثر... أنا الكرمة وأنتم الأغصان.
الذي يثبت فيّ وأنا فيه هذا يأتى بثمر كثير.»
(١ كو: ١٢: ٢٧)

«لأننا أعضاء جسمه، من لحمه ومن عظامه.»
(يو: ١٥: ١ و ٢١ و ٥)

(أف: ٥: ٣٠)

«ننمو في كل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس
المسيح الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترباً
بمؤازرة.» (أف: ٤: ١٥ و ١٦)

«أم لستم تعلمون أن جسّدكم هو هيكل للروح
القدس الذي فيكم الذي لكم من الله.»
(١ كو: ٦: ١٩)

«أما هو فكان يقول عن هيكل جسده.»
(يو: ٢١: ٢١)

«أنتم فيّ وأنا فيكم.» (يو: ١٤: ٢٠)

«أنا فيهم وأنت فيّ.» (يو: ١٧: ٢٣)

وكان أخطر ما يواجه القديس يوحنا الرسول هو من جهة جوهر الإيمان المسيحي وتقنيته لدى الشعوب الداخلة في الإيمان في جيل ابتعد عن اليهودية تماماً. وقد وضع القديس بولس الرسول أصوله الأولى على أساس عدم توسُّط الفرائض التي تؤدّي جسدياً، والتي شجّبه في كل رسائله جاعلاً الإيمان المسيحي قوة تغيير إلهية بالروح القدس تغيّر طبيعة الإنسان من مستوى السلوك بحسب الجسد إلى مستوى السلوك بحسب الروح ليكون إنساناً جديداً خليفةً ثانية روحيةً؛ وإن هذه القوة تعتمد كلياً على اسم المسيح: «الذي به لأجل اسمه قَبِلْنَا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان في جميع الأمم.» (روا: ٥)

وهكذا جاء القديس يوحنا ليقنّن هذا الإيمان عينه إنجيلياً وعلى مستوى نُطق المسيح وبصورة واضحة معتمداً اعتماداً كلياً على «اسم المسيح» القوة المحيية والمغيّرة والوالدة للإنسان الروحي: «وأما كل الذين قَبِلُوهُ فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه» (يو: ١٢) «وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو: ٢٠: ٣١) «ومهما سألتكم باسمي فذلك أفعله لئتمجّد الآب بالابن.» (يو: ١٤: ١٣)

وفي رسالته الأولى يعبّر القديس يوحنا باختصار شديد عن علاقة جوهر الإيمان باسم المسيح هكذا: «كُتبتُ هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم ابن الله لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي تؤمنوا باسم ابن الله.» (١ يو: ٥: ١٣)

ومرة أخرى يقف القديس يوحنا — وهو في ختام القرن الأول — موقفاً حاسماً ودقيقاً في مواجهة النشاط الفكري الضخم الذي كانت تمارسه الأوساط المحيطة في أفسس وغيرها من الفلاسفة والمعلّمين والأدباء والشعراء الذين كانوا قد ألهبوا الفكر البشري للجري وراء المعرفة. حتى المسيحيون أيضاً انغمسوا في مثل هذه المعارف. وقد ألقى القديس بولس الرسول بكل ثقله لاستقطاب هذا النشاط وقيّمته وسما فوقه معطياً في المقابل المدلولات الروحية الحقة في المسيح. فإذا سيعطيهم القديس يوحنا من أقوال الرب لتكون الدستور الدائم للمعرفة المستمدة من ينايعها بل من ينبوعها الإلهي الأصيل والوحيد للحق، ومعناه وقيّمته وفعله وأثره المحرّر والمحيي؟ ثم ما هو التقييم العملي لعلاقة المنظور بغير المنظور (وبلغة الفلاسفة بما وراء الطبيعة)؟

هنا يُبرز إنجيل يوحنا مفهوم «الحق» كجوهر إلهي مُحيي وليس مجرد معرفة مجردة موضوعية دون ذات تُحييها وتحققها — فينادي إنجيل يوحنا بقم المسيح: «تعرفون الحق، والحق يجرركم»، «أنا هو الحق»!! (يو: ٨: ٣٢؛ ١٤: ٦) والتحرر الحقيقي أو الحرية الحقيقية هو التحرر من رباط الخطية

وسلطانها الإستعبادي للنفس البشرية والذات ككل!! « كل مَنْ يعمل الخطية هو عبد للخطية » (يو: ٨: ٣٤). أما كيف نتحرر من الخطية فبواسطة ابن الله الذي يعتقنا من عبودية الخطية والموت وسلطان الجسد وشهوته وطغيان الشيطان بأوهامه، لأن ابن الله هو الوحيد الذي له سلطان على الخطية والموت، وهو القيامة والحياة: « فإن حرّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً. » (يو: ٨: ٣٦)

هذا الحوار يقدمه إنجيل يوحنا بلا ملل وفي مواضع كثيرة، لأن القديس يوحنا يعلم أنه يواجه جيل الفلاسفة وعُشّاق المعرفة وعمالقة الفكر الباحثين عن الحق! لقد حطّم إنجيل يوحنا أسمى ما بلغ إليه الفلاسفة من الإرتفاع بالمعرفة نحو تجريدها الكلي لتكون عقلية خالصة تحلّق في سماء الفكر وحده دون الواقع حيناً قال وفي بدء إنجيله: « والكلمة (اللوعُس) صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده »!! (يو: ١: ١٤). وهذا استعلن « الحقيقة الأبدية » أو « الحق المطلق » ورفع عنها نقاب العقل الخالص واستحضرها متجسدة في إنسان، في ملء التاريخ، عاش وتألّم وصُلب ومات ثم قام أيضاً ليَهَبَ الإنسان خبرة الحياة والقيامة والنصرة على الموت والخطية لكل مَنْ يؤمن!

وهو في ذلك لم يكن يقصُّ قصة أو يعطي علماً بل كان يقدّم شخص الحياة الأبدية شخص الحق وملء النور يسوع المسيح الذي عاش معه ورأته عيناه ولمسته يده، هو كلمة الحياة والحق والحياة الأبدية التي كانت عند الآب.

وهكذا يقدم القديس يوحنا للعالم الباحث وراء الحق والحياة الكاملة والأبدية شخص الحياة نفسها والحق نفسه لينال به كلُّ مَنْ آمن هذا الحق عينه وهذه الحياة الأبدية عينها: « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته » (يو: ١٧: ٣)، « الحق الحق أقول لكم إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة. » (يو: ٥: ٢٤)

وعندما أعطى القديس يوحنا في مستهل إنجيله بشارته الحاسمة: « والكلمة صار جسداً »، كانت هذه هي البشارة الأولى من نوعها في عالم الفلاسفة والباحثين وراء فواصل اللامحدود بالمحدود والأبدي اللازمي بالزماني والنور بالظلمة: « والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه » (يو: ١: ٥). وهكذا صالح إنجيل يوحنا، في المسيح، الفكر المنطلق وراء اللامحدود بالواقع الحي المنظور والملموس، ورؤيا الرائيين لما فوق الطبيعة بالتجربة الإختبارية الحية والمحیية.

وفي هذه كلها نرى أن مادة إنجيل يوحنا هي شاهدة بجد ذاتها لزمان ومكان كتابة هذا الإنجيل العجيب بل وللظروف التي حتمت بكتابته تحميماً.

٣ - الغرض الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا

كما يراه القديس يوحنا نفسه:

إن القديس يوحنا يوضّح بجلاء وباختصار في نهاية الأوصاح العشرين الغرض الأساسي الذي من أجله كتب إنجيله هذا: «وآياتٍ أُخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابنُ الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو. ٢٠: ٣٠ و٣١). أي إن غرض الإنجيل هو:
أولاً: أن يؤمن القارئ أو السامع،
وثانياً: أن يحصل على الحياة الأبدية بهذا الإيمان.

والإيمان، عند إنجيل يوحنا، يتجه إلى حقيقتين أساسيتين:

الحقيقة الأولى: الإيمان بأن يسوع الإنسان الذي دُعي بهذا الاسم هو المسيح أي «مسيحاً اليهود» الذي عليه يتعلق كل رجاء إسرائيل، وهو محور كافة النبوات وغاية ونهاية وشرح كل أسفار العهد القديم.

الحقيقة الثانية: أن يسوع المسيح هذا هو هو ابن الله الحامل لجوهر الله مع الآب، وبسبب كونه قد صار إنساناً فهو بسبب جوهره الإلهي وبشريته معاً فهو قريب غاية القرب من كل بني الإنسان وهو يدعوهم بصفته الإلهية والبشرية أن يصيروا أبناء الله كامتياز يمنحه من واقع موته عن البشرية وقيامته.

وهكذا يعتمد شرح كل ما جاء في إنجيل يوحنا على هاتين الحقيقتين. ولقد تبرهنت، بالفعل والإختبار اليومي كما عاشته الكنيسة الأولى التي آمنت بهذا الإيمان، قوة هذا الإيمان عندما انبثقت بالفعل الحياة الأبدية بكل برهان الروح ومواهبه في جماعة المؤمنين البسطاء الذين اعتمدوا باسم المسيح مؤمنين بهاتين الحقيقتين: أن يسوع هو المسيح «المسيا»؛ وأنه هو ابن الله الآتى إلى العالم لفدائه.

أ - فكان إيمانهم بالحقيقة الأولى أن يسوع هو المسيح شهادة على صدق كل ما جاء في أسفار العهد القديم حيث كان يشهد المعتمد على أنه يؤمن بجميع أسفار العهد القديم.

ب - وكان إيمانهم بالحقيقة الثانية أن يسوع هو ابن الله شهادة على غنى ميراث المسيح في الله الموهوب لكل البشرية وعلى قدرة المسيح على إعطاء القيامة والتبتي والحياة الأبدية لكل من يؤمن به.

ونلاحظ أنه بالصفة الأولى، أي بأن يسوع هو المسيح، تلتحم المسيحية باليهودية فترث منها كل ميراث عطف الله ورحمته على كل الآباء والأنبياء القديسين القدامى.

أما بالصفة الثانية، أي بأن يسوع المسيح هو ابن الله نكون قد تحررنا كمسيحيين من كل حدود اليهودية الضيقة غاية الضيق.

٤ - تنفيذ بعض الآراء فيما يخص غرض الكتابة لإنجيل يوحنا:

أ - يشترك بعض الآباء القدامى في الرأي القائل أن القصد من كتابة إنجيل يوحنا كان هو الدفاع عن المسيحية ضد الهرطقات التي كانت منتشرة في آسيا الصغرى واليونان في ذلك العصر. وهذه هي نظرية القديس إيرينيئوس (٢٣) وكذلك العلامة إيرونيموس (چيروم) (٢٤). ولكن الفكر الأرثوذكسي يستبعد تماماً أن يكون ذلك هو الأساس أو كان الهدف الأساسي لكتابة الإنجيل. صحيح أن بعض الآيات تدحض تماماً هرطقة الإبيونيين وبدعة الدوسيتيين وادعاءات بعض تلاميذ يوحنا المعمدان الذين كانوا يقولون أن المعمدان هو صاحب الرسالة وليس المسيح، حيث جاء الرد في المواضع التالية: يو: ٣: ٢٨؛ يو: ٣٣-٣٦؛ يو: ١٠: ٩ و٨.

ولكن الحقيقة أن استعلان الإنجيل للحقائق الإلهية يأتي بصورة كاملة ومطلقة، فهي ليست بجد ذاتها دحضاً لرأي معين بل هي دحض لكل رأي، في كل مكان وزمان، يأتي مخالفاً للحقيقة الإلهية. فالحق المطلق هو أساس وهدف الإنجيل.

ونظرة واحدة على رسائل القديس يوحنا تجعلنا ندرك ما هو أسلوب الرد على الهرطقات الصريح الواضح والمباشر الذي يتبعه القديس يوحنا ضد هؤلاء المبتدعين أنفسهم، وذلك حينما يكون حُرّاً في الهجوم المباشر الذي يكتبه تحت مسؤوليته وبلغته وفكره وإيمانه هو. ففي الرسالة الأولى يشير بأصبعه بكل جرأة ومواجهة ضد الإبيونيين (ومعنى اسمهم: الفقراء من اليهود، وهم شيعة تحظ من قدر المسيح ومنهم «كيرنثوس» عدو القديس يوحنا) فيقول: «مَنْ هو الكذاب إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح. هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الآب والابن» (١ يو: ٢: ٢٢)؛ «...قد صار الآن أضداداً للمسيح كثيرون» (١ يو: ٢: ١٨). أما ضد الدوسيتيين (أي الشبهيين وهم شيعة تقول إن المسيح لم يتجسد تجسداً حقيقياً بل كان شَبْهاً أو خيالاً وأن يهوذا الإسخريوطي صُلب بدل المسيح) (٢٥) فيقول: «...لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح الله: كلُّ روح يعترف

²³ Iren., Adv. Haer. III, 11,1.

²⁴ Hieron., Comm. on Matt., prolog.

²⁵ Oxford Dict. of the Christ. Church, p. 409.

بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله؛ وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي، والآن هو في العالم» (١ يوحنا: ١-٣).

ب - كذلك ينتحي بعض الآباء مثل يوسابيوس^(٢٦) وإيرونيوموس^(٢٧) (چيروم) ناحية «نظرية التكميل»، أي أن إنجيل يوحنا جاء ليكمل ما في الثلاثة الأناجيل الأخرى. ولكن الحقيقة أن إنجيل يوحنا يختص بالكشف عن الأغوار اللاهوتية المتروكة في روايات الأناجيل الثلاثة وخاصة تلك الروايات التي سردت الأحاديث والتعاليم والحوار الذي كان يدور بين المسيح والتلاميذ وبين المسيح والمتعلمين من الكتبة والفريسيين أو مع الذين كانوا يناصبونه العداء ليسكوه بكلمة، الذين ما برحوا يحاورونه في أدق وأخطر الأمور ليقعوه في مخالفة قضايهاهم. هذه التشكيلة المعقدة من التزعات والثقافات والنيات استغلها القديس يوحنا في إبراز أقوال وتعاليم المسيح لأنه كان يعلم بالروح أنها نفس التشكيلة لكل عصر قادم، لذلك دقق القديس يوحنا جداً في الكشف عن خلفيات النيات الخفية وراء هذه المصادمات والتي قدم عليها المسيح أقوى الردود، وهي الردود التي أصبحت كما هي في إنجيل القديس يوحنا أعظم مادة يمكن أن تواجه بها الكنيسة كل فلسفات وثقافات العالم المنحرفة في كل عصر.

فإن بدا لبعض علماء الكتاب المقدس وشراحه أن التعاليم التي قدّمها القديس يوحنا في إنجيله إنما تكمل ما جاء في الأناجيل الثلاثة، فذلك مرجعه إلى أنها تعاليم كاملة مجد ذاتها صالحة أن تكمل كل معرفة حقيقية عن المسيح، لأن الإلهام الروحي واضح غاية الوضوح والذي يُقال بالروح يكمل كل معرفة روحية. ولكن لم يكن قصد القديس يوحنا أبداً أن يكمل ما جاء في الأناجيل الأخرى، لأن العلماء يقررون بكل ثقة أن القديس يوحنا لم يكن لديه نسخ من الأناجيل الثلاثة.

ج - كذلك يتجه بعض المفسرين القدامى أمثال اكليمندس الإسكندري^(٢٨) إلى فكرة أن إنجيل يوحنا كُتب من أجل التعليم بمعنى أنه جاء شرحاً للأناجيل الأخرى وليس سرداً تاريخياً كباقي الأناجيل. ولكن للأسف، لأنه حتى وإن كان بالفعل يشرح ما جاء في الأناجيل الأخرى إلا أن العامل الأساسي فيه هو صياغة الحقائق كما هي لغاية واحدة محدودة وهي هكذا: «وأما

²⁶ Euseb., Hist. Eccl. III, 24.

²⁷ Hieron., op. cit., prolog.

²⁸ Euseb., op. cit., VI, 14,7.

هذه (الآيات) فقد كُتبت ... لكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو ٢٠: ٣١). إذن، فهو يهدف إلى غاية عملية وليس نظرية تعليمية.

د - كما يقطع بعض الشُّراح بأن قصد إنجيل يوحنا كان هو التوفيق بين الأمور التي كان متنازعاً عليها لاهوتياً أو تاريخياً. ولكن الحقيقة أن إنجيل يوحنا قدّم مادة إلهية حية من أقوال المسيح وتعاليمه تصلح بجد ذاتها أن ترد وتوفّق وتصلح بين كل المتناقضات، وهذا شأن الروح. فإنجيل يوحنا بأقوال المسيح التي فيه لا يمكن وضعه في موازنة أمام أية مشكلة مهما كانت، فهو وإن كان يردُّ عليها حتماً - لأنه الحق ذاته - إلا أنه في عظمة ورزانة يتفوق فوق كل المشاكل ويظل كذلك أبداً! فهذا الشموخ واجه إنجيل يوحنا كل الفلسفات، ومنها فلسفة الغنوسيين (٢٩) أعتى شيعة للمتعلمين في العالم، وقد كانت أخطر الفلسفات طراً، ولكنه باستعلان الحق الذي في المسيح حكم عليها، وبقي الإنجيل وانمحت الغنوسية.

(٢٩) هم جماعة «المعرفة» يخلطون المسيحية بالسحر والخرافات. وأهم قادتهم فالنتينوس وفاسيليدس وماركيون. وإذا أراد القارئ معرفة شيء عن هذه الهرطقات كلها فليرجع إلى كتاب «التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي»، الطبعة الثانية ١٩٨٧، ص ١٠٥-١١٥.

الفصل الثالث

طابع إنجيل يوحنا

بسيط، إعجازي في بساطته، صافٍ ليس فيه ما يعكّر الفكر وإن كان فيه ما يخيّر أعظم العقول، هادئ كهدوء الأبدية! كلماته حية محمولة على الروح، عميقة لا يمكن الوقوف لها على قرار، ترتفع بمنّ يقرأها كأجنحة سرّية في سرعة وسهولة حتى تضعه أمام الله، وكأن كلامه رؤيا تسلب قارئها وغيته فترة، ثم تتركه وحده ليحكم على نفسه.

ولم يكن جزافاً أن يصف القديس يوحنا القميص الذي كان يلبسه المسيح وقت أن صُلب: «وكان القميص بغير خياطة منسوجاً كله من فوق. فقال بعضهم لبعض لا نشقه بل نقترع عليه» (يو ١٩: ٢٣ و٢٤). نعم كان منسوجاً كله من فوق لم تضمّ أطرافه يد، وحدة واحدة، كاملاً ومنسجماً. هكذا كان إنجيله! ولا يزالون يقترعون عليه لمن يكون في حوزة إيمانه ولم يستطع أحد أن يشقه إلى الآن!

من يقرأ إنجيل يوحنا يمكن أن يتدبّر فيه، ولكن أن ينتهي منه فهذا أمر يفوق الزمن، فإنجيل يوحنا ليست له نهاية لأنه يسلمك إلى ما وراء الكتابة وما بعد الزمن. وبحسب تعبير القديس يوحنا نفسه فهو يفوق طاقة العالم سعة وعلماً وإدراكاً: «وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كُتبت واحدة فواحدة فلست أظن أن العالم نفسه يتسع الكتب المكتوبة. آمين» (يو ٢١: ٢٥). وكان قول المزمور قائم في ذهنه: «لكل كمال رأيت حدّاً؛ أما وصاياك فواسعة جداً.» (مز ١١٩: ٩٦)

إنجيل يوحنا صورة حية للمسيحية التي تحمل طابع الرسولية في أوج نورها واستنارتها، كنيسة العصور الأولى، كنيسة الأغابي (ولائم المحبة) والأسرار والبتولية!!

الكنيسة القبطية لا تزال تحمل طابع إنجيل يوحنا. والذين يعيشون بروحها في إيمان وإخلاص وتقوى التزاماً بتراثها وتقليدها المسلّم مرة للقديسين هم جميعاً كثيرو الشبه بالقديس يوحنا. لذلك،

فإنجيل يوحنا هو السُّفر الروحي الذي أُعطي أن يفكَّ ختومه لكل من تأجج حب المسيح والآب في قلبه وكان أميناً على ماضي التراث وحاضره.

فكر الإنجيل بحسب الشارحين له عموماً هو لاهوتي، أي منشغل بالله إلى أقصى حد، وهدفه أن يُشغل القارئ بالله ويُشعل في قلبه جذوة الإيمان الحي الذي يورثه الحياة الأبدية. ولكنه لا يقدم لنا الله بدون مدخل حي تاريخي فهو حلقات من الاستعلانات عاشها وآمن بها أشد الإيمان ونادى وعلم بها وصلّى بها ما يقرب من ثمانين سنة، إن قلنا أنه أتى إلى المسيح وهو ابن العشرين عاماً وأنهى حياته على الأرض وهو ابن المائة.

والقارئ إذا انتبه يكتشف أن إنجيل يوحنا، من المقدمة حتى النهاية، هو قصة واحدة لاهوتية منسجمة ومتحدة، أو هو استعلان إلهي مرتّب وموَّع تاريخياً، وهو كله واقع تحت مبدأ عقائدي واحد يضم جميع أطرافه. وليلاحظ القارئ الدارس الواعي أن هذه الوحدة اللاهوتية المنسجمة لا تأتي جزافاً أو من مهارة بشر مهما أوتى من مواهب، ولكنها صَنعة حائك سماوي مُطرز بالنعمة. وإذا دققنا نجد أن هذه الوحدة قائمة على عاملين: الأول، رؤية لاهوتية فائقة موحدة للتقليد الرسولي ككل الذي تقوم عليه كل الأناجيل، يراها الكاتب بالروح موَّعة على كل أجزائه فتبدو الأجزاء مترابطة منسجمة وليست مجرد متفرقات من كلمات وعظات ومعجزات عملها المسيح في المكان والزمان، وبذلك يبرز إنجيل يوحنا شخص المسيح متألقاً بكامل صفاته منجمعة في كل زواياه، كما جاءت متفرقة في الأناجيل الأخرى. أما العامل الثاني فهو الغرض والهدف الواحد الذي يجمع أطرافه وهو الإيمان بالمسيح ابناً لله، الأمر الذي كان في زمان كتابته عزيزاً وضرورياً أقصى ما تكون الضرورة في وسط فوضى الهرطقة المحاربن للإيمان الصحيح.

وإنجيل يوحنا، إذا عبّرنا عنه ببساطة، نجده شهادة وليس كرازة، فكاتبه يقف شاهداً لكل كلمة شاهدها وكتبها. وعلى عمق الحق الذي فيه، لا يمكن للقارئ أن يفلت من أن يقع هو الآخر تحت هذه الشهادة. وهذا هو غرض الإنجيل أو غرض الوحي الإلهي الذي أملاه. اسمعه وهو يشهد: «... وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.» (١يو١: ٣٥)

ويلزم جداً أن يعرف القارئ أن الكنيسة التي كُتبت فيها هذا الإنجيل كانت واقعة أثناء الكتابة تحت اضطهاد بليغ مع مقاومات من جماعات منشقة ذات أصول كثيرة تحيّر العقول، منها ما هو يهودي ومنها اليوناني ومنها جماعات مسيحية كانت أعضاء في الكنيسة الأولى^(١) وجرفتها تيارات

(١) يتضح ذلك من هذه الآية: «أُكْتُبُ إلى ملاك كنيسة أفسس. هذا يقوله... أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك وأنت لا تقدر أن تحتل الأشرار، وقد جرّبت القائلين أنهم رُسلٌ وليسوا رُسلًا فوجدتهم كاذبين.» (رؤ١: ٢٥)

بعضها فلسفي وبعضها تصوُّفي وبعضها سرائري سحري. ومن هذه الجماعات مَنْ جاء من اليهودية قبل وبعد خراب أورشليم ومن روما والإسكندرية، ومنهم من كان مستوطناً تلك البلاد منذ مئات السنين بعد سبي ما بين النهرين لليهود. وهؤلاء هم جماعة اليهود الأصوليين الذين كانوا متمركزين في أفسس، وقد كان لهم كيان وجمع وسنهدريم نَشِط. وقد ذكرهم القديس يوحنا في سفر الرؤيا (٢)، لذلك نسمع في إنجيل يوحنا - الذي تأثر من اضطهادهم جداً - ذكراً كثيراً لأعمال اليهود المقاومين للمسيح والإيمان.

إنجيل يوحنا له طابع كنسي سرائري يبدأ فيه تصوير الكنيسة بالإثني عشر في حياتهم السرية حيث كان المسيح فيهم رأساً مدبَّراً وليس رئيساً يحكم، فكان معهم وليس فوقهم «الله معنا» = «عمانوئيل»، «أنا معكم زماناً هذه مدته» (يو ١٤: ٩)، ونسمع المسيح يخاطب الإثني عشر كأحباء بل كأولاد «لا أعود أسمىكم عبيداً... بل أحباء» (يو ١٥: ١٥)، «يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد» (يو ١٣: ٣٣)، «يا غلمان أعل عندكم إداماً؟» (يو ٢١: ٥)

والقديس يوحنا لم يشرح لنا اللاهوت على مستوى المنطق والعقل، أو على مستوى التأمل في ما وراء الطبيعة، وهو لم يعرّفنا حقيقة الله عن طريق الإستبطان أو الخبرة الصوفية أو عن طريق تداريب النسك والتطهيرات اللازمة؛ ولكنه قدّم لنا الله والحق والحياة الأبدية في شخص «رأيناه»: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة، فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم...» (يو ١: ١ و٢١). إذ قدّم شخص ابن الله الوحيد متجسداً متأنساً ليكلّمنا بنفسه عن نفسه وعن أبيه الذي لم يره أحد قط إلاّ هو، الذي عرّفنا بسرّ الحياة الأبدية التي فيه والتي غلبت الموت وبها وفيها قام ونفخها في تلاميذه مقدّماً البرهان على ما يقول بما يعمل حتى «إن لم تؤمنوا بي فأمنوا بالأعمال.» (يو ١٠: ٣٨)

والقديس يوحنا نفسه يقف شاهداً لصدق لاهوت المسيح وتجسده إذ يقدّم نفسه بلا مواربة كشاهد عيان لما رآه وسمعه ولسه، وكشريك أخذ بالفعل من ملئه الإلهي: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو ١٦: ١٦)، أي بفيض متصل. ثم هو في إنجيله يدعونا لمثل هذا الإيمان والأخذ ليكون لنا حياة باسمه.

والقديس يوحنا في إنجيله يقدّم لنا في عروض القصة أو الحادثة أو المعجزة المنظورة سرّ حضور

(٢) «أنا أعرف أعمالك وضيقتك وفرك مع أنك غني، وتعذب القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.»

الله غير المنظور كاشفاً عن الفعل الإلهي المنسوجة منه القصة أو المعجزة، فيحس القارئ بالجانب الروحي الخفي، ويمجد نفسه في مواجهة السرّ الإلهي فيكتشف في المسيح بهاء مجد الله، ويرى فيه صورة جوهره: «لعازر هلمّ خارجاً.» (يو ١١: ٤٣)

وهكذا وعلى مدى صفحات الإنجيل يتجلى في المسيح احتضان الأبدية للزمان باتفاق ومودة وجبروت المصالحة والمُصالح، كما يرى في المسيح ظهور غير المنظور في المنظور دون خداع أو خيال بل عن طريق اللمس والمشاهدة والواقع الحي، كما يرى في المسيح استعلان الحق «بالكلمة» أو بالآية سيّان، وفي النهاية يتحقق أن الله صار مدركاً في شخص المسيح يسوع وأن الحياة الأبدية قد انفتحت كل صنابيرها الغامرة بمفاعيلها السرية لتملأ النفس والعقل والقلب والروح، حيث يتقابل في شخص المسيح الابن المحبوب قلب الله مع قلب الإنسان المهجور: «... الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٤: ٢١). وهكذا يتم الإستعلان عن طريق الحب، استعلان ذات المسيح وذات الله بالتالي. وغياب الحب هو غياب الله. «والذي يبغضني يبغض أبي أيضاً» (يو ١٥: ٢٣). من أجل ذلك لقبوا إنجيل يوحنا بالإنجيل الروحي وكتبه بيوحنا اللاهوتي ويوحنا الحبيب، وذلك من واقع الأثر الفعلي الذي خطّه إنجيل يوحنا في الكنيسة الأولى وما حققته الكنيسة بالفعل من آياته.

ولاهوت إنجيل يوحنا غير جذلي، فهو يقدم الحقائق اللاهوتية كما هي، كما سمعها وكما رآها ووعاها وكما استلهمها بروحه فيما بعد بسّرّ الروح القدس الذي قاده بالوحي من أول كلمة إلى آخر كلمة. فهو لا يستدرج القارئ إلى النقاش أو الجدل ولكنه يعلن عن الحق باقتضاب شديد ولكن بسلطان. فالقديس يوحنا لم يكن بطبيعته رجل منطلق، ولا الروح الذي فيه كان كذلك، بل كان نبياً ورأي العهد الجديد. لم يحاول قط أن يبرهن على حقيقة واحدة ذكرها في الإنجيل، بل ترك الحقيقة تعلن عن نفسها بالسرّ الكائن فيها والروح الكائن في قارئها!

والقديس يوحنا يقرر الحقائق العميقة جداً بكلمات بسيطة جداً: «ورأينا مجده مجداً كما لوحد من الآب» (يو ١٤: ١٤). (ووحيد الآب ترجمة للكلمة اليونانية *μονογενής* = monogenes. والقديس يوحنا هو وحده الذي استخدم هذا التعبير دون باقي كاتبي الأناجيل. والتعبير يفيد «وحدة الجنس» فهو (المسيح) ابن وحيد ليس له مثيل، لأنه يمثل بنوة فريدة لأنها في ذات الله. ويلاحظ هنا أن القديس يوحنا يسمّي المسيح بـ «الوحيد» فقط دون ألقاب أو أوصاف أخرى).

والحقائق التي يقررها الإنجيل بالرغم من أنها ضوابط إيمانية عقائدية غاية في الدقة والعمق والشمول، فإنه يسردها دون أن ينبه الذهن إليها أو يشير إلى أهميتها «المولود من الجسد جسد هو،

والمولود من الروح هو روح» (يو ٣: ٦). ويتحدث عن القاعدة ويطلقها كقانون إلهي ويترك الاستثناء فيقول: «ما دمتم في العالم فأنا نور العالم» (يو ٩: ٥). ولكن المعروف قطعاً أنه نور ليس لكل الذين في العالم بل كثيرون عثروا فيه وفضلوا الظلمة عليه. هذا لم يشغل إنجيل يوحنا حتى لا ينحرف عقل القارىء وقلبه وراء السلبات بل لكي ينطبع بالإيجابية الحرة وحسب. هو ينصح فقط: «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو ١٢: ٣٥). فإذا دققنا نجد أن القديس يوحنا ينظر إلى الغاية التي يحددها الإلهام في قلبه ويصوّب كلماته نحوها دون أن يعرّج هنا أو هناك لأنه يعلم أن مهمته تنصبُّ كلها في قيادة النفس الإنسانية إلى موطنها السماوي؛ إنما تخرج الكلمات بروح رئاسي وبسلطان، مشيرة إلى الفم الذي كان قد نطقها! أليس هو الإنجيل تذكرة السّفَر المحتومة؟

إنجيل يوحنا يفترض في القارىء الإستعداد للسمع والفهم بل ويفترض فيه أيضاً الإيمان. فلو دقق القارىء في أسلوب إنجيل يوحنا فإنه يكتشف خلّوه تماماً من طابع الشخصية للكاتب، فالحقائق مقدّمة بسلطان الله يحس القارىء حيناً يقرأها لأول وهلة أنها بعيدة المنال، بعيدة عن مستوى المعقولات التي تتصورها جميعاً: «...ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو ٣: ٧). قالها المسيح فلما تعثّر فيها نيقوديموس أنكرك عليه المسيح تعثّره: «أنت معلّم إسرائيل ولست تعلم هذا؟» لأنه مفروض أن نيقوديموس يملك مفاتيح ملكوت السموات. لأن الحق الإلهي لا يُناقش بالعقل بل يُستلهم بالروح، فيجده الإنسان أسهل من كل علوم الدنيا. والقديس يوحنا لا يحاول تقريبه للقارىء لتفادي عثرة نيقوديموس على الأقل، ولكنه لا يتدخل قط من عنده لتبسيطها أو شرحها بل يترك في موقف نيقوديموس تماماً. لقد توارى القديس يوحنا نهائياً عن المشاهد جميعها، وأخيراً وأخيراً جداً وفي نهاية إنجيله يقول كلمته ويوبح بالسر: «... هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا. ونعلم أن شهادته حق» (يو ٢١: ٢٤). فالقديس يوحنا اكتفى في إنجيله أن يقدم نفسه لا كشارح ولا كمدافع ولا كمُحاجج ولكن كان مثلاً صادقاً لمن شهد وآمن. وهو يدعوك إلى هذا عينه.

لذلك يحس القارىء أن دعوة الإيمان في إنجيل يوحنا شيء أعلى بكثير عن رغبة الكاتب، بل هي ضرورة ملحة تملئها على الكاتب سلطة إلهية تفوق معرفته وتفوق قدرته بل وتفوق غيرته أيضاً!! فنحن مهما دققنا في الأحاديث الساخنة ومحاجاة المسيح مع اليهود التي سجّلها القديس يوحنا لا نقف على أي أثر لشخصية القديس يوحنا، ولا على أية ملامح لانفعالاته ككاتب أو راوٍ أو شاهد، وهذا ليس من نوع التواضع ولا من قبيل عدم الإحساس بالذات كما يقول بعض المفسرين، ولكن هذا كان وضع كاتب الإنجيل أمام الصوت الإلهي الذي يرنُّ في أعماقه فكان يسجّله كما هو.

لذلك حينما أراد القديس يوحنا في ختام إنجيله أن يعلن صوته بالشهادة لحق الإنجيل الذي كتب، لم يستطع أن يقول «أنا» بل «نحن»: «ونحن نعلم أن شهادته حق». هنا يتذكر القديس يوحنا بقية التلاميذ وكل الذين رأوا وسمعوا الرب وآمنوا به وكأنه معهم. ومع الرب بالروح كان هو يكتب وكان يشهد. فالقديس يوحنا تحصن في كلمة «نشهد» في صيغة الجمع، أي «نحن»، ويستمد منها سلطان الإنجيل كله!!!

ثم مَنْ هو الذي يستطيع أن يعلم في ذلك الوقت (سنة ١٠٠ م). أن شهادة إنجيل يوحنا حق؟ وكل الرسل ماتوا. ثم مَنْ ذا الذي له الحق أن يختم فوق شهادة رسول مثل يوحنا؟ علماً بأن منطق إنجيل يوحنا أساساً أنه يرتفع فوق مستوى شهادة الناس: «أنا لا أقبل شهادة من إنسان...» (يوه: ٣٤). لذلك فشهادة القديس يوحنا الرسول المدموغة بكلمة «نحن» إنما هي أعمق تعبير عن حالة الشركة السرية التي ربطته شخصياً بالرب وبالروح وبكافة الرسل الذين عاينوا كل حقائق الإنجيل معه واشتركوا في حوادثه. فكلمة «نحن» هي في الواقع صوت الكنيسة الأولى كلها وعبر الدهور. وبذلك يكون القارئ مدعواً أيضاً ليكون واحداً من «نحن» كشاهد لحق المسيح الذي أتى ويأتي أيضاً، وذلك كَمَنْ يرى ويسمع بعيني يوحنا وقلبه: «آمين. تعال أيها الرب يسوع.» (رؤؤ: ٢٢: ٢٠)



الباب الثاني

علاقة إنجيل القديس يوحنا
بالعهد القديم

هي علاقة ممتدة تضرب جذورها في كل محيط العهد القديم . فإنجيل يوحنا يجد ذاته وحدة تجميع عظمى لكل الميراث والتراث: آباء وأنبياء وتوراة وناموس ومدارس ربيين والمفاتيح القديمة للملكوت السموات مع المسيا رجاء إسرائيل . سندرسها مع القارىء واحدة فواحدة لعله يكون من الوارثين . وسنجمعها في المواضيع الآتية :

١ - الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا .

٢ - التوراة والناموس في إنجيل يوحنا .

٣ - المسيا في العهد القديم وفي إنجيل يوحنا .

٤ - «إلى خاصته (اليهود) جاء» . تفرّد إنجيل يوحنا في الكشف عن سر كيف ولماذا

«خاصته لم تقبله» .

٥ - النقاط الرئيسية التي ركز عليها إنجيل يوحنا كاشفاً عن درايته الفذة للإمتميازات التي

مُنحت لليهود، والمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية، وتطبيق النبوات على أعمال المسيح .

* * *

الفصل الأول

الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا

لقد اتضح للعلماء أن إنجيل يوحنا له خلفية عبرية يهودية ذات أبعاد عميقة في ذهنية القديس يوحنا الرسول وفي كتابته. وهذا تأكّد لهم بعد أن أرجع بعض العلماء كثيراً منها إلى أصولها الأرامية والعبرانية، وأشهرهم العالم بورني^(١) الذي حلّل تركيب الجمل، وأدوات الوصل، والضمائر، والأفعال، وأدوات النفي، وأثبت أن وراء اللغة اليونانية التي كتب بها القديس يوحنا إنجيله، توجد اللغة الأم للكاتب واضحة. وقد ترجم هذا العالم بعض الجمل إلى الأرامية لكي يثبت أصل التركيب بصورة رائعة حقاً، وسنقدّم بعض الأمثلة لذلك.

ثم جاء بعد بورني العالم توري C.C. Torrey ليثبت صدق ما وصل إليه بورني بل ويتراءى له أن الأناجيل الأربعة مكتوبة أصلاً باللغة الأرامية ومترجمة إلى اليونانية^(٢). وهذا يؤيد ما وصل إليه قديماً (نهاية القرن التاسع عشر ١٨٩٣م) العالم والأسقف لايتفوت، الذي قرّر أن إنجيل يوحنا ربما يكون أكثر كتب العهد الجديد عبرانية^(٣).

ولكن آخر ما وصلت إليه أبحاث هؤلاء العلماء هو أن القديس يوحنا كان صاحب لغتين: اللغة الأم الأرامية التي عاصر بها السيد المسيح وتكلّم بها، واللغة المكتسبة اليونانية التي كتب بها إنجيله.

والقديس يوحنا يدرك أنه يكتب لغير اليهود لذلك اهتم بأن يترجم كل الإصطلاحات أو الكلمات الأرامية أو العبرية إلى معناها باليونانية، وعلى سبيل المثال كتب هكذا:
« كيفاً وترجمتها الصفا أي الصخرة » (يو: ١: ٤٢)،

¹ Borney, Aramaic Origin of the fourth Gospel (1922).

² Hunter, According to John, p. 19.

³ Ibid., p. 18.

- «مسيا أي المسيح» (يو: ٤١)،
«سلوام وتفسيره مُرْسَل» (يو: ٧)،
«توما أي التوأم» (يو: ١١٦)،
«جَبَانًا أي البلاط» (يو: ١٩١٣)،
«جُلُجَّة أي الجمجمة» (يو: ١٩١٧)،
«رَبُّوني أي معلم» (يو: ٢٠١٦).

كذلك يتميز أسلوب إنجيل يوحنا باستخدام واو العطف للربط بين الجمل أو شبه الجمل بدل التركيب للوصل الصحيح في اليونانية، مما يكشف عن تغلّب اللغة الأم في لغة الكاتب، مثل: «وتَقَل...، وصَنَعَ...، وطلّى...، وقال...» (يو: ٧ و٦)، وهذا غير مألوف في اللغة اليونانية. وهكذا يكشف الأسلوب عن الأرامية المخفية وراء اليونانية.

كذلك يتميز أسلوب إنجيل يوحنا بالإستغناء عمّا نسميه أسماء الوصل، مثل «الذي» وحروف العلة «لأن» و «لذلك» و «لكن»، للربط بين الكلام حسب الأصول اليونانية المدرسية، بل إنه يسرد الكلام متتابعاً بدون تعقيد على سجيته الأرامية كجمل متراسة تعطي المعنى تماماً ولكنها تتجاوز أصول التراكيب اللغوية. وذلك واضح في أصحاب ١٥، إذ نجد الآيات متوالية ومتتالية وليست متصلة، لا يوصلها ببعض أي حرف أو كلمة: [«أنا الكرمة...، كل غصن...، وكل ما يأتي...، أتم الآن أنقياء...، اثبتوا فيّ...، كما أن الغصن...، أنا الكرمة...، الذي يثبت...، لأنكم بدوني...، إن كان أحدهم...، إن ثبتتم...، بهذا يتمجد أبي...، كما أحبني الآب... إلخ»]. هذا أسلوب أرامي صرف يستخدمه القديس يوحنا خاصة عندما يسرد أقوال المسيح وكأنه يترجم ترجمة فورية.

كذلك لاحظ علماء اللغة أن القديس يوحنا في أكثر من عشر آيات استخدم الضمائر بحشوزائد كما هو سائد تماماً في الأرامية. وهذا لا يستقيم إطلاقاً مع اللغة اليونانية (ولا حتى العربية):

«الذي أنا لست له مستحقاً أن أحلّ سيور حذائه.» (يو: ٢٧)

«أنتك أنت أرسلتني.» (يو: ١٧ و٨ و٢٥)

كذلك فرط في استخدام الضمائر في بدء الجمل:

«وكل الذين قبلوه إليهم هو أعطى...» (يو: ١٢)

وهذا تركيب أرامي أكيد.

كذلك لاحظ العلماء استخدام الإنجيل لحرف العلة «لكي» $\tau\alpha$ ١٢٩ مرة أي أكثر من ضعف

إلى ثلاثة أضعاف استخدامه في الثلاثة الأناجيل الأخرى. وهو يكشف عن اللهجة الأرامية المتغلبة على نطق الكتاب، ولا يمكن أن تستقيم مع اليونانية الأصيلة.

وقد لاحظ العالم بورني أن القديس يوحنا يستخدم حرف العلة «لكي» في غير موضعه اللغوي، إذ يستخدمه عوض اسم الوصل «الذي»؛ كما في الآية:

«هذا هو الخبز النازل من السماء لكي (الأصح لغوياً «الذي») يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (يو: ٦: ٥٠)

«بل تأتي ساعة لكي (في اليونانية) يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله.» (يو: ١٦: ٢)

كما اكتشف العالم بورني، وذلك سنة ١٩٢٥م، أن بترجمة كلام المسيح كما جاء في إنجيل القديس يوحنا ظهر أن الكلام جاء أصلاً إما سجعاً بالنثر وإما مُقَفَّىً بالشعر، شأنه شأن الأسفار الموحى بها في المزامير والأمثال وغيرها، مما يشير إلى أنها إما من أصل آرامي محفوظ وإما أنها منقولة من أصل واحد مكتوب.

ولكن في سنة ١٩٤٦م جاء العالم متى بلاك^(٤) الذي تقدم خطوة أكثر في أبحاث العالم بورني من جهة أصالة اللغة الأرامية التي وراء الإنجيل، فوجد ترادفاً بديعاً بين ألفاظ المسيح، وأعطى في ذلك المثل الذي جاء في الآية: «كل من يعمل الخطية فهو عبد للخطية» (يو: ٨: ٣٤)؛ حيث كلمة «يعمل» بالأرامية هي «أبد»، وكلمة «عبد» تنطق أيضاً «أبد».

كذلك في كلام المعمدان في قوله عن «العريس وسماع صوت العريس وأنه ينبغي أن ينقص والمسيح يزداد أي يصير الكل». ففي الأرامية كلمة «العريس» تنطق (كال ليثا) والصوت (قالا)، وينقص (قيلال) ويزيد أي يصير الكل (كلال). وهكذا فليتصور القارئ جمع هذه المترادفات ذات الصوت والرّم الواحد معاً كيف تكون الآية إبداعاً في الرنابة النغمية الموسيقية.

وأخيراً جاء العالم دوود Dodd وقرر أن الأرامية تقف وراء إنجيل يوحنا لتبين أن شخصية كاتبه يهودي بكل تأكيد، بالرغم من الوسط الذي كان يعيش فيه واللغة اليونانية التي يتكلمها ويكتب بها.

كذلك يأتي علماء جدد أكثر اقتناعاً بأرامية وعبرية إنجيل يوحنا ويفررون بعد بحوث مضمينة أن هناك تقليداً (منقولات محددة متوارثة بالتزام ودقة) سواء شفاهية محفوظة أو كتابةً، وراء كل أقوال

⁴ Matthew Black: An Aramaic Approach to the Gospels & Acts, 3rd Ed. 1967, pp. 171,147.

المسيح المدوّنة في إنجيل يوحنا، وليس من المستبعد بل هو من العدل أن نقول أن القديس يوحنا كان يحتفظ بها خاصة لديه (°)، وهؤلاء العلماء هم:

Driver, Bultmann, T.W. Manson, Matthew Black.

ولكن كان قد سبقهم منذ مائة عام تماماً العالم التي لايتفوت وقرر ذلك على عهده.

وواضح من أسلوب القديس يوحنا أنه يستخدم التبادل المعنوي بين النفي والإيجاب كما هو في أشعار المزامير تماماً. وذلك في اللغة العبرية يُقصد به من حيث الوحي زيادة التأكيد على السامع، وذلك كله صار من صميم التقليد العبري.

وهذا نجده واضحاً هكذا:

« كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان. » (١ : ٣)

« فاعترف، ولم ينكر. » (١ : ٢٠)

« لكن يسوع لم يأتهم على نفسه، لأنه كان يعرف... ما كان في الإنسان. » (٢ : ٢٤ و ٢٥)

« كل من يؤمن به لا يهلك، بل تكون له الحياة الأبدية. » (٣ : ١٦)

« وأما الغريب فلا تتبعه، بل تهرب منه. » (١٠ : ٥)

« أنا كلمت العالم علانية، ... وفي الخفاء لم أتكلم بشيء. » (١٨ : ٢٠)

كما يلاحظ القارئ أن هذا نفسه هو أسلوبه في رسائله:

« الله نور، وليس فيه ظلمة البتة. » (١ يو ١ : ٥)

« فهو كاذب، وليس الحق فيه. » (١ يو ٢ : ٤)

« نضل أنفسنا، وليس الحق فينا. » (١ يو ١ : ٨)

« نجعله كاذباً، وكلمته ليست فينا. » (١ يو ١ : ١٠)

« وهي حق، وليست كذباً. » (١ يو ٢ : ٢٧)

« يكون لنا ثقة، ولا نخجل منه. » (١ يو ٢ : ٢٨)

كذلك يستخدم إنجيل يوحنا نفس أسلوب الوحي الذي جاء في سفر المزامير وهو تكرار الكلمات ذات الشغل العالي لتنبه روح الإنسان لشدة أهميتها بصورة تأكيدية، كما جاء في مزمو ١١٩ من جهة: « ناموسك»، « وصاياك»، « أقوالك»، « شريعتك»، « أحكامك»، حيث تكرارها ملفت للنظر جداً. هكذا جاء في إنجيل يوحنا مثل مطلع الإنجيل من جهة « الكلمة»:

⁵ Bultmann, cited by: Hunter, op. cit., pp. 17,22.

«الكلمة، والكلمة...، وكان الكلمة...» (١ : ١)

كذلك «الشهادة» يكررها:

— «جاء للشهادة ليشهد...، بل ليشهد...» (١ : ٨٧) وذلك في آية واحدة.
— «إن كنت أشهد لنفسي، فشهادتي...، الذي يشهد لي...، ... أن شهادته التي يشهدها...،
... فشهد للحق...، وأنا لا أقبل شهادة...، وأما أنا فلي شهادة أعظم...، ... هي تشهد لي...، والآب
نفسه... يشهد لي، وهي التي تشهد لي...» وهذه كلها جاءت متوالية وراء بعضها في الآيات (٥ :
٣٩-٣١)

كذلك كلمة «السجود» تتكرر عشر مرات في خمس آيات متتالية:

«آباؤنا سجدوا...، ... يُسجد فيه...، تسجدون...، أنتم تسجدون...، أما نحن فنسجد...، ... حين
الساجدون...، يسجدون...، ... مثل هؤلاء الساجدين له، ... والذين يسجدون...، ينبغي أن
يسجدوا.» (٤ : ٢٠-٢٤)

كذلك كلمة «الخبز» أي الجسد، تتكرر ١٦ مرة متتالية في أصحاح واحد (يو ٦ : ٢٧-٥٨).
ولا يجهل القارئ قيمة «الجسد» في المسيح.

كذلك كلمة «الحياة» ومشتقاتها (الحي، يحيا... إلخ...) تتكرر ١٩ مرة متتالية في نفس هذا
الأصحاح السادس.

كذلك كلمة «الثبات» ومشتقاتها (يثبت، اثبتوا... إلخ...) تتكرر ١٠ مرات في فقرة قصيرة
(يو ١٥ : ١-١٠).

كذلك يهتم إنجيل يوحنا أن يكرر أيضاً الجمل وأشباه الجمل التي تحمل حقائق هامة عن المسيح
للتركيز والترسيخ وزيادة الاستعلان:
«أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه...، أما أنا فأني الراعي الصالح...»
(يو ١٠ : ١١-١٤)

وواضح أمام القارئ أن كل المكررات في إنجيل يوحنا تحمل مجد ذاتها ثقلاً عالياً في الحياة
الروحية وفي الفكر اللاهوتي الخلاصي، وإنجيل يوحنا في هذا يلتزم بالروح العبرية وبالدرجة الأولى.

ويلاحظ العالم وشكوت^(٦) أن إنجيل يوحنا يخالف الثلاثة الأناجيل الأخرى في إيراد ما جاء

⁶ Westcott, The Gospel of St. John, LI.

على لسان المسيح: «فأجاب قائلاً» وهو التعبير الصحيح بحسب اللغة اليونانية. فإنجيل يوحنا يقول هكذا: «فأجاب وقال» (يو: ١٨: ٤٨ و٥٠؛ ٢: ١٩؛ ٣: ١٠ و٣؛ ٤: ١٣... إلخ...) وهو أسلوب أرامي صرف.

ثم جاء العالم الألماني أدولف سلاتر Adolf Slatter سنة ١٩٣٠م، واكتشف في إنجيل يوحنا آثاراً عبرية يهودية أكثر من الأرامية^(٧)، وقدم أمثلة غنية من التعبيرات الخاصة بالربيين وطريقتهم في التعبير. كما اكتشف أن كاتب الإنجيل يتقن طرق البحث والكتابة عند مدارس الربيين.

كذلك أمدنا بعض العباقرة المتخصصين في اللغة العبرية بدراسات فتحت مجالات جديدة هامة في البحث وتأويل الإصطلاحات وردّها إلى معناها الأصلي العبري، أمثال: C.F. Moore سنة ١٩٢٧م، وأبحاثه تنحصر في الديانة اليهودية في فجر المسيحية، والعالم Israel Abraham سنة ١٩٣٧م، وأبحاثه في الفريسية والأنجيل، والعالم Starck Biller Beck's سنة ١٩٢٢م — ١٩٢٨م، وأبحاثه في شرح العهد الجديد بالنسبة للتلمود والمدراش.

وهذه التحقيقات المتقدمة التي بلغها علماء اللغات السامية في دراسة إنجيل يوحنا، يكون قد أدخل أخيراً هذا الإنجيل بمنتهى الهدوء والثقة في جو الفكر اليهودي عائداً إلى تراث العهد القديم بأصوله وفروعه، تربته الأولى التي زرع فيها.

(٧) على القارىء أن يعرف أن اللغة العبرانية هي اللغة المقدسة للتوراة والطقوس والصلوات. أما اللغة الأرامية فهي اللغة الدارجة للحديث والكتابة.

الفصل الثاني

التوراة والناموس في إنجيل يوحنا

كلمة «التوراة» = «توراح» تُعْتَبَر المفتاح لكل الأبحاث والمفاهيم والتعاليم اليهودية وكانت تعني عدة معاني. ولكن المعنى الأصلي القديم يفيد التوجيهات والتعليمات والتعاليم التي استلمها الملهَمون من فم الله.

وكان هذا المعنى يغطي:

أولاً: الوصايا، الشريعة كقوانين ونظم، الأحكام التي تسلمها مشرعو وقضاة وملوك إسرائيل من الله، وكانت تُجَمَع تحت كلمة الناموس.

ثانياً: كل ما كان من الوحي الذي نطق به الكهنة سواء عموميين أو محليين.

ثالثاً: تعاليم أعطيت بضم الأنبياء تخص طبيعة الله وأوصافه ومعاملاته عبر التاريخ ومقاصده من جهة شعبه ومطالبه من الناس.

والخامسة الأسفار الأولى تسمى بالتوراة بنوع خصوصي. ولكن المعنى امتد ليشمل تعاليم الأسفار الأخرى وخاصة تعاليم الأنبياء.

كل هذا اعتُبر أنه استعلانات إلهية تحويها التوراة في المفهوم التقليدي.

أ — التوراة والترجمة السبعينية

عند بدء ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية (الترجمة السبعينية) اختاروا كلمة «الناموس» = Law ليعبروا بها عن التوراة، ولكن أضافوا على ما كانت تحويه التوراة من أصول ثابته ملحقات

أخرى .

ولكن كان الناموس لا يعبر في الفكر اليهودي التقليدي عن التوراة، بل كان يعطي فقط المفهوم الأول المذكور أعلاه أي كل الوصايا من قوانين ونظم وشريعة وأحكام. فهذه وحدها التي كانت تسمى بالناموس في التقليد اليهودي القديم .

ولكن الترجمة السبعينية شملت بكلمة الناموس أموراً غريبة عن مفهوم التوراة في القديم مثل: العوائد، والقواعد الوضعية، والمبادئ المعترف بها، وهذه الإضافات هي من صنع الربيين التي قال عنها المسيح: «وصايا هي تعاليم الناس» أي ليست إلهية. وهي كلها إضافات يهودية مستحدثة بواسطة الربيين تحمل أخطاء شنيعة في التعليم كان من شأنها أن تطمس الحق في كلام الله، لذلك سماهم المسيح: «أتركوهم، هم عميان قادة عميان، وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة» (مت ١٥: ١٤) (أي في فخ الشيطان).

ب — مفهوم الناموس في العهد الجديد

- في حين أننا نجد مفهوم الناموس في الأناجيل الثلاثة وفي سفر الأعمال يقتصر على مضمون الخمسة الأسفار فقط بما تشملهم من قوانين كهنوتية وعلمانية؛
- وفي رسالة القديس يعقوب ابتدأ الناموس يأخذ مفهومه السائد آنئذ عند الرواقين عن الحرية: «ولكن من اطلع على الناموس الكامل ناموس الحرية...» (يع ١: ٢٥)؛
- أما عند القديس بولس فكلمة الناموس تمتد لتشمل المعنى المتسع لتغطي كل العهد القديم باعتباره إعلانات عن الله، مع ميل واضح نحو الفكر اليوناني (الرواقي).
- نجد في إنجيل يوحنا، أو بمعنى أصح في فكر المسيح، أن حدود الناموس هي إلتزام كامل بمفهوم الناموس اليهودي كما حددته الترجمة السبعينية في حدود التوراة ولكن بمعناها المتسع والملتزم بحدود التوراة الأصيلة، أو بمعنى أوضح أنه لم يخرج عن التقليد اليهودي بحدوده المرسومة ولم ينحرف قط ناحية الأصول اليونانية.

هذا الإتجاه الإلتزامي في إنجيل يوحنا من جهة التوراة اليهودية، التي هي القاعدة الأساسية للفكر اليهودي، هو في غاية الأهمية كبرهان ضمني أصيل لتأصل إنجيل يوحنا والتزامه باليهودية. وهذه الدقة غير المعتادة بل والفائقة للتصور من نحو عدم الإنحراف ناحية الفكر اليوناني في ذلك الوقت وذلك المكان، وكون القديس يوحنا يكتب باليونانية لأهل العالم اليوناني آنئذ، لأمر يذهل العقل.

فهو دليل بليغ لإرتباط كاتبه ارتباطاً عنيداً بنقل صورة صادقة أمينة حية لما قاله المسيح تماماً وبكل تحفظ.

ج - الناموس في إنجيل القديس يوحنا

١ - يو ٧ : ٥١ و ٥٠ «فقال لهم نيقوديموس - الذي جاء إليه ليلاً - وهو واحد منهم (من الفريسيين)، ألعن ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل.»
حيث نص الناموس (١) هكذا: [أي لحم ودم إذا سمع الكلمة من إنسان (مخالف) يُحكم عليه، فإذا لم يسمع منه أولاً فلا يقوم عليه الحكم.]

٢ - يو ٨ : ١٧ و ١٨ «وإن كنتُ أنا أدين فدينونتي حقٌ لأنني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني. وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق. أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني.» والمقابل في التوراة: أنظر عدد ٣٥: ٣٠، تث ١٧: ٦، تث ١٩: ١٥.

٣ - يو ٧: ٢٣ وهنا يعنى الإنجيل في الكشف عن عمق وأصالة الدراية التي للقائل والكاتب بالناموس كما يفهمه الرييون حرفياً، حيث نجد التوراة منسوبة لموسى هكذا: «فإن كان الإنسان يقبل الختان في السبت لثلاً يُنقض ناموس موسى أفتسخطون عليّ لأنني شفيت إنساناً كله في السبت.»

هنا تظهر معرفة المسيح الدقيقة في إنجيل يوحنا بالإستثناءات التي وضعها الرييون حيث يقول التلمود: [الختان يرد (ينقض) وصية السبت.] (٢)

٤ - يو ٩ : تفتيح عيني المولود أعمى يوم السبت.
حيث أقيمت محكمة جزئية (ليست على مستوى السنهدريم) وتتكون من عدد من الفريسيين تختص بطرد الأعضاء الذين يكسرون الناموس من المجمع أو ربما رجمهم.
وقد أقاموا القضية على أساس أن الأعمى الذي صار بصيراً يعترف بإنسان على أنه نبي مع أنه لا يحفظ السبت، فهو يستحق الرجم، على أن لا يُحسب هذا أنه نبي بل خاطيء.

أ - في البداية انقسم الفريسيون على بعضهم، فالفريق الأول تمسك بتعليم أحد الربيين

1 Exod. R. 21.2. Cited by: Shlatta & Dodd. op. cit., p. 78.

2 Ibid.

العظام وهو هالليل الكبير^(٣) صاحب المدرسة التي تتمسك بالحقائق الواقعة وفحصها على الواقع دون التأويل، فقالوا إن المسيح بما أنه أكمل معجزة لذلك لا يُحسب خاطئاً.

ب - المدرسة الأخرى لربي آخر اسمه شمائي^(٤)، وهي تأخذ بالنطق وبالمبدأ العام الذي يفوق الواقع، فقالوا هذا الشخص ليس من الله ولا يحسب نبياً صادقاً لأنه كسر الناموس.

وعلى أساس هذا الخلاف لجأوا إلى الولد نفسه بعد أن سألوا والديه وتحققوا من إتمام المعجزة وعرفوا أنه كامل السن يتحمل كل المسؤوليات. وكانت النية مبيّنة أن يجعلوا الأعمى الذي انفتحت عيناه يشهد أن يسوع ليس نبياً، لأنه يمكن الطعن في نبوته على أساس أنه رجل خاطيء لأنه يكسر الناموس، وحينئذ يُصدّق حكم مدرسة شمائي على المسيح نفسه. فإذا لم يشهد أنه نبي حينئذ يشككوه في صحة عملية الشفاء كآخر وسيلة لإخراجه هو من العقاب، وهذا يظهر من السلوك الآتي:

استدعوا الولد لثاني مرة وبادروه بأمر رسمي خطير (بحسب الناموس مبيّنين على غرض سييء): «قالوا له: أعطِ مجداً لله Δός δόξαν τῷ θεῷ». وهذه الجملة خطيرة للغاية - وكثير من الشراح لم يفتنوا إلى ما وراءها إذ حسبوها تمجيداً لله وحسب - ولكن هي جملة التمهيد القانوني لرجم الأعمى الذي تمت فيه المعجزة أو توقيع عقاب شديد عليه، وذلك بحسب شرح المِشْنَا^(٥)، إذ يتحتم قبل رجم المحكوم عليه أن يعترف، إذ تقول المِشْنَا: [إنه وهم رافعون الحجر وهم على بعد عشرة أذرع (الذراع = ١٨ - ٢١ بوصة) يأمره أن يعترف، وذلك بقولهم: «أعطي مجداً لله»، وذلك بقصد أنه إذا مات يكون قد اعترف وأعطى المجد لله فيكون له نصيب في الدهر الآتي]. وهذا ما تم بالفعل في محاكمة عخان بن كرمي ورجه: «فقال يشوع لعخان يا ابني أعطِ الآن مجداً للرب إله إسرائيل واعترف له، وأخبرني الآن ماذا عملت» (يش ٧: ١٩). وبعد ذلك حكم بجرمه هو وأسرته وحرق ممتلكاته.

فلما أعطى الولد المجد لله أصر على صحة المعجزة ورفض رفضاً باتاً الإنصياع وراءهم أن يسوع رجل خاطيء، بل ورفض أن يكرر لهم طريقة شفائه ولم يعأ بنيتهم وتهديدهم له بالموت. فلما أيقنوا أن كل محاولاتهم باءت بالفشل شتموه [هذا خطأ قانوني]، وهددوه ملوِّحين بنوع العقوبة التي تناسب اتهاماً آخراً: «أنت تلميذ ذلك» مما يفيد بأنهم صمموا على تطبيق القرار الذي وضعه السنهدريم «أن كل من يعترف بيسوع يُطرد من المجمع». ودافع الولد عن يسوع المسيح دفاعاً أظهر

³ Ibid.

⁴ Ibid., p. 18.

⁵ Cf. Mishnah san. 6,2. Ibid.

فيه أنه لم يُعْطَ عينين فقط بل بصيرة وقلباً شجاعاً لا يهاب الموت في سبيل الشهادة للحق!!

وكان ردهم عليه: «أنت وُلدت في الخطايا بجملتك وأنت تعلمنا». لاحظ هنا سوء فهمهم لفقد العينين عند الأعمى أنه بسبب خطايا وخطايا والديه (وُلدت في الخطية بجملتك). «أما نحن فإننا تلاميذ موسى» ومعروف أن هذا هو أرفع لقب فخري للفريسيين في التلمود^(٦)... هنيئاً لهم!

وهكذا نجد في هذا الفصل أنه قد ورد على لسان يوحنا الرسول كل التعبيرات القضائية وأصول المحاكمات التي يتقنها الربيون، بكل دقة وأصالة مما يفيد قدرته الفذة وتضلعه بأساليب الربيين وقوانين التوراة.

وأخيراً، فن جهة الناموس لا ننسى أن القديس يوحنا منذ أن آمن بالمسيح وهو يترفع على ناموس موسى بجملته: «لأن الناموس بموسى أُعطي أما النعمة والحق فييسوع المسيح صاراً» (يو: ١٧: ١٧)، حيث «النعمة والحق» كان اليهود الربيون يقولون أنها تأتي كثمرة لدراسة التلمود. فهنا يكون القديس يوحنا قد نفى عن التلمود هذه الموهبة ورفعها عنه بعد ظهورها واستعلانها علنياً في شخص يسوع المسيح، وهذا يفيد ضمناً دراية القديس يوحنا السابقة بقيمة التوراة عند الفريسيين.

د — الحياة الأبدية بين التوراة والمسيح

وذلك فيما يخص نوال الحياة الأبدية وهي تأتي بلسان المسيح:

«الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته وليست لكم كلمته ثابتة فيكم، لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به. فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياةً أبدية. وهي التي تشهد لي. ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة.» (يوه: ٣٧-٤٠)

هذا الحديث يكشف عن دراية عميقة بمبادئ الربيين المتوارثة. فكلمة «فتشوا» كلمة مدرسية ترد على لسان الربيين، وتعني الدراسة المركزة بشدة للتوراة أي «المِدرَاش». فهذه الدراسة حسب تعليم الربيين الخاصة تؤدي إلى الحياة الأبدية: [التوراة بهذه الطريقة تعطي الذين يمارسونها حياة في هذا الدهر والدهر الآتي.]^(٧)

والإنجيل هنا يعارض هذا «الظن» بجملته وبكل ما يتبعه من جهد لسبب واحد وهو أن

⁶ Ibid., p. 81.

⁷ Pirqe Aboth vii.6. Cited by: C.H. Dodd, p. 82.

« كلمة الله اللوغس » أي استعلان الله الحقيقي غير موجود في قلوبهم « لأن كلمته ليست ثابتة فيكم ». إذن، ليست كلمات التوراة بعد هي التي تعطي الحياة، ولكن كلمة الله المسيح الذي هو طريق الحياة وبابها الوحيد: « الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة. » (يو: ٦٣: ٦٣)

هـ — ماء الحياة بين التوراة والمسيح

في قصة عرس قانا الجليل نجد ستة أجران ماء مُعدّة للتطهير حسب الناموس، لكلّ يوم جُرُون واليوم السابع استراحة ليس له تطهير. هذه حوَّها المسيح إلى خمر لتطهير آخر في سر الخمر المتحول إلى دم، فإن ذلك كان تطهيراً حسب الجسد وهذا تطهير وتقديس للروح بإهراق دم المسيح وانسكاب الحياة الأبدية منه.

وماء بُر يعقوب ذخر الأجيال وميراث أبناء يعقوب المحبوبين كبركة للحياة، هذا صار مُعْطِشاً بجلوس المسيح عليه. هذا حوَّله المسيح إلى ماءٍ حَيٍّ ينبع إلى الأبد بالإيمان بالمسيح إسرائيل الجديد، عَوْض يعقوب إسرائيل القديم.

وإذا كان في التلمود تتركز الإشارات كلها وفي مواضيع عديدة وخاصة في المدراس (أي كتاب دراسة التوراة) أن التوراة هي ماء الحياة [كما أن الماء هو الحياة بالنسبة للعالم، هكذا كلمات التوراة هي حياة العالم.] شرح على سفر التثنية ١١: ٢٢-٢٨؛ فقد جاء إنجيل يوحنا ليركّز على أن الإيمان بالمسيح وكلامه هو ينبوع ماء الحياة الأبدية.

و — خبز الحياة بين التوراة والمسيح

التوراة كانت تشير في تعليم الربيين أن كلامها هو خبز الحياة للسامعين، وأن عطية هذا الخبز من السماء صارت على يدي موسى: [إذا جاع عدوك فأطعمه بكلام التوراة وإذا عطش فأزوّه بكلام التوراة]^(٨). جاء هذا على لسان رابي براخيا (بزيكتا ٨٠-ب).

وفي شروحات الربيين خلطوا بين خبز التوراة ومَنّ موسى النازل من السماء، فيقولون أنه عندما ارتوى الشعب من ماء التوراة أرسل إليهم الماء من الصخرة، وعندما تغذى الشعب على كلام التوراة

⁸ Ibid., p. 83.

نزل عليهم المنّ من السماء. لذلك ظنوا أنه عند مجيء المسيا سينزل المن من السماء كعلامة مجيئه.

وعلى هذا يردُّ إنجيل يوحنا: «آباؤنا أكلوا المن في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي (وهو) يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم. فقالوا له يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز. فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة، من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو: ٦: ٣١-٣٥)

وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد أنهى على رجاء الربيين في التوراة وفي المنّ المنتظر بإعلانه عن نفسه أنه هو خبز الحياة الذي نزل فعلاً من السماء ليكون حياة للعالم كله سواء بكلمته كينبوع روح الحياة أو جسده كما أكل للحق وللحياة الأبدية.

ز — الخمر بين التوراة والمسيح

لقد جعل الرّبّيون الخمر رمزاً للتوراة أي أنها تُطَيّب القلب وتُهّج الفكر وذلك في شرحهم لكلام الحكمة الذي جاء في سفر الأمثال: «هلموا كُلوا من طعامي واشربوا من الخمر التي مزجتها» (أم: ٩: ٥). فشرحها الربيون هكذا: [الله تكلم: ما السبب في جعلكم تأكلون المن وتشربون من البئر (الصخرة)؟ هذا بسبب أنكم قبلتم الأوامر والوصايا وهكذا باستحقاق خبز (التوراة أي كلامه) أكلتم المنّ، واستحقاق الخمر التي مزجتها لكم (أي كلام التوراة المشروح) شربتم من ماء البئر (الصخرة).]^(٩)

وبهذا يكون الربيون قد جعلوا الخمر رمز التوراة.

وعلى هذا كانت أول معجزة قام بها المسيح في إنجيل يوحنا هي إعطاءهم خمرًا جيداً بتحويل الماء الذي للتطهير (رمز التوراة). وجاء على فم رئيس المتكأ تلميح أن الخمر الأول الذي كان يُعطى هو الدون أي رديئاً، وأن الجيد جاء بعد الرديء. وهكذا يعن إنجيل يوحنا في إعطاء المقارنة بين خمر الربيين وخمر المسيح أي بين «شبه السموات وظلّها» (عب: ٨: ٥) وبين الحق الإلهي (الأليثيا) الذي استعلن بالمسيح.

^٩ Ibid., p. 84.

ح - النور بين التوراة والمسيح

في شرح الربيين لسفر العدد (٥٢:٦) فصل ٤١ على بركة الكهنوت: [يضيء الرب بوجهه عليك أي بنور التوراة.]

وأيضاً في شرح (بابا باثرا ء أ) وشرح (بابا ابن بطا) موجّهين كلامهم إلى هيرودس الكبير بعد أن قتل الربيين: [أنت قد أطفأت نور العالم]. وهذا كان شائعاً أيام المسيح، فكان رد المسيح عليهم هكذا: «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمسي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو:٨:١٢). وهذا أشار الفريسيين فقالوا له: «أنت تشهد لنفسك! شهادتك ليست حقاً. أجاب يسوع وقال لهم: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم من أين أتيتُ وإلى أين أذهب» (يو:٨:١٣ و١٤). وطبعاً يشير المسيح هنا إلى المقارنة بين مجيء التوراة على فم موسى - بيد ملائكة - وبين مجيئه هو من الآب وأنه هو مصدر النور في التوراة. وللأسف جاء النور الحقيقي إلى خاصّته أما خاصّته فلم تقبله - لأنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور.

وقد أشارت الأناجيل الثلاثة إلى حادثة التجلي: «وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه» (مت ١٧: ٢ و٣). وكانت هذه إشارة واضحة أن المسيح هو التوراة الجديدة كلمة الله المنيرة التي لما قبل موسى قديماً شَبَّهها وظلَّها فقط لمع وجهه. وها هنا موسى نفسه جاء ليشهد له.

ولم يكن جزافاً أيضاً أن يظهر المسيح لشاول في وسط النهار في السماء بوجه أكثر لمعاناً من الشمس لكي يدرك شاول أنه صار خادم الأقداس العليا وليس عبداً بعد يُرْفَع ناموس موسى.

وفي إنجيل يوحنا لم تُذكر حادثة التجلي باعتبار أن المسيح كان متجلياً بطول إقامته: «ونحن رأينا مجده»، وهذه بحمد ذاتها إشارة أيضاً إلى التوراة الجديدة لإستعلان مجد الله بالإنجيل في وجه يسوع المسيح.

وهكذا تتضافر كافة الأسفار وخاصة إنجيل يوحنا في دحض دعوى الربيين والحكماء اليهود فيما يخص التعليم الصحيح عن الله وكلمته.

الفصل الثالث

المسيّا في إنجيل القديس يوحنا (١)

ماشِيح (عبري) *māšiāh*

ماشِحا (أرامي) *m'šihā'* ميسسِياس (يوناني)

(يو: ١: ٤١ و ٤: ٢٥)

أ - لقب المسيا خالياً من المفهوم السياسي:

إنجيل يوحنا يُعتَبَر الوحيد بين جميع أسفار العهد الجديد الذي استخدم كلمة «مسيّا» (وهي الترجمة اليونانية للكلمة العبرانية كما جاءت في كتب اليهود). وذلك في إنجيل يوحنا ١: ٤١: «هذا وَجَد أولاً أخاه سمعان فقال له قد وجدنا «مسيّا» الذي تفسيره المسيح». وظل إنجيل يوحنا يستخدم بعد ذلك لقب المسيح بدل مسيّا إلا في أصحاب ٤ عدد ٢٥: «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيّا (الذي يُقال له المسيح) يأتي. فتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء».

ولكن حَرَصَ إنجيل يوحنا أن يستخدم اللفظين «مسيّا» و«المسيح» ليس بالمفهوم الذي كان متداولاً بين الشعب بحسب النبوات التي كانوا يترقبون تميمها، لأن شخصية «مسيّا» كانت مرتبطة في النبوات بالملك الذي سيأتي من بيت داود يملك على إسرائيل مُلكاً فُهِمَ في التقليد فهِماً سياسياً، الأمر الذي تحاشاه إنجيل يوحنا بكل حرص في كل ما كان يرتبط بشخص الرب، حتى لا يظهر المسيح على الأساس السياسي الذي كان يتلفه الشعب ويخشاه الفريسيون والرّيّيون ويعملون له ألف حساب.

(١) «مسيّا» بالعبري تعني «المسوح»، لذلك ترجمتها السبعينية بـ«المسيح» أي المسوح $\chi\rho\iota\sigma\tau\acute{o}\varsigma$ من أصل الكلمة $\chi\rho\iota\omega$ أي «يسح»، بمعنى «الدهون» بقرن الدهن تليكاً على إسرائيل. والوعد بالمسيح أو المسيا جاء على فم ناثان النبي لداود الملك بأن من نسله من يأتي يملك على كرسيه لإسرائيل إلى الأبد (٢ صم ٧: ١٢-١٧).

علماً بأن كافة النبوات التي جاءت عن شخص المسيا أو الشخص المنقذ لإسرائيل كملك على بيت داود خلطت بين أوصاف الملك السياسي والملك الروحي، أي بين الشخصية الملكية التي تبدو دنيوية والشخصية الإلهية التي للمسيح. كذلك فالأنجيل الثلاثة لم تفرّق بوضوح في بادئ الأمر — خاصة إنجيل لوقا — بين هذه الصفات بل وأمعنّت في التأكيد بأنه «المسيح الملك». (لو ٢٣: ٢)

ولكن إنجيل يوحنا حينما ذكر الملوكية للمسيح، أعلنها على أنها «ملك إسرائيل» (١: ٤٩)، وذلك على لسان ثثنائيل. هذا صحيح لأن هذا هو لقب يهوه نفسه كما جاء في سفر إشعياء (٤٤: ٦).

غير أن هذا اللقب، أي «ملك إسرائيل»، اختاره أيضاً الكهنة والفريسيون حينما كانوا يخاطبون المسيح وهو على الصليب للتحقير (مت ٢٧: ٤٢ ومر ١٥: ٣٢).

أما إنجيل يوحنا فقد اختار هذين اللقبين معاً «مسيا» و«ملك إسرائيل» اللذين يخصّان ابن الله فعلاً. فـ«مسياً» هو حسب آمال اليهود وتحقيق نبوات الأنبياء، و«ملك إسرائيل» (الجديد) هو على المستوى الروحي وليس السياسي، لأن السياسي ينحصر في لقب «ملك اليهود»، وقد ورد دون اختيار إنجيل يوحنا على لسان بيلاطس البنطي في يو ١٨: ٣٣ حيث هذا اللقب مكروه غاية الكره عند اليهود: «فقال (بيلاطس) لليهود هوذا ملككم... أجب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلاّ قيصر. فحينئذ أسلمه إليهم ليُصلّب... وكتب بيلاطس عنواناً ووضع على الصليب وكان مكتوباً يسوع الناصري ملك اليهود... فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس لا تكتب ملك اليهود.» (يو ١٩: ١٤-٢١)

ولكن حينما سأله بيلاطس: «هل أنت ملك اليهود؟ أجابه يسوع أميناً ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني؟» (يو ١٨: ٣٣ و٣٤). وقصد المسيح بذلك أن يوجه سؤالاً خطيراً لبيلاطس بمعنى هل أجاب على سؤالك على أنك وأنت روماني تعني هذا فعلاً؟ آخذاً كلمة «ملك» على أساس سياسي؟ فلما أجاب بيلاطس أنه إنما يكرر الإتهام الذي وضعه اليهود عليه وهم المسؤولون عن ذلك الإتهام، حينئذ أجاب يسوع ليوضح له أنه فعلاً ملك ولكن ليس بالمفهوم السياسي: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خُدّامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا». فانتزح بيلاطس هذه الفرصة ليأخذ عليه أنه قال أنه ملك قائلاً: «أفأنت إذأ ملك؟ أجاب يسوع أنت (الذي) تقول أي ملك. أنا أتيت إلى العالم لأشهد للحق لهذا ولدتُ أنا» (الترجمة الدقيقة) (يو ١٨: ٣٦ و٣٧).

وواضح أن الإنجيل يقصد من اصطلاح «ملك» في مضمون كلمة «مملكتي» لقب المسياً الخاص اليهودي كصاحب سلطان على المستوى الروحي ولكن «ملك» فقط لمن يعرف الحق وأنه جاء ليُسلّم هذا الحق للعالم.

ولقد كان المسيح حريصاً أن لا يُشاع عنه أنه «المسياً» مسيح الرب: «وأنتم من تقولون أني أنا؟ فأجاب بطرس وقال مسيح الله. فانتهرهم وأوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد» (لوقا: ٢٠: ٢١) وذلك تحاشياً لخطأ إثارة مشكلة الملك السياسي.

ب - المسياً، لا يعرف أحد من أين يأتي:

«ولكن هذا نعلم من أين هو، وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو» (يوحنا: ٧: ٢٧). هذا كان شائعاً في المصادر اليهودية عموماً أن المسياً قد أتى إلى العالم ولكنه مُخْفَى بالعناية الإلهية، وأنه سيظهر فجأة ولا يعرف أحد من أين يأتي، ويكون إنساناً كاملاً مهياً للعمل الذي سيصطلع به وأهمه حكم إسرائيل، لذلك فنذ ميلاده وحتى ظهوره سيكون أمراً مخفياً. وقد اجتهد بعض الربيين في التخمين أنه ربما يكون في روما أو في الشمال والبعض قال أنه اختفى في الفردوس لبعض الوقت. وفي مؤلف يهودي معاصر لإنجيل يوحنا وهو سفر عزرا الرابع ١٣: ٥٢ يُرمز إليه بأنه سيظهر من البحر (على القاريء أن يربط ذلك مع سَيْر المسيح على المياه وظهوره فجأة في كفرناحوم - يوحنا: ٦: ٢٤ و٢٥). على هذا الأساس بدأ اليهود يحاورون يسوع أنه لا يمكن أن يكون هو المسياً لأنه معروف أنه من الجليل، ولكن بتهم ظاهر يرد عليهم المسيح أنه لا من روما ولا من الشمال ولا من الفردوس بل من الله نفسه: «فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً: تعرفوني وتعرفون من أين أنا. ومن نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني.» (يوحنا: ٢٨ و٢٩)

ج - المسياً لا يموت:

«فأجابهم الجمع نحن سمعنا من التوراة أن المسيح يبقى إلى الأبد. فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان.» (يوحنا: ١٢: ٣٤)

هذا لأن الشعب كان قد تسلم من الربيين تعاليم عن التوراة مأخوذة بالفكر الجسدي (إش ٩: ٧) أن الملك الآتي (أي المسياً) سيحكم إلى الأبد، فأخذها الربيون أنه حكم زمني على الأرض.

ويدحض الإنجيل هذه الحججة ويرد عليها من واقع نصها الأصلي من الأنبياء. ويرد عليها بأن

الموت الذي سيباشره المسيح إنما بقصد أن يقوم ويبقى إلى الأبد، ليكون سلطانه على السماء والأرض، وليس ذلك فقط بل لكي يعطي كل من يؤمن به أن يبقى هو أيضاً حياً إلى الأبد.

الفصل الرابع

« جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله »

تفرّد إنجيل يوحنا في الكشف عن

سر كيف ولماذا « خاصته لم تقبله »

التخصص الأول والأساسي لإنجيل يوحنا هو استعلان طبيعة المسيح — كابن الله — وبالتالي استعلان اسم الآب وتمجيده كنتيجة حتمية لاستعلان وظهور الإبن. ولكن وإن كان هذا الاستعلان يخص بالدرجة الأولى خاصته أي شعب إسرائيل، إلا أنه جاء وفي تصميمه أن يجمع خرافاً من حظائر أحر (١٦:١٠) غير شعب إسرائيل، ويجمع « أبناء الله المتفرقين » (١١:٥٢) في جميع أنحاء العالم الذين اختصهم الروح منذ البدء ببصيرة نيرة للسعي وراء الحق الذي كانوا يتقبونونه « لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم » (٣:١٧)، « وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة » (٣:٢١). « لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أُتيتُ إلى العالم لأشهد للحق. كلُّ مَنْ هو من الحق يسمع صوتي. » (١٨:٣٧)

ولكن بالرغم من هذه الدائرة الهائلة المتسعة لعمل المسيح في العالم ومن أجل العالم، إلا أنه اختصَّ إسرائيل باستعلان ذاته أولاً ليتمجّد إسرائيل، كوعد الآباء والأنبياء « نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل. » (لو ٢:٣٢)

هذا وبالرغم من ذلك أيضاً نجد أن إنجيل يوحنا يقوم — أكثر من جميع أسفار العهد الجديد — بمهمة فضح عيوب هذه الأمة المختارة شعباً ورؤساء وكهنة وناموسيين وفريسيين وكشف المدى المؤسف الذي انتهت إليه العبادة المقدسة إلى تجارة!! « لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة » (يو ٢:١٦)؛ وكيف انتهى الناموس وانتهت الوصايا إلى تخريج فتاوي وتزييف حقائق حتى صارت « تعاليم هي وصايا الناس » (مت ١٥: ٩، مر ٧: ٧)، وانحرف شرحها عن الحق وأبعدها عن مصدرها الذي هو

النور والحق والحياة، حتى وقع المعلم والتلميذ في ظلمات الجهالة والفساد، والأعمى قاد الأعمى إلى الحفرة. «أتركوهم هم عميان قادة عميان» (مت ١٥: ١٤). «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي — مفرد λόγος (الحق) — أنتم من أب هو إبليس.» (يو: ٤٣ و ٤٤)

ولكن رسالته كانت تحتم أن يبدأ بإسرائيل، خاصته. فكلمته الأولى لا بد أن تُزرع في تربتها الأصلية لأن قلوباً كثيرة كانت تنتظرها بفارغ الصبر وهي معها على ميعاد. أليس هو القائل أن «الخلاص من اليهود» (يو: ٤٢: ٢٢)؟

لقد جهلوا الاستعلان وقت ظهوره لأن كلمة الله العظمى والخوفة التي سُلمت إليهم بيد ملائكة بددوها وطمروها في طين أطماعهم وشهواتهم «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتُم هيئته وليست لكم كلمته λόγος ثابتة فيكم.» (يو: ٣٧ و ٣٨)

وطبيعة الله الذي كانوا يعبدونه بالجهد نهاراً وليلاً بأوفر غيرة وتوقير وحماس لم يعرفوها إذ لم يكن لها وجودٌ في قلوبهم ولا أدركوا ماذا يعبدون ومَنْ يعبدون: «وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» (يو: ١٦: ٣)، «فقالوا له أين هو أبوك. أجاب يسوع لستم تعرفوني أنا ولا أبي. لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو: ١٩: ١٩)، «أبي هو الذي يمجّدي الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه.» (يو: ٥٤ و ٥٥)

والمسيح يعثّفهم بشدة على كبر يائهم الكاذب وثقتهم في الله التي ليس لها أساس في قلوبهم وسلوكهم. فحقائق إيمانهم المسلّم إليهم وتاريخ عناية الله بهم وإعزازهم لهم على أساس أمانتهم ذهبت أدراج الريح، وعاشوا وبتوا بلا تاريخ صادق وبلا ميراث لأن الله سحب كلمته من قلوبهم واستردّ مفاتيح ملكوت السموات التي أغلقوها في وجه الداخلين، فلا دخلوا هم ولا جعلوا الداخلين يدخلون. فانغلقت عيونهم وقلوبهم عن أن ترى أو تسمع لأنهم أساءوا إلى إلههم واستهانوا بمخلصهم.

الله تراءى لآبائهم، أما هم فعميت أبصارهم. فأين هم من ميراث يعقوب «فدعا يعقوب اسم المكان قَنِيئِيل. قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه وتُجِّيت نفسي» (تك ٣٢: ٣٠). ثم أين هم من مخافة آبائهم ورغدتهم عند سماع صوت الله من بعيد؟ «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدتّن. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع. ولا يتكلم معنا الله لثلاث موت.» (خر ١٨: ١٩)

أين الأمانة والوِدّ وعبادة الحب التي أحب الله فيها إسرائيل كعروس فعاشت أيامها الحلوة في كنف عريسها الذي تراءى لهم فيها بشبه مجده، ومن فرحهم واطمئنانهم ودلتهم جلسوا أمامه وأكلوا

وشربوا في حضرته كإفخارستيا عظمى سابقة لأوانها: «ورأوا إله إسرائيل وتحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشرف بني إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا وشربوا.» (خر ٢٤: ١٠ و١١)

ثم أي شعب من شعوب الأرض طُرّاً تعاهد الله معه بصوته وسط النار ولقنه كلام شريعته مسموعة ومكتوبة؟ عشر كلمات خرجت من فم الله كميثاق وعهد خانها إسرائيل وأفسدها وأعطى لصاحبها القفا دون الوجه، نقضوها وادّعى رؤساؤهم ومعلموهم كذباً ورياءً أنهم لها حافظون: «فكلّمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ولكن لم تروا صورة بل صوتاً وأخبركم بعهده الذي أمركم أن تعملوا به (أي) الكلمات العشر وكتبه على لوحين حجري» (تث ٤: ١٢ و١٣). «من السماء أسمعك صوته لينذرك. وعلى الأرض أراك ناره العظيمة وسمعت كلامه من وسط النار. ولأجل أنه أحب آباءك واختار نسلهم من بعدهم...» (تث ٤: ٣٦ و٣٧). «وجهاً لوجه تكلم الرب معنا في الجبل من وسط النار أنا كنت واقفاً بين الرب وبينكم في ذلك الوقت لكي أخبركم بكلام الرب. لأنكم خفتن من أجل النار.» (تث ٥: ٤ و٥)

جاء المسيح في إنجيل يوحنا وكأنه يحاسبهم على كل هذه المراحل والعهود والوعود الطيبة مع كل التديلات التي دلى الله بها شعبه الذي لم يترع عهداً ولا وعداً. بدأ المسيح يحاسب الرؤساء على الوكالة، كان يتكلم كمن هو نادم على المراحل العظمى التي أسبغها عليهم مجاناً فعبثوا بها وأهانوا مُعطيها: «لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم... الذي من الله يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يو ٨: ٣٩ و٤٧). «لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذلك فكيف تصدقون كلامي؟» (يو ٥: ٤٦ و٤٧)

الفصل الخامس

دراية إنجيل القديس يوحنا بالنسبة للعهد القديم

- (١) درايته للإمتيازات الفائقة التي منحت لليهود.
- (٢) درايته المدروسة للمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية.
- (٣) استخدامه للنبوات وخاصة ما كان يشير فيها للمسيا.

(١) وفي مطلع الإنجيل، وكأنها عريضة الإتهام التي تسبق المناقشة والحكم إزاء الإمتياز الصارخ الذي خانوه بإصرار راسخ: «إلى خاصّته جاء (النور) وخاصّته لم تقبله» (يو: ١: ١١)؛ ذلك لأنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور؛ يضع الإنجيل موضوع اليهود كإفتتاحية عامة لرسالة المسيح وكأنه الموضوع الشاغل للمسيح منذ البداية. وبهذا المعنى بدا المسيح وكأنه يطالب بمكاته المفروضة والمهملة بين المراكز الدينية!

أما كون المسيح يمتّ لإسرائيل كما كان الله في العهد القديم، فهذا واقع ملموس. اسمعه وهو يستقبل تلميذاً يهودياً صادق الروح والعبادة، ولأول مرة، إنه نثنائيل: «هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه» (يو: ١: ٤٧). اسمعه يخاطب السامرية مفتخراً بإسرائيل صنّعة يديه: «إن الخلاص هو من اليهود» (يو: ٤: ٢٢). ومفتخراً بعبادة إسرائيل الذي وضع أساسها المتين: «أما نحن فنسجد لِمَا نعلم!!» (يو: ٤: ٢٢). ثم انظر أين يضع المسيح نفسه في الهيكل: «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة.» (يو: ٢: ١٦)

وعلى هذه الركائز الهامة يبدأ إنجيل يوحنا في المقابل يبني أساس العهد الجديد: فهو مع إسرائيل الحق الذي لا غش فيه، أي مع الشعب الجديد من كل أنحاء العالم، على أساس الخلاص الذي يشمل كل العالم كلّ من يُقبل إليه، وأساس العبادة بالروح والحق، والصلاة للآب بروح البنوة. وقد كان كل هذا الإمتياز الجديد من نصيب إسرائيل اليهود لو تعقلوا و«فتشوا الكتب» (يو: ٥: ٣٩)، وهي الأمانة التي وُكِّلوا عليها، ولكنهم رفضوا نصيبهم وداسوا على وعد الله بلا أي تمييز

فهللكوا وهلك امتيازهم وهلك كل من انحاز إليهم: «فلا تدخلون أتم، ولا تدعون الداخلين يدخلون» (مت ٢٣: ١٣). اختاروا الأرض وباعوا المسيح لثلا «يأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا.» (يو ١١: ٤٨)

(٢) أما دراية إنجيل يوحنا بالمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية والتي تشير بلا ملل إلى مجيء المسيح وعهد الخلاص، فهي كالآتي:

+ ففي إبراهيم، أوضح كيف بدأ العهد مرتكزاً على إيمان إبراهيم النادر المثال. ولكن كان إبراهيم يتطلع إلى من يأتي ليحقق الوعد، إلى مَنْ كان قبله وسيأتي بعده: «أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي فرأى وفرح» و«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو ٨: ٥٦ و٥٨)

وإن كان في إبراهيم قد صار الوعد بالحرية للنسل «إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط»، ففي المسيح حرية بالحق من الخطية أصل كل عبودية: «فإن حرّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو ٨: ٣٣ و٣٦)

+ وفي يعقوب إسرائيل أوضح كيف رأى الآتي في حلم ليصل الأرض بالسما: «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو ١٠: ٥١). فالذي رآه يعقوب إسرائيل في حلم كوعد، مارسه المسيح كعمل أمام عيونهم «كل حين في المجمع وفي الهيكل.» (يو ١٨: ٢٠)

وإن كان يعقوب حفر بئراً ليشرب منه النسل الشريد، فهوذا ينبوع ماء الحياة مجاناً الذي ينبع إلى الأبد والذي كلُّ «من يشرب من (هذا) الماء لن يعطش إلى الأبد... بل يصير فيه ينبوع ماء (ينبع) إلى حياة أبدية».

+ وفي موسى:

الذي أعطاهم الناموس ولكن عسر عليهم حمله فألقوه عنهم كما يشهد بذلك بطرس الرسول أمام مجمع الرسل: «قام بطرس وقال لهم أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بغمي يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون... فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ (وصايا الختان وغيره) لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله» (أع ١٥: ٧-١٠). هذا الذي لم يستطع الآباء حمله جاء المسيح ليكمله كاملاً عنهم: «ما جئتُ لأنقُص (الناموس) بل لأكُمّل (الناموس)» (مت ٥: ١٧)، لا كغريب عن الناموس ولا عن واضع الناموس بل «مشهداً له من الناموس والأنبياء» (رو ٣: ٢١)، «لأنكم لو كنتم تصدّقون موسى لكنتم تصدقونني.» (يو ٥: ٤٦)

+ السبت اليهودي:

ومرتين وهو يكسر سبت الناموس أمامهم في إنجيل يوحنا^(١) حتى ينقل عقوبتهم من سبت الراحة الجسدية إلى سبت الراحة العليا الأبدية وإلى واضع السبت ورب السبت أيضاً. ولما قاوموه مدّعين لأنفسهم الحفاظ على الناموس، قدم لهم الرد القانوني إذ استحضر شاهدين على صحة كسره للوصية: الله الآب، بالإضافة إلى نفسه باعتباره الإبن المرسل. وأضاف: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يوه: ١٧)، مؤكداً صلاحية الشاهدين بالأعمال التي يعملها باسم الآب وعلى أساس أن لا الله الآب ولا هو توقفاً عن العمل في السبت ولا بعد السبت.

+ الفصح اليهودي:

أما ذبيحة الناموس العظمى «الفصح» التي كانت محور الصلاة والطقوس التي تشير إلى مركز الخلاص السرّي أي «حروف الفصح»، جعلها إنجيل يوحنا رسم افتتاح لعهد النعمة في إنجيله، وذلك حينما أشار المعمدان إلى المسيح قبل أن يبدأ عمله: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوه: ١: ٢٩). ويعود إنجيل يوحنا ليجعله هو نفسه رسم الختام لإنجيله، مشيراً إلى المسيح الحمل المذبوح على الصليب: «وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات... لأن هذا كان ليتم الكتاب (الناموس والأنبياء) القائل عَظْمٌ لَا يُكْسَرُ مِنْهُ.» (يوه: ١٩: ٣٣ و٣٦)

وهكذا كان فصح العهد القديم ينتظر استعلان سرّه في المسيح.

+ الحية النحاسية:

وبسبب تمردهم أطلق الله عليهم الحيات المحرقة في البرية، ولما أدركوا خطيتهم رفع موسى الحية النحاسية على عصاته لكي كل من يرفع نظره إليها يُشفي ولا يموت. كانت الحية رمز الخطية، ولما لم يكن في مقدور موسى أن يرفع عنهم الخطية، مثل الخطية بالحية النحاسية والحية هي أصل الخطية وداؤها وكأنها ماتت. وهكذا تنبأ موسى بصورة عملية عن المسيح الذي سيقتل الخطية مع الحية بالجسد عندما يُرفع على الصليب ويفوز بالسيطان تحت رجليه ليسحق قوة رأسه المدبّرة للخطية: «إذ جرّد الرياسات والسلطين، أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (أي في الصليب)» (كوه: ٢: ١٥). ولم يدفَع ثمن ذلك سوى سحق عَقْبِهِ، أي الجسد الذي أقامه من الموت حتى كلُّ من نظر بالإيمان إلى المسيح مصلوباً نال الشفاء والخلاص والقيامة من الخطية والموت.

وهكذا حلَّ إنجيل يوحنا سيراً لغير الحية النحاسية التي كلُّ من نظر إليها يُشفي ولا يموت. وما لم

(١) في شفاء مريض بيت حسدا (يوه: ٩: ١)، وفي شفاء المولود أعمى (يوه: ٩: ١٤).

يستطيعه موسى أكمله المسيح. «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كلُّ مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو: ٣: ١٤ و١٥)

+ المن السماوي:

ثم يسَلِّط إنجيل يوحنا نور الاستعلان ليكشف سر المن السماوي النازل من السماء، الذي أعال إسرائيل وأمدَّهم بالحياة في قفر التيه أربعين سنة، فكان في ظاهره رعاية من السماء بإعجاز بالغ لشعب أعزّه الله وأكرمه بأن يطعمه هكذا خبز السماء، وإذا بالإنجيل يستعلن فيه سر التجسد الإلهي للإبن الذي نزل من السماء ليعطي جسده على الأرض خبزاً للحياة كلُّ من يأكل منه لا يموت بل تكون له الحياة الأبدية: «آبأؤنا أكلوا المنَّ في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم. ... أنا هو خبز الحياة. من يُقبِل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو: ٦: ٣١-٣٥)

وهكذا بمنتهى الاختصار يكشف الإنجيل كيف أن اليهود أحطوا من قيمة المن وجعلوه مجرد خبز سقط عليهم - بنوع ممتاز - من السماء بدعاء موسى، وكيف أن المسيح يميّط اللثام عن عظمة هذا المن وسرّه الإلهي الغالي الخطير: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي...» (يو: ٦: ٣٢). فالمن كان عطية الآب السماوي حاملاً فيه سرّاً بذل الإبن في جسد يفتذي عليه الإنسان في العالم كله لينال به وفيه الحياة الأبدية.

وهكذا يلاحظ القارئ أن كل ما كان امتيازاً محدوداً بالجسد لشعب إسرائيل، صار امتيازاً عاماً مطلقاً لكل الإنسان، وبالروح للحياة الأفضل أي الروحية الأبدية.

وعلى القارئ أن يلاحظ في هذه المقارنات كلها بين الناموس وموسى من جهة وبين المسيح من جهة أخرى، أن وظيفة إنجيل يوحنا كانت دائماً دائماً متركزة في استعلان طبيعة المسيح الإلهية الفائقة كأساس، وفي تكيله لكل خصائص الناموس وكل رجاء الآباء والأنبياء، وبالأكثر جداً في استعلان محبة الله الشديدة لإسرائيل وكيف توقفت لتمتد لتشمل العالم كله في شخص المسيح.

(٣) درايته بالنبوات وخاصة ما كان منها يشير إلى المسيح:

استخدم إنجيل يوحنا التعاليم المتأخرة للأنبياء الذين انشغلوا أو شغلهم الروح بوصف الملكوت والملك القادم، غير أن الإنجيل لم يدخل في التفاصيل ليشرح أعماق النبوة بل ترك ذلك للقارئ أو السامع بسبب الوضوح والضوء الساطع الذي ألقاه المسيح على كافة النبوات حتى أعماقها!

— من جهة الهيكل باعتباره قاعدة المُلك وعرشه وكيف بدأ المَلِك بتطهير كرسي مملكته؛ ومن جهة «المعرفة» التي تغطي الأرض كما تغطي المياه البحر؛ ثم محاولة قلب العرش كما حاول أحيثوفل قلب كرسي داود؛ ثم وضع نبوة إشعيا النبي عن ختام أعمال المسيا موضع التطبيق الحرفي في نهاية حياة المسيح بصورة مبدعة.

+ فمن جهة الهيكل:

قدّم إنجيل يوحنا جسد المسيح باعتباره الهيكل الجديد الذي يجمع كافة المؤمنين به: «أجاب يسوع وقال لهم انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه... وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو: ٢: ١٩ و٢١) الذي صار يملأ السماء والأرض.

ولكن نَقَضَهُ للهيكل القديم سبقتة محاولة تطهير حتى يركب الجديد على صورة صحيحة من انقراض القديم: «فصنع سوطاً من حبال وطرده الجميع من الهيكل. الغنم والبقر وكبّ دراهم الصيارف وقلّب موائدهم. وقال لباعة الحمام ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة. فتذكر تلاميذه أنه مكتوب، غَيْرُهُ بَيْتُكَ أَكَلْتَنِي،.» (يو: ١٥-١٧)

+ ومن جهة المَلِكِ القادم:

— «فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه وكانوا يصرخون أوصنا مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل. ووجد يسوع جحشاً فجلس عليه كما هو مكتوب. لا تخافي يا ابنة صهيون. هوذا مَلِكُكَ يَأْتِي جالِساً على جحش أتان. وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً. ولكن لما تمجد يسوع حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه وأنهم صنعوا هذه له.» (يو: ١٢: ١٣-١٦)

سمة زمان الملك الآتي:

+ ستفيض المعرفة كمياه البحر:

«لأن الأرض تمتلئ من معرفة مجد الرب كما تغطي المياه البحر.» (حب ٢: ١٤)
«ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً، ليس كالعهد الذي قطعت مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي، فرفضتهم — يقول الرب — بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يعلمون بعد كلُّ واحدٍ صاحبه وكلُّ واحدٍ أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيفرفوني من صغيرهم إلى كبيرهم — يقول الرب — لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد.» (إر ٣١: ٣١-٣٤)

وهذه هي الآية التي يقدمها إنجيل يوحنا ليعلم بها أن الأيام جاءت وصاحب العهد آتى، ووضع العهد، وسكب الروح القدس روح المعرفة هكذا، حيث يقول المسيح عن نفسه: «لا يقدر أحد أن يُقبَلَ إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني وأنا أقيم في اليوم الأخير. إنه مكتوب في الأنبياء (إرميا): ويكون الجميع متعلّمين من الله. فكل من سمع من الآب وتعلّم يُقبَلَ إليَّ.» (يو: ٦: ٤٥ و٤٤)

وهكذا يربط إنجيل يوحنا هذا الوعد التاريخي المهيب بالإله الآتى، كما ورد في سفر إرميا النبي، بتحقيقه في عمق الزمن في المسيح ومن فمه.

أما من جهة تحقيق فيض المعرفة كالمياه التي تغطي البحر فيقول: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب (حبسوق) تجري من بطنه أنهار ماء حيّ. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزعمين أن يقبلوه... فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي، آخرون قالوا هذا هو المسيح.» (يو: ٧: ٣٧-٤١)

محاولة قلب العرش على طريقة أختوفل:

كان إعلاناً فطناً وجيلاً للغاية أن يكشف إنجيل يوحنا عن العلاقة النبوية المبدعة بين دور الانقلاب الخائن الفاشل الذي حاول أختوفل أحد حكماء داود النبي القيام به ضد داود الملك والدور الأكثر خيانة والفاشل الذي قام به يهوذا أحد التلاميذ ضد مسيح الرب الملك الآتى على كرسي داود حسب النبوة. فيقول المسيح: «لست أقول عن جميعكم. أنا أعلم الذين اخترتهم. لكن ليتم الكتاب (المزامير): الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبه» (يو: ١٣: ١٨). لم يذكر أختوفل بالإسم، كما لم يذكر يهوذا بالإسم، لأن إنجيل يوحنا يتوسم في القارئ الدراية بالكتب والذكاء أيضاً. ولكن داود النبي قالها بوضوح سابقاً بنفس الكلمات: «أيضاً رجل سلامتي الذي وثقت به آكل خبزي رفع عليّ عقبه.» (مز: ٤١: ٩)

+ تقرير ختامي بضم إشعيا النبي عن أعمال المسيا:

كان منظراً حزينا غاية الحزن أسيفاً غاية الأسف حينما تطلع التلاميذ الأمناء جداً لمعلمهم وتأكدوا كيف انتهت إليه خدمته من الفشل والصدود والعقوق، ولم يُخرجهم من هذا الحزن والأسى والأسف إلا عودة إلى النبوات يقرأون كيف حكّت النبوة قديماً وسابقاً عما هو حاصل أمام أعينهم فارتدّت إليهم روحهم: «ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به. ليتم قول إشعيا النبي الذي قاله يا رب مَنْ صدّق خبرنا ولمن استعلنت ذراع الرب. لهذا لم يقدرُوا أن

يؤمنوا. لأن إشعياء قال أيضاً قد أعمى عيونهم.» (يو ١٢: ٣٧-٤٠)

ومما اخترناه للقارىء أعلاه - سواء ما جاء بفم المسيح أو ما جاء تعليقاً عليه - يتضح للقارىء قدرة إنجيل يوحنا الفذّة في اختراق كل موقف من المواقف التي وقفها المسيح وردّها إلى أصولها وجذورها الأولى في النبوات والتوراة عموماً، باستعلان عميق ودراية فائقة، وذلك في حَبْكٍ ليس له نظير وبروح العهد القديم، ثم الإمتداد بها لإعلان تكميلها بالروح في ملء الزمن «جئت لأُكْمِل»، كل ذلك في جمل قصيرة وكلمات بسيطة بلغت قمة الإعجاز الروحي حتى ينتهي القارىء حتماً إلى حقيقة هذا الإنجيل أنه كلمة الله بالحق.

الباب الثالث

المعايير الروحية التي يقوم عليها

إنجيل القديس يوحنا

المعيار في الماديات هو الكيل الذي نكيل به الشيء لنعرف مقداره وقيمته؛ وفي الروحيات هو محاولة لقياس الأبعاد الروحية التي تحيط بالمسيح بقدر ما أعلنها هو عن نفسه وعن الآب وعن كيفية التعامل معه. وإنجيل يوحنا يهتم بهذه المعايير لأنها تعطي أولاً القيمة الروحية الأساسية لمعرفة المسيح ثم تؤسس عليها مقدار ما يتوجب علينا عمله بالنسبة للمسيح على أساس هذا المعيار.

فالمسيح «حق»؛ هو؛ هذا معيار يقرر قيمة المسيح الروحية أو بالأصح الإلهية. وعلى أساس أن المسيح هو الحق، يقدم لنا الإنجيل ما يتوجب علينا عمله تجاه المسيح باعتباره أنه هو الحق، مثل أن نؤمن به إيماناً باتناً وكلياً. لأنه إذا كان المسيح هو جوهر «الحق» أصبح الإيمان به هو الإيمان بالحق.

وكما أن الذي يتعامل بالمعايير المادية إذا هو غشّ فيها يحاكمُ بالقانون؛ كذلك في المعايير الروحية فإن كل من يخالف أصولها يُدان بحسب ما نطق به المسيح: «الكلام الذي تكلمت به هو يديته.» (يو ١٢: ٤٨)

بهذا نجد أن إنجيل يوحنا يقدم لنا في الحقيقة ناموساً كاملاً: أولاً استعلان معايير إلهية؛ ثانياً المعايير الإلهية أنشأت إلتزامات بشرية، ثالثاً والإلتزامات تخرجت منها قوانين وأحكام.

فحقيقة «الله نور» هي أولاً معيار، و«ليس فيه ظلمة البتة»، فهي معيار مطلق أي إلهي كامل.

وظهور هذا النور في المسيح أنشأ ثانياً إلتزاماً بالسير فيه كوصية أو أمر «سيروا ما دام لكم النور.» (يو ١٢: ٣٥)

والوصية كالتزام تخرّج منها ثالثاً قانون: كل من لا يسير في النور يدركه الظلام، وكل من يعيش في الظلام يُدان: «وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو ٣: ١٩)

وعلى القارئ أن يمعن التفكير في هذا الأمر لأن إنجيل يوحنا هو في الحقيقة إنجيل تشريعي

قانوني بالدرجة الأولى، أنظر كيف انتهى بمحاكمة عُقدت أمام محكمة عليا لم يشهد التاريخ لها نظير، إذ انضمت السلطتان العُظميان: سلطة رئاسة الكهنوت اليهودي على سلطة الإمبراطورية الرومانية. فقراءة الإنجيل تحتاج إلى وعي قضائي، حتى إذا برز المعيار الروحي للإنسان؛ فعلى الضمير - حينئذٍ - أن يتيقظ للقانون الذي يتبعه حتماً ثم الدينونة.

وعلى القارئ أن يقيس نفسه ويحكم عليها بحسب الحكم الذي يتبع كسر الوصية، وإلا فلن يستفيد القارئ من استعلان المعايير الإلهية المتابعة مثل: النور، الحق، الحياة، الحب، الشهادة، المجد... إلخ.

ويلاحظ القارئ أن الإنجيل لم ييؤّب هذه المعايير والأحكام ولم يعمل عمل المشرّع المتخصص، فلم يبرز القوانين والأحكام لتأخذ رنينها القضائي كموسى النبي؛ ولكنه يعمل عمل الشاهد فهو يقدم النواميس والأحكام كمن سمع ورأى والآن يشهد على صدق ما يقول، ويترك للقارئ أن يشهد أيضاً لنفسه أو عليها، وللكنيسة أن تضع المنهج.

والمعايير في إنجيل يوحنا إما تأتي كمتقابلات مثل:
الحق والشهادة، النور والمجد، الحياة والدينونة، الإيمان والمعرفة.
أو تأتي فرادى مثل «الحبة»، «الشركة = الوحدة أو الإتحاد».

الفصل الأول الحق والشهادة

أ - الحق

«الحق» الكلمة المفضلة التي كانت على لسان المسيح، ولم لا، وهي كانت لهج الأنبياء ومحور التردد في سفر المزامير، اقرأ مزمو ١١٩ وأنت تعرف ماذا كان «الحق» يعني عند داود النبي: «ليست طريقي تثبت في حفظ حقوقك...، يا رب علمني حقوقك...، أما عبدك فكان يهتم بحقوقك...، أنت اخترت لي طريق الحق...، ضَع لي يا رب ناموساً في طريق حقوقك...، لا تنزع من في قول الحق...، حقوقك كانت لي مزامير...، هذا صار لي لأني طلبت حقوقك...، فبصلاحك علمني حقوقك...، خير لي أنك أذلتني حتى أتعلم حقوقك...، حقوقك لم أنس...، كل وصاياك هي حق...، بعيد هو الخلاص من الخطاة الذين لم يطلبوا حقوقك...، بدء كلامك حق...، تفيض شفاتي بالتسبيح إذا علمتني حقوقك...»، كل هذا في مزمو واحد.

لقد ورث إنجيل يوحنا «الحق» كتعبير استعلافي يحمله المسيح للتعبير عن طبيعة الله أكثر من باقي أسفار العهد الجديد.

ويلاحظ أن كلمة «الحق» في اللغة العبرية *Emeth* ذات مفهوم يختلف قليلاً عن مفهوم «الحق» في اللغة اليونانية. أما «الحق» الذي جاء على لسان المسيح فهو ينتهي في معظم المواضع إلى المعنى العبري القديم كما جاء في العهد القديم وخاصة المزامير وهي تعني: الأمانة Faithfulness، والصدق Truthworthiness، وتفيد الديمومة Permanence وذلك من جهة الأخلاق واستقامتها، كما تفيد الثقة المؤكدة Sureness.

أما في اليونانية فتأتي بمعنى فلسفي وهو «الحقيقة» $\eta \alpha\lambda\theta\epsilon\iota\alpha$ في المقابل لها وهو شبه الحقيقة أو ضدها وهو الغش والخداع Falsehood ، أو تأتي بمعنى Reality وهي الحقيقة الثابتة في مقابل المظهر Appearance .

والفرق بين المعنيين هو حاصل بين روح الشرق وروح الغرب، أو روح الأدب وروح العلم، أو روح الإنسان وروح الطبيعة، أو روح الضمير وروح العقل. وليس من العسير الوفاق بينهما، فالروحانية الحديثة التي تغلغلت القيم الجوهرية العليا الخفية في صميم المادة ألغت كثيراً من الفواصل والحواجز والأوهام التي كانت تملئها الفروق القاطعة في الذهنية القديمة بين المادة والروح أو بين المنظور وغير المنظور، فبعد تفجير الذرة والإنهاء بها إلى مجرد طاقة تنتهي في غير المنظور بدون شكل ولا لون ولا كيان، تكون المادة قد كشفت عن صورة مطلقة عجيبة في جوهرها تمت إلى الله مباشرة.

والمسيح كخالق للعالم المادي، أي هذه الطاقة الهائلة التي أبرزها إلى الوجود المادي المتعدد الأشكال والألوان، ليس من الصعب أن يجمع في نفسه بين «الحق» العبري الروحي القديم $\epsilon^{\prime}meth$ و«الحق» أليثيا $\eta \alpha\lambda\theta\epsilon\iota\alpha$ الفلسفي اليوناني الفكري المطلق الذي ينشغل بجوهر الوجود المادي. فهو جوهر الحياة وليس شبهها ولا مظهرها، وهو الأصل «بكر كل خليفة» (كو: ١٥) وليس الصورة المخلوقة، وهو الروح بكل أعماقها وعلوها وكل مفاخرها ومجدها غير المنظور ولا المحدود، غير المدرك، غير المفهوم وغير المعقول.

ولكن هو نفسه صاحب الجسد الملموس والمنظور والمدرك المفهوم والمعقول جداً والمحجوب أيضاً. فقد جسّد المسيح «أليثيا» اليونان وصالحها مع « $\epsilon^{\prime}meth$ » العبرانيين، فهو الذي صالح الشعب مع الشعوب، والذي صالح السمايين مع الأرضيين، والنفس مع الجسد! وهو كما هو نجسب الحق اليهودي الصادق الأمين والكائن الذي كان والذي أتى ويأتي أيضاً، الذي أعطي كل سلطان مما في السموات وعلى الأرض معاً!!!

وكلمة «الحق» جاءت في إنجيل يوحنا للتعبير عن المسيحية عموماً كمعرفة شاملة تجمع في مسيحها كمال الأصول: «الله ... كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته...» (عب ١: ٣-١)، فالمسيح لأنه كلمة الله صار استعلاناً كاملاً للألوهة؛ لأنه إن كان عمل الكلمة في الإنسان العادي هو الإعلان عما في عقل الإنسان أو الكشف عن ماهية الإنسان نفسه، فكلمة الله هو استعلان كامل لذات الله ولطبيعته التي لم تكن مُعلنَةً قبلاً (يو: ١٨).

وكذلك هو استعلان كامل للحياة الأبدية لأنه قام من الموت غالباً سلطانه إلى الأبد (يو: ١١: ٢٥).

وهو أيضاً استعلان كامل للمحبة، لأنه بذل نفسه للموت عن الإنسان (يو: ٣: ١٦)، واستعلان كامل للحق لأنه لم يعمل خطية واحدة!! (يو: ٨: ٤٦).

وحيثما قال المسيح «أنا الحق» كان هذا أكمل استعلان لله في ذاته كإبن له، وذلك ليس بالفكر بل على مستوى الحياة والعمل. فلم يكن في المسيح قط ما يخل ما بين المعرفة المطلقة والعمل الكامل، أو بين الحياة الأبدية والمثل كمن مات وقام بإرادته، وهكذا صار «الحق» الذي حمله المسيح إلينا هبة عظيمة للإنسان الذي كان قد أعوزه وحدة المعرفة والعمل عوض ما كان يصرخ به القديس بولس الرسول: «لأنني لست أعرف ما أنا أفعله إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل.» (رو: ٧: ١٥)

وكان التجسد في المسيح الذي حمله، وأعطانا به أعظم وأصدق تعبير عن «وحدة المعرفة والعمل» في «جوهر الحق الواحد».

وكانت القدرة الفائقة للمسيح التي جازها في ذاته في كيفية إعطاء ذاته للإنسان، هكذا بالموت عنا والقيامة لنا وبناء، هي التي منحتنا هذه الموهبة الإلهية أي وحدة «المعرفة والعمل» في جوهر الحق المسلم إلينا كعطية قائمة بذاتها بواسطة الروح القدس «روح الحق» الذي يرشدكم إلى جميع الحق.» (يو: ١٦: ١٣)

ولم يعد «الحق» في جوهره الإلهي شيئاً بعيد المنال، بعد أن تجسد المسيح، بمعنى حضوره الإلهي المبارك الذي تنازل به الله بين الناس «الله ظهر في الجسد» (١٦: ٣) في شخص المسيح المبارك «وحلّ بيننا ورأينا مجده... مملوءاً نعمة وحقاً... ومن ملئناه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة... أما النعمة والحق فيسوع المسيح صاراً.» (يو: ١٤-١٧)

وقد صار وتم لنا بالفعل والعمل بحسب لاهوت القديس يوحنا أن من يثبت في الحق يثبت في الله، وأن من تفتح بصيرته ويعرف الحق يعرف الله في طبيعته المستلنة في الآب والإبن: «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١ يو: ٢٠)

وقد صار «الحق» هو العامل المهيمن على حياة الإنسان الجديد ومحور عمله أخذاً وعطاءً. والحق جوهر فعال إذا تملك الإنسان حرّره من كل قيد خاطيء: حرره من العالم وأهوائه، حرره من الجسد وإلحاحاته، حرره من الذات ورغباتها، حرره من الخطية وعبوديتها وشلّ حركة جنورها الضاربة في الطبيعة البشرية القديمة، حرّره من قصور العقل وخداع إدراكاته. لأن الحق يعطي رؤية صحيحة وأصيلة تخترق مظاهر الوجود جميعاً لتستقر في جوهرها صافية سالمة من كل غش وخداع المظاهر والأفئعة الخادعة التي للمادة. فالحق روح صافٍ «والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق» (١ يوه: ٦). وهو يحكم الأكوان بقانون لا تخرج المادة عن حتميته.

والرب يسوع المسيح ابن الله روح خالص في جسد منظور: «الله روح» (يوه: ٤: ٢٤)، ولكن لا يخرج جسده عن كمال معطيات الروح فيه، فالإتحاد كامل ومطلق بين الروح الإلهية والجسد البشري. لذلك فإنجيل يوحنا يعطي ابن الله المتجسد طابع الروح والحق بلا اهتزاز.

ومن روائع التعبيرات عن «الحق» الإلهي قول المسيح عن جسده ودمه: «جسدي مأكلٌ حقٌّ، ودمي مشربٌ حقٌّ» (يوه: ٦: ٥٥). هذه من التعبيرات النادرة التي تسخر من الإدراك الفلسفي للحق كونه عند الفلاسفة فكرياً مطلقاً ومجرداً. ولكن المسيح جاء ليعطي الإنسان أن يأكل الحق ويشربه بمعنى قبول روح الله ليستقر في أعماق هيكل الجسد.

هكذا دخل الله التاريخ البشري وفتح عليه أي على الله، وعلى مصراعيه...

وهكذا اقتحم «الحق» الزمان الإنساني الذي تعفن بالجهالة ليعطيه تجديداً وامتداداً في نور الله وفي الحياة الأبدية.

وهكذا حاز الإنسان بالنهاية بصيرة روحية نيرة يعرف بها الله معرفة الحب بل العشق الإلهي، فاستنار العقل البشري وأثار عتمة ليله الطويل وسطع نور الله في وجه يسوع المسيح من جديد على قلب الإنسان وروحه.

وكما أعطي الإنسان أن يأخذ الحق ويأكله أكلاً ويتمثله في جسده تمثيلاً فيقدسه وفي عقله فينيره، هكذا تحم أن يُخرج الإنسان الحق من بطنه كأنهار ماء حي لأن هذا هو قانون الزرع والثمر، أو كما يقولون، حساب البيدر، فيقول الرب: «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس» (مت ٥: ١٦)، تماماً كما أعطي لكم أن «سيروا (في النور) ما دام لكم النور.» (يوه: ١٢: ٣٥)

والحق في إنجيل يوحنا يقدر الإنسان «بالكلمة»: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي

كلمتكم به» (يوه١٥:٣)، كذلك يقول طالباً من الآب: «قدّسهم في حقك، كلامك هو حق» (يوه١٧:١٧)!!

وليس بالكلمة فقط نتقدس بل بدعاء اسم المسيح وحضوره نتقدس: «الذي صار لنا حكمة من الله وبرّاً وقداًسة وفداء.» (١ كو١:٣٠)

فدخول المسيح إلى العالم مصالحة، وحضوره تقديس، وأن نلمسه نصير ملوكاً وكهنةً. أما حضور المسيح فينا فهو بصورة سرّية وسرائرية دائمة لا تنقطع طالما لنا هذه المشيئة: «فبهذه المشيئة نحن مقدّسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة» (عب١٠:١٠)؛ «لهذا قد وُلِدْتُ أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق (الله)، كل من هو من الحق يسمع صوتي. قال له بيلاطس — وكأنه لا يرى يسوع —: ما هو الحق؟» (يوه١٨:٣٧ و٣٨)

والمسيح لم يجيء ليقيم حدود الحق بين الناس (لو١٢:١٣)، ولكن ليعلن كمال الحق وملئه $\pi\lambda\eta\rho\eta\varsigma$ ، واستعلنه لتلاميذه كشهود للعالم كله: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يوه١٠:١٤)، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يوه١٦:١٦)، «لأنّ الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا.» (يوه١٧:١٧)

وحينما قال: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يوه١٤:٦) فقد كان ذلك قة الإستعلان الذاتي. ثم يعود ويقرر أن الحق يمرر والإبن يمرر: «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يوه٣٢:٣٢)، «فإن حرّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يوه٨:٣٦)، على أساس أن العبودية مصدرها الخطية، والخطية يبدها الحق كما أدانها المسيح بالجسد. لذلك أرسل المسيح روح الحق ليكمل عمل المسيح على الصليب لإعطاء الحرية لمن استعبدتهم الخطية.

والروح القدس يضطلع بإعلان الحق وإعلان المسيح معاً:

«ومتى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق (قليلاً قليلاً)» (يوه١٦:١٣)، «لأنه يأخذ مما لي ويخبركم...» (يوه١٦:١٤). هنا سر الملاء أو الإمتلاء من الحق والمسيح. «والروح هو الذي يشهد (للمسيح فينا) لأن الروح هو الحق.» (١ يو٥:٦)

وهكذا يعطي إنجيل يوحنا تقييماً متوازياً ومتداخلاً بين الحق والمسيح موضحاً أن الإمتلاء من معرفة المسيح هو امتلاء من الروح القدس، وهو هو امتلاء أو ملاء «الحق» أو ملاء الحرية أو ملاء التني. «أما أنتم فلنكم مسحة من القدس وتعلمون كل شيء (تعرفون كل المعرفة — حسب النص اليوناني) لم أكتب إليكم لأنكم لستم تعلمون الحق بل لأنكم تعلمونه...» (١ يو٢٠:٢١ و٢٢)

ويعود إنجيل يوحنا ويؤكد أن معرفة الحق ليست بالفكر، ونواله ليس كباقي المعارف، بل إن طريقه هو الخشوع والتقوى وخافة الله والإحساس بالتوبة الصادقة، لأن طالب الحق هو طالب وجه الله. وهذا يتضح من هذا الحوار المحزن بين المسيح واليهود: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا... وأما أنا فلأني أقول الحق لستم تؤمنون بي. من منكم يبغتي على خطية؟ فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله.» (يو: ٤٤-٤٨)

ثم يأخذ القديس يوحنا هذه المعادلة ويصيفها بكلمات من عنده في رسالته هكذا: «نحن من الله فن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال.» (١ يو: ٤: ٦)

وبذلك يكشف القديس يوحنا على ضوء كلام الرب أن الروح القدس يزكّي الحق في قلوبنا لنسمع للحق أكثر فأكثر حتى يثبت فينا الحق ونتغير ونشهد له. وبالعكس فإن روح الشيطان أي روح الضلال يقاوم الحق (كما قاوم اليهود المسيح) ويرفضه ولا يعطي للإنسان فرصة أن يسمع له فينكره. أما علامة عمل الروح القدس أي روح الحق فينا فتكون دائماً بالإعتراف بالخطية والإستعداد للتوبة. أما إنكار ذلك فيكون دليلاً على خلو القلب من الحق الكاشف للنيّات والضمائر ووجود روح الضلال بدلاً عنه: «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا، وليس الحق فينا.» (١ يو: ٨: ٨)

ثم يوضح القديس يوحنا في مواضع كثيرة أن الحق ليس مجرد معرفة فكرية لكنه قوة وفعل محرّك. ويركز ذلك في تصوير قدرة الحق - إذا سكن الضمير - على معونة الإنسان على تكميل الوصايا: «بهذا نعرف أننا قد عرفناه إن حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب، وليس الحق فيه» (١ يو: ٢: ٣ و٤). كذلك: «وأما من يفعل الحق (الوصية) فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة.» (١ يو: ٣: ٢١)

كذلك: «إن قلنا أن لنا شركة معه وسلكنا في الظلمة نكذب ولسنا نعمل الحق» (١ يو: ٦: ٦). فالحق فعل وعمل!!

هنا يلزم أن ننبه أن «الحق» في ختام العصر الرسولي كان معياراً عملياً يتغلغل كل المضمون المسيحي والحياة والسلوك. وأن الرباط بين الإيمان والحق لا ينقسم وقانونه هو: «أن يسوع هو المسيح ابن الله الذي جاء في الجسد».

وكان هو المعيار الذي تقاس عليه حياة الكنيسة برمتها كأساس لكل قوانين الإيمان: «نعلم أننا نحن من الله... ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١ يوحنا: ١٩ و٢٠)

لذلك – والأمر كذلك – يتحتم أن يكون المعيار الأول الذي يعيشه إنجيل يوحنا ويقدمه للعالم هو «الحق»، وكان على الإنجيل بعد ذلك أن يقدم ويزكي «الشهادة» لهذا الحق بكل وسيلة ممكنة. وهنا يأتي دور الشهادة في إنجيل يوحنا.

ب – الشهادة ἡ μαρτυρία

جاءت الشهادة في إنجيل يوحنا متعددة المراحل والدرجات وبحسب ترتيبها تكون كالآتي:
شهادة الآب، شهادة الإبن (المسيح نفسه)، شهادة الأعمال، شهادة الأسفار، شهادة المعمدان، شهادة التلاميذ، شهادة الروح القدس الناطق والمضيء في القلوب.

١ – شهادة الآب:

هذا ما يعلنه المسيح بضمه ويسجله عنه القديس يوحنا. وهذه الشهادة تُعتبر خاصة جداً وسريّة للغاية كشفها المسيح ليعلم عن علاقته الصميمة أي الجوهرية بالآب.

«أنا لا أقبل شهادة من إنسان...، الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي μεμαρτύρηκε.» (يوه: ٣٤ و٣٧)

«أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي μαρτύρεῖ الآب الذي أرسلني.» (يوه: ١٨)

يلاحظ هنا أن كلمة «يشهد» بالنسبة للآب تأتي في اللغة اليونانية التي كُتبت بها الإنجيل في الصيغة الدائمة المستمرة والمستقرة، أي أنها قائمة دائمة حتى اليوم وإلى الأبد

μεμαρτύρηκε, μαρτύρεῖ

ويلاحظ أن المسيح يتكلم عن شهادة الآب ولا يقول شهادة «أبي»، لأن القصد الأساسي من شهادة الآب أن يقبل الناس الإبن والآب معاً، لذلك فالشهادة وإن كانت تخص المسيح ولكنها مُستعلنة للناس ليكون الله بالنهاية أباً للجميع (الآب) من خلاله.

وإذا بلغ الإنسان إلى الشعور الصادق والحقيقي بأبوة الله فإنه يدرك السر الإلهي الأعظم (١) القائم في طبيعة الله بين الآب والإبن الوحيد. لأن مفاعيل السر القائم بين الأبوة والبُنة في ذات الله تمتد لتشمل كياناتنا، فنحس بالتبني لله في المسيح كأعظم هبة نالها الإنسان من لدن الله بعد العبودية التي عاش فيها تحت سلطان الخطية والشيطان. هذا ندرکه بسهولة من حوار المسيح مع اليهود الرافضين المرفوضين: «فقالوا له إننا لم نولد من زنى، لنا أب واحد وهو الله (بالوراثة المعشوشة)، فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قِبل الله وأتيت. لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني... أنتم من أب هو إبليس.» (يو: ٤١-٤٤)

ويأخذ القديس يوحنا كلام المسيح هذا ويطبقه بصورة إيجابية غاية في العمق وذلك في رسالته هكذا: «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه، من يؤمن بإبن الله فعنده الشهادة في نفسه» (١ يوه: ١٠ و٩). أي أن شهادة الله للمسيح تحل في قلوبنا بالسر الإلهي ونحس بها، وذلك إذا آمناً بأبوة الله للمسيح أي، كما يقول القديس يوحنا، إذا صدقنا الله فيما قاله عن بنوة المسيح له: «من لا يصدق الله فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه.» (١ يوه: ١٠)

ويعود القديس يوحنا ليوضح كيف وبأي معنى يكون حصولنا على فعل شهادة الله في أنفسنا عن ابنه وذلك عندما تبدأ تسري الحياة الأبدية في كياناتنا الروحي: «وهذه هي الشهادة: أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة الأبدية هي في ابنه. من له الإبن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة.» (١ يوه: ١١ و١٢)

٢ - شهادة المسيح لنفسه:

«إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب... أنتم حسب الجسد تدينون.» (يو: ١٤ و١٥)

«أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني.» (يو: ٨: ١٨)

وهنا تتطابق الشهادتان، التي من الآب له والتي من نفسه لنفسه، فهما من مصدر واحد ذات إرادة ومشيئة واحدة لكليهما. فشهادة المسيح لنفسه هي في الحقيقة شهادة الآب له لأنه أوضح أن

(١) لا شك أن العلاقة الكائنة بين الآب والإبن في الله هي «السر الإلهي الأعظم» المذخر لنا في كل صفحات إنجيل يوحنا، وإن معرفتنا لهذا السر تشيء فينا حتماً الحياة الأبدية (يو: ٣: ١٧)، بل ودخولاً في مجال هذه العلاقة أي في نعمة التبني لله التي هي أعظم نعمة أعطيت لبني البشر. وسنعود إلى شرح هذه الفكرة الأساسية في إنجيل يوحنا في مواضع عديدة من هذا المدخل.

كل أعماله وأقواله التي يعمل والتي يقول تنبع دائماً من الآب الذي أرسله :
«الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلّم به من نفسي لكن الآب الحالك فيّ هو يعمل
الأعمال.» (يو: ١٤: ١٠)

لذلك نجد في شهادة المسيح لنفسه وثوقاً وتأكيداً وشموحاً يفوق أي قامة بشرية أو ملائكية :
«الحق الحق أقول لك إنّنا إنّما نتكلّم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا، إنّ كنت قلت
لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إنّ قلت لكم السماويات، وليس أحد صعد إلى السماء
إلا الذي نزل من السماء أبن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو: ١١-١٣)

والمعدان كرر هذه الحقيقة بقوة وصلابة: «الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع، وما رآه
وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها. ومن قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق.» (يو: ٣١-٣٣)

وينوّه المسيح دائماً أنه يشهد لنفسه لأن في شهادته لنفسه شهادة للحق، لأنه هو «الحق»: «أنا
هو الطريق والحق والحياة» (يو: ١٤: ٦)، وبسبب قوة وعلو الحق الذي فيه كان لا بد أن يشهد
للعالم كله معتمداً على أن كل من يسمع للحق سيسمع له حتماً ويؤمن به وبالتالي يؤمن بالذي
أرسله فتكون له الحياة الأبدية: «قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق، كل من هو من الحق يسمع
صوتي.» (يو: ١٨: ٣٧)

٣ - أعمال المسيح تشهد له:

المسيح يقدم أعماله كشهادة فائقة للحق والألوهة التي فيه أعظم من كل شهادة يمكن أن
يقدمها إنسان أو نبي أو حتى ملاك: «وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا، لأن الأعمال التي
أعطاني الآب لأكملها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني،
والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي.» (يو: ٣٦ و٣٧)

والأعمال التي يقدمها المسيح لتشهد له هي نفس أعمال الآب، فهي أعمال الله بلا نزاع:
«أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو: ٥: ١٧)، الأمر الذي لم يطق سماعه اليهود وأرادوا أن يرحموه
لأنه عادلة نفسه بالله. والأمر الذي هيّج اليهود من هذه الشهادة لأعماله أنها بالفعل كانت تنطق
بالحق الذي فيه وبالطبيعة الإلهية التي تعطيه هذه القوة وهذا السلطان المهيب: «إن كنت أنت
المسيح فقل لنا جهرًا!!، أجاهم يسوع إني قلت لكم ولستم تؤمنون. الأعمال التي أنا أعملها باسم
أبي هي تشهد لي، ... أنا والآب واحد.» (يو: ١٠: ٢٤ و٢٥ و٣٠)

ولكي يجعل المسيح أعماله التي تشهد له تظل تشهد له إلى الأبد استودع تلاميذه والأتقياء من بعدهم في كل جيل أن يعملوا نفس هذه الأعمال: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها لأني ماؤس إلى أبي، ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالإبن.» (يو ١٤: ١٢ و١٣)

ويوضح المسيح بكل تأكيد وبتكرار دائم أن أعماله تشهد له لأنها أعمال الله ولا يمكن أن يعملها أحد إلا الله: «لولم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية. وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني وأنا وأبي» (يو ١٥: ٢٤)؛ «...مهما عمل ذلك (الآب) فهذا عمله الإبن كذلك. لأن الآب يحب الإبن ويريه جميع ما هو يعمل... لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي كذلك الإبن أيضاً يُحيي من يشاء» (يو ٥: ١٩-٢١)؛ «الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال، صدقوني أني أنا في الآب والآب فيّ.» (يو ١٤: ١٠ و١١)

٤ - شهادة الأسفار المقدسة:

كانت هذه أحد المصادر التي طالب المسيح أن يرجع اليهود المعاندون إليها، «فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية وهي التي تشهد لي، ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة» (يو ٥: ٣٩ و٤٠). «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم وهو موسى (أي الأسفار الخمسة) الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذلك فكيف تصدقون كلامي.» (يو ٥: ٤٥-٤٧)

فإذا علمنا أن المسيح حدد دوره بالنسبة للعهد القديم هكذا: «ما جئت لأنقض بل لأكمل» (مت ٥: ١٧)، كما يقدم القديس يوحنا العهد الجديد بيسوع المسيح كما تتركب النعمة ويتركب الحق على الأسفار القديمة لتضيئها وتشرحها هكذا: «لأن الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صار.» (يو ١: ١٧)

وهكذا يتضح من منهج إنجيل يوحنا بالنسبة لشهادة أسفار العهد القديم أنها كتبت لتبقى خالدة ولكن دورها الأول قد انتهى وهو دور التأديب كما يقول القديس بولس الرسول: «لكن قبلي جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس مُتلقاً علينا إلى الإيمان العتيق أن يُعلن. إذاً قد كان الناموس مؤدّبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان. ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا تحت مؤدّب» (غل ٣: ٢٣-٢٥)؛ «وأما الآن فقد ظهر بَرُّ الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء، بَرُّ الله بالإيمان بيسوع المسيح.» (رو ٣: ٢١ و٢٢)

أي أن ليس بظهور المسيح يكون قد بطل العهد القديم بأسفاره، ولكن الحقيقة العظمى هي أنه بعد أن أكمل العهد القديم دوره كمؤدّب بدأ دوره كشاهد للمسيح، وبذلك ازداد كرامة وتقديراً، بقدر ما زاد هو المسيح كرامة وتقديراً بشهادته عنه.

٥ - شهادة يوحنا المعمدان:

لقد كان يوحنا المعمدان آخر نبي (بل وأعظم من نبي لأنه رأى العريس) يمثل العهد القديم. وكانت عليه مسئولية محددة سبق وأن تنبأ بها إشعياء النبي وأدركها المعمدان بروحه عالماً أنه هو المقصود لتمهيد الطريق أمام المسيا: «ماذا تقول عن نفسك؟ قال أنا صوتُ صَارِخٍ في البرية قَوْمُوا طريق الرب، كما قال إشعياء النبي.» (يو: ١: ٢٣ و٢٢)

ويلاحظ أن المعمدان كان ابن كاهن لذلك أرسل اليهود من أورشليم إليه بعثة لتقصّي الحقائق، أرسلوها من «كهنة ولاويين»، لأن الأمر كان جدّ خطير ويتعلق بالنظام الكهنوتي كله ومستقبل إسرائيل، وهذه أول مرة يُذكر في الأناجيل عمل محدود للاويين في رسالة المسيح.

ورسالة المعمدان كني كانت محصورة بحسب إنجيل يوحنا في الشهادة والشهادة فقط لإعلان شخصية المسيح الموجود في وسطهم: «كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا، هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته.» (يو: ١: ٧ و٦)

كان يوحنا مثل شعاع من نور يسلمه الله في وسط ظلمات العهد القديم كله لينير لمصدر النور: «لم يكن هو النور بل ليشهد للنور... الحقيقي.» (يو: ١: ٩ و٨)

كان نوره صناعياً مؤقتاً وليس حقيقياً أو جوهرياً: «كان هو السراج الموقد (بيد آخر)، المنير، وأنتم أردتم أن تبهجوا بنوره ساعة» (يو: ٥: ٣٥). كان المعمدان يسير ناظراً إلى خلفه باحثاً أمامه عن آخر سيأتي بعده ولكنه كان قبله وذلك ليشهد له ويسلمه كل مسيرة التاريخ والأنبياء ويرقد. «هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدامي لأنه كان قبلي... الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه... وأنا لم أكن أعرفه لكن ليظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء... وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو: ٥: ٣٠ و٢٧ و٣١ و٣٤)

ولكن المسيح نفسه لم يكن ينتظر أو يترجى شهادة يوحنا له، لأن المسيح عنده الشهادة لنفسه كاملة ولا حاجة له لشهادة آخر من الناس، وإنما كانت شهادة يوحنا بتدبير خاص من الله لخلاص الشعب الجالس في الظلمة الذين كانوا في حاجة إلى هذه الشهادة حتى لا يخطئوا النور ولكنهم أخطأوه: «أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق وأنا لا أقبل شهادة من إنسان ولكني أقول هذا

لتخلصوا أنتم.» (يوه: ٣٣ و٣٤)

ويوحنا المعمدان كان يعرف بالروح حدود رسالته ونهايتها، وعبر عن ذلك بكل أمانة: «أنتم أنفسكم تشهدون لي أي قلت لست أنا المسيح بل أي مرسل أمامه. من له العروس فهو العريس وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه يفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذأ فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.» (يوه: ٢٨ - ٣٠)

٦ - شهادة التلاميذ:

حالة واحدة فقط طلب فيها المسيح من تلاميذه والناس أن يشهدوا، وهي بعد أن يرتفع وليس أثناء وجوده في الخدمة على الأرض: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يوه: ٢٦ و٢٧)

وقد أكمل القديس يوحنا بنفسه مع التلاميذ هذه الوصية بكل أمانة: «والذي عاين شهد وشهادته حق وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم» (يوه: ١٩: ٣٥)؛ «هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا ونعلم أن شهادته حق.» (يوه: ٢١: ٢٤)

٧ - شهادة الروح القدس:

كانت كل شهادة تمت للمسيح في جميع الشهادات السابقة تعتمد على من يوصلها لآذان الناس المفتوحة ولعيونهم وقلوبهم المعدّة لاستقبال النور ولتنفسها لهم ويؤكد لها لهم، وإلا ما كان يمكن أن يدركوا المقصود منها، لأنها شهادة «للحق» ولكن في مظهر ضعف في أفواه أناس بينا جوهر الحق المطلوب الشهادة له هو هو الله، لذلك تحتم أن يكون الروح القدس هو الذي يضطلع بهذه المهمة لأنه «روح الحق» (يوه: ١٥: ٢٦) الذي «يرشد إلى جميع الحق» (يوه: ١٦: ١٣) ويكون حاضراً في كل شهادة مشيراً ومرشداً ومفسراً ومقنعاً. لهذا كان أول استعلان للمسيح على يد يوحنا المعمدان قائماً على حضور وإعلان الروح القدس: «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليظهر إسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء... وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يوه: ٣١ و٣٣ و٣٤)

وهكذا فتح الروح القدس باب الشهادة العلنية للمسيح بصفته «الحق» المتجسد الآتي إلى العالم. هذه الحقيقة رسخت رسوخاً في قلب القديس يوحنا لذلك نجده يحددها مرة أخرى في رسالته

بقوله: «والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق.» (١ يوحنا ٥: ٦)

ومنذ هذه المعمودية المباركة – التي استُعلن فيها المسيح بظهور وحلول الروح القدس – وحتى الآن والروح القدس يضطلع بمهمته العظمى وهي الشهادة لحق المسيح – باعتباره هو نفسه روح الحق – متكلماً وناطقاً في قلوب المؤمنين وبأفواههم، وعاملاً في الفكر والقلب والروح في كل الكنيسة بالأسرار «ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم... فهو يشهد لي.» (يوحنا ١٥: ٢٦)

وهكذا تظهر الشهادة في إنجيل يوحنا كنسيج حيّ يملأ الإنجيل خيوطه في سبعة مستويات تبتدىء من الأب نفسه لتنتهي بالتلاميذ مدعّمة بالروح القدس طولاً وعرضاً؛ ثم تظل هذه الشهادة بكل مستوياتها مستمرة بكل قوتها ودعمها داخل الكنيسة وفي كل العالم حتى اليوم كما كانت أيام المسيح تتلاقى مرة مع الإيمان المدعّن للحق فتنشئ نوراً واستنارة وخلصاً وفرحاً لا يُنطقُ به ومجيد؛ وتتلاقى مرات ومرات مع الجحود والإنكار فتنشئ دينونة العار والإزدراء عاراً أبدياً يظل لاصقاً بالإنسان حتى وإلى ما بعد مماته !!!

الفصل الثاني النور والمجد

هذا هو المعيار الثاني في التدرج المنهجي للإنجيل يوحنا بعد الحق والشهادة. وهذان المعياران يقومان على التوازي والإتصال لأن الشهادة لا تكون إلاً بعد استنارة؛ والحق يُسْتَعْلَن في المجد.

أ - النور

إنجيل يوحنا ينتقل بسهولة بين النور الطبيعي والنور الحقيقي ليعطي للقارىء فرصة للتطبيق والموازنة: «قال لهم يسوع،، النور»، (الحقيقي) معكم زماناً قليلاً بعد فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب.» (يو ١٢: ٣٥)

هنا ينتقل الإنجيل من إنسان يسير في الظلام ولا يعرف إلى أين يذهب، إلى إنسان يسير بعيداً عن المسيح (النور) فتداهمه الخطية ويستولي عليه الشيطان ويسقط في فخاخه. فهنا يكشف الإنجيل وظيفة النور الحقيقي وهي كيف يفضح الخطية وبيددها.

وخطوة إيجابية أكثر حينما يقارن بين نور النهار الساطع ونور الحق الكاشف، حيث يتضح أن النور الحقيقي وظيفته هي أيضاً الإستعلان وكشف الأسرار العليا المخفية: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم.» (يو: ٩٤؛ ٥٥)

وهنا يوضح الإنجيل أن النور الحقيقي (بالرغم من أنه لانهائي وغير محدود)، فهو يُعطى كفرصة محدودة جداً زمنياً: «النور معكم زماناً قليلاً بعد» (يو ١٢: ٣٥)، بل ويُعطى كفرصة قد لا تتكرر «ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يو ١٢: ٣٦) مع مشابهة نور النهار بالمسيح نور

العالم من حيث الوظيفة .

وكثير من الناس يشتاق أن يعرف كيف يرى أو يؤمن بالمسيح كنور. والحقيقة أن الإيمان بالنور هو إدراك روعي صافٍ بوجود المسيح ، وذلك بالوعي المسيحي الذي نلناه بالإيمان وبالروح القدس ، لا على هيئة أو شكل محدود ولكن ككيان يحل في القلب فيملأه فرحاً ونعيماً وسروراً ، وعلامته تكون استعلانات لحفايا أقوال المسيح ووصاياه وفهمها فهماً روحياً عميقاً ومؤثراً ومجدداً. وهذه الإستعلانات هي بجد ذاتها تكوّن فعل النور في القلب .

وحيثما يقول الإنجيل أن المسيح هو «النور الحقيقي» (يو: ١٠: ٩) حيث يجيء النور بأل التعريف τὸ Φῶς τὸ ἀληθινόν ، فإن هذا يعني أنه هو الوحيد الذي يستعلن الحقائق الإلهية : «الله لم يره أحد قط ، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو: ١٠: ١٨)؛ فعمل المسيح الأساسي هو إلقاء نور الإستعلان في قلب الإنسان المؤمن لكي يدرك الحق كل الحق «أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة» (يو: ١٢: ٤٦)، حيث الظلمة هي جهالة الخطية وعمى الروح ، والنور هو استعلان معرفة الله للقداسة ، وحيث النور هو الذي يكشف الظلمة وأعمالها فيبدها «يضىء في الظلمة.» (يو: ١: ٥)

لذلك فظهور النور هو حكم قضاء ضد الظلمة ، ووضع الحد الفاصل بين الإنحياز للنور أو الإنحياز للظلمة ، أي الإختيار الإجباري بين الإيمان ورفض الإيمان . وإختيار الظلمة سببه حتماً الأعمال الشريرة : «أحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة» (يو: ٣: ١٩). وهنا يطغى الشرفيدفع عامله أيضاً إلى بغضة النور «كل من يعمل السيآت يبغض النور» (يو: ٣: ٢٠). ولكن بغضة النور هنا لا تأتي كعامل إجباري ولكن بحسب خبث النفس التي لا تريد أن تفتضح : «ولا يأتي إلى النور لئلا توثج أعماله.» (يو: ٣: ٢٠)

حيثما يوصف الله بالنور ، فلا يظن أحد أنه نور مرئي بالنظر أو الفكر ، بل هو طبيعة الله غير المدركة بالعقل ولكنه مدرك بالروح وهو كلي الإدراك في ذاته . فالله مدرك كامل يُدرك ولكن لا يُدرك كماله . والمسيح بصفته شعاع أو بهاء مجد الله فهو النور الذي جاء إلى العالم ليستعلن طبيعة الله غير المدركة .

ولكن حيثما قال القديس يوحنا في مقدمة إنجيله أن «النور الحقيقي» (يو: ١: ٩) كان آتياً إلى العالم ، فهنا لا يقصد نور المعرفة أو الإدراك أو البصيرة الكاشفة — أو النور الباطني — ولكن نور الخليقة الجديدة نور الحياة الأبدية ، النور المرسل من طبيعة الله لكشف طبيعة الله . وهذا النور غير

«النور» في قول الإنجيل «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، (يو: ١: ٤)، هنا النور هو نور العقل والفهم والمعرفة التي مُنحت للخلقة العاقلة التي تقبلها الإنسان، بحسب شرح القديس كيرلس الكبير: [كما أن الكلمة هو الحياة في كل المخلوقات التي خلقت إذ تقبلت الحياة منه، فهو أيضاً النور بالنسبة لحياة الإنسان الذي تقبل منه المعرفة والفهم] (١). [أما الظلمة فهي الطبيعة التي يعوزها الإستنارة.] (٢)

فجاء «الكلمة» إلى العالم في إنجيل يوحنا هو بداية عصر النور الجديد الذي يمكن أن يدعى وحده نوراً حقاً. فهو «النور الحقيقي» (يو: ١: ٩) أي النور الجوهري حيث استعلنت طبيعة الله وتقبلها الإنسان الجديد بالروح ليؤهل لشركة النور بالإستعلان هنا بكشف الإيمان بالروح، وبالواقع هناك، في المجد.

ونور الإستعلان هو أرفع وأعلى من نور الإدراك والبصيرة أو الإستنارة، لأن نور الإستعلان يختص بالأخريات أي بطبيعة الله، أي بالأمور الآتية غير المدركة بالعقل، التي نعيشها الآن كما في مرآة كما يقول القديس بولس الرسول (٢ كو: ٣: ١٨) كسبق تذوق للمجد القادم.

وحينما يقول المسيح «أنا نور العالم» (يو: ٩: ٥) فالعنى واضح للغاية إذ يعني أنه جاء إلى العالم ليستعلن طبيعة الله — كآب وابن، والتجسد والخلاص لجميع الأمم — وذلك للناس الذين في العالم الذين يؤمنون به. وطبيعة الله كانت سرّاً محتوماً لم يُعرف به أحد قط سابقاً كقول القديس بولس الرسول: «أنه بإعلان عرفني بالسر... بسرّ المسيح الذي في أجيال أخر لم يُعرف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاء في الميراث والجسد (الناس الذين في العالم)» (أف: ٣: ٣-٦). هنا الإعلان هو الكشف بالروح القدس.

فالمسيح هو بالحقيقة «نور» العالم لأنه سلّم للعالم سرّاً استعلان بنوّه لله وسرحب الله الآب للعالم، هذا الحب الذي كلّفه ذبح ابنه على الصليب، كذلك سلّم العالم سرّ الأبوّة والبنوّة في الله وهو السر الذي انتهى بالإنسان إلى قبول الحياة الأبدية وإلى التبني أي الدخول في بنوّة الله مع المسيح.

وهكذا بنور الإستعلان ليس فقط عرفنا المسيح بطبيعة الله وحسب بل إنه بنور الإستعلان نلنا

1 St. Cyril the Great, Comm. on the Gospel of St. John, Book 1, Ch. 5, p. 68,86,87.

2 Ibid.

أيضاً نصيباً في ذات سر أبوة الله إذ صرنا له بنين وصار هو لنا أباً. فالنور الحقيقي أحدث في الإنسان استعلاناً أدى إلى تبني وميراث سماوي. فنور المسيح هو نور استعلان الأخويات التي صارت من نصيبنا منذ الآن. أي أن عمل النور لم يقف إلى حد المعرفة لله «بنورك نرى نوراً» (مز ٣٦: ٩) فقط، بل جعلنا أيضاً شركاء في ذات النور، إذ صرنا بنور هذا الإستعلان أبناءً: «آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.» (يو ١٢: ٣٦)

والمسيح لما قال «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو ١٢: ٣٥) يقصد أن نسير باجتهاد في جِدَّة الحياة أو الحياة الجديدة في المسيح، أي القيامة، أي الخليقة الأخرى التي من فوق، لئلا يدركنا الظلام أي لئلا يطفى علينا مرة أخرى ظلام الإنسان العتيق والحياة القديمة المستعبدة لظلام الخطية وسلطان الظلمة!

لذلك فكما أن الحياة تنبعث من النور كذلك الموت يتبع الظلمة. لذلك يقول القديس يوحنا في رسالته «أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١ يو ١: ٥)، فهو الحياة المطلقة والقداسة المطلقة. وعلى هذا القياس يكون تلميح المسيح على نفسه أنه هو الحياة، أي ليس فيه ظلمة البتة بل هو نور كلي بقوله: «مَنْ مِنْكُمْ يُكْتَبِي عَلَى خَطِيئَةٍ.» (يو ٨: ٤٦)

والقديس يوحنا يستخرج لنا من هذا منهجاً عملياً كعلاقة حتمية مع النور: «إن قلنا أن لنا شركة معه (أي النور) وسلطنا في الظلمة (أي الخطية) نكذب ولسنا نعمل الحق.» (١ يو ١: ٦)

كذلك يربط القديس يوحنا بين النور والحلب فهما طبيعة واحدة في الجوهر الإلهي: «الله نور» (١ يو ١: ٥)، «الله محبة» (١ يو ٤: ١٦)؛ وكذلك بين الظلمة والبغضة القائلة وهاتان هما الصفتان اللتان اكتسبها الشيطان بعصيان الله: «أيضاً وصية جديدة أكتب إليكم ما هو حق فيه وفيكم أن الظلمة قد مضت (هزيمة الشيطان) والنور الحقيقي الآن يضيء (معرفة المسيح بالإستعلان)، مَنْ قال أنه في النور وهو يبغض أخاه (مَنْ يبغض أخاه فهو قاتل نفس — والشيطان كان قتلاً للناس منذ البدء) فهو إلى الآن في الظلمة (في حزن الشيطان)، مَنْ يحب أخاه فهو يثبت في النور وليس فيه عشرة. وأما مَنْ يبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ولا يعلم إلى أين يمضي لأن الظلمة أعمت عينيه.» (١ يو ٢: ٨—١١)

وهكذا يعلن إنجيل يوحنا عن المعيار الدقيق والخطير «للنور».

ب - المجد δόξα

لقد استخدم إنجيل يوحنا كلمة «المجد» ومشتقاتها على الأساس العبري بحسب الترجمة السبعينية. و«المجد» في المفهوم اللاهوتي بحسب تعبير الإنجيل عامة يشمل المعاني الآتية: «العظمة الإلهية»، «القوة والقدرة الإلهية»، «بهاء الإشعاع اللاهوتي المدرك أو المنظور بالعقل». وهذه هي عموماً الحالة التي يتراءى فيها الوجود الإلهي سواء في العهد القديم أو الجديد في المسيح.

وحوادث المجد المنظورة المسجلة في الكتاب المقدس في العهد الجديد تكاد تكون في الحقيقة منظورة أيضاً بالعقل السامي أو الذهن الروحي وليس بالعين المجردة. فالمنظر الواحد يراه إنسان ولا يراه إنسان آخر معه كما في ظهور المسيح في السماء لبولس الرسول: «وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً» (أع ٩: ٧). أو قول إنجيل يوحنا عند آية تحويل الماء خمرأ: «هذه بداءة الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به تلاميذه» (يو ٢: ١١)، هنا «أظهر مجده» لا تفيد رؤية عينية أو منظرأ يملأه النور والبهاء بل هو منظر معقول أظهر فيه المسيح نفسه أي استعلن كيانه الإلهي غير المنظور، إنما التقطه التلاميذ بالرؤيا العقلية السامية، وهي التي لها تأثير مباشر على الفكر والقلب للإيمان المباشر.

هذه الرؤيا العقلية واضحة جداً في تعرف نثنائيل على مجد المسيح: «ورأى يسوع نثنائيل مُقبلاً إليه فقال عنه: هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه، قال له نثنائيل من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك. أجاب نثنائيل وقال له يا معلّم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.» (يو ١: ٤٧-٤٩)

إذن كيف آمن نثنائيل هكذا بهذه القوة والتلقائية السريعة؟ حينما أظهر المسيح نفسه لنثنائيل بالروح أنه يعرف أموره الخاصة الداخلية، انكشف في الحال عن فكره وروحه بأن واحد حقيقة المسيح دون أي تعليم أو رؤية عينية فأمن وشهد لمجد المسيح مستعلناً طبيعته الإلهية التي بهرت روحه.

وليس فقط لنثنائيل الإسرائيلي حقاً الذي لا غش فيه أظهر المسيح مجده بل وأيضاً للسامرية الأُممية الخاطئة المنبوذة! «يا سيد أرى أنك نبي!» (يو ٤: ١٩)، «هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت، أعلّ هذا هو المسيح» (يو ٤: ٢٩). وليس لمجرد أن المسيح قال لها كل ما فعلت أنت، ولكن لأن المسيح أظهر نفسه لها كنور حقيقي كشف أعماق ظلمات كيانها فهزّها هزّاً عنيفاً أطاح

بكل خزيتها وماضيها فرأت فيه المخلص والفادي «لكل العالم».

وفي كل حالات الإيمان التي خضعت لحقيقة استعلان المسيح لذاته، كان المسيح يُستعلن فيها كنور حقيقي يزيح ظلمات الجهل والشك والحزن والألم والمرض بل والموت عن الإنسان، فيحضره أمامه وأمام الآب مطهراً بل ومقدساً وبلا لوم، فتكون استجابة الإيمان لفعل النور مدعنةً وتلقائية وبشهادة. لهذا لا يخشى المسيح أن يقول في صلاته للآب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو ١٧: ٢٢)، لأن النور الإلهي الذي يضيفه المسيح على قلب الخاطيء وفكره وكل كيانه يُلبسه ويتغلغل كيانه فيصبح وكأنه حامل النور وشريك فيه: «آمَنُوا بالنور لتصيروا أبناء النور.» (يو ١٢: ٣٦)

وأن نؤاخي النور ونسير فيه أو نسير معه، فلا بد وأن يُشعل القلب بالحرارة الفائقة ويملاً كيان الإنسان بهجة حتى ولو لم يدري: «وفيا هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما ولكن أمسكت أعينها عن معرفته... فالزمها قائلتين امكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار. فدخل ليمكث معهما. فلما اتكأ معهما أخذ خبزاً وبارك وكسّر وناولهما. فانفتحت أعينها وعرفاه ثم اختفى عنها. فقال بعضهما لبعض ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق...» (لو ٢٤: ١٥-٣٢). يلاحظ القارئ هنا أنه أخفى نفسه عنها فلم يعرفاه، ولكن قلبها كان ملتهباً فيها؛ لأن النور إن أمسك عن أن يفتح العين لترى ما لا يرى فلا بد أن يحرق القلب؛ لأن النور فعّال في كل مجال لأنه مجد المسيح!؛ فإذا لم تره العين الفائقة فلا بد أن يهتز له القلب اهتزازاً، لأنه كيف يغشانا مجد المسيح - بتفضّل منه - ونبقى نحن كما نحن؟

وبالمقارنة مع الثلاثة الأناجيل والأسفار الأخرى في العهد الجديد نجد أن إنجيل يوحنا يعنى في إعلان مجد المسيح في حياته على الأرض بكثرة وفي مواقف عديدة، في حين أن الثلاثة الأناجيل وبقية الأسفار اقتصرت على الإعلان عن مجده بعد القيامة.

ففي سفر الأعمال يُقدّم المسيح مُمَجِّداً في القيامة: «إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلّنين إياه على خشبة. هذا رفعه الله بيمينه رئيساً ومحلّصاً...» (أع ٥: ٣٠ و٣١).

والقديس بولس الرسول يقدم المسيح مُمَجِّداً في القيامة: «أقيم... بمجد الآب.» (رو ٦: ٤)

ثم يقدمه مُمَجِّداً في صعوده: «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد تبرّر في الروح تراءى للملائكة كُرّز به بين الأمم أُوْمِنَ به في العالم رُفِعَ في المجد.» (١ تي ٣: ١٦)

والقديس الشهيد إستفانوس يقدمه لنا مجدداً عن يمين الآب في السماء: «وأما هو فمخصص إلى السماء وهو ممتلئ من الروح القدس فرأى مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله.» (أع ٧: ٥٥)

والقديس بطرس الرسول يقدم المسيح مجدداً بعد اجتيازه الآلام أي بعد قيامته: «باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدلُّ عليه روح المسيح الذي فيهم إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأجساد التي بعدها.» (١ بط ١: ١١)

كما يقدمه القديس بطرس الرسول حائزاً على مجد الآب بعد قيامته من الأموات: «أنتم الذين به تؤمنون بالله الذي أقامه من الأموات وأعطاه مجداً حتى أن إيمانكم ورجاءكم هما في الله.» (١ بط ١: ٢١)

وسفر الرؤيا يقدم المجد للمسيح من فم الأربعة والعشرين قسيساً والمسيح جالس على عرشه: «أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وُخِلِّقَتْ.» (رؤ ٤: ١١)

ويقدمه سفر العبرانيين كممجد إلى الأبد بنفس الخاتمة التي تُقدَّم إلى الله: «ليكمِّلكم في كل عمل صالح لتصنعوا مشيئته عاملاً فيكم ما يُرضي أمامه يسوع المسيح الذي له المجد إلى أبد الأبدين آمين.» (عب ١٣: ٢١)

والقديس بطرس الرسول يقدم هذه الخاتمة للتمجيد عينها: «إن كان يتكلم أحد فكأقوال الله وإن كان يخدم أحد فكأنه من قوة يمنحها الله لكي يتمجد الله في كل شيء بيسوع المسيح الذي له المجد والسلطان إلى أبد الأبدين آمين.» (١ بط ٤: ١١)

كما يستخدم سفر الرؤيا خاتمة التمجيد نفسها: «قائلين بصوت عظيم مستحق هو الحروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة. وكل خليفة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض (الأموات) وما على البحر. كلُّ ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف: البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الأبدين.» (رؤ ٥: ١٢ و١٣)

والقديس بولس الرسول يقدم المجد للمسيح كصفة دائمة أو كإسم تعظيم: «لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد.» (١ كو ٢: ٨)

والقديس يعقوب الرسول يعطيه نفس اللقب التمجيدي: «يا إخوتي لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحابة.» (يع ٢: ١)

والقديس بطرس الرسول يقدم المسيح في استعلان مجده الآتى كمصدر فرح: «بل كما اشتركتم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين» (١ بط ٤: ١٣)؛ «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم أنا الشيخ رفيقهم والشاهد لآلام المسيح وشريك المجد العتيد أن يُعلن...» (١ بط ٥: ١)

والقديس مرقس الرسول يقدم المسيح متكلماً عن نفسه في استعلان مجده العتيد هكذا: «وحيئنذ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحب بقوة كثيرة ومجد.» (مر ١٣: ٢٦)

كل هذه الشواهد توضح أن جميع هذه الأسفار اقتضرت على إعلان مجد المسيح بعد القيامة. أما ذكر مجد المسيح قبل القيامة في بقية الأناجيل فهي محدودة للغاية، وتتعلق بقصة ميلاده وتجليه، أو ذكر مجيئه الثاني الذي يُحسب أنه متعلق بالدهر الآتى أيضاً.

أما إنجيل يوحنا فينفرد دون جميع الأناجيل والأسفار في ذكر المسيح مجدداً في حياته على الأرض قبل الصليب وعليه! وهكذا يتبين للقارئ أن إنجيل يوحنا قد أصر على استعلان مجد المسيح معتبراً أن حياته على الأرض كانت كلها نوعاً من التجلي والرفعة: «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو ٣: ١٣)

هذا هو المجد الذي رآه إشعياء بعين النبوة: «رأيت السيد جالساً على عرشٍ عالي ومرتفع ومجده τῆς δόξης αὐτοῦ يملأ كل البيت» (إش ٦: ١ - النسخة السبعينية). والقديس يوحنا يكشف سراً ما رآه إشعياء من عرش مرتفع ومجد مالى أنه هو المسيح المرتفع على صليبه الذي ملأ لا البيت فقط بل الأرض كلها والسماء: «قال هذا إشعياء حين رأى مجده وتكلم عنه.» (يو ١٢: ٤١)

وكان أول استعلان مجده في عرس قانا الجليل: «وأظهر مجده فآمن به تلاميذه» (يو ٢: ١١). هذا في عرس قانا الجليل، مما جعل الكنيسة تعتبر سر الزواج على أعلى مستوى من التجلي فهو سر المسيح والكنيسة، كما يقرر ذلك القديس بولس الرسول. «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الإثنين جسداً واحداً. هذا السر عظيم ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة.» (أف ٥: ٣١ و٣٢)

ولكن ليس للتلاميذ فقط أعلن المسيح مجده أو هو مستعد أن يُعلن مجده بل وأيضاً لكل من يؤمن به، كان من كان. فهو يقول لمرثا: «ألم أقل لك إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو ١١: ٤٠)، معتبراً أن بعض التجارب والضيقات تكون لمجد الله والمسيح بالرغم من ظاهرها البشع على مستوى شركة

الصليب، «فلما سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله لئتمجد ابن الله به.» (يو: ١١: ٤)

أما للأخصاء فإن استعلان مجده يصاحبه عطية: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجدداً كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو: ١٦ و١٤). هنا الرؤية تحتاج إلى إيمان واستعلان لحقيقة شخص المسيح.

وإنجيل يوحنا يعتبر أن أول ظهور علني لمجد المسيح على مستوى العالم هو الصليب: «لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد» (يو: ٧: ٣٩). وهذا تؤكد الآيات: — «وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً ولكن لما تمجد يسوع حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه...» (يو: ١٢: ١٦)

— «فلما خرج (يهوذا) قال يسوع: الآن تمجد ابن الإنسان وتمجد الله فيه.» (يو: ١٣: ٣١)

— «وإن كان الله قد تمجد فيه فإن الله سيمجده في ذاته ويمجده سريعاً.» (يو: ١٣: ٣٢)

وبهذا يعلن إنجيل يوحنا وبفم المسيح أن الصليب كان باب المجد: «أما كان ينبغي أن يتألم المسيح بهذا ويدخل إلى مجده.» (لو: ٢٤: ٢٦)

هذا هو المدخل الذي دخل منه المسيح مكتسباً هذا المجد لحسابنا بعرق جبينه وبدمه الذي سُفِكَ على الأرض، ذلك فوق مجده المدَّخر له عند الآب في ذاته. لذلك حقَّ له أن يقول: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو: ١٧: ٢٢)

لقد وقعت حبة الخنطة وماتت، لذلك تحتم أن تعطي حياتها ومجدها لكثيرين: «قد أتت الساعة لئتمجد ابن الإنسان. الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الخنطة في الأرض وتَمَّتْ فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير.» (يو: ١٢: ٢٣ و٢٤)

هكذا ربط إنجيل يوحنا بين الموت والقيامة وبين الآلام والمجد. فقد انتزع من الموت قيامة ومجداً له وللإنسان عامة!

ثم ألا ترى يا صديقي القارئ كيف أن آلامنا وضيقاتنا واختناقنا حتى الموت هي موقَّعة على مجد الله والمسيح ومنطقة على الصليب وما بعده تمام الإنطباع؟ إنه لأمر مذهل أن يكون الصليب والألم والموت مجدداً لحساب الإنسان المظلوم المهان. وكأن إنجيل يوحنا يسلمنا سير رؤية مجد المسيح في نور حبه الإلهي ومن خلال منظار الآلام والضيقات والدموع، وأي مجد؟ مجد الله!!!

ولهذا انفرد هذا الإنجيل العجيب في التأكيد على استعلان مجد المسيح خلال كل حياته على الأرض لأنها كلها كانت آلاماً ومقاومة ومصادرة وخيانة، وليس في ذلك عجباً فإن كان الله قد تنازل ولبس جسداً فلا عجب أن يفوح المجد منه كلما تألم أو توجّع؛ ثم أليست هذه هي رائحة المسيح الذكية لله للذين يخلصون؟

الفصل الثالث

الحياة والدينونة

إن معياري «النور» و«المجد» اللذين هما النتيجة المباشرة لإستعلان الحق والشهادة، يؤديان بدورهما إلى معيارين آخرين هما: إمّا الحياة الأبدية أو الدينونة. وبمعنى أبسط. فإن الذي يؤمن بالحق، يشهد له بالضرورة؛ والذي يؤمن ويشهد، يفتح أمامه إستعلان النور والمجد، فينال الحياة الأبدية. أما الذي لا يؤمن بالحق فهو لا يشهد له ولا يستطيع ولا يؤهل لإستعلان النور ولا لرؤيا المجد، وبالتالي لا ينال الحياة الأبدية بل يخضع للدينونة، لأنه يستحسن الظلام ولا يستحسن أن يبقى الله في معرفته. «الذي يؤمن به (بالحق والنور) لا يُدانُ، والذي لا يؤمن قد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو: ١٨ و١٩)

وهذا معناه في إنجيل يوحنا أن الإيمان باسم ابن الله يعتق من الدينونة المباشرة، أما الإنعتاق من الدينونة فعناه الفعلي هو الدخول في الحياة الأبدية. وهذا يوضحه الإنجيل هكذا: «الحق الحق أقول لكم إنَّ مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو: ٥: ٢٤). وهذا المعيار الذي وضعه المسيح في إنجيل يوحنا يسري في هذا الزمان وفي القيامة والدهر الآتي، وهذا أيضاً يوضحه الإنجيل هكذا: «...تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة، الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة.» (يو: ٥: ٢٨ و٢٩)

هذا في اليوم الأخير، أما في الحاضر الزمني، فيقول أيضاً الإنجيل: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسمعون يحيون» (يو: ٥: ٢٥). وهذا تم بالحرف الواحد في إقامة لعازر.

أ - الحياة في إنجيل القديس يوحنا

كلمة «الحياة» في الإنجيل عامة وفي العهد الجديد خاصة هي الحياة غير القابلة للموت. فالموت في المسيحية عموماً ليس ظاهرة طبيعية قائمة بذاتها أو هي حالة ضرورية. فالموت هو عقوبة الخطية.

و«الحياة» تختص بالله. فإسم الله هو «الله الحي» وهو الذي وحده له عدم الموت «الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (١٦:٦)، وهو وحده الذي يُحيي ويُميت «...أمام الله الذي آمن به الذي يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة.» (رو: ٤: ١٧)

والحياة في الله والتي يعطيها الله بروحه هي وحدها التي تسمى حياة. ولكي نفرقها عن الحياة الجسدية التي ماها للموت، فهي تسمى «الحياة الحقيقية» أو «الحياة الأبدية». وعلى هذا القياس يمكن أن تسمى الحياة التي يحيها الناس بالجسد أنها حياة الموت أو حتى «الموت» بالرغم من مظاهر القوة والحركة الطبيعية.

ولهذا فإن «الحياة الحقيقية» هي الحياة التي نكتسبها الآن لحساب ما بعد الموت، وهي التي يتحتم أن نحسب لها ألف حساب «لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل ولكن التقوى نافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة» (١ تي ٤: ٨). ويلاحظ هنا في هذه الآية وفي بكور بحثنا أن القديس بولس الرسول يقرن الحياة الأبدية بالحاضر والمستقبل. لهذا «فالحياة» في الكتاب المقدس تعني الحياة الأبدية، ولا يلزم أن يضاف إليها أي تعريف آخر. «وإن أعثرتك يدك فاقطعها خير لك أن تدخل الحياة أقطع من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنم.» (مر ٩: ٤٣)

و«الحياة» أو الحياة الأبدية لأنها تخلصت نهائياً من الموت، فهي بالنسبة للإنسان تعني «الخلاص».

والحياة الأبدية «تُورث»: «ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية» (مر ١٠: ١٧)، و«تُؤخذ»: «ويأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان... مع اضطهادات وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية» (مر ١٠: ٣٠)، و«يُدخل إليها.» (مر ٩: ٤٣)

«الحياة» في الحاضر:

١ - كما جاءت في أسفار العهد الجديد عامة:

إن كل الأسفار في العهد الجديد تتحدث عن «الحياة» في المستقبل. ولكن السؤال الملح: وما

هو نصيب الحاضر من هذه الحياة الأبدية؟

والحقيقة أن الحياة الأبدية حادثة في الحاضر بكل تأكيد على أساس «الرجاء الحي» الذي نعيشه بالإيمان، حيث الرجاء يختص بالمستقبل، ولكن يُعاش ويمارس الآن في صميم الحاضر الزمني على أساس وعد الله الثابت: «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية، لرجاء حي، بقيامة يسوع المسيح من الأموات. لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، محفوظ، في السموات لأجلكم.» (١ بط ١: ٤٥٣)

هذا الميلاد الثاني هو بعينه «الحياة الأبدية» مُعاشة بالإنسان الجديد، وذلك برجاء حي نمارسه بقوة قيامة المسيح، وعلى أساس ميراث «محفوظ» لنا في السموات. إذن فحاضرنا الروحي مُعَانٌ ومقوّى ومسنود بمستقبل حياة أبدية كُتبت وتسجلت وحُفِظت لنا في السموات بصورة أكيدة. «فإن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضاً بالسوية مؤمنين بالرب يسوع المسيح فَمَنْ أنا. أفادُّ أن أمنع الله؟ فلما سمعوا ذلك سكتوا وكانوا يمجدون الله قائلين إذاً أعطى الله الأمم أيضاً التوبة للحياة.» (أع ١١: ١٧ و١٨)

ولكن الواقع والحقيقة هو أن الحياة الأبدية لا تظهر واضحة بصفاتها وإمكانياتها وقدراتها الهائلة في الحاضر، ولكن تبدو وكأنها عطية وهبة، في الخفاء تُعاش وتمارس «اهتموا بما فوق لا بما على الأرض لأنكم قد مُتُّم وحياتكم، مستترة، مع المسيح في الله، متى أظهر، المسيح حياتنا، فحينئذٍ تُظهِرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو ٣: ٢-٤). وهذا يعني تماماً أننا نمارس الحياة الأبدية الآن في الخفاء بدون مظهر ولا مجد بانتظار الإستعلان الكامل. والدليل القوي على اعتبار أن الحياة الأبدية يبدأ عملها وفعلها من الآن، قول بولس الرسول لتيموثاوس: «جاهد جهاد الإيمان الحسن وأمسك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيت...» (١ تي ٦: ١٢). شيء وحيد يميز ممارستنا للحياة الأبدية الآن عنها في الحياة الأخرى في المستقبل كون الأخيرة ليس فيها كآبة ولا حزن ولا تهد بل فرح كامل دائم. أما في الحاضر فتكتنفها الضيقات والآلام.

٢ - «الحياة» عند القديس بولس الرسول:

كان القديس بولس الرسول أول من اعتبر «الحياة الأبدية» كحاضر نعيشه ونمارسه ونفرح فيه، إذ اعتبر أن المسيح بقيامته من الموت صار آدم الثاني الذي به ومنه خرجت البشرية الجديدة، حيث المؤمنون به ينتسبون. «ولكن الآن قد قام المسيح وصار باكورة الراقيدين... ولكن كل واحد في رتبته المسيح باكورة ثم الذين للمسيح في مجيئه» (١ كو ١٥: ٢٠ و٢٣). «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيتهم ليكونوا مشابهي صورة ابنه ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين» (رو ٨: ٢٩). «وهو

رأس الجسد الكنيسة الذي هو البداية بكرّ من الأموات لكي يكون هو متقدماً في كل شيء.»
(١كو: ١٨)

ولكن القديس بولس الرسول يرى أن الحياة الأبدية هي في المستقبل تكميل لِمَا ابتدأ الآن «وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي» (١ كو١٥: ٤٩)، حيث يُحسم التجديد الحادث الآن في سِرٍّ، بتجديد مستعلنٍ منظور. «لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البرسيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح» (رو٥: ١٧)، معتبراً أن الروح القدس الذي نأخذه في المعمودية هو عربون لما سيُكمّل في المستقبل «نحن الذين لنا باكورة (عربون) الروح نحن أنفسنا أيضاً نثنّ في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا» (رو٨: ٢٣)، «لأننا بالرجاء خَلَصْنَا، ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً. ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر» (رو٨: ٢٤ و٢٥)، «الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا.» (٢ كو: ١: ٢٢)

والروح القدس عند القديس بولس هو الذي يضطلع الآن بإعطاء «الحياة» في الله: «الذي جعلنا كُفَاءً لأن نكون خُدّام عهد جديد لا الحرف بل الروح. لأن الحرف (الناموس) يقتل ولكن الروح يُحيي» (٢ كو٣: ٦)، «لأن اهتمام الجسد هو موت ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام.» (رو٨: ٦)

+ وبالكلمة التي يكرز بها القديس بولس، تهب رياح النعمة التي سماها رائحة المسيح التي في الكلمة، لتُحيي مَنْ يسمعها ويؤمن بها «لأننا رائحة المسيح الذكيّة لله... رائحة حياةٍ لحياة» (٢ كو١٥: ١٦ و١٥)، بل «والكلمة» الفعّالة في المسيح سمّاها القديس بولس كلمة الحياة «متمسكين بكلمة الحياة» (في٢: ١٦)، وأيضاً سفر الأعمال يعطي – على لسان الملاك – لكلام المسيح صفة الحياة المحيية «اذهبوا قفوا وكلموا الشعب في الهيكل بجميع كلام هذه الحياة» (أع٥: ٢٠). وهذا ما تمسك به القديس يوحنا الرسول من فم المسيح نفسه: «الروح هو الذي يحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة.» (يو٦: ٦٣)

لذلك فالإنجيل في عرف القديس بولس الرسول، هو الذي حطم الموت وأنار الحياة والخلود أمام وعي الإنسان وروحه «الذي خَلَصْنَا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية. وإنما أظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل.» (٢ تي١: ١٠ و٩)

+ كذلك فإن القديس بولس يؤمن ويمارس الحياة الأبدية في الحاضر بإحساس يقيني أن المسيح نفسه هو الذي يعطي هذه الحياة فيه التي يحياها «لأنني مُتُّ بالناموس للناموس لأحيا الله. مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان إيمان ابن الله الذي أحببني وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢: ١٩ و ٢٠)، «فإن كان المسيح فيكم فالجسد ميت بسبب الخطية وأما الروح فحياة بسبب البر.» (رو ٨: ١٠)

+ والحياة الأبدية هي المقابل الإيجابي لغفران الخطية لأن المقابل للخطية هو الموت. «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو ٨: ٢)

+ والحياة الأبدية تفعل وتزدهر في الإنسان، بقدر ما يموت الإنسان بالجسد عن الخطية كل يوم. «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا.» (٢ كو ٤: ١٠)

+ كذلك فالحياة الأبدية تنمو وتزدهر فينا، بقدر ما يقع علينا من ضيق واضطهاد واختناق حتى الموت «لأننا نحن الأحياء (خليقة جديدة) نُسلِّم دائماً للموت من أجل يسوع لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت» (٢ كو ٤: ١١). وبالنهاية نظهر كمائتين بل ونكون كذلك بحسب الجسد وفي أعماق شعورنا وبالرغم من ذلك نحيا وتعمل فينا الحياة الأبدية بلا هواده «كمائتين وها نحن نحيا» (٢ كو ٦: ٩)، وذلك بعد أن عدّد القديس بولس الرسول أنواع الآلام والضيقات والضرربات والشدائد والضرورات والسجون والاضطرابات والأتعاب والأسهار والأصوام، بصيت رديء وهوان، كمثلين، كموذّبين، إنما في طهارة وصبر وعلم وأناة ولطف ومحبة بلا رياء في الروح القدس. إنه منهج متكامل يصحح ذاته ويوازن ذاته، والكفة الراجحة فيها المسيح دائماً ومعه وفيه الحياة الأبدية، وكأنما المسيح مجلولة في القلب يبتلع في جسده كل ما صادفنا ويصادفنا من جنون هذا العالم: «لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح.» (في ١: ٢١)

+ ويبقى شرط ديمومة الحياة بروح المسيح التي تثمر فينا للخلاص هو أن ندوم في سلوك حسب ما يطلبه الروح ويوعز به إلينا: «إن كنا نعيش بالروح فلنسلِّك أيضاً بحسب الروح» (غل ٥: ٢٥). «ولكن إن كنتم بالروح تميّتون أعمال الجسد فستحيون. لأن كل الذين يتقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو ٨: ١٣ و ١٤). على أن مهما كانت آلام الزمان الحاضر فهي لا تُقاس بأعجاد الحياة الأبدية التي ستستعلن فينا: «فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيق أن يُستعلن فينا.» (رو ٨: ١٨)

+ على أن أول أثمار الروح الكثيرة هي المحبة كعلامة صدق السلوك بالروح. «وأما ثمر الروح فهو محبة...» (غل ٥: ٢٢)

كذلك فالحياة الأبدية عند القديس بولس تشمل معاً «المستقبل والحاضر»، وهو لم يحاول أن يصلح أو يوفق بين الإثنين:

أ - **في المستقبل يؤكد:** «الذي سيجازي كلَّ واحدٍ حسب أعماله، أما الذين يصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء فبالحياة الأبدية» (رو ٦: ٧)، «فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر (الآن) سيملكون (في المستقبل) في الحياة بالواحد يسوع المسيح» (رو ٥: ١٧)، «حتى كما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا.» (رو ٥: ٢١)

والذي يميّز الحياة الأبدية في المستقبل عن الحاضر الزمني عند القديس بولس هو حصولها في «مجد».

ب - **وفي الحاضر يؤكد:** «فدُفِنًا معه بالمعمودية للموت حتى كما أُقيِمَ المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جِدَّة الحياة» (رو ٦: ٤)، «كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن، أحياء، لله بيسوع المسيح ربنا» (رو ٦: ١١)، «ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات بر لله» (رو ٦: ١٣)، «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو ٨: ٢)

ج - وأحياناً يجمع القديس بولس «الحاضر والمستقبل معاً» تحت قوة روح الحياة وعمله «لأننا نعلم أنه إن نُفِصَ بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناءً من الله، بيت غير مصنوع بيدٍ أبدية... فإننا نحن الذين في الخيمة نثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكي يُبتلع المائت من الحياة، ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح... فنثقل ونُسَرُّ بالأولى أن نتغرَّب عن الجسد ونستوطن عند الرب. لذلك نحترس أيضاً، مستوطنين كنا أو متغرَّبين، (الذي يستوطن الجسد - أي في الحياة الجسدية - هو نفسه متغرَّب عن السماء ولكن يحيا بالروح) أن نكون مرضيين عنده، لأنه لا بد أننا جميعاً نُظهِرُ أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً.» (٢ كور ٥: ١ - ١٠)

ولكن القديس بولس يؤمن أن الذي يعيش بروح الله، يتقدم وينمو في استعلان الحياة الأبدية

ومعرفة ربنا يسوع المسيح، ليتغير من صورة إلى صورة أفضل، ومن مجد إلى مجد أوفر «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع الناموس) كما في مرآة تتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢ كو ٣: ١٨)، «لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوماً فيوماً.» (٢ كو ٤: ١٦)

٣ - الحياة في إنجيل القديس يوحنا:

إن كان القديس بولس اقتنى أثر الحياة الأبدية في المسيح فوجدتها في القيامة من الأموات، فإن القديس يوحنا يقتني أثر الحياة الأبدية في المسيح قبل التجسد وفي التجسد بل وفي الموت ذاته. فالمسيح بصفته كلمة الله $\lambda\omicron\gamma\omega\varsigma$ ، والإبن الأزلي لله، فهو «الحياة» وله الحياة في ذاته:

— «فيه كانت الحياة...» (يو ١: ٤)

— «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أن تكون له حياة في ذاته.» (يو ٥: ٢٦)

— «كما أرسلني الآب الحي، وأنا حيٌّ بالآب فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو ٦: ٥٧)

كذلك في رسائله نرى هذه الحقيقة التي يتشبه بها القديس يوحنا: أن الحياة الأبدية أظهرت بتجسد الكلمة:

— «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعينونا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة فإن الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا.» (يو ١: ١٥١)

— «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية وهذه الحياة هي في ابنه، ومن له الإبن فله الحياة، ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة.» (يو ١١: ١٢)

— «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (يو ٥: ٢٠)

لأن ابن الله لما تجسد وصارت له نفس بشرية أسلمها للموت كفدية عن البشرية «أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يو ١٠: ١١). ولكن بقيت حياته لم تنقطع ولم تعطل بل ولم تتأثر بالموت!! «بعد قليل لا يراني العالم (بالموت) أيضاً (ثانياً) وأما أنتم فتروني إني أنا حيٌّ، فأنتم ستحيون.» (يو ١٤: ١٩). التأكيد هنا على «إني أنا حيٌّ» في الوقت الذي لا يراني العالم فيه مجدوث الموت. وليس حيٌّ فقط بل ومُحيي بكامل قوته في الإحياء.

وإذا كان إنجيل يوحنا يدعو المسيح «الحياة» فذلك لكونه يستعلن حياة الله في ذاته كآب كونه ابناً له! مكملاً مشورة الآب ورسالته ومعطياً وصايا الآب التي هي بعينها الحياة الأبدية «وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية» (يو ١٢: ٥٠). بهذا يعطي المسيح عناصر الإيمان الحقيقي، لذلك يدعو نفسه علناً وبوضوح أنه هو الحياة: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦)، «أنا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا» (يو ١١: ٢٥). كما يدعو نفسه «خبز الحياة» (يو ٦: ٥١) كونه يقيم أود الروح ويشبعها، كما ويعطي ماء الحياة (يو ٧: ٣٨) لأنه يهب الروح القدس الذي يروي العطاش إلى البر، ونور الحياة (يو ١: ٩) لأنه يقودنا في طريق الحياة الأبدية، ويجعلنا كمن يبصر ويشاهد بالإستعلان حقيقة الحياة الأبدية غير المنظورة ولا المشاهدة. و«كلامه روح وحياة» (يو ٦: ٦٣) لأن الكلمة التي تخرج من فمه تحيي المائتين بالخطية وعلى مستوى القبر.

الإيمان عنصر أساسي لنوال الحياة الأبدية في إنجيل يوحنا:

لأن الحياة الأبدية أظهرت واستُعلنت بالمسيح وحده، لذلك فالإيمان به يمنح هذه الحياة: «لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو ٣: ١٥)؛ «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية» (يو ٦: ٤٧). بل إن إنجيل يوحنا كله مكتوب لغاية واحدة هي: — «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو ٢١: ٣١)

ويرفع القديس يوحنا المضادة الإيمانية للحصول على الحياة الأبدية في الحاضر والمستقبل إلى أعلى درجة حينما يقول: «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي، ويؤمن، بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو ٥: ٢٤). هنا الحاضر والمستقبل بالنسبة للحياة ملتحمان معاً وبأن واحد!

بل ويقتحم القديس يوحنا المستقبل ويستحضر منه الساعة الأخيرة ويجعلها ساعة اليوم الحاضر، بصورة سرية لا تخلو من عمق روحي هائل، باعتبار أن الكرازة بكلمة المسيح تحمل الحاضر والمستقبل بأن واحد. «تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو ٥: ٢٥)، هذا يجري «الآن» في الحاضر على الخطاة فيتوبون ويقبلون الحياة الأبدية، ويجري في المستقبل على الأموات الذي في القبور حين يسمعون صوت ابن الله للقيامة والحياة الأبدية.

والسبب الفعّال في هذه المضادة أن المسيح هو القيامة حتى وقبل أن يموت كما قال لمرثا: «أنا

هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، أي أن المسيح يحمل روح القيامة والحياة في ذاته وهي التي غلب بها الموت. لذلك، فالذي يؤمن به يمينا حتى ولومات لأنه سيحصل على روح القيامة التي يغلب بها الموت، أو بالحري وعلى الوجه الأصح، إنه لن يموت، طالما روح القيامة فيه، فهو سيجوز الموت حيًّا إن جاز هذا التعبير: «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولومات فسيحيا. وكل من كان حيًّا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد.» (يو ١١: ٢٥ و٢٦)

ولكي يؤكد المسيح سلطانه على إعطاء الحياة الأبدية الآن وكأنها الساعة الأخيرة قال وهو يصلي إلى الآب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو ١٧: ٢٢). هنا ولو أن المعنى منصب على مجد الدهر الآتي الذي هو من صميم عطايا المستقبل، إلا أنه يمنحه الآن بل وقد منحه! وهذا المجد الذي له والذي أعطاه لأخصائه في هذا الدهر، تمتد ليكمل في الدهر الآتي: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني» (يو ١٧: ٢٤). لقد أخضع المسيح المستقبل للحاضر بسلطان عطيته للحياة الأبدية التي هي فوق الزمان، وجعل الإتصال بين الحاضر والمستقبل وكأنه طريق واحد دائم ومتصل لا ينقطع: «ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا (الآن) فلن يعطش إلى الأبد (كل المستقبل)، بل الماء الذي أعطيه (الآن) يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.» (يو ٤: ١٤)

فالحياة الأبدية في إنجيل يوحنا تمسك بالزمن وتمتد به إلى الأبدية كونها لا حدود زمانية لها، فالحياة هنا هي حياة الله التي بلا حدود ولا قياس: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية، الذي يعطيكم ابن الإنسان (الآن) لأن هذا الله الآب قد ختمه.» (يو ٦: ٢٧)

ويخطيء من يقول إن إنجيل يوحنا أغفل انتظار الدهر الآتي أي الأخرويات = الإسخاتولوجي eschatology حينما جعل الحاضر يحمل قوة وبركات الدهر الآتي بالإيمان. ولكنها هي نظرة متعمقة في طبيعة المسيح «كحياة أبدية»، التي لا يمكن أن يحدها الزمان أو يحجز قوتها وفعلها عن الذين قبلوا المسيح واتحدوا به وعاشوه.

كما وأن فعالية طبيعة المسيح كحياة أبدية جعلها تسري في الزمان كما تسري في الأبدية — كما أوردها في قصة لعازر كمثل مصغر — ولا يفرق بينها إلا أنه في الزمان تسري جزئياً أو في سير، وفي الأبدية في علانية وفي الملء.

أما قانون الأخرويات من جهة الأعمال فأبقاه الإنجيل كتقليد الرسل والكنيسة كما هو «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا

الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوه: ٢٨ و ٢٩)؛ كذلك «كلُّ مَنْ يرى الإبن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يوه: ٤٠). فأما كيف تصالح هذا الفكر مع القول الذي يقوله الإنجيل: «الحق الحق أقول لكم إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يوه: ٢٤)، أي يكون قد تحطى الدينونة، فالإجابة نأخذها من القديس بولس الذي جمع الفكرين معاً في آية واحدة: «إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» (رو١: ٨ و ٢١). إذن، روح الحياة أي الروح القدس في المسيح إذ يعتق من الخطية فإنه يعتق من الدينونة أيضاً. فالقديس يوحنا والقديس بولس اتفقا أن «لا دينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع». معنى ذلك لدى كلِّ منهما أن الذين هم في المسيح يسوع نالوا الحياة الأبدية منذ الآن، وقد جازوا الدينونة فعلاً الآن بلا حساب أو عقاب. أما السبب فقد أوضحه القديس بولس: «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» الذي شرحه إنجيل يوحنا أن الذي نال الحياة الأبدية معناه أنه انتقل من الموت إلى الحياة. فالقديس بولس سلط قوة الحياة الأبدية على الخطية، والقديس يوحنا سلط الحياة الأبدية على الموت ذاته. أما الذي أضافه القديس بولس الرسول كون ذلك ينطبق على «السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح»، فهذا ما شرحه القديس يوحنا: أن ذلك ينطبق على الذين «فعلوا الصالحات».

من ذلك يتبين أن رفع الدينونة الآن عن الذين آمنوا بالمسيح ونالوا روح الحياة سواء عند القديس بولس أو القديس يوحنا هو سبقُ استعلان الإسخاتولوجيا أي أمور الآخرة وليس إلغاءها، فالكل سيقف أمام كرسي المسيح وأعمالهم تتبعهم.

العلاقة بين «الإيمان والمعجزات» في إنجيل يوحنا:

من الأشياء الملاحظَة جداً في إنجيل يوحنا، أن كلمة «الإيمان» لم ترد فيه ولا مرة واحدة، وعضواً عنها يأتي الفعل «يؤمن» ما يقرب من مائة مرة، مما يفيد أن إنجيل يوحنا لا يرى الإيمان إلا فاعلاً أي في حالة نشاط واجتهاد كقوة ذات عمل. المسيح عبّر عن ذلك حينما سأل مُقعد بيت حسدا: «أترى أن تبرأ» (يوه: ٦) التي هي موضع «هل تؤمن»، بمعنى أن الإيمان هو إرادة ذات إصرار.

لذلك، في إنجيل يوحنا نشعر أن الإيمان بالمسيح هو أكثر من تصديق أن المسيح صانع

معجزات. وأن يؤمن بالمسيح يعني أن يدرك - سواء من المعجزة أو من القول - أن المسيح هو المخلص إبن الله القادر على الإحياء من الموت. وإضافة على ذلك تسليم النفس له تسليمًا كليًا: «إن آمنيتَ ترين مجد الله» (يو ١١: ٤٠)؛ لأن المعجزة أو العمل في إنجيل يوحنا هو مجد ذاته عمل خلاصي أو مشيرٌ إلى الخلاص. فالإيمان به هو بمثابة الدخول فيه أو قبوله كفعل حياة أو كفاعل محيي «أتؤمن بابن الله؟... من هو يا سيد؟... الذي يتكلم معك هو هو... أو من يا سيد وسجد له.» (يو ٣٦-٣٨)

وبينما المعجزة أو العجبية هي في الثلاثة الأناجيل «عملٌ تعليمي»، نجدها في إنجيل يوحنا «عمل لاهوتي» مؤثر. لذلك فالمسيح لا يستسيغ إيمان الآيات والمعجزات: «ألا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب» (يو ٤: ٤٨)، ولكنه يطالب بإيمان الأعمال «إن لم تؤمنوا بي (بحسب التعليم) فأمنوا بالأعمال.» (يو ١٠: ٣٨)

الحبة والفرح ثمار الحياة الأبدية في إنجيل يوحنا ورسائله:

في إنجيل يوحنا يلزمنا أن ندرك الوضع الذي حتم باستعلان الحياة الأبدية في الحاضر. فدخول المسيح إلى العالم أنشأ مجد ذاته أزمة إيمان خطيرة واجهها الإنسان ولا يزال: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو ٣: ١٨). لماذا؟ لأن الله ظهر في الجسد وصار واقعاً تاريخياً وبشراً ملموساً. هي فرصة الإنسان العظمى والأخيرة، فأى عذر لمن لا يؤمن؟ خاصة وأن المسيح علّم بالكلمة، وكشف أسرار الله، وسلط تعاليمه على اللحظة التي يعيشها الإنسان، حرّة تماماً عن الماضي بناموسه الثقيل، ومفتوحة بلا مانع على المستقبل الأبدي. فصارت كلمة المسيح هدفاً وطريقاً معاً وبأن واحد. أما الوصية التي أخضع الإنسان تحتها فهي الحبة بالدرجة الأولى، أجل وصية. فالذي يثبت في المسيح يثبت في الحبة تلقائياً وبسرور: «اثبتوا فيّ وأنا فيكم.» (يو ١٥: ٤)

«كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبتي»؛ «إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته. كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم، ويكمل فرحكم.» (يو ١٥: ٩-١١)

«هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم.» (يو ١٥: ١٢)

وليكن واضحاً أمام القارئ أن الثبوت في الحبة ينشئ فرحاً مزدوجاً: فرح المسيح، وفرحنا.

معنى هذا أن الحياة الأبدية تأسست في ناموس الله والمسيح على الحبة:

«أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله، وكل مَنْ يحب فقد وُلِد من الله ويعرف الله، ومَنْ لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة.

بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به. في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا. أيها الأحباء إن كان الله قد أحبنا هكذا ينبغي لنا أيضاً أن يحب بعضنا بعضاً... إن أحب بعضنا بعضاً فالله يثبت فينا ومحبهه قد تكلمت فينا، بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه...

ونحن قد عرفنا وصدّقنا المحبة التي لله فينا.

الله محبة. ومَنْ يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه،

بهذا تكلمت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة في يوم الدين...

نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً... مَنْ يحب الله يحب أخاه أيضاً.» (١ يوحنا: ٧-٢١)

هل محبة الله أولاً أم محبة الناس «بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله إذا أحببنا الله وحفظنا وصاياه.» (١ يوحنا: ٢)

في هذه الآيات يتدرج القديس يوحنا في رسالته وبلغته وتحت وحي الروح القدس مسجلاً ناموس المسيح في العهد الجديد الذي ينبع من حقيقتين:

أولاً: أن «الله محبة». هذه هي طبيعة الله العاملة في الخليقة كلها، وفي الإنسان خاصة. لأن المحبة هي التي أرسلت الابن ليكفر عن خطايانا بموته، ويعطي الحياة الأبدية التي فيه: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا: ٣: ١٦). هنا واضح أن الحياة الأبدية قائمة على المحبة. والمسيح ابن الله يشهد على ذلك ويوافق على ذبيحة نفسه بدافع المحبة لإعطاء هذه الحياة «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه. أنتم أحبائي...» (يوحنا: ١٥: ١٣ و١٤)

ثانياً: الحقيقة الثانية: إننا «نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (١ يوحنا: ١٩). من هنا تنبع كل الوصايا وتنبع الطاعة كالالتزام لكل الوصايا، وتنبع الحياة الأبدية. فالمحبة أعطت وصيتها، ومَنْ ذا الذي يرفض الطاعة للمحبة؟

فالطاعة للمحبة كوصية المسيح تنشأ التلمذة للمسيح: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي (تلاميذ المحبة) إن كان لكم حب بعضاً لبعض.» (يوحنا: ١٣: ٣٥)

بل والطاعة للمحبة كوصية المسيح تنشئ حالة بُنوة لله ومعرفة لطبيعته (المحبة)، أي تلدنا من الله (من المحبة): «لأن المحبة هي من الله وكل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله.» (١ يوحنا: ٤: ٧)

كما أن الطاعة للمحبة كوصية المسيح تفجر طاقات الحياة الأبدية «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة من لا يحب أخاه يبقى في الموت. كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه.» (١ يوحنا: ٣: ١٤ و١٥)

كما أن الطاعة للمحبة كوصية تنشئ فينا ثقة ورجاء يوم الدين، أي في الآخرة بسبب الثبوت في المسيح والحياة الأبدية: «بهذا تكملت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة في يوم الدين.» (١ يوحنا: ٤: ١٧)

كذلك يوضح القديس يوحنا أنه إن كانت «الحياة الأبدية» تعلن عن ذاتها علناً وجهاراً بالمحبة وكل أعماها؛ فهي أيضاً تعلن عن ذاتها داخلياً في الضمير والقلب: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق... إن لامتئنا قلوبنا (بسبب تقصير المحبة) فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء... (لذلك) إن لم تلمنا قلوبنا (يكون) فلنا ثقة من نحو الله.» (١ يوحنا: ١٨ و٢٠ و٢١)

الحياة الأبدية ترفع الغطاء عن أسرار الله وتوصل المعرفة بأعماقه:

ربما يكون هذا آخر ما بلغه إنجيل يوحنا من أسرار الحياة الأبدية التي انسكبت في قلوبنا بالإيمان بالمسيح ابن الله: «هذه هي الحياة الأبدية، أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا: ١٧: ٣). والمعنى المقصود واضح أن الحياة الأبدية هي مجد ذاتها معرفة الآب والإبن، أي نابعة من كشف واستعلان الصلة السرية بين الآب والإبن! فهي معيار لاهوتي – أي أن الحياة الأبدية هي استعلان طبيعة الله وحقيقته فيما يختص بعمله نحونا (الآب أرسل الإبن) الذي انتهى بالفعل إلى انسكاب الحياة الأبدية في حياتنا وكياننا. وهذه «المعرفة» سبق أن سجلها القديس يوحنا في قوله في المقدمة «فيه كانت الحياة والحياة كانت، نور الناس»، (يوحنا: ٤)، كذلك قوله «كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم.» (يوحنا: ١: ٩). وأن «من يتبعني فلا يمسي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يوحنا: ١٢: ٨) أي النور المحيي. هذا هو نور المعرفة اللاهوتية لاستعلان الله في طبيعته كآب وابن؛ والمنتهي بالفعل إلى بذل الإبن، وتكميل الفداء، ونوال الخلاص، وقبول الحياة الأبدية. ولا يزال «النور الحقيقي» الذي يعرفنا بالآب والإبن يبذد ظلمات العالم، ويستعلن طبيعة الله المحبة والفادية لمحيي الله، والمؤهلين للخلاص حتى لمساكين الأرض «والمساكين يُبشرون» (متى: ١١: ٥، لوقا: ٢٢: ٧) لقبول الأبدية.

ب - الدينونة

κρίμα

في إنجيل يوحنا

الدينونة كمعيار توزن به الأفكار والأقوال والأعمال في إنجيل يوحنا تقف في مقابل الحياة الأبدية التي يفوز بها المؤمنون بابن الله، الآن في سر، وإلى الأبد في القيامة الأخيرة، وهي أيضاً المقابل المضاد للخلاص في بقية الأناجيل والرسائل. والدينونة هنا وضعناها في التقابل مع الحياة.

ولكن لا يفوتنا أن الدينونة تقف في إنجيل يوحنا كخلفية متجذرة في كل أصحاباته، بل وفي الإنجيل نفسه ككل. فإنجيل يوحنا هو على ضوء كلمة الدينونة يُعتبر «قضية» يقف فيها المسيح ضد العالم، ورئيس هذا العالم، وأبناء هذا العالم. وما من آية يعملها المسيح إلا وترفع على العالم القضية، لنسمع من خلالها كل الألفاظ القانونية التي يمكن أن تدور في أي محكمة بين المحامي والقاضي والشهود. فكلمة «الحق»، و«الظلم»، و«الدينونة»، و«يُحكم بحسب الظاهر»، و«يُحكم حكماً عادلاً»، و«يشكوههم إلى موسى»، و«يشكوههم إلى الآب»، وهو «صادق» و«ليس فيه ظلم»، و«لماذا تطلبون أن تقتلوني»، و«أشهد لنفسي»، و«شهادتي حق»، و«على شاهدين أو ثلاثة يكون الحكم»، و«أنا لا أطلب شهادة»، و«أهل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً»، و«هو كامل السن اسأله فهو يتكلم عن نفسه»، و«ماذا تقول عن نفسك»، و«شهد ولم ينكر». هذا عدا حديث المحاكمة، وهو ختام قضية إنجيل يوحنا أو قضية المسيح التي حُكم فيها عليه، فأخذ نص الحكم وطَبَّقه على الحاكم والحكام والشهود والعالم ورئيسه.

ويلاحظ كيف يطبق المسيح باستمرار ضدهم الأحكام التي يحكمون بها أو يحتكمون إليها، والشهود الذين يتخذونهم عوناً لهم يصيرهم المسيح قضاة يحكمون عليهم. إذ لما احتكموا لموسى إلى جانبهم في كسر السبت، صيرَّ المسيح موسى قاضياً عليهم، ولما التجأوا إلى إبراهيم ليحتموا به، صيرَّه المسيح شاهداً له ضدهم. وهكذا، وبينما يقف المسيح في كل إنجيل يوحنا متهماً يدافع عن نفسه فهو، في الحقيقة وعين الأمر، بدفاعه وشهادته عن نفسه يكون قد بلور القضية ضد سامعيه.

لهذا ينبغي على القارئ أن ينتبه في قراءة إنجيل يوحنا فهو «محكمة» و«قضاء» و«قضية». والقارئ لا يقف فيه متفرجاً فهو واقع تحت الشهادة الإلزامية، فإما يشهد للحق والنور والحياة فلا

يُدان، وإما يهرب من الشهادة أو ينكر فيقف منعزلاً عن الحق والنور والحياة، وهذه هي الدينونة!!

كان في أيام المسيح أن الذين يشتكون هم اليهود والمشكوك في حقه هو المسيح، أما اليوم فالمشتكي هو العالم والمشكوك في حقه هي المسيحية الحقّة التي لا يطبق العالم طرقها، والشاهد الوحيد هو الروح القدس الذي يشهد ضد العالم ودينه. وعليك أن تسأل نفسك لتعرف الحكم: المسيح أم العالم؟

أما ماهية الدينونة؟ فهي بجد ذاتها الإعلان النهائي لحالة الإنسان بالنسبة لله، عندما يقف منفصلاً عن الله وحيداً نتيجة رفضه للإيمان بآبَن الله. وذلك في مقابل الإنسان الذي آمن بآبَن الله، وصار في سلام مع الله في ابنه يسوع المسيح، أي أنه لم يعد وحده ولا بعيداً عن الله ولا منفصلاً عنه: «أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا الذي جعل الإثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط أي العداوة» (أف ٢: ١٣-١٥). «أنتم فيّ وأنا فيكم»، «أنا فيهم وأنتم فيّ ليكونوا مكتملين إلى واحد»، «لا أعود أسمىكم عبداً... لكنني قد سميتكم أحبباء - لأني أعلّمتكم (معرفة الآب) بكل ما سمعته من أبي»، «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» (يو ١٤: ٢٠؛ ١٧: ٢٣؛ ١٥: ١٥؛ ٤: ١٥)، وفي هذه الحالة تستحيل الدينونة «من سيشتكي على مختاري الله. الله هو الذي يبرّر. مَنْ هو الذي يدين. المسيح... الذي أيضاً يشفع فينا؟» (رو ٨: ٣٣ و٣٤)

أما كيف ومتى تأتي الدينونة، فذلك عندما يرفض الإنسان هذه الدعوة التي يدعو المسيح إليها بإلحاح: «تعالوا إليّ» (مت ١١: ٢٨)، لكي ينال الإنسان المتعب والثقيل الأحمال، ليس الراحة فقط بل والحياة الأبدية ولا يأتي إلى دينونة. فإذا رفض الإنسان الالتصاق بالله «ليصير معه روحاً واحداً» (١ كو ٦: ١٧) في المسيح يسوع فهو يبقى بلا محلّص ولا شفيع بلغة القديس بولس الرسول: «كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم وبلا إله في العالم» (أف ٢: ١٢)، أو بلغة إنجيل يوحنا فهو يبقى بلا حياة أبدية، أي يبقى في الموت أو الظلمة، أي في الخطية وعبوديتها وأبوتها: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو ٨: ٤٤)

وفي هذه الحالة عندما يظهر المسيح، سواء الآن بالكلمة، أو في الآخرة جهاراً في مجده ومجد أبيه - حينئذ وفي ملء نور المسيح سوف ينكشف وضع الإنسان الراضف محكوماً عليه من نفسه.

والدينونة يحسّها الإنسان الراضف في ضميره منذ الآن بإحساس الخوف، ولكن في الآخرة وعند

استعلان المسيح تكون الندامة مريعة واليأس قائماً دائماً. فالذي يبدأه الإنسان هنا يكمله هناك. وشهادة الضمير هذه يقرها القديس يوحنا هكذا: «بهذا نعرف أننا من الحق ونُسكن قلوبنا قدامه. لأنه إن لامثنا قلوبنا فإله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء!!... (ولكن) إن لم تلمثنا قلوبنا فلنا ثقة من نحو الله.» (١ يوحنا: ٣: ١٩-٢١)

ثم على أي أساس سيدين المسيح العالم وهو نفسه يقول: «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم؟» (يوحنا: ٣: ١٧)

هنا يكشف الإنجيل عن أن الدينونة تتم على أساس سابق لاختيار الإنسان، وليس مجرد منطوق حكم يقع عليه. «هذه هي الدينونة: إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة، أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يأتي إلى النور لئلا توتج أعماله. وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة.» (يوحنا: ٣: ١٩-٢١)

بهذا يتبين أن الدينونة هي عملية اختيار من جهة الإنسان بمحض إرادته وتصميمه. والذي يشكل الحكم ويحدده هو كلام المسيح المقول والمُسجَل «الكلام الذي تكلمت به هو يديني» (يوحنا: ١٢: ٤٨). والمسيح كونه «نور العالم» (يوحنا: ٩: ٥) فهذا النور الفائق الفاحص والكاشف أستار القلوب والضمائر يفضح الأفكار والأقوال والأعمال وحتى النيات الخفية، على أن النور يبقى بلا ملامة. لأنه كما أن النور يزكي أعمال أبناء النور فهو في نفس الوقت يوتج أعمال الظلمة.

أي أن المسيح هو بآن واحد يبرر ويدين. فالكلمة التي قالها هي بجد ذاتها حكم عادل، من يقبلها يحيا بها ومن يرفضها يُدان بها، وتبقى الكلمة إيجابية بكل معنى، صالحة إلى أقصى حدود الصلاح.

وهذه المضادة الإيجابية تظهر بوضوح في آية تفتيح عيني المولود أعمى. فالأعمى تقبل الكلمة وآمن بها وبصاحبها فاكسب بصراً وغنم الحياة الأبدية، والفريسيون رفضوا الآية بجملتها واحتقروا الكلمة وقائلها، فعميت قلوبهم وعثروا في النور «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذي لا يبصرون ويعمى الذي يبصرون» (يوحنا: ٣٩). من هذا المثل يتضح كيف سيدين المسيح العالم. فالأعمى آمن به فأبصر فخلص، والمبصرون رفضوا فعميوا وأدينوا! والمسيح واقف بين الإثنين يعاملهما معاً بقول واحد وإعلان واحد: «فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم، لأنكم إن لم تؤمنوا أي أنا هو، تموتون في خطاياكم» (يوحنا: ٨: ٢٤). هذه هي الدينونة!! فالمسيح أكمل رسالته وأخذت

الكلمة مجراها وتسجّلت على كل نفس وعلى كل العالم! وفيها يكن القبول والرفض، الحياة والموت، الخلاص والدينونة بأن واحد! «مَنْ رذلي ولم يقبل كلامي فله مَنْ يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (يو ١٢: ٤٨)

وإنجيل يوحنا يضع القيامة بشقيها على مستوى واحد: «قيامه الحياة» في مقابل «قيامه الدينونة.» (يو ٥: ٢٩)

وهكذا يقف معيار الدينونة وحكمها باستعداد لالتقاط مَنْ يخسر الحياة الأبدية. فالصوت الواحد المبارك يسمعه هذا فيقوم ويتبرر ويحيا إلى الأبد، ويسمعه ذلك فيقوم للدينونة والعار والحكم الأبدى. «فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته. فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً. كما أسمع أدين ودينوتي عادلة» (يو ٥: ٢٨-٣٠). والصوت هو هو لا يتغير.

وهكذا تظل الدينونة في إنجيل يوحنا معياراً خطراً مربوطاً مربوطاً محكماً مع غاية الإنجيل كله، وهو الإيمان أن يسوع المسيح هو ابن الله الحي.

الفصل الرابع الإيمان والمعرفة

أ – الإيمان في إنجيل القديس يوحنا

ليس من بين جميع ما وهب الله للإنسان ما يضاهي هبة الإيمان.

كما أنه لا يوجد في العالم قوة معاندة أو شريرة أو أي خسارة تستطيع أن تقف أمام قوة الإيمان المُعان بالصلاة. والمعروف بالتجربة أن الإيمان الثابت مع الصلاة ينقل الجبال. لذلك كان المسيح يتطلع دائماً إلى أي قدر من الإيمان في الإنسان حتى يستطيع أن يتمّ فيه معجزته. فإذا انعدم الإيمان توقفت المعجزة: «ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم» (مت ١٣: ٥٨). وكان يسأل الذي يريد أن يشفى «أتؤمن؟»

ومن الصعب أن ندخل في تعريف ما هو الإيمان في إنجيل يوحنا، فنحن بصدد إيمان يكشف حتى أعماق الله ويورث الحياة الأبدية وشركة مع الآب والابن. ويكفي أن الإيمان في إنجيل يوحنا يبلغ إلى رؤية الله في طبيعته «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩). إذن فهو إيمان يتعلق بخصائص طبيعة الله وذاته!!

والإيمان في إنجيل يوحنا يتعلق بالمسيح أي يتوقف على مقدار استعلان المسيح لنفسه واستعلانه للآب واستعلان العلاقة الذاتية بين الآب والابن. وهذا يتحتم أن يستقبله وعي روعي عالي من طرف الإنسان. فهو استعلان لغير المنظور ليصير حقيقةً مُعاشة: «ورأينا مجده... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا. ونعمة فوق نعمة» (يو: ١٤ و١٦). لذلك فالإيمان في إنجيل يوحنا يرتفع فوق مخصصات العقل البشري وقياساته الزمنية المحدودة، فهو من مخصصات الوعي الروحي: «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو: ٤: ٢٤). وما السجود إلا عبادة، وما العبادة إلا

إيمان وتعلّق شخصي!! هذا لا يتم إلا إذا أخذت الروح سيادة كاملة على الجسد: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يو: ٣: ٦)، و«الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله.» (١ كو: ٢: ١٠)

وقوة الإيمان الفعّال تتركز على ركيزتين: الأولى: حرية الفكر والضمير من أي تأثير أو خوف أو استعباد؛ والثانية: اليقظة الروحية تجاه خداع الذات التي تتدخل لمصلحتها فتفسد الإنحياز للحق.

وكلمة «الإيمان» في أصلها العبري *he'emin* تعني الثقة والرجاء معاً، وهما الصفتان اللتان أخذ بهما القديس بولس الرسول: «الإيمان هو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى.» (عب ١١: ١)

وفي العهد الجديد تأخذ كلمة «الإيمان» معنى التصديق والإعتقاد والثقة.

وفي كتابات القديس يوحنا خارج سفر الرؤيا لا تأتي كلمة «الإيمان» كإسم إلا مرة واحدة (١ يو: ٥: ٤)، وبعد ذلك تأتي في صيغة الفعل بكثرة تفوق كل ما جاء في جميع أسفار العهد الجديد. فقد وردت ٩٨ مرة في إنجيل القديس يوحنا في مقابل ١١ مرة في إنجيل القديس متى و١٤ مرة في إنجيل القديس مرقس، و٩ مرات في إنجيل القديس لوقا. وفي كتابات القديس بولس تأتي بصيغة الفعل ٥٤ مرة. وتفيد قبول الكلام وتصديقه قلبياً أي بالوعي الروحي وذلك بتصديق سلطان المسيح الناطق بالكلمة، أو في المواقف الأعلى بسبب وضوح الرؤية والبصيرة الداخلية في تمييز الأصالة الذاتية للمسيح كصاحب رسالة واستعلان من فوق كما يقول القديس يوحنا: ونحن «رأينا مجده» (يو: ١٤: ١) وذلك بانفتاح الوعي، كذلك شهادة أهل السامرة: «إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم» (يو: ٤: ٤٢)، وأيضاً شهادة نشائيل: «أجاب نشائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل» (يو: ١: ٤٩)؛ وشهادة مرثا: «أتؤمنين بهذا؟ قالت له نعم يا سيد أنا قد آمننت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو: ١١: ٢٦ و٢٧)

والإيمان وضعه المسيح كشرط أساسي لنوال الحياة الأبدية: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية» (يو: ٥: ٢٤). «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية.» (يو: ٦: ٤٧)

والإيمان يحتاج حتماً إلى بصيرة داخلية أسماها المسيح في مواضع أخرى: «من له أذنان للسمع فليسمع» (مت ١٣: ٩ و١٠). هنا السماع سماع قلبي يفتح مغاليق الروح نحو خالقها: «...فآمنوا

بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع» (يو: ٢١). هذا إيمان تصديق وخضوع لسلطان الكلمة الخارجة من فم المسيح لتخترق أعماق الوعي الروحي مباشرة. هنا العقل الجسدي يخضع لكلمة الله بدون مناقشة فيستوي العقل الروحي على عرش القلب.

والملاحظ أن الإيمان يرتبط بنوع البشارة، فنجد في الثلاثة الأناجيل الأولى أن كلمة «الإيمان» على فم المسيح تقع في اتجاه واحد هو الثقة الكاملة بالله.

أما في إنجيل يوحنا فيبدأ المسيح يسأل رسالته لقبول الإيمان به: «أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بي» (يو: ١٤: ١)، والجزء الأول أي استخدام الإيمان بالله ليكون كخبرة أولى في التصديق اختبرها الإنسان وعاشها (الثلاثة الأناجيل) والجزء الثاني: «فأمنوا بي» المطلوب فيه قبول هبة وعطية المسيح بنفس التصديق للخلاص والسلام الداخلي المؤسستين على الراحة والتسليم لله نفسه وهو الجزء التكميلي للإيمان الذي جاء المسيح ليكمله: «سلامي أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا.» (يو: ١٤: ٢٧)

ويتفق كلٌّ من القديس بولس الرسول والقديس يوحنا في تركيز الإيمان على المسيح. ولكن في إنجيل يوحنا يأخذ الإيمان بالمسيح أهميته القصوى بعناصره الأساسية:

١ - لأن المسيح استعلن للعالم بصفته «الكلمة الذاقي» كلمة الله بمعنى أنه هو الناطق الوحيد بسر الله الآب كاشفاً عن طبيعته: «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو: ١٨: ١). لذلك أصبح الإيمان بالمسيح كابن، هو الطريق الوحيد لمعرفة سرِّ الله كآب ونوال عطاياه في المسيح.

٢ - لذلك كانت رسالة المسيح الأساسية في إنجيل يوحنا هي الإعلان عن أبوة الله بصفته الشخصية كابن وحيد، وذلك بالقول والعمل والآية، مقدّماً الآب السماوي من عمق كيانه النبوي.

٣ - وكانت غاية المسيح أن يقدم للإنسان عامة كل مخصّصاته النبوية لدى الآب ليُدخل البشرية إلى أقدس وأسمى مجالات الآب وهي «محبته» لترتقي الخليقة المفدية إلى درجتها الأعلى التي على رجائها عاش الإنسان ويعيش وهي درجة النبوية لله - أي التبني - بعد العبودية للخطيّة والشيطان.

٤ - يترتب على درجة التبني سقوط كل الأحكام والعقوبات المنصوص عنها في شرائع عهد العبودية السالف أي الإنعتاق من الدينونة لتحل بدلاً عنها مخصّصات البنين وميراثهم السماوي

والحصول على بَرِّ الله المجاني بالمسيح يسوع، على أساس موت المسيح على الصليب كذبيحة، تلك التي قبلها الآب عن الخطاة، ثم قبول عطية الحياة الأبدية بقيامته من الأموات.

هذه هي عناصر الإيمان بالمسيح التي تُدخلنا في العهد الجديد مع الله، والتي على أساسها يقدم لنا المسيح ذاته لنؤمن به .

والإيمان المطلوب إزاء رسالة المسيح واستعلان لطيبة الله يتوقف على مدى انفتاح النفس البشرية في الداخل لقبول هذا الإستعلان الإلهي، وما يحتوي عليه من تجديد أو ميلاد بل حلقة جديدة. وقد سُئل المسيح: «ماذا نعمل حتى نعمل أعمال الله»، أجابهم المسيح في الحال: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله.» (يو ٦: ٢٨ و٢٩)

هنا الإيمان هو بمثابة قبول عمل الله وهذا يتطلب وعياً أخلاقياً يتناسب مع أهداف الإيمان السامية، كما يتطلب أن لا يعوّق الإيمان خداعٌ نفسي للشك أو الهروب أو التأجيل أو وضع عراقيل وهمية .

وينبغي أن يفهم القارئ أن الإيمان عند القديس يوحنا محدّد وقاطع «كل من ينكر الإبن ليس له الآب أيضاً ومن يعترف بالإبن فله الآب أيضاً.» (١ يو ٢: ٢٣)

وهذا ما يؤكده المسيح نفسه في إنجيل يوحنا: «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (٣ يو: ٣٦). وليس هذا تعسفاً أو جزافاً، لأن بالمسيح مغفرة الخطايا وبدونه لا غفرانَ قط، والذي تحت عبودية الخطية هو واقع بإرادته تحت غضب الله، والذي يرفض الإبن يرفض ميراث البنين وبالتالي ليس له نصيب في الحياة الأبدية مع الله .

وأداة الإيمان المسيحي هي الوعي الروحي للنفس التي تسعى وتشغف بمستقبلها الأبدي، حيث يومض المسيح في أعماقها ومضات خاطفة كاشفة للحق الإلهي فتفهمه وتقبله وتشعل بوجه اشتعلاً. وبمجرد أن تستقر النفس على الإيمان بالمسيح وتشغف به، يزداد عمل النور الإلهي فيها فتتمو في إدراك حقائق المسيح وتُستأمن على استعلانات الإنجيل وتتحكم بحكمة الروح القدس: «وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (١ يو: ١٦)، وتزداد المعارف الروحية بدون معلم حيث تنمو حاسة الفطنة «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه (عطية الروح القدس) ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد. بل كما تعلّمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق...» (١ يو: ٢٧).

ولكن لينتبه القارئ إلى موقع المعرفة من الإيمان لأن التقليد الروحي للكنيسة يضع الإيمان سبباً للمعرفة وليس العكس كما يظن الكثيرون، وهذا نستشفه من قول القديس بطرس الرسول في الإنجيل: «نحن قد آمننا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي.» (يو: ٦٩)

فالإيمان أولاً ثم المعرفة. فالإلهام يأتي أولاً ثم التفسير والشرح، الحق الإلهي يشرق أولاً في النفس كالبرق الخاطف يتبعه الفهم والإدراك والتوضيح. ثقة الإيمان تضع الأساس وعليه تُبنى المعرفة بأمان. ولكن تعود المعرفة لتزيد الإيمان وضوحاً وترسخه ترسيخاً فيصير ميراً أدياً للإنسان.

على أن المعرفة إذا كانت بالروح فهي أعلى وزناً من الإيمان لأنه من المقطوع به أن المسيح يعرف الآب، ولا دخل للإيمان في هذا. فالإيمان لا يدخل في المعرفة المتبادلة بين الإبن والآب. أما الإيمان فيبقى في رتبة البشر، وأما المعرفة فترتفع حتى إلى قمة مجد اللاهوت!

لذلك ففي الأبدية يتخلف الإيمان وتبقى المعرفة، لتزداد جداً وينكشف أمامها الحق في مجد يترقى من مجد إلى مجد: «لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل حينئذ يبطل ما هو بعض... الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت. أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة...» (١ كور ١٣: ١٣ و ١٢ و ٩)

ومعروف أن وظيفة الروحانيين في الأبدية هي المعرفة لأن المعرفة عمل الروحين الأعظم. ونستشف هذا من قول المسيح عن نفسه: «الذي أرسلني هو حق الذي أتمم لستم تعرفونه، أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني» (يو: ٧: ٢٨ و ٢٩)؛ «أبي هو الذي يمجدي الذي تقولون أتمم أنه إلهكم ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه وإن قلت إني لست أعرفه أكون مثلكم كاذباً لكني أعرفه وأحفظ قوله» (يو: ٨: ٥٤ و ٥٥)؛ «أما أنا فأبني الراعي الصالح وأعرف خاصتي، وخاصتي تعرفني، كما أن الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب» (يو: ١٠: ١٤ و ١٥)؛ «أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتُك...» (يو: ١٧: ٢٥)

هنا معرفة المسيح للآب ومعرفة الآب للمسيح هي معرفة خصائص اللاهوت الفائقة التي سنشارك فيها حتماً في الحياة الأبدية: «وعرّفْتهم اسمك وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو: ١٧: ٢٦). ولكن العجيب جداً هو قول الرب أن معرفة المسيح لخاصته ومعرفة خاصته له تكون مثل معرفة الآب للمسيح ومعرفة المسيح للآب. هذا عمق يفوق إدراكنا بل يفوق حتى تصورنا الآن!! وهذا الأمر يلمح عليه القديس يوحنا في رسالته: «أيها الأحباء الآن نحن

أولاد الله ولم يُظهِر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أُظهِر (المسيح) نكون مثله، لأننا سنراه (معرفة الرؤيا) كما هو (في كيانه الإلهي).» (١ يوحنا ٣: ٢)

ولكن واضح أن هذه المعرفة الفائقة هناك تقف وحدها بدون الإيمان!! لأن الإيمان له عمل الحاضر أما في الأبدية فنحصد ثماره، والمعرفة هي ثمرة الإيمان الفاخرة. وبالتدقيق في مقابل استخدام إنجيل يوحنا للإيمان ومفاعيله الكثيرة نلاحظ أنه لم يرد فيه قط شيء عن «التوبة» μετανοια، وهذا بسبب الإتجاه اللاهوتي لقوة الإيمان التي ابتلعت التوبة. ومن جهة أخرى نجد أن «مفاعيل الإيمان» أنتجت في إنجيل يوحنا ثمرة حتمية وهي «المحبة»، كوجود «حي» فعّال للإيمان في الممارسة المسيحية لا بد منه، حتى إن فعل الإيمان وفعل المحبة يكونان هما القوة المتحركة في علاقة الإنسان المسيحي بالرب التي ترفعه إلى الحياة الأبدية المُعاشة.

والقارىء المدقق لإنجيل يوحنا يصطدم بشكوى مكتومة وحزينة بل ومؤلمة من طرف القديس يوحنا بسبب «عدم الإيمان» من قِبَل اليهود التي كانت تواجه كل عمل وكل قول للمسيح على مدى خدمته كلها. مما جعل الإيمان في المقابل يرتفع في إنجيل يوحنا إلى حالة «نعمة» تكون ممنوحة من الله رأساً! فالذين قبلوا المسيح وآمنوا به وتعلموا له هم أصلاً مدعوون من الآب بسبقٍ تعيينٍ أو سبِقٍ اختيار: «لا يقدر أحد أن يُقبَلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبَ الَّذِي أُرْسَلُنِي وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ» (يوحنا ٦: ٤٤)؛ «كُلُّ مَا يَعْطِينِي الآبَ فَإِلَيَّ يُقْبَلُ وَمَنْ يُقْبَلُ إِلَيَّ لَا أُخْرِجُهُ خَارِجاً» (يوحنا ٦: ٣٧)؛ «أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ كَانُوا لَكَ، وَأَعْطَيْتَنِي لِي» (يوحنا ٦: ١٧)؛ «لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لَهُمْ لَكَ» (يوحنا ١٧: ٩)؛ «الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حِفْظَتَهُمْ وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا ابْنُ الْهَلَاكِ» (يوحنا ١٧: ١٢)؛ «أَيُّهَا الآبَ أُرِيدُ أَنْ هُوَّلَاءَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي...» (يوحنا ١٧: ٢٤)

ولكن في مقابل هذا الإختيار المُسبِقِ أو سبق التعيين من قِبَلِ اللَّهِ الآبِ للمختارين وجذبهم إلى المسيح لينالوا بالإيمان به الخلاصَ المعدَّ لهم من قبل إنشاء العالم، فإن إنجيل يوحنا يقطع بأن قبولهم للمسيح وإيمانهم به يظل هو عمل اختيارهم الحر وبارادة حرة لا إلزام ولا ضغط فيه!! مما يضع على الذين يرفضون الإيمان مسؤولية خطيرة تبلغ حدَّ الخطيئة العظمى! «ولكن منكم قومٌ لا يؤمنون لأن يسوع من البدء علم مَنْ هُم الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُهُ» (يوحنا ٦: ٦٤)؛ «ومتى جاء ذاك (الروح القدس) يبغّت العالم على خطيئة،... أما على خطيئة، فلأنهم لا يؤمنون بي...» (يوحنا ١٦: ٩٠٨)

ويلاحظُ في قول الإنجيل: «كُلُّ مَا يَعْطِينِي، الآبَ فَإِلَيَّ يُقْبَلُ»، وكذلك

«إن لم يجتذبه الآب...» (يوه: ٦٤:٤٤). إنه يشير إلى أن قوة الإنجذاب نحو المسيح والإستماع إليه وقوة الإيمان بالمسيح التي تنتهي بالإتحاد به هي قوة موهوبة من الله الآب تُطلبُ بالِحاح. وهذا يوضحه الإنجيل في قول المسيح: «فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يوه: ٤٦ و٤٧). ولكن لم يحاول القديس يوحنا أن يصالح بين سبق الإختيار من قِبَلِ الله للذين يؤمنون بالمسيح بل واجتذابهم أيضاً إلى الإيمان وبين حرية اختيار الذين يُقبَلون إلى المسيح ويؤمنون به بمحض إرادتهم. هذه المضادة حيرت المفسرين والشارحين للإنجيل على مدى كل العصور.

والواقع أن سبق الإختيار يتوقف على علم الله المُسبق بإرادة الإنسان الصالحة والتالفة إن كان سيؤمن أو لا يؤمن. أما الذي سيؤمن فذخُر له لدى الله نعمة الإفتتاح على المسيح وقوة الإيمان مكافأة حرة لإرادته الحسنه. وأما الذي لن يؤمن فقد خسر الإثنين النعمة والإيمان بإرادته الحرة أيضاً.

وهنا يسأل القارىء هل الإنسان محيّر أو مسيّر؟، الرد هو أن الإنسان محيّر أن يختار الله أو العالم وبعد ذلك إن سار في الخير فالنعمة تقوده وتدبره وتمده بقوة إرادة أقوى لفعل الصلاح، أما إن سار في طريق العالم واتبع أهواء الجسد والشهوات فإنه يُساق بقوى الشر التي تدفعه دعماً في طريق الباطل والضلال. فالإنسان يظل مسؤولاً عن اختياره.

وعلى هذا أيضاً يؤكد إنجيل يوحنا أن هناك مسئولية خطيرة مُلقاة علينا لنؤسس منذ الآن إيماناً نشيطاً بالمعرفة التي لا تكتفي أبداً بل تطلب كل يوم المزيد لأن هذه الحياة هي التي ستكون موضوع مستقبلنا فوق. وبقيناً أن مسرة معرفة المسيح والآب التي نعيشها الآن بالإيمان هي أئمن وأجل ما يمكن أن نعمله ونقتنيه ليس لمستقبلنا فحسب بل ولحاضرنا.

وقد ألمح إنجيل يوحنا إلى بعض الأسباب التي تقف وراء عدم الإيمان وهي في معظمها أخلاقية: «أحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة» (يوه: ٣:١٩)؛ «كلُّ من يعمل السيّات يُبغض النور» (يوه: ٣:٢٠)؛ «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدداً بعضكم من بعض والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه» (يوه: ٥:٤٤)؛ «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني... لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا (تطيعوا) قولي. أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يوه: ٤٢ و٤٣ و٤٤)

ب — معرفة الله في إنجيل يوحنا (١)

«هذه هي الحياة الأبدية أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو: ١٧: ٣). في إنجيل يوحنا لا يمكن الفصل بين الحياة الأبدية بمفهومها الناضج وبين المعرفة الإلهية في إدراكها الواقعي العملي. فالحياة الأبدية في إنجيل يوحنا هي الحياة مع الله، حياة لا علاقة لها بالزمن خالية من الموت وكل أسبابه ونتائجه، وهي حياة نابعة من طبيعة الله «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أن تكون له حياة في ذاته» (يو: ٥: ٢٦). فالحياة مع الله هي حياة مع الآب والإبن وبالتالي تُعرَّف كاملٌ وممتدٌ في العلاقة بين الآب والإبن.

لذلك فانفتاح الوعي الروحي للإنسان لتقبُّل انسكاب قوة الحياة الأبدية «بالميلاد الثاني» أو «بالخليقة الجديدة» أو «بالميلاد من فوق» أو «بجلول الروح القدس» يُدخله في معرفة الله الذاتية أي معرفة الآب والإبن. أي أن معرفة الله بحسب الآية أعلاه: «أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»، هي في الحقيقة ليست معرفة من معارف الإنسان الطبيعية، بل معرفة استعلانية، أي فيها ينكشف للروح أمور مخفية ليست من اختصاص الحياة الأرضية.

ولكي ندرك المعنى العميق لهذه المعرفة الروحية الخاصة بالله في إنجيل يوحنا يلزمنا في البداية التفريق بين المعرفة في الفلسفة اليونانية والمعرفة في التوراة أي عند العبرانيين.

١ — معرفة الله في الفلسفة اليونانية:

وتختص بالتأمل في الحقيقة النهائية في جوهرها غير المتغير. وواضح أن هذه الحقيقة ثابتة Static ومطلقة أي مجردة وبلا حدود. وفيها يجاهد الفكر البشري في الإنطلاق نحو هذا الجوهر الثابت. فالفكر المحدود يتحرك ولكن الله مطلق ثابت، يتحرك إليه الإنسان إما بعقله بالتمرينات الفكرية وإما بجسده بالتمرينات الجسدية، أو بكليهما.

٢ — معرفة الله عند العبرانيين:

وهي الإعراف بالله من جهة أعماله التي يعملها عامة وخاصة للشعب الذي أحبه ثم الخضوع لمطالبه. وهنا تكون معرفة الله هي تعامل مع الله بالممارسة الشخصية والجماعية وذلك في صميم الزمان. حيث الله يأتي ويفتقد الإنسان ويقربّه إليه.

وبالرغم من وضوح الفرق بين المعنى اليوناني والمعنى العبري في معرفة الله إلا أنه بمرور الزمن

¹ C.H. Dodd, The Fourth Gospel, p. 151.

اختلط المعنيان وذلك بسبب ترجمة الأسفار العبرية للكتاب المقدس إلى اليونانية في النسخة السبعينية. لأن المترجم استخدم في ترجمة الكلمات العبرية ذات المعنى العبري الخاص كلمات يونانية لها معناها اليوناني الخاص جداً!! بحيث يستحيل على القارئ اليوناني للأسفار العبرية المترجمة أن يفهم المعنى العبري النقي وحده إذ حصل تزاوج بين المعاني. هذا بجوار عدم دراية المترجم اليهودي (الإثنان والسبعون شيخاً) بأصول الكلام العبري نفسه لطول المسافة الزمنية السحيقة بين زمن وضع هذه الأسفار وزمن ترجمتها، مما قد يورط المترجم في ترجمة منحرفة وإليك هذا المثل:

الأصل العبري الصحيح: هوشع ١٠: ١٢ «إزرعوا لأنفسكم بالبر احصدوا بحسب الصلاح احرثوا لأنفسكم حرثاً فإنه وقت لطلب الرب حتى يأتي ويعلمكم البر». لاحظ كلمة «يعلمكم البر» التي بمعنى تعليم عمل الصلاح.

الترجمة السبعينية: هوشع ١٠: ١٢ «ازرعوا لأنفسكم بالبر واحصدوا بحسب ثمر الحياة وأنيروا لأنفسكم نور المعرفة واطلبوا الرب حتى يأتيكم ثمر البر».

هنا في الترجمة السبعينية ضاعت من المترجم معرفة أصل الكلمة «يجرث» لأنها قريبة جداً من كلمة «مصباح» – فاستبدل كلمة «يجرث» بحسب تداعي المعنى من الكلمة التي بعدها (يعلم البر) فبدل «احرثوا لأنفسكم حرثاً» قال: «أنيروا نوراً» وهكذا دخل في صميم التوراة اصطلاح جديد وخطير للغاية لم يكن له وجود أصلاً في العبرية وهو «نور المعرفة» φῶς γνώσεως

ولكي يتأكد القارئ من الإلتباس الذي وقع فيه هذا المترجم، نعود لكلمة «جرث حرثاً» لسفر آخر هو سفر إرميا حيث وردت فيه بحسب الترجمة السبعينية ولكن بمترجم آخر أكثر علماً ودراية بالأصول العبرية للكلمات، فوجدتها في الترجمة اليونانية طبق الأصل في المعنى مثل الأصل العبري تماماً:

الأصل العبري: إرميا ٤: ٣ «لأن هكذا قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم احرثوا لأنفسكم حرثاً، ولا تزرعوا في الأشواك».

الترجمة السبعينية: إرميا ٤: ٣ «لأن هكذا قال الرب لرجال يهوذا وسكان أورشليم احرثوا لأنفسكم حرثاً جديداً، ولا تزرعوا في الأشواك».

والذي حدث هو أن انتشار الترجمة اليونانية (النسخة السبعينية) لأسفار العهد القديم بين اليهود من أصل يوناني الذين كانوا يعيشون في وسط الجماعات الغنوسية (العارفين بالله على هرطقات متعددة) قد استخدموا هذه الإصطلاحات الدخيلة في آدابهم الدينية وهكذا تقاربت المعارف والمعاني بين اليهود التقليديين (الأرثوذكس) الدارسين على النسخة السبعينية وبين هرطقات الغنوسية

أي جماعات العارفين بالله .

وهكذا بالتالي ورثت المسيحية عن اليهودية التقليدية أي عن أرثوذكس اليهود الذين تنصروا هذه المعارف والإصطلاحات التي هي أصلاً موجودة في الأدب اليوناني الصرف !

والذي يهمننا هنا هو اصطلاح «معرفة الله»، حيث صار هذا الإصطلاح متقارباً جداً في مفهومه بين العهد القديم (الترجمة السبعينية) وبين هرطقة الغنوسية . وهذا هو سر بلبله العلماء الناقدين في تعثرهم من جهة منابع التي استقى منها القديس يوحنا إنجيله معتمدين أنه أخذ عن الغنوسية وهذا غير صحيح بصورة قاطعة أثبتها العلماء اللاهوتيون المدققون .

٣ - معرفة الله عند القديس يوحنا :

والقديس يوحنا يهودي إسرائيلي لم يدرس على السبعينية ولكنه كان على دراية واسعة وعميقة بتعاليم الربيين سواء على النسخة العبرية أو على النسخة السبعينية . ولأنه عاش وكتب ليهود الشتات في آسيا الصغرى وللأمم على السواء، فكان يعرف أنه يكتب لمواطني الثقافة اليونانية . ولذلك اضطر أن يستخدم هذا التعبير: «والعالم لم يعرفه» (يو: ١٠: ١٠)، عندما قال عن «الكلمة» أنه كان في العالم . فالقديس يوحنا يقصد بعدم معرفة العالم للكلمة هنا معرفة اليونان المعرفة العقلية وليس المعرفة بالمعنى العبري أي على أساس التعامل والخضوع والطاعة كإله قريب .

وهذا الموقف وقفه أيضاً القديس بولس ولكنه طعمه بالمفهوم العبري فجاء على المستويين اليوناني الفكري والعبري العملي معاً حينما قال: «وكما لم يستحسنوا أن يُيقُوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق» (رو: ١٠: ٢٨). فهنا يقرر القديس بولس الرسول (في ر١٠) أن هؤلاء الناس الفجّار الذين يجزون الحق بالإثم عمداً، والذين بالرغم من أن معرفة الله ظاهرة فيهم وأن الله أظهرها لهم إلا أنهم لما عرفوا الله لم يمجّدوه أو يشكروه كإله، وبذلك استحسنوا لأنفسهم أن لا يُيقُوا الله في معرفتهم، لذلك أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليعملوا ما لا يليق . هنا واضح أنهم أدركوا معرفة الله بعقولهم بالمعرفة اليونانية الفلسفية وأنكروه بأعمالهم بحسب المفهوم العبري، لذلك حجز الله عنهم حتى الذهن المستير أو البصيرة النيّرة ليتدادوا في الباطل الذي انحازوا إليه .

هكذا أدخل القديس بولس الرسول المعرفة اليونانية في الإطار الأخلاقي ففضحها وفضح قصورها وعجزها . وأما من حيث «معرفة الله» وعلاقتها بالحياة الأبدية كما جاءت في الأصحاح السابع عشر عدد ٣: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي

أرسلته»، نجد أن المضمون العبري لمعرفة الله واضح وقائم وهو مطابق نصاً وحرفاً لما جاء في التوراة الموضحة على النسخة السبعينية هكذا:

النسخة العبرية القديمة: (هوشع ٦: ١-٣): «هو افترس فيشفينا ضرب فيجبرنا يميننا بعد يمين وفي اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه. فلنتبع الرب».

النسخة السبعينية: (هوشع ٦: ٣ و٢): «سيضرب ويجبرنا، بعد يمين يشفينا وفي اليوم الثالث سنقوم ونحيا أمامه وسنعرفه، فلنتبع الرب لنعرف الرب».

والمعنى واضح أننا سنقوم من الأموات ونحيا في حضوره ويكون لنا معرفة به وستقدم في معرفة الرب. وهذا يعني ما يلي: أن نعرف الرب هو هو أن نحيا أمامه أي يكون لنا حياة أبدية معه. ونلاحظ أن الآية الواردة في نبوة هوشع هي معرفة وحياة المستقبل، ولكن في إنجيل يوحنا تأتي في الحاضر الدائم وهذا هو لاهوت إنجيل يوحنا الذي يعيش بالإستعلان واقع كل الأخريات في شخص المسيح ابن الله الكائن والذي كان والذي يأتي أيضاً.

من هذا نرى أن اللغة اليونانية حتمت بدخول معاني إضافية نراها واضحة في مقابل المعاني العبرية الصحيحة: «أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتُك وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني» (يو ١٧: ٢٥). هنا واضح أن المعرفة الأولى لا يقصد بها إلا مجرد التعرف والإدراك العقلي حسب مستوى العالم، والتي مصيرها الإخفاق حتماً. أما المعرفة الثانية فهي تحمل أضخم احتواء لمعاني المعرفة العبرية، لأن المسيح «الكلمة» و«الإبن» هو المتكلم شارحاً معرفته للآب! وهكذا تقع اللغة اليونانية في عيب صارخ حينما استخدمت نفس الكلمة «يعرف» عند العالم وعند ابن الله على السواء بمستوى واحد!! هذا يفضح قصور اللغة اليونانية في ترجمة واستيعاب المعاني الأصيلة والعميقة المتوارثة من العهد القديم وهي معاني لاهوتية، أي على مستوى إلهي، منطوقة بروح الله على فم الأنبياء وقائمة على أساس معايشة الله لشعبه في الضيق والسعة وفي الرضا والغضب، الأمر الذي لم تره ولم تسمع به أمة أو لغة ما على الأرض كلها.

وبذلك أصبح تحديد معنى معرفة الله يتوقف بالدرجة الأولى على موقعها من الحديث وعلى مستوى الشخص أو الشعب الذي يابشرها.

فحينما يتهم المسيح اليهود بعدم معرفتهم الله فهو يضع على رؤوسهم وزر كل معاملاتهم السيئة لله وعصيانهم وتمردهم: «أجاب يسوع إن كنتُ أمجد نفسي فليس مجدي شيئاً أبي هو الذي يمجديني الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه. وأما أنا فأعرفه وإن قلت إنني لست أعرفه أكون مثلكم

كاذباً، لكي أعرفه وأحفظ قوله.» (يو: ٥٤ و٥٥)

هنا يحتجىء خلف الكلام معنى عميق، لأن شعب إسرائيل معروف أن الله تبتّاه، وأن الله جعل نفسه أباً لهم، ولكنهم لما رفضوه بأعمالهم وابتعدوا عن الحق والرحمة والعدل، رفضهم الله وأصبحوا ليسوا أولاداً بعد، وبذلك لا يمكن أن يدّعوا معرفته مهما كانت غيرتهم ومهما كان علمهم وحفظهم لدقائق الناموس وللوصايا بالحرف والنقطة ومهما كانت درايتهم بكل أوصاف الله ومطالبه، لأنهم في حكم المسيح قد أصبحوا «من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو: ٤٤)

وأما المسيح فيعلن عن حق أنه ابن الله فهو يعرفه حتماً وبحسب أصول الكلمة العبرية التي تقوم على الصلة الفعلية بين الآب والإبن، أي صلة الإتحاد المطلق.

فإذا بلغت معرفة الإنسان لله المستوى العبري هذا بلغ الإتحاد بالنسبة للإنسان مفهومه اللاهوتي إنما على مستوى الإمتياز وليس مستوى الطبيعة، حيث يرتقي الإتحاد إلى الخبرة التصوفية اليونانية المنشأ، والخبرة النسكية العبرية الأصل، كما فهمها القديس بطرس الرسول: «قدّموا في إيمانكم فضيلة وفي الفضيلة معرفة... لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية» (١بط: ٥ و٤)، وكما فهمها القديس بولس الرسول أيضاً: «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله، ووارثون مع المسيح» (رو: ١٦ و١٧). وورثة الله مع المسيح هي أعظم تعبير عملي عن الإتحاد أو حياة الشركة مع الله. أو بحسب القديس يوحنا: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكتملين إلى واحد.» (يو: ١٧: ٢٣)

٤ – تعرفون أي أنا هو ἔγω εἶμι :

«قال لهم يسوع متى رفعت ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أي أنا هو» (يو: ٨: ٢٨) وبحسب الأصل اليوناني «تعرفون» (γινώσθε). هذه الآية عن معرفة الله ذات وزن عالٍ جداً، ندركه إذا عدنا للتقليد القديم بحسب إشعياء النبي «أنتم شهودي (يوجه كلامه إلى الأنبياء وبنى الإنسان) يقول الرب وعبدي الذي اخترته (المسيح) لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا، أي أنا هو. قبلي لم يُصوّر إله وبعدي لا يكون. أنا أنا الرب وليس غيري مخلص» (إش: ٤٣: ١٠ و١١). لاحظ أن تعبير «أنا هو = باليونانية ἔγω εἶμι» هو «التعريف بذات الله» وهو اصطلاح موقوف على الذات الإلهية^(٢).

(٢) أهم المواضع التي جاءت فيها عبارة ἔγω εἶμι :

— في الترجمة السبعينية لأسفار موسى الخمسة مثل: خر: ٣: ١٤، ١١٧: ٤٤ و٤٥، ١٩٧: ٢٦ إلى ٢٠ (مرة)، تث: ٣٢: ٣٩.

— ولسفر إشعياء مثل: إش: ٤١: ٤١ و٤٢: ٤٣ و٤٣: ١٠ و٤٤: ٤٥ و٤٦: ١٩ و٤٧: ٤٨ و٤٨: ١٢ و٤٩: ١٧ و٥١: ١٢.

إذا طَبَّقنا آية إشعياء النبي على ما جاء في إنجيل القديس يوحنا يتضح الآتي:
— بالنسبة لشهادة الأخصَّاء: «وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.»
(يوه: ١٥: ٢٧)

— بالنسبة لشهادة المسيح: «الحق الحق أقول لك إننا نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا.»
(يوه: ٣: ١١)

— بالنسبة للإصطلاح «أنا هو»: نجد التطابق مع آية إشعياء حيث تأتي الكلمة الفريدة «تفهمون» لتجعل التطابق محكماً، إذ تحييء في السُفرين: «تفهمون إني أنا هو» كما هي بالحرف الواحد.

فالنطق الإلهي الذي جاء في إشعياء النبي يفيد المعرفة الأكيدة لله المدعَّمة بالفهم، أن الله هو هو صاحب المجد الفريد والمخلَّص لشعبه؛ كما تحييء بنفس المعنى تماماً في إنجيل يوحنا أنه متى رُفِعَ المسيح بالقيامة والصعود تعيَّن أنه ابن الله وأنه صاحب المجد الفريد والمخلَّص وليس غيره.

٥ — الفرق بين معرفة «التألُّه» ومعرفة «الإتحاد»:

يهمنا أن نوضح هنا أن المعرفة اليونانية الفلسفية التي تمارَس بالتأمُّل في الحياة التصوفية إنما تقوم على التمرين العقلي والنفسي للارتقاء فيما وراء الطبيعة، وهي ضمن ميراث التقليد الآبائي الكبادوكي والبيزنطي، وهي ترتقي بدرجات ملموسة بالإنسان حتى يبلغ بها إلى ما يسمى بالتألُّه
Θέωσις Deification

أما المعرفة بحسب الخبرة العبرية التي انتقلت إلى المسيحية، فصارت «المعرفة» تقوم بالمعنى المسيحي على الإيمان العامل بالمحبة وبممارسة الفضيلة والتعقُّف التي يسميها القديس بولس الرسول «السلوك بالروح»، فهي قادرة أن تبلغ بالنعمة إلى «الإتحاد بالمسيح» التي يضع لها إنجيل يوحنا شرطين: «المحبة» و«حفظ الوصية»، حيث يثبت الإنسان في المسيح «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» (يوه: ١٥: ٤) على مستوى الكرمة والأغصان. هذا الإتحاد بالمسيح وبالتالي بالله يدعمه سر الأكل والشرب من الجسد والدم فيصبح الإتحاد وكأنه موثَّق ومختوم بالروح والدم: «مَنْ يَأْكُلني فهو يحيا بي» (يوه: ٦: ٥٧)، «...الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يوه: ٦: ٢٧). هنا مفهوم الوحدة أو الإتحاد بالله بلغ أعلى مستواه بتوسط المسيح على مستوى المعرفة والأكل السري!!

= — وأما في إنجيل يوحنا فقد وردت على فم المسيح ٢٤ مرة:

٤: ٢٦: ٦، ٢٠: ٣٥، ٤١ و ٤٨ و ٥١: ٨، ١٢: ١٨ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٨ و ٥٨: ١٠، ٧: ١١ و ١٢ و ١٤ و ١١: ٢٥، ١٣: ١٩ و ١٤: ٦:

١٥: ١٥ و ١٨: ١٠ و ٨.

٦ - معرفة «الحق»:

أصل مفهوم معرفة الحق (الأليثيا) هو الإدراك العقلي الميتافيزيقي أي ما وراء الطبيعة. باعتبار أن «الحق» هو الوجه الحقيقي في الموضوع Reality وهذا ميراث يوناني فلسفي صرف.

ولكن حينما استخدمه المسيح في إنجيل يوحنا، نرى أن شيئاً عجيباً قد دخل في مفهوم الإصطلاح اليوناني هذا، وجذبه ليتوافق مع الميراث العبري الأصيل لمعرفة «الله» الذي هو «الحق». فحينما يقول المسيح لليهود: «تعرفون الحق والحق يحرككم» (يو: ٨: ٣٢)، فهذا إصطلاح هلليني (يوناني فلسفي)، ومعناه أن التحرر أو الحرية يتوقف على إدراك الوجه الحقيقي Reality للموضوع، وهذا - بحد ذاته - كفيل بأن يحرك العقل من التزييف أي شبه الحق الخادع Pseudoreality. ولكن هذا ما لا يقصده المسيح، بل هو يقصد المعرفة القائمة على الأعمال والسلوك بالخضوع والطاعة لوصايا الله، أي على الأساس العبري القويم. وهذا كشفه المسيح بوضوح عندما عاد ليطبق الحق على نفسه قائلاً: «إن حرركم الإبن بالحقيقة تكونون أحراراً» (يو: ٨: ٣٦)؛ وهكذا جعل معرفة الحق موازية ومنطبقة على معرفة الخلاص من الخطية «مَنْ يعمل الخطية فهو عبد للخطية والعبد لا يبق في البيت (بيت الحق أي الله) إلى الأبد، أما الإبن فيبقى إلى الأبد (أي يرث الحق)» (يو: ٨: ٣٤ و٣٥). ثم يعود ويكشف حالة اليهود الذين صاروا عبيد خطية وتبتأهم إبليس. وذلك ليس عن عدم إدراك الحق بالعقل لأنهم يدركون الحق فعلاً وعقلاً وبقنطار، ولكنهم ضلوا عن معرفة «الحق» بأعمالهم وسلوكهم الشائن «أنتم تعملون أعمال أيكم... أنتم من أب هو إبليس وشهوات أيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قتالاً للناس منذ البدء، وهو لم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق (الأليثيا) متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب (أي أن كل مَنْ يكذب يصبح ابنه بالتبعية)». (يو: ٨: ٤١-٤٤)

وهنا واضح أن إنجيل يوحنا استخدم «معرفة الحق» ليس بالمعنى الهلليني الفلسفي فقط، وإنما مزجه بالمعنى والمضمون المسيحي الدقيق وحسب التقليد العبري.

٧ - معرفة الله للإنسان:

لورجعنا إلى التراث العبري القديم نقرأ: «إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم» (عاموس ٣: ٢)؛ كذلك: «أنا أعرف أفرام وإسرائيل ليس مخفياً عني» (هوه: ٣)؛ وفي مثل آخر تبلغ معرفة الله للإنسان إلى أقصى حدود الود والمحبة: «ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه» (تث: ٣٤: ١٠)؛ كذلك وفي مثل آخر تبلغ حدود معرفة الله للإنسان إلى درجة الإختيار المُسبق والمبادرة للتقديس من طرف واحد،

أي من طرف الله دون أي إستحقاق عملي ظاهر من جهة الإنسان: «وأنت يا رب عرفنتي رأيتني واختبرت قلبي من جهتك» (إرميا ١٢: ٣)؛ «فكانت كلمة الرب إليّ قائلاً قبلما صوّرتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدّستك، جعلتُك نبياً للشعوب.» (إرميا ١: ٥)

وسبقتُ معرفة الله للإنسان لا يتدخل في الإرادة الحرة التي تختار ما بين الخير والشر، بمعنى أنه سبقُ معرفة أعمال وسلوك ونيات وإرادة. لأن ليس عند الله زمن ما يجب العمل فلا يُرى إلا بعد حدوثه، بل الرب يرى الأعمال وكأنها معمولة قبل أن تُعمل «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة» (روا: ٤: ١٧)!! لهذا يسبق أيضاً ويقدها في ذخيرة محبته التي صوّرت الكون قبل أن يتصور، والتي كتبت أسماؤها في كتاب الحياة الأبدية ليس قبل أن نولد فحسب، بل وقبل إنشاء العالم «اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه — في المحبة —» (أفسس ١: ٤)، أو بحسب تعبير إنجيل يوحنا: «أنا أظهرتُ اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم، كانوا لك وأعطيتهم لي وقد حفظوا كلامك» (يوحا: ١٧: ٦). هنا «معرفة الله للناس» على أصول عبرية صافية جداً، وإن كان مظهرها قد يميل إلى المفهوم الهليني العقلي، لهذا يمكن أن نقول إن الإنجيل جمع بين المعنيين بلا أي خلل في القصد المبارك.

ولكي ندرك عمق التراث العبري المستخدم في إنجيل يوحنا ودقته وطريقة تطعيمه بالفكر الهليني، نأخذ هذا المثل وهو آية واحدة من سفر العدد نقرأها على النسخة العبرية القديمة، ثم نقرأها على النسخة السبعينية المترجمة إلى اليونانية، ومنها ندرك مقدار التحول الذي تم على أيدي المترجمين الربيين اليهود الإثنيين والسبعين وقدرتهم على فهم التراث العبري وتقريبه إلى ذهن القارئ اليهودي اليوناني.

القراءة العبرية على التوراة: سفر العدد ١٦: ٤ و٥ «فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلم قورح وجميع قومه قائلاً: غداً يعلن الرب مَنْ هو له، وَمَنْ المقدّس حتى يُقَرَّبَه إليه. فالذي يختاره يُقَرَّبَه إليه.»

القراءة على النسخة السبعينية: «ولما سمع موسى هذا سقط على وجهه وكلم قورح وكل جماعته قائلاً: إن الله قد افتقد (زار) وعرف الذين له، وَمَنْ هو المقدّس وقد قَرَّبهم إلى نفسه، والذين اختارهم لنفسه قد قَرَّبهم إلى نفسه.»

يلاحظ القارئ أن التغيير حدث بنوع من شرح للموقف المهم الذي يحكي كيف سيختار الله مَنْ هم له.

وعلى القراءة السابقة وضع الربون التعليم الدقيق بمقتضى صميم قراءة الترجمة اليونانية وذلك بوضع المبادئ التي تقنن كيفية معرفة الله لشعبه:
المبدأ الأول: الله يعرف الذين له،
المبدأ الثاني: الله قد اختارهم،
المبدأ الثالث: الله يقودهم (يقرّهم) إلى نفسه.

هذه المبادئ الثلاثة المسجلة عند الربيين، تكشف لنا عن مفهوم التراث العبري في موضوع معرفة الله للناس، التي كان يستحيل على اليهودي اليوناني أن يفهم شيئاً من الآية الغامضة المختصرة التي جاءت في التوراة العبرية هكذا: «غدأ يعلن الله الذين له».

فإذا عدنا إلى إنجيل يوحنا — بخصوص معرفة الله للناس — نجد هذه الثلاثة المبادئ مرعية بمنتهى الدقة:

المبدأ الأول: «أما أنا فإني الراعي الصالح وأعرف خاصّتي وخاصّتي تعرفني» (يو ١٠: ١٤)؛
«لأن يسوع من البدء علم مَنْ هم الذين لا يؤمنون ومَنْ هو الذي يسلمه» (يو ٦: ٦٤)؛ «لكن يسوع لم يأتئمنهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع.» (يو ٢: ٢٤)

المبدأ الثاني: «لست أقول عن جميعكم أنا أعلم الذين اخترتهم» (يو ١٣: ١٨)؛ «أليس أني أنا اخترتكم الإثني عشر وواحد منكم شيطان.» (يو ٦: ٧٠)

المبدأ الثالث: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه (يُقَرِّبه) الآب» (يو ٦: ٤٤)؛
«وأنا إن ارتفعت عن الأرض أُجذب إليّ الجميع.» (يو ١٢: ٣٢)

بهذا يتضح لنا المبدأ الذي يسير عليه إنجيل يوحنا من جهة معرفة الله للناس، وهي نفس الأصول والمبادئ الثلاثة التي قامت عليها تعاليم التوراة المبنية على أساس نعمة الله الكاشفة أستار القلوب، والإختيار المُسَبِّق، والتقريب إلى الله، التي هي كلها من صميم خبرة الأنبياء العملية. وفي إنجيل يوحنا نجد أن الفاعل في هذه الثلاثة المبادئ: المعرفة، والإختيار، والتقريب، هو المسيح.

٨ — رؤية الله:

و«المعرفة» في مفهومها الإلهي الجديد في العهد الجديد تنحصر في شخص المسيح أساساً وتفرعاً. فالمسيح هو الوحيد الذي يعرف الله والآب: «الله لم يرّه أحد قط، الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو ١٨: ١٨)؛ «أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني» (يو ٧: ٧٠)

(٢٩)؛ «الآب يعرفني وأنا أعرف الآب.» (يو ١٠: ١٥)

ونحن لا يمكن أن نعرف الله الآب إلا بواسطة المسيح، لأنه بدون الإبن لا يمكن أن يُستعلن الآب: «لا أحد يعرف الآب إلا الإبن ومن أراد الإبن أن يُعلن له.» (متى ١١: ٢٧)

فالمسيح، وخاصة في إنجيل يوحنا، هو المصدر الأساسي لمعرفة الله في ذاته، ولكن بالمسيح يسوع وفي المسيح يسوع، وإلاً استحال التعرف على الله: «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو ١٧: ٣). هنا إضافة «يسوع المسيح الذي أرسلته» التي يعتبرها كثير من الشراح النقاد أنها زائدة ومضافة، هي في الحقيقة قلب الآية النابض ومفتاح سرها الوحيد. فإنه بالرب يسوع المسيح استُعلن الله الآب، الأمر الذي كان مخفياً مدى الدهور كلها وعلى جميع الآباء والأنبياء والقديسين في العهد القديم. فهو وحده الوسيط لمعرفة الآب: «لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ١٤: ٧). بل ويفتح المسيح المجال للإنسان – ولأول مرة في تاريخ الإنسان – ليرى الله بواسطة يسوع المسيح: «الذي رأي فقد رأى الآب.» (يو ١٤: ٩)

هنا اقترنت «معرفة الله» بـ «رؤية الله»، هذا اصطلاح هلليني تصوّفي، أي يوناني صرف. فالرؤيا *θεωρία* ليس لها مكان في التقوى اليهودية، والعهد القديم لم يذكرها إلا في حيز ضيق جداً وليس كخبرة عامة مفتوحة للإنسان، فرؤية الله ليست اختباراً روحياً أو دينياً. فاليهودية الأرثوذكسية التقليدية تقرر أن رؤية الله مستحيلة على الإنسان في هذه الحياة: «لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (خر ٣٣: ٢٠). إنما هي من الموهوبات والبركات المحفوظة للإنسان في الدهر الآتي.

فن أين أتى بها إنجيل يوحنا وعلى أي أساس؟

إنجيل يوحنا يعيش الدهر الآتي من بادئ بدئه حتى نهايته! لما قالت مرثا للمسيح أنها تؤمن أن أخوها لعازر سيقوم في اليوم الأخير استنكر عليها المسيح ذلك، وهو واقف أمامها، قائلاً: «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)!

فالدهر الآتي استُعلن في المسيح بصفته أنه هو هو الحياة الأبدية، فالحياة الأبدية ذاتها أظهرت في المسيح، بحسب القديس يوحنا: «وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١ يو ١: ٢). على أن المعيار التقليدي للعهد القديم وهو «أن الله لا يراه الإنسان ويعيش» محفوظ: «الله لم يَسِرْهُ أَحَدٌ قَطُّ (ولكن) الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو

خبّر» (يو: ١٨). إذن، لو اُحد فقط قد صارت وتمت رؤية الله: «ليس أن أجدأ رأى الآب إلا الذي من الله هذا قد رأى الآب.» (يو: ٦: ٤٦)

إذن، فالمسيح والمسيح وحده هو الذي أُعطيت له معرفة الآب ورؤيته رؤية الذات للذات، والمثيل للمثيل!!! وهذه المعرفة التي هي بعينها رؤية الله قد وهبها لنا المسيح في ذاته «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو: ١٤: ٩). هذا هو جوهر الإيمان المسيحي: «فنادى يسوع وقال الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني، والذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو: ١٢: ٤٤ و٤٥). وهذا يقرره القديس يوحنا منذ بدء إنجيله: «والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده، مجداً كما لو حيد من الآب.» (يو: ١٤)

الفصل الخامس الخطية والخلاص

أ — الخطية

«الخطية» عند القديس بولس الرسول:

لقد انتهى القديس بولس الرسول إلى هذا القرار اللاهوتي: «لأنه بأعمال الناموس، كلُّ ذي جسد لا يتبرَّر أمامه. لأنَّ بالناموس معرفة الخطية» (رو ٣: ٢٠)؛ مضافاً إليه: «فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يُقَلِّ الناموس لا تَشْتَه» (رو ٧: ٧). لذلك فالخطية هي التعدي.

فالناموس عرَّفنا بـ«الخطية»، بل أوَجَدَها في الذهن والضمير وحددها وضخَّها لتبدو خاطئة جداً، ثم أوَجَدَ لها العقوبات والموت. وفرض الناموس ذاته على الإنسان، وبذلك صار العالم كله سواء الذي هو في الناموس أو الذي بلا ناموس تحت قِصاص من الله: «ونحن نعلم أن كل ما يقول الناموس فهو يكلم به الذين في الناموس، لكي يستدَّ كل فم و(بالتالي) يصير العالم كله تحت قِصاص من الله.» (رو ٣: ١٩)

«الخلاص» عند القديس بولس الرسول:

«وأما الآن فقد ظهر بَرُّ الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس (موسى في التجلي والتوراة) والأنبياء (إيليا في التجلي، وبصفته أقوى الأنبياء، وبصفته الحاضر بروحه في يوحنا المعمدان)؛ بَرُّ الله بالإيمان يسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون لأنه لا فرق (بين يهودي وأممي) إذ الجميع أخطأوا وأعزَّزهم مجد الله. متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي يسوع المسيح الذي قدمه الله كقارة بالإيمان بدمه لإظهار بَرِّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله.» (رو ٣: ٢١-٢٥)

«الخطية» في إنجيل القديس يوحنا:

إنجيل يوحنا يقسم الناس إلى:

— روجيون مولودون «من فوق»، «من الله»، يستمدون حياتهم وأفعالهم من الروح من فوق أي من الله:

ἐκ τοῦ Θεοῦ (يو: ٨: ٤٧) = ἐκ τῶν ἄνω (يو: ٨: ٢٣)

— أرضيون «من الأرض» يستمدون حياتهم وشهواتهم من العالم أي «من أسفل»:

ἐκ τοῦ κόσμου (يو: ٨: ٢٣؛ ١٥: ١٩) = ἐκ τῶν κάτω (يو: ٨: ٢٣)

«فقال لهم أنتم من أسفل أما أنا فن فوق، أنتم من هذا العالم أما أنا فليست من هذا العالم. فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم.» (يو: ٨: ٢٣ و٢٤)

ثم عاد الإنجيل يوضح هذا المبدأ أكثر «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع. والذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع.» (يو: ٣: ٣١)

وهكذا فالمسيح يحاصر الخطية ليس في ذاتها ولكن في الإنتاء إلى مصدرها، جاعلاً إرادة الإنتاء هي التي تحصر الخاطيء وتصبغه بالخطية.

والإنتاء بالنسبة للإنسان يكون إما إلى فوق إلى السماء، إلى الروح، إلى الله؛ أو إلى أسفل، إلى الأرض، إلى الجسد، إلى الشيطان.

وهذا التقسيم يوضحه الإنجيل أنه ينطبق أيضاً على التلاميذ «أنا قد أعطيتهم كلامك والعالم أبغضهم، لأنهم ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم.» (يو: ١٧: ١٤)

وهكذا فإرادة الإنسان في نوع الإنتاء هي التي تفتح للخطية لتدخل أو تغلق في وجهها الباب.

وهذا الإنتاء عينه هو الذي يقرر ويحدد نوع التعامل مع الله، وبالتالي نوع السلطان المعطى من الله للرسول ثم للكنيسة، من جهة التعامل مع الخطية. فإذا أظهر الخاطيء انتاءه بالإعتراف وشهادة الضمير وبالفعل أنه أبغض الخطية ولم يعد ينتمي إلى مصادرها، فإنه ينال الجِلِّ منها أو الفِكَاك عنها أو المغفرة لها (والمغفرة كلمة عبرانية الأصل تفيد معنى التغطية أو النسيان)، وإلا فإنها تُربط ويُقفل عليها وتُمسك:

إنجيل القديس يوحنا: «ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس، مَنْ غفرتم خطاياها تُغفر له وَمَنْ أَمَسَّكُمْ خطاياها أَمَسَّت.» (يو: ٢٠: ٢٢ و٢٣)

إنجيل القديس متى: «وأعطيتك مفاتيح ملكوت السموات فكلُّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحلُّه على الأرض يكون محلولاً في السموات.» (مت ١٦: ١٩)

ومعروف أن هذا السلطان هو أصلاً سلطان المسيح نفسه الذي تنبأ عنه إشعياء النبي: — «وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه فيفتح وليس مَنْ يغلُق، ويغلُق وليس من يفتح.» (إش ٢٢: ٢٢)

هذا السلطان أعطاه المسيح للكنيسة، وما بيت داود إلا الملكوت عينه.

والفتح والغلق أوضحه المسيح أنه بخصوص حق الدخول إلى الحظيرة، أي الكنيسة، أي الملكوت:

— «الحق الحق أقول لكم: إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص، وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف لهذا يفتح البواب... أنا هو الباب...» (يو ١٠: ١-٣ و٩)

لذلك يعود القديس يوحنا في رسالته ويجعل الإنشاء أشد انحصاراً وأقوى وضوحاً: «أيها الأولاد لا يضلُّكم أحد، مَنْ يفعل البر فهو بارٌّ كما أن ذاك بارٌّ. مَنْ يفعل الخطية فهو من إبليس لأن إبليس من البدء يخطيء. لأجل هذا أظهر ابن الله لكي ينتقض أعمال إبليس. كلُّ مَنْ هو مولود من الله لا يفعل الخطية لأن زرعته (بذرة الحياة الجديدة) يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطيء لأنه مولود من الله.» (١ يو ٣: ٧-٩)

أولاً يُلاحَظ أن كلمة «مولود من الله» تفيد في النص اليوناني حالة الديمومة والإستمرار، فهو وُلد (بالمعمودية وبالروح) ولا يزال قائماً في حالة الولادة من الله كابن بالتبني بالنعمة. وهنا إشارة إلى الإنشاء الكلي والدائم إلى فوق والسما والروح والله. أي لا يزال يتبع قيادة الروح وتأثيره. ويعلق العلامة أثيناغوراس^(١) على هذه الديمومة قائلاً: [هم المسيحيون الذين صار عندهم الإحساس بالله أنه هو المثل والمستوى الأعلى للحياة].

أما المعنى أن «المولود من الله لا يستطيع أن يخطيء»، فهو يعود مباشرة إلى المعيار اللاهوتي لإنجيل يوحنا في أن ابن الله والشيطان نقيضان يستحيل بأي صورة أن يتفقا أو يتقابلا، وبالتالي أبناء الله المولودون من الله في المسيح وبالروح القدس يستحيل أن يتفقا أو يتقابلا مع الخطية التي

¹ Leg. pro. Christ c. 31, cited by Westcott: The Epistle of St. John, p. 107.

هي عمل الشيطان، طالما أن ولادتهم من الله حية وعاملة ومتصلة. حيث يستحيل عليهم عمل الخطية بصورة طبيعية نابعة من كيانهم الروحي، ولكن تأتي بصورة عارضة غريبة مدسوسة. حيث لا تمس الخطية كيان الإنسان الجديد أو جوهره الروحي. «نعلم أن كل مَنْ وُلِدَ من الله لا يخطيء، بل المولود من الله يحفظ نفسه والشريير لا يمسه.» (١ يوه: ١٨)

هنا تأتي مواجهة المسيح لليهود باعتبارهم منتمين للشيطان لأنهم أضمرُوا قتل المسيح بإصرار وبشهوة شيطانية: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذلك كان قتالاً للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم بما له لأنه كذاب وأبو الكذاب.» (١ يوه: ٤٤)

وهكذا يربط إنجيل يوحنا بين الخطية والشيطان مصدرها الأول، حيث يرى في عمل الخطية ليس انتباءً فقط للشيطان بل خضوعاً له، حيث يفقد الإنسان حرية الاختيار فيصير عبداً للخطية مُساقاً بالقوة الشريرة: «الحق الحق أقول لكم: إن كلَّ مَنْ يعمل الخطية هو عبد للخطية.» (١ يوه: ٣٤)

لذلك حرص الإنجيل أن يوضح أن المسيح في هذا المجال عينه لم يعمل خطية واحدة!! «مَنْ منكم يبغتنني على خطية؟» (١ يوه: ٤٦) هذا هو مستوى المسيح القدوس ابن الله؛ إذن فهو حرٌّ من الخطية لذلك فهو قادر أن يبرّر ويجرر من الخطية: «فإن حرّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (١ يوه: ٣٦)

والمسيح لا يتعامل مع الخطية وحدها بل ومع مصدرها. فالمسيح أساساً ليس مديناً للشيطان بشيء قط: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له فني شيء» (١ يوه: ٣٠)؛ لذلك استطاع أن يدحره ويدينه: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (١ يوه: ٣١)

ب - الخلاص

الخلاص في إنجيل يوحنا:

واضح أن الأساس المبني عليه إنجيل يوحنا هو «مجيء ابن الله» من «فوق» من عند الآب حاملاً رسالة الخلاص العظمى التي أعدّها الله لخلاص العالم، وفي الحال ومنذ بدء الإنجيل أعلن عن هذه الرسالة التي حملها الإبن الوحيد: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (١ يوه: ١٦)

وكان أول تعليم عن الخلاص قدّمه المسيح هو الكشف عن أن خلاص الإنسان سيكون من نفس الباب والطريق الذي جاء منه المخلص، مخاطباً به الناموس ممثلاً في معلمه نيقوديموس: «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله... المولود من الروح هو روح. لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تُولدوا من فوق.» (يو ٣: ٣-٧)

وهكذا فتح المسيح الباب للخاطيء لينتمي إلى فوق، وأعد له الطريق بالفداء بالجسد على الصليب ثم القيامة ثم الصعود لينتقل انتهاء الإنسان نهائياً من أسفل إلى فوق، من الأرض إلى السماء ليصير مع المسيح كالمسيح: «هؤلاء» ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم... بل (أسأل أن) تحفظهم من الشرير» (يو ١٧: ١٤ و١٥)، أما بعد العالم: «أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا.» (يو ١٧: ٢٤)

لقد أحكم المسيح طريقة الخلاص وثقّقها بالروح القدس وختمها بختم الآب، عندما وهب الذين يؤمنون به أن يصيروا أولاد الله ليكونوا في حمى القدير إلى الأبد: «أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه» (يو ١: ١٢)، «خزافي... لن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي.» (يو ١٠: ٢٧-٢٩)

وهكذا نقل الله الإنسان هذه النقلة الخلاصية العظمى، بدم ابنه، من عبودية العالم والخطية والشيطان إلى أولاده الأخصاء المحبوبين. وهكذا نقلهم من اللعنة الأولى إلى برّ الله الأبدي.

+ فبالميلاد من الماء والروح في إنجيل يوحنا تم للإنسان خلقة روحية جديدة، بها حصل الإنسان على شهادة ميلاد سماوي موثقة بالروح القدس ومختومة بختم الآب وعليها صورة الإبن.

+ وبالإفخارستيا - في إنجيل يوحنا - عَضِدَ المسيح الإنسان المولود من فوق - بخبز وخر - طعام السماء خبز الحياة، قوام الطبيعة الجديدة للإنسان الجديد. وهو في نفس الوقت (ترياق عدم الموت) عند الآباء antidote أي دواء عدم الموت. «هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت» (يو ٦: ٥٠). [يُعْطَى لمغفرة الخطايا وحياة أبدية لمن يتناول منه - القداس].

+ وتقنين العبادة في إنجيل يوحنا «بالروح والحق»: «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٢٤). هذا بمثابة سلاح المؤمن للخلاص للمحاربة ضد

الخطية باليمين واليسار.

+ والغلبة عند القديس يوحنا ضد العالم هي في سِرِّ الإيمان بالله: «لأن كل مَنْ وُلد من الله يغلب العالم، وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماناً، من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.» (١ يوه: ٤ و٥)

فالإيمان بابن الله هو تذكرة سفر محتومة عليها الختم الملكي نخرج بها من العالم غير مديونين له بشيء: «الذي يؤمن به لا يُدان.» (يو: ٣: ١٨)

+ في إنجيل يوحنا يقدم لنا المسيح نفسه نوراً للطريق كقوة داخلية بالكلمة الحية التي هي زاد الطريق، طريق الخلود المنير المؤدي إلى الحياة الأبدية.

+ وعند القديس يوحنا، كلُّنا خطاة تحت الإعراف: «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نُضَلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (١ يوه: ١ و٨ و٩)؛ «إن قلنا أننا لم نخطئ نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا» (١ يوه: ١٠)؛ «وادم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية.» (١ يوه: ٧)

فالإعتراف بالخطية عند القديس يوحنا هو التطهير الدائم.

+ وأخيراً يمنح إنجيل يوحنا الذين يعترفون باسم المسيح متقبّلين الإضطهاد والألم والموت، وسام الزمالة في آلام الصليب ومعه فيزا للإقامة الدائمة مع الرب وكرتاً أخضراً للمواطنة السماوية الدائمة:

— «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم... إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم... لكنهم إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي...» (يو: ١٥ و١٨ و٢٠ و٢١)
— «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا.» (يو: ١٧: ٢٤)

الفصل السادس المحبة والإتحاد بالآب والإبن

أ — المحبة في إنجيل يوحنا

المحبة ἡ ἀγάπη

فعل المحبة ἀγαπῶ, τὸ ἀγαπᾶν

فعل المحبة أو الصداقة φιλεῖν, τὸ φιλεῖν

المحبة، المحبوب، الحبيب:

هناك فرق بين «الأغابي» ἡ ἀγάπη و«الفيلين» τὸ φιλεῖν في اليونانية. فالمحبة «أغابي» هي محبة قوية، وفيها إحساس بالوقار والتعقل. و«الفيلين» هي محبة أقوى وأكثر تقرباً.

وقد وردت هاتان اللفظتان للمحبة في نهاية إنجيل يوحنا (٢١: ١٥ و١٧) حينما بادر المسيح بسؤال بطرس مرتين: «يا سمعان بن يونا أتجني ἀγαπᾶν أكثر من هؤلاء؟»، ولكن بطرس يصمم في ردّه أنه يحبه حباً أقوى وأكثر (من هؤلاء) (φιλεῖν).

وعاد المسيح لثالث مرة يسأله، ولكن باستخدام فعل المحبة الذي استخدمه بطرس نفسه φιλεῖν وكأنه يراجع على التماذي في التعبير عن حبه! وحينئذ حزن بطرس لأنه سأله ثلاث مرات وكأنه يُذكّره بالإنكار ثلاث مرات يوم المحاكمة!

ولكن يقول بعض الشراح أن العكس هو الصحيح حيث «الأغابي» أعلى قدراً في التعبير عن الفيلين. وأن ردّ القديس بطرس كان في انضاع إذ احتشم أن يستخدم الأغابي لعلوها عن قدره بالنسبة للمسيح. وهذا هو الأصح في نظر معظم علماء اللغة خصوصاً وأن إنجيل يوحنا قد أعلن أن «الله محبة» ἀγάπη (١ يوحنا: ٤: ٨)؛ وأن الله أحب (ἐγάπησεν من فعل: ἀγαπᾶν) العالم هكذا

(يو: ٣: ١٦) أي بهذا المقدار العالي جداً؛ وأن يوحنا نفسه هو التلميذ الذي كان يحبه (ἀγάπα) يسوع (يو: ١٣: ٢٣).

والحبة (الأغابي) في لاهوت إنجيل يوحنا هي حبة تلقائية غير واجبة أو ملزمة، أي موهوبة دائماً؛ وهي فريدة وهي خالقة أو خلّاقة، بمعنى أنها تخلق حبة أيضاً. وهي أصلاً تفيض من الله لأنها من طبيعته ثم لا تعود إليه فارغة، بل تعبّد طريقاً لحاملها للوصول إلى الله للإلتصاق به ونوال المزيد منه لمحبة الآخرين بسخاء يفوق طبيعة البشر، والتي بدورها تؤثر في أفسى القلوب. وهي إذا سكنت القلب أنشأت فيه الحيرة والقلق إلى أن تنجح في التعبير عن نفسها بالعمل. وهذه الطبيعة للمحبة مأخوذة عن الله نفسه، فحبة الله لم تستطع أن تغلق على نفسها فيه فانطلقت في ميعادها المحتم لتعبّر عن ذاتها في الله «هكذا أحب الله العالم حتى بذل...» (يو: ٣: ١٦)

كذلك هي التي في المسيح قد ساقته بقوتها التي لا تبدأ ولا تكفّ حتى أوصلته إلى الصليب لتكميل الفدية؛ بل هي التي أقامته من الموت إلى الحياة لأنها لا تعيش في الموت؛ بل هي ذاتها الحياة وجوهرها، والتي انطلقت من قيامته لتفيض قوة قيامة لكل من احتواها وملكها: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة» (١٤: ١٠). وهكذا فهي التي توصّل إلى الموت: «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو: ١٥: ١٣)، وهي نفسها التي تقيم من الموت إلى الحياة!!

ولكن ينبغي أن نحترس أثناء التفريق بين «الأغابي» و«الفيلين» لأن كلاً منها يتبادل المواقع محل الآخر في إنجيل يوحنا: فالآب يحب الإبن (ἀγαπᾷν) (يو: ٣: ٣٥)؛ وأيضاً الآب يحب الإبن (φιλεῖν) (يو: ٥: ٢٠)، مع الملاحظة أن الأغابي والفيلين هما الإثنان من أصل واحد عبري «أحب» «āhabh»، وكلاهما يُستخدم في الحالات الصالحة وفي الحالات الرديئة المنحطة ولا حكم لأدب اللغة فيها. فإنسان يحب الله (ἀγαπᾷν) (١٠: ٤: ٢١)، وإنسان آخر يحب الظلمة (ἀγαπᾷν) (يو: ٣: ١٩).

وإنجيل يوحنا بجملته يُطلق عليه إنجيل المحبة، وكاتبه هو التلميذ الذي يحبه يسوع أو يوحنا الحبيب حسب التقليد الكنسي الموروث، وآخر وصية قدمها القديس يوحنا لشعبه في كنيسة أفسس: «أيها الأولد أحبوا بعضكم بعضاً»، وأعمق آية كتبها القديس يوحنا في حياته هي «الله محبة».

القديس بولس الرسول يقدم المحبة على الإيمان في الوزن الروحي، ويقول إنه لو كان له إيمان

ينقل الجبال وليس له محبة فهو عديم النفع؛ وأنه لو كانت له معرفة كل الأسرار وكل علم ولكن بدون محبة فهو كلا شيء، ثم يعود القديس بولس الرسول ويصالح الإيمان بالمحبة ليجعل منها ناموس المسيح الجديد ليحل محل ناموس العمل بحسب ناموس موسى. «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغزلة بل الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥: ٦). وهكذا يؤثّر القديس بولس الرسول إنجيل المسيح من الإنحراف، فلا العمل وحده ولا الإيمان وحده ولا المحبة وحدها بل: «الإيمان العامل بالمحبة»!!! كثالوث متحد يجمع كل وصايا الإنجيل.

أما القديس يوحنا فعنده أن غياب المحبة يعني غياب الله لأن الله محبة. وأخطر ما يهدد المعرفة أو العلم هو فقدان عنصر المحبة الباذلة: «كل مَنْ يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله. ومَنْ لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة» (١ يوحنا: ٤ و٧). فأساس معرفة الله عند القديس يوحنا هو انفتاح القلب بوعي روعي لتقبّل محبة الله والرد عليها، على شكل تكليف بأعمال وإنجازات: «يا سمعان بن يونا أتُحِبُّني... اُنزِعْ غنمي». (١ يوحنا: ٢١: ١٦)

فالمحبة في الفكر الإلهي هي «فعل بذل». «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد...» (١ يوحنا: ٣: ١٦)، «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه». (١ يوحنا: ١٥: ١٣)

وهذا ترجمه القديس بولس الرسول لنفسه بشعور صادق مؤثّر للغاية: «أحِبُّني وأسلم نفسه لأجلي». (غل ٢: ٢٠)

ويصيفها المسيح في سر الألوهة هكذا: «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي...» (١ يوحنا: ١٧)

والله سبّاق محبة، صاحب مبادرة في الحب منذ الدهر وليس أحد في الوجود إلّا ومَدِينٌ لله بالمحبة: «نحن نَحِبُه لأنه هو أَحِبُّنا أولاً». (١ يوحنا: ٤: ١٩)

وأكثر ما يأسر قلب الإنسان حيناً يتوب ويعي حقيقة عمل الله معه هو إحساسه بالمحبة الإلهية التي اشتراه بها المسيح على الصليب. هذا السر يدركه الخطاة الذين غالوا جداً في خطاياهم وفاجأهم المسيح وهم في الوحل، حينئذ لا يهتأ قلبهم المشتعل والمثقل بدين الحب إلّا أن يقدّم المثل: «بهذا قد عرفنا المحبة، أن ذلك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة». (١ يوحنا: ٣: ١٦)

والقديس يوحنا، كخبير في الحب الإلهي، يعرف أن الحب هو «الحق» = $\eta \alpha \lambda \theta \epsilon \iota \alpha$ أليثيا

في التعامل مع الله. فحب الله ينبغي أن يؤمن عليه ضد كل غش أو خداع أو كذب: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل و،الحق،... ونسكن قلوبنا قدامه» (يو ١٨: ١٩).
وكان القديس يوحنا يريدنا أن نعتبر الله واقفاً أمامنا يفحص محبتنا على قياس الحق ويُلمزنا أن نقيس محبتنا على محبته!

والمسيح في إنجيل يوحنا يقرر أن دخولنا في محبة الآب يلغي عبوديتنا، باعتبار أن المقابل للعبد في إنجيل يوحنا ليس الإبن فقط بل والمحبوب! «لا أعود أسميكم عبداً... لكني قد سميتكم أحبباءً لأنني أغلمتكم بكل (الحب) ما سمعته من أبي.» (يو ١٥: ١٥)

ب — الإتحاد بالله

أو وحدة الشركة مع الآب والإبن في إنجيل القديس يوحنا

حينما قال المسيح: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠)، كان هذا تعبيراً ضمنياً عن قوة الوحدة الإلهية القائمة في الطبيعة الإلهية والفعالة في الكون كله، حتى أصبح الكون قائماً على تآلف العناصر وشدة اتحادها، خاصة في مكونات ذراتها. هذه الوحدة أو هذا الإتحاد البالغ منتهى القوة والإرتباط هي التي تعطي للعناصر أشكالها وألوانها وللطبيعة صفاتها ومظاهرها — ويكفي أن نعلم أنه حينما نجح الإنسان في فك وتحطيم هذا التآلف وهذه الوحدة الجبارة في «الذرة»، أنتج القنبلة الذرية، فإن كانت قوة الفك بهذا المقدار فإذا تكون قوة التجمع؟؟

ثم إن قوة هذه الوحدة القائمة في الذرة يرتقي مفعولها في الإنسان الطبيعي لتؤلف بين الإنسان والإنسان، ثم ترتقي لتؤلف بين الإنسان والله! فإن كان العالم الطبيعي قائماً ومتأسساً على قوة الوحدة أو الإتحاد أو التآلف، فالعالم الإنساني الأكثر ارتقاءً لا يزال أيضاً يقوم ويتأسس على قوة هذه الوحدة التي تؤلف بين الأفكار والعواطف والعادات والقلوب. كذلك فالعالم الروحي الأكثر ارتقاءً هو يقوم أيضاً ويتأسس على قوة هذه الوحدة المنبعثة من الله، وهي لا تزال تعمل في الإنسان حتى يبلغ الإنسان منتهى قصد الله من نحوه أي حينما يدخل الإنسان في شركة الحياة مع الله، حيث يكون الله صاحب المبادرة في هذا الجذب والتهديب والتقديس لبلوغ هذه الوحدة فيه أو معه، هذه الوحدة التي كانت عند المسيح محور عمله، وأساس إرساليته، ومنتهى رجائه، وصلواته! «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فتي وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني.» (يو ١٧: ٢١)

لينتبه القارىء! فليس من فراغ نحن نطلب الإتحاد مع الله أو هو تعالٍ أو طلبٌ ليس من حقنا بل هذا هو عمل الله بالأساس، وهو قد صار من صميم حق الإنسان حينما فداه المسيح وقَدَّسه وأَهَّلَه للإتحاد به. فالوحدة، أو الإتحاد مع الله، هي جوهر رسالة المسيح ومحور تعليمه وعلَّة موته ورجاء قيامته ومشغولية شفاعته الآن لدى الآب عن ضعفنا.

اسمع القديس يوحنا كيف يبدأ رسائله بهذا الهدف الواحد والقصد الأساسي وعلَّة شهادته وغاية كرازته: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا (مع الرسل)، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا (الخبر السار) لكي يكون فرحكم كاملاً» (١ يوحنا: ١ و٣). وهكذا لن يكمل فرح الإنسان ويدوم له إلا إذا بلغ هذه الشركة التي بلغها الرسل وعاشوها وكرزوا بها! بل هي أيضاً تأمين حفظ الإنسان من جذب العالم الشديد وإغراء الشيطان المحتال. لأن بها يمسك الإنسان بالله، بل ويمسك الله بالإنسان فلا يستطيع أن يخطفه أحد: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية (من حياتي) ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل (كل قوة شريرة) ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد.» (يوحنا: ٢٧-٣٠)

القديس بولس الرسول يرى أن سرَّ الإتحاد بينه وبين الآب والإبن هو المستعلن بالحب — حب الله الجاذب — الذي لا تقوى على حلِّ رباطه أية قوة مهما بلغ عتوها في السماء والأرض: «مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدَّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُزِّي أم خطر أم سيف؟ ... في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا! فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلية ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا.» (روما: ٣٥-٣٩)

هكذا يوضح القديس بولس الرسول، كما القديس يوحنا الرسول أيضاً، أن سرَّ قوة الإتحاد أو الوحدة مع الله قادم إلينا ومنسكب علينا وفَعَّال فينا من قِبَلِ الله نفسه. فالحب هو حب الآب في المسيح نحونا: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتي به» (يوحنا: ١٧: ٢٦)، فهو حب غالب وقَهَّار.

ثم لكي نشبت للقارىء أن هذه الوحدة التي نبتغيها أي الإتحاد مع الآب والإبن هي عمل المسيح وشغله الشاغل نقدم هذه الآيات المختارة:

- «كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا اثبتوا في محبتي.» (يوحنا: ١٥: ٩)
- «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي كما أني أنا حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته.»

(يو ١٥ : ١٠)

— « كل ما للآب هو لي لهذا قلت إنه (أي إن الروح القدس) يأخذ مما لي ويخبركم. »

(يو ١٦ : ١٥)

— « الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت. » (يو ١٦ :

٢٧)

— « الكلام الذي أعطيتني، قد أعطيتهم. » (يو ١٧ : ٨)

— « كل ما هو لي فهو لك. وما هو لك فهو لي وأنا مجد فيهم. » (يو ١٧ : ١٠)

— « أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن. »

(يو ١٧ : ١١)

— « لست أسأل من أجل هؤلاء (التلاميذ) فقط بل من أجل كل الذين يؤمنون بي بكلامهم،

ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا. »

(يو ١٧ : ٢٠ و ٢١)

— « وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد. » (يو ١٧ : ٢٢)

— « أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكتملين إلي واحد. » (يو ١٧ : ٢٣)

ربما يقتنع القارئ الآن أن الإتحاد بالله أو شركة الوحدة مع الآب والإبن هي محور إنجيل يوحنا وقضية الخلاص والحياة الأبدية التي جاء المسيح ليعلمها باسم الآب. وآخر آية استشهدنا بها «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكتملين إلي واحد» هي خلاصة هذا السر الخطير الذي استعلنه إنجيل يوحنا للعالم، أي أن الجوهر الإلهي الذي يجمع الآب بالإبن في ذات واحدة هو هو القوة التي تجمعنا فيها بالنعمة. وهو نفسه السر المكتوم منذ الدهور الذي أُعلنَ لرسله القديسين بالروح حسب قول القديس بولس الرسول: «إنه بإعلان عرفني بالسر... الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدر أن تفهموا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيال أخر لم يُعرف به بنو البشر كما أعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاء في الميراث (ميراث المسيح الإبن في الآب) والجسد (جسد المسيح الواحد ونحن أعضاء فيه) ونوال مواعده (الحياة الأبدية مع الله) في المسيح بالإنجيل. » (أف ٣ : ٣-٦)

والإنسان — أنا وأنت وكل من يؤمن ويحب الرب يسوع المسيح — مدعو في هذا السر المعلن بالمسيح والقائم في المسيح لحسابنا، لكي يكون شريكاً في مجد المسيح وفي المحبة الإلهية التي هي صفة الوحدة ومجالها الفعال في الآب بالإبن. فجوهر الوحدة الإلهية وقوة الحب الإلهي المذخر في الآب والإبن أصبحت فعالة فينا بالمسيح.

اما مجمل صلاة المسيح للآب فيما يختص بهذه الوحدة التي تجمعنا في المسيح والآب فهي كالآتي :

أ - أن تفتح بصيرة الإنسان ليعرف هذا السر القائم بين الآب والإبن، لأنه هذه المعرفة الإلهية تورث الحياة الأبدية التي هي في حقيقتها شركة حياة مع الله .

ب - أن تنسكب قوة المحبة التي بين الآب والإبن في قلوب الذين أحبوا المسيح والآب لتستعلن بها أسس الوحدة أو الشركة مع الله .

ج - أن يحفظ الآب في اسمه كل الذين يؤمنون بالمسيح . أي يحفظهم من العالم ومن الشرير ويقدمهم في الحق بكلمته ليصيروا من خاصته ويؤهلوا للإتحاد به .

د - أن تشمل المؤمنين باسم الآب والمسيح وحدة داخلية تربطهم بالآب والإبن، على أساس أن حلول المسيح فيهم يؤهلهم للإتحاد بالآب كما أن الآب حائل في المسيح . وبهذا ينتقل الإنسان نقلته العظمى ليعيش مع الله في وحدة غير منفصلة بعد .

على أن لا ننسى أن سر إتحاد الإنسان بالله قائم أساساً على القوة الإلهية التي جعلت «الكلمة صار جسداً» . فإتحاد اللاهوت بالناسوت في وحدة غير منفصلة هو الذي صار أساس الإتحاد في الإتجاه العكسي، أي إتحاد الإنسان بالله . غير أن الأول إن كان تنازلاً إلهياً لم يفقد فيه الإبن شيئاً من لاهوته، فالثاني إرتقاءً بشري يتحتم أن يفقد فيه الإنسان العبد إنسانه العتيق لينال امتياز التبني لله !

الباب الرابع
المفاهيم اللاهوتية الأساسية
في إنجيل القديس يوحنا

الفصل الأول النظرة اللاهوتية إلى المسيح وعلاقته بالله الآب

ألقاب المسيح كما جاءت في الأصحاح الأول وما بعد ذلك:
إذا تمعنا في الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا فإننا ندهش من عدد الألقاب التي وضعها
القديس يوحنا في هذا الحيز الصغير من الإنجيل. ولكن إذا أدخلنا في الاعتبار الإتجاه المسيحي
واللاهوتي الذي هو مقصد الإنجيل الأساسي، وفحصناها من جهة ترتيبها وصلتها ببعض وخلفيتها،
حينئذ نزداد عجباً من عمق هذا الإنجيل.

وهي كما جاءت وبحسب ترتيبها كالاتي مرقمة بالأعداد في الأصحاح الأول:

| | |
|--|---------------------|
| «الكلمة» | في الأعداد ١ و١٤. |
| «إله» | في العدد ١. |
| «الحياة والنور» | في الأعداد ٤ و٥ و٩. |
| «الوحيد» $\delta \mu\omega\nu\omicron\gamma\epsilon\nu\eta\varsigma$ | في الأعداد ١٤ و١٨. |
| «الإبن الوحيد» | في العدد ١٨. |
| «حَمَل الله» | في الأعداد ٢٩ و٣٦. |
| «ابن الله» | في الأعداد ٣٤ و٤٩. |
| «المسيح» | في العدد ٤١. |
| «ملك إسرائيل» | في العدد ٤٩. |
| «ابن الإنسان» | في العدد ٥١. |

وبالإضافة إلى هذه الألقاب يوجد أوصاف أخرى يمكن إلى حد ما اعتبارها ألقاباً، وفي نفس

الوقت هي تشير إلى وظيفة من وظائف المسيا الهامة، مثل:

«الذي يأتي بعدي» في الأعداد ١٥ و ٢٧ و ٣٠.

«الذي هو قبل المعمدان» في الأعداد ١٥ و ٣٠.

«الذي هو في حزن الآب» في العدد ١٨.

«الذي يعمّد بالروح القدس» في العدد ٣٣.

أما بقية الألقاب والصفات التي تقوم بوظيفة لاهوتية أو ليتورجية والتي تُحسب أيضاً كلقب في باقي الإنجيل وقد وردت معانيها في مواضعها في الشرح، فيمكن تلخيصها كالآتي:

| | | |
|--------------------------|-------------------|---|
| «المعلم والسيد» | في يو ١٣: ١٣ | لقب تأكيدي من فم المسيح نفسه. |
| «ربي وإلهي» | في يو ٢٠: ٢٨ | اعتراف استعلاني بالروح من توما. |
| «مخلص العالم» | في يو ٤: ٤٢ | اعتراف أهل السامرة وهو اعتراف عام هام. |
| «المسيح ابن الله الحي» | في يو ٦: ٦٩ | لقب مسياني خالٍ من المعنى السياسي أو المادي. |
| «إني أنا هو εγω ειμι» | في يو ٨: ٢٤ | ومواضع أخرى كثيرة إشارة إلى لاهوته وبنوته لله. |
| «الإبن» | في يو ٥: ١٩ | أي أنه الإبن، وأن الله أبوه، وأنه كائن قبل إبراهيم. |
| «خبز الحياة» | في يو ٦: ٣٤ و ٤٨ | لقب ليتورجي وروحي. |
| «الخبز النازل من السماء» | في يو ٦: ٥١ | لقب ليتورجي استعلاني للمنّ في العهد القديم. |
| «نور العالم» | في يو ٨: ١٢ | لقب استعلاني. |
| «الراعي الصالح» | في يو ١٠: ١١ و ١٤ | لقب كنسي. |
| «الباب» | في يو ١٠: ٧ | لقب لاهوتي خلاصي. |
| «الطريق» | في يو ١٤: ٦ | لقب لاهوتي خلاصي. |
| «القيامة والحياة» | في يو ١١: ٢٥ | لقب أخروي «إسكاتولوجي». |
| «الكرمة الحقيقية» | في يو ١٥: ١ | لقب سرانري يجعل شكل الكنيسة، وواقعها وشعب الله والمسيح. |

ولكن بالعودة إلى ألقاب الأصحاح الأول نجد أنه ليس جزافاً أهتم القديس يوحنا أن يكسّر هذه الألقاب في هذه المقدمة لإنجيله، فهي تكشف عن غرض ذي أهمية، ويكاد أن يكون لكل لقب سبب في موضعه. ففي آية: «في البدء كان ،، الكلمة،،» يفيد موضع لقب «الكلمة» سبق

الوجود والكيان للترفعُ بالمسيح عن مستوى المخلوقات؛ «والكلمة كان عند الله» يفيد موضعها نسبة المسيح لله، لأنه إذا لم يكن ينتسب إلى المخلوقات فلمن ينتسب؟ — ثم «وكان الكلمة الله» يفيد موضعها طبيعته. فإذا كان الكلمة ينتسب إلى الله فما هي طبيعته؟ لذلك فإن ورود «الكلمة»، كلقب للمسيح في الثلاثة المواضع يفيد التعريف بالمسيح قبل التجسد. ولكن ماذا كان عمله؟ هنا يستعلن الإنجيل علاقة «الكلمة» بالخلق، حيث يكشف عن جوهر الكلمة الفعّال في الخليقة «حياة ونور». ثم ينتقل من سبق الوجود إلى الوجود الظاهري: «والكلمة صار جسداً»، فهنا يكتمل استعلان «الكلمة» بالنسبة للإنسان «حلّ بيننا».

+ الوحيد ὁ μονογενής (١:١٤):

جاءت هنا للتوضيح بسبب ذكر «المجد» الخاص بالمسيح «الكلمة المتجسد»، فلأن كل الخلائق السماوية ذات مجد هنا أراد القديس يوحنا أن يخص «الكلمة المتجسد» بمجد خاص جداً ومرتفع للغاية فهو مجد «وحيد من الآب» حيث تترجم صفة «وحيد» في التراث العبري بالإبن أو بالمحبوب ἀγαπητός سواءً بسواء، أو حتى تفيد الإبن المحبوب. هكذا وردت في الترجمة السبعينية: «تُخذ ابنتك حبيبك τὸν ἀγαπητόν (مقابل «وحيدك» في الأصل العبري) الذي تحبه» (تك ٢٢:٢). فللقب «الوحيد» جاء هنا في هذا الموضع للتفريق والتمييز بينه وبين كافة الممجدات السماوية: «ورأينا مجده مجد,, وحيد,, من الآب»، فهو مجد خاص بالله استعلن في الكلمة لما تجسد!! حيث حرف «من» παρά في «من الآب» يُفضّل أن يضاف إلى «المجد» وليس إلى «الوحيد». أي «وحيد بمجد الآب» أو «وحيد بمجد من الآب»، لأن في هذا الموضع لم يتعرض الإنجيل بعد للعلاقة اللاهوتية بين الآب والإبن. وتؤكد ذلك هذه الآية: «أياها الآب أريد أنّ هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي، الذي أعطيتني، لأنك أحببتني، قبل إنشاء العالم» (يو ١٧:٢٤). ويتفق في هذا الشرح القديس كيرلس الكبير وكثير من العلماء المحدثين.

الإبن الوحيد ὁ μονογενής υἱός (١:١٨):

هنا يدخل القديس يوحنا في صميم العلاقة الداخلية في الله، حيث أن الله لم يَرَهُ أحد قط، ولكن هنا يظهر «الكلمة المتجسد» أنه لا يزال يحتفظ بكل مخصصاته في الله قبل التجسد ككلمة الله فهو الوحيد الذي رأى وخبّر عن الله في ذاته «وما رآه وسمعه، به يشهد... ومن قبل شهادته فقد حتم أن الله صادق» (يو ٣٢:٣٣)، حيث هنا في هذا الموضع يكون لقب «الإبن الوحيد» هو بقصد الإعلان عن ملء لاهوت الكلمة المتجسد على الأرض ليبدأ شهادته عن الله وقدرته الفريدة على استعلان حقائق الله. لذلك يُعتبر هذا اللقب بمثابة مُفصلٍ يربط المقدمة بجسم الإنجيل

أو يربط الكلمة قبل التجسد بالكلمة بعد التجسد. أما هذا اللقب بصفته العمومية على مستوى الإنجيل كله فهو، بحسب وظيفته إنجيل يوحنا اللاهوتية في تخصصه في استعلان طبيعة الآب السماوي، يركّز في توضيح طبيعة الإبن فيذكره بصفة «الوحيد» «المونوجانيس»، ويخصص لها في الإنجيل أربعة مواضع ومرة أخرى في رسالته (يو: ١٤ و ١٨، ٣: ١٦ و ١٨؛ ١٠: ٤٠: ٩).

وهو إن كان قد ذكرها في الأصحاح الأول مرتين، فهذا لكي يوضح مدى الأهمية والتأكيد المزمع به أن يلقي عليه الضوء في الإنجيل.

وتأكيد على صفة «الوحيد» هو لكي يؤمّن مفهومها ضد ما يمكن أن يتطرق إلى لقب الإبن من مفهومات تأملية هللينية أو مجازية فلسفية، فهو يقصد أنه ابن فريد من نوعه أو كما يُترجم «وحيد الجنس». فهي بُنُوّة فريدة من نوعها لا تُقارَن قط بأي مفهوم آخر للبنُوّة، وهي صفة جاءت بالدرجة الأولى لتخدم استعلان «الآب» باحتياط بالغ الحساسية لأنها تخص نفس القضية اللاهوتية التي انشغل بها المسيح جداً لترسيخ مفهوم «الوحدة مع الآب» القائمة على جوهر الحب «الذاتي» في طبيعة الله: «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو: ٣: ٣٥)

وقد بلغ التأكيد في وحدة الإبن مع الآب أن قال المسيح لليهود: «أنا والآب واحد» (يو: ١٠: ٣٠)، وهذا أمر مربع ومرعب بالنسبة لليهود إذ عبّر عن وجهة نظرهم عن تجديف وتحرّر من سلطان الله المطلق. وهذا قاله الرب في أمر شفاء المقعد مريض بيت حسدا يوم السبت، إذ كيف يُشفي يوم السبت؟ فلما أرادوا أن يقتلوه لأنه عمل هذا في سبت أجابهم يسوع: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو: ١٧: ١٧)، «معادلاً نفسه بالله» (يو: ١٨: ١٨) حسب قول اليهود: «فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الإبن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذلك فهذا يعمله الإبن كذلك.» (يو: ١٩: ١٩)

ويعلّق على هذا الحوار أحد مشاهير علماء التلمود وهو الدكتور إزرائيل إبراهيمز أن هذا الإنجيل (إنجيل يوحنا) يحتفظ لنا بمجوار أصيل (حسب الأصول التلمودية للربيين) نابع من تقليد أصيل لم يرّد قط في الأناجيل الأخرى في ناحية من تعاليم يسوع^(١).

وهكذا يؤكّد المسيح أنه لم يعادل نفسه بالله بمعنى التحرر من سلطان الله، وهو لا يدّعي لنفسه سلطاناً منفصلاً عن الله أبيه، بل يؤكّد أنه يستمد سلطانه من سلطان الله معلناً أنه ليس ثائراً على

¹ Cambridge Bib. Essays p. 181; In Studies in Pharisaism.

سلطان الله ولا مجدّفاً، بل هو ابن طائع للآب عن وحدة مشيئة وإرادةٍ وحبٍّ وعملٍ، وكلُّ ما يعملُه فهو بآبٍ مطلق مع الآب. فالآب والإبن لا يمثلان وجودين إلهيين منفصلين، بل: «أنا والآب واحد». هذا كله ينطوي تحت اللقب «الوحيد»، فهو ابن وحيد الجنس مع الآب: فكلمة «مونوجانيس» تخص الآب كما تخص الإبن. فقول القديس يوحنا أن «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو: ١٨: ١)، يقصد بها أن هذا المؤهل الفريد والصلة الفريدة التي تربطه بالآب هي التي أعطته الحق، كل الحق، أن يخبّر عن الله بما رآه وسمعه!!

«حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (١: ٢٩ و٣٦):

لقب أضفاه يوحنا المعمدان على المسيح، وهو لقب فضحي بالدرجة الأولى، ذبائحي وليتورجي. ولكن المشكلة التي واجهت العلماء: كيف بلغ المعمدان إلى هذا التقرير، وما هو تفسيره؟ فنعتقد أنه واضح غاية الوضوح، فالمعمدان وهو يعلم أنه يفتتح العهد الجديد وأنه يمثل آخر أنبياء العهد القديم: «ينبغي أن ذلك يزيد (يصير الكل) وأني أنا أنقص» (يو: ٣٠: ٣)، فهو يقدم المسيح كفصح العهد الجديد لا كحمل يُذبح كل سنة أو كل صباح، ولكنه «حمل الله» الذي يرفع «الخطية» جملة وتفصيلاً. فالمعمدان بقوله هذا يسدل الستار على عهد الذبائح، ويختتم على زمان النبوة والأنبياء ويسلم الشهادة لصاحبها، ولأن الشمس أشرقت فينبغي أن يُطفأ المصباح.

ويلاحظ أن المعمدان لا يقول «الحمل» فقط، بل «حمل الله»، فالله وجد في المسيح خروفه: «وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي. فقال هأنذا يا ابني. فقال هوذا النار والخطب، ولكن أين الخروف للمحرقة. فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني.» (تك ٢٢: ٧ و٨)

فقول المعمدان «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» صار هو اللقب الذي افتتح به إنجيل يوحنا رسالة المسيح الخلاصية أو بالحري درب الصليب! والمسيح هنا يظهر بمظهر العبد المتألم الطائع، والخروف المعد للذبيحة من قبل إنشاء العالم معاً!

+ «ابن الله» كما جاء في الأوصاح الأول (١: ٣٤ و٤٩):

وهو اللقب الثاني الذي أضفاه المعمدان على المسيح (يو: ١: ٣٤). والعجيب أن تأتي بعض المخطوطات (قراءة القديس أمبروسيوس) بهذا اللقب كالاتي: «الإبن المختار» أو «مختار الله» (٢). وهو نص اللقب الوارد عن المسيح بوضوح شديد في الزمور ٨٠: «يا إله الجنود ارجعن اطلّعي من السماء، وانظر وتعهد هذه الكرمة والغرس الذي غرسته بينك والإبن الذي اخترته لنفسك.» (مز ٨٠: ١٤ و١٥)

² Schnackenburg, According to St. John, p. 305.

ونفس اللقب «الإبن المختار» هو الذي ورد أيضاً في نبوة إشعياء النبي (إش ٤٢ : ١-٤)، كما استشهد بها القديس متى الرسول في إنجيله: «هوذا فتاي الذي اخترته حبيبي الذي سُرَّت به نفسي، أضع روجي عليه فيخبر الأمم بالحق.» (مت ١٢: ١٨)

ويلاحظ أن هذا اللقب الذي أعطاه المعمدان للمسيح كما أعطاه أيضاً نثنائيل له، هو إعلان له رنة مسيانية. فعروف أن المسيا سيأتي كواحد مثل موسى، أي كإبن من أبناء إسرائيل، ولكن أمام الواقع الإستعلاني والعين والبصيرة المفتوحتين، رأى المعمدان بالرؤية كما رأى نثنائيل بالإيمان، أن هذا هو المسيا ولكن ليس كإبن إسرائيل بل «إبن الله». فاللقب مُتَّسَب من الفكر المسياني. فهو في فم المعمدان إعلان عن المسيا الحقيقي، وفي فم نثنائيل إيمان بالمسيا وشهادة.

+ «المسيا» كما جاء في الأصحاح الأول (٤١: ١):

اللقب الذي أعطاه أندراوس للمسيح «وجدنا مسيا الذي تفسيره المسيح» (يو: ٤١)، وهو لقب تحت البحث والفحص والدراسة:

«وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة» (يو: ٤٥). وطالما بقي هو «يسوع بن يوسف» فهو لا يزال «مسيا» اليهود الذي يطلبه اليهود ليخلصهم من الرومان. وهو لا يزال يحتاج أن يرتفع إلى «يسوع ابن الله».

+ «ملك إسرائيل» (٤٩: ١):

هذا اللقب جاء على شفقي نثنائيل كرد حاسم وسريع للقب الذي منحه المسيح لنثنائيل «هذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه.» (يو: ٤٧)

وهنا تحط مجموعة الألقاب السالفة في الأصحاح الأول عند مرحلتها الختامية، حيث اللقب المشتهى في نبوة إشعياء: «هكذا يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود. أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري» (إش ٤٤: ٦). الذي يعود نثنائيل ويستعلن اللقب على مستوى المسيح الواقف أمامه: «أنت ابن الله».

+ «ابن الإنسان» كما جاء في الأصحاح الأول (٥١: ١):

أول لقب يعطيه المسيح لنفسه (يو: ٥١) في إنجيل يوحنا، وفي الأصحاح الأول! ليرفع به الغطاء عن إرساليته ويفتح به إنجيل أعماله، باعتباره السلم المنصوب بين الأرض والسماء. فإن الإنسان جاء ليجعل الأرض تتصل بالسماء، ويجعل الإنسان يرى السماء مفتوحة، والملائكة تنزل أولاً حاملة رسالة وبشرى وخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص، بعد أن كانت تطلع أولاً في حلم

يعقوب تحمل أخبار أحزان الإنسان (تك ٢٨: ١٢).

واللقب «ابن الإنسان»، بالنسبة لسلم السماء وحلم يعقوب إسرائيل، يحمل إشارة صريحة أن المسيح هو «إسرائيل الجديد»، أي أن لقب ابن الإنسان يحمل في طياته معنى ناس أو شعب الله المفدي في العهد الجديد. وقد اختاره المسيح بصفة ممتازة لأنه يخلو من الإحساس بالإنتماء إلى أي أمة أو شعب، كما يتناسب مع رسالة حمل «ضَعْفِ» الإنسان وأحزانه، فحينما يسمع أيُّ إنسان هذا اللقب يشعر بانتماء المسيح إليه، كما يسمعه المحزون والضعيف الرازح تحت ثقل الضعف البشري فيشعر بانتمائه إلى المسيح؛ أليس هو ابن الإنسان!!؟

وهذا اللقب جعله إنجيل القديس يوحنا ختام الأصحاح الأول، وهو أصحاح التعريف بالمسيح على مستوى العالم كله وعلى مستوى الأنشودة!!

المعنى اللاهوتي لألقاب المسيح في إنجيل يوحنا

١ - الكلمة. اللوغس λόγος

في إنجيل يوحنا

لماذا اللوغس في إنجيل يوحنا:

لقد اهتم القديس يوحنا أن يذكر علاقة اللوغس الكلمة بالله في الأزل لندرك أزية علاقة المسيح بالله.

واعنتى أن يذكر عمل الكلمة في الخلق المادي لكي ندرك أن الخليقة الجديدة الروحية التي أكملها المسيح هي تكميل متناسق مع عمله الأول.

كذلك أيضاً فالقديس يوحنا بدأ إنجيله بتوضيح اللوغس وعلاقته بالله وصفاته الإلهية قبل التجسد ليكون هو أساس معرفتنا له بعد التجسد بعد أن صار هو يسوع المسيح. فالذي عمله القديس يوحنا هو أنه استعلن سيرة الرب يسوع في السموات عند الله في الأزل حتى لا نتوه في سيرته المتواضعة على الأرض وحتى لا تصبح بشريته المهانة عثرة لإيماننا كما أنذر هو بنفسه: «وطوى لمن لا يعترفني» (مت ١١: ٦). لذلك، فنحن حينما نؤمن باللوغس في وضعه قبل التجسد يكون ذلك في الواقع هو كمال إيماننا الصحيح بالمسيح، لذلك كان اعتناء القديس يوحنا أن يستهل إنجيله بهذه السيرة الإلهية للمسيح قبل التجسد.

اكتشاف اللوغس في داخل إنجيل يوحنا:

ولكن حينما نركّز الفكر في سيرة المسيح التي نعيشها معه في إنجيل القديس يوحنا لا ندرك لأول وهلة أنه «كلمة الله»، ولكن الذي ندركه عن إيمان ويقين أنه هو «الله المتكلم». فإذا زحزحنا هذا المنطوق ناحية الفكر المطلق يكون هو «الله الكلمة». فنحن عرفنا من المسيح نفسه أنه قبل إبراهيم كان كائناً، وبالتالي فهو كذلك قبل آدم بل والخليقة كلها، في البدء في الأزل، إذن فهو

لذلك فإذا عكسنا الوضع يكون أننا حينما نؤمن بالمسيح من واقع كينونته الأزلية التي أعلنها صراحة في الإنجيل، فنحن نؤمن باللوعس الأزلي. لأن اللوعس عُرف فقط لما تجسد، إذ أن صفات المسيح الإلهية تشير إليه بقوة لا تجازى! فإذا قد علمنا أن في المسيح يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، فإننا نعرف في الحال والتوأن اللوعس قبل التجسد كان هو «ملء اللاهوت» (كو ٢: ٩) دون جسد! ولما تجسد رأينا أنه مملوء نعمة وحقاً (يو ١٧: ١٧). ومن هذا نعرف بكل يقين أنه قبل التجسد، أي وهو اللوعس الأزلي، كان مملوءاً نعمة وحقاً.

ثم إن معاملات المسيح تجاه الإنسان عامة والخاصة والمطلوم خاصة وتجاه العالم بالتالي، تكشف لنا بكل وضوح واستعلان عن علاقة اللوعس الأساسية تجاه العالم والإنسان وقضية خطية الإنسان وبؤسه وشقائه في الجسد منذ البدء!

لذلك فمن السهل أن نلمح في قصد اللوعس الأزلي نيّة التجسد وأنه كان بالفعل متجهاً إلى هذه الغاية على مدى كل العصور السالفة كلها، إنما بتدرج بطيء للغاية يفوت على قدرة الإنسان في الملاحظة، فهو تدرج استعلافي قدّمه القديس يوحنا باختصار شديد، ولكن غير ملحوظ بسبب كفاءة فكر الإنسان المحدود. ولكن الحقيقة أنه كان متجهاً نحو الإنسان بصفته النور الذي يضيء الظلمة حاملاً في البدء ليس جسد البشرية بل همّها، واضعاً في النيّة والقصد حمل هذا الثقل عينه أخيراً، أي الجسد الإنساني، ليحرره من ظلمة الخطية والشقاء والموت، إلى أن أكمل التجسد وصار «ابن الإنسان» نور العالم!

ونحن لا نتجه إلى شرح لوعس إنجيل يوحنا مبتدئين باللوعس الذي في العالم وهو لوعس الفلاسفة يهوداً كانوا أو يونانيين، ولكن نحن لا نعرف اللوعس إلا في يسوع المسيح وفي يسوع المسيح نستعلنه. فلا العالم ولا حتى المصنوعات الباهرة في العالم التي تنطق بلاهوت صانعها توصلنا إلى معرفة الله والحياة الأبدية والخلاص المعدّ للإنسان. ولكن الذي عرفناه بيقين المعرفة هو أن يسوع المسيح وحده هو الذي يعرفنا بالله أبيه وبالحياة الأبدية والخلاص. والذي يعرف الله في المسيح يسوع يدرك من هو اللوعس الذي به صنع الله العالمين!

إن سرّ ملء اللاهوت في المسيح بكل ما يحيطه من مفهوم فيما يخص قيام هذا اللاهوت قياماً ذاتياً وشخصياً في المسيح كأقنوم على مستوى أقنوم الآب ولكن متحداً به، إنما هو حقيقة اللوعس!!

هذا اللاهوت الذي في المسيح الكامل والمساوي للآب، الكائن في المسيح قبل كون العالم

والذي به خلق العالم والذي كانت فيه الحياة والنور الإلهي اللذين دخلا في تكوين خلقة الإنسان، هذا اللاهوت - لاهوت المسيح - هو اللوغس الأزلي.

وإن سر ملء اللاهوت في المسيح وحقيقة وجود الكلمة اللوغس الأزلي تكشفه هذه الآية الواحدة: «والكلمة صار جسداً» (يو: ١٤: ١٤). فهي التي ربطت بل استعلنت الوجودين وجود المسيح فيما قبل التجسد في شخص اللوغس ووجود اللوغس في الجسد في شخص يسوع المسيح. لذلك كان من الطبيعي بل من الحق أن نعرف اللوغس في المسيح ومن المسيح، لأنه هو الذي أخبرنا عمّا كان قبل تجسده حينما كان في حضن الآب كابن وحينما خرج من حضن الآب خالقاً ثم مخلصاً لِمَا خلق.

ونستطيع أن نقول بحسب فكر القديس يوحنا إن أعظم آية عملها المسيح في حياته الممتدة في الأزلية هي تجسده، حيث صار اللوغس الحامل لكل أسرار الله والخليقة وكل فكر الله الأزلي جسداً. لأن بهذه الآية المنظورة استعلن لنا المسيح كل أسرار الله وفكره منذ الأزل من ناحية خلقة العالم وخلاص الإنسان فأخذ العالم معناه الجديد «هكذا أحب الله العالم» (يو: ٣: ١٦) - وعرف الإنسان مكانه من الله - «أنا فيهم وأنت فيّ.» (يو: ١٧: ٢٣)

من أين أتى القديس يوحنا بكلمة «اللوغس»:

القديس يوحنا قبل أن يكتب عن الكلمة - اللوغس - في الأزلية كان قد ملأ قلبه وفكره من الرب يسوع فأدرك فيه كل غنى «كلمة الله» وقوتها وكل حكمة الله وفهمه، بل قاس وتحقق من كل وعود الله وتحققها. لقد أدرك فيه، ليس اللوغس - كلمة الله - وحده، بل وعظمة يهوه «أنا هو». وابتهج قلبه كابتهاج قلب العذراء بالله مخلصها. لقد استعلن المسيح ذاته ليوحنا عن قرب، فأدرك يوحنا أنه هو الله متجسداً وأدرك سر أقنومه كابن قائم في حضن الآب. رأى قيامته من خلف صليبه، فأدرك فيه الألف والياء، البداية والنهاية، أدرك فيه اللوغس في البدء، وابن الإنسان جالساً عن يمين العظمة في السموات. لما يتكلم القديس يوحنا عن اللوغس فإن نظره لا يغيب عن المسيح ولا لحظة واحدة، ولما كان يصف أعمال المسيح وأقواله كان اللوغس حاضراً في ذهنه لا يفارقه.

حينما بدأ القديس يوحنا يشخص في اللوغس الأزلي في البدء، كان نور المسيح الذي يملأ ذهنه والمالء للعالم حاضراً. ولما رأى الحياة النيرة للناس في اللوغس كانت عينه قد امتلأت واستنارت مسبقاً بالحياة الأبدية التي كانت في الآب واستعلنت في المسيح. وحينما قال عن اللوغس أن فيه كانت الحياة، كان كلام المسيح يرنُّ في قلبه: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو: ٦٣: ٦٣)، بل وأيضاً كلمات القديس بطرس: «إلى من نذهب. كلام الحياة الأبدية عندك»

(يو:٦٨:٦٨). وعندما قال: «والحياة كانت نور الناس» (يو:٤:٤) كان يشير إلى قول المسيح:
«من يتبعني فلا يمسي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو:٨:١٢)

المسيح يعلن أنه هو الكلمة «اللوغُس»:

ولكن وإن لم يذكر إنجيل يوحنا الكلمة – اللوغُس – في غير المقدمة بصريح اللفظ أنه
«الكلمة» أو كلمة الله، إلا أننا بالفحص المتأنّي نستشف من كل حديث للمسيح عن نفسه أنه
هو كلمة الله بلا أي عناء:

«أتكلم بهذا كما علمني أبي» (يو:٨:٢٨)؛

«أنا أتكلم بما رأيته عند أبي» (يو:٨:٣٨)؛

«لأنني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا

أتكلم» (يو:١٢:٤٩)؛

«فأأتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم» (يو:١٢:٥٠)؛

«الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحالّ فيّ هو يعمل

الأعمال» (يو:١٤:١٠)؛

«لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم وهم قبلوا وعلموا يقيناً أنني خرجت من عندك

وآمنوا أنك أنت أرسلتني» (يو:١٧:٨)؛

«أنا قد أعطيتهم كلامك.» (يو:١٧:١٤)

وعلى ذلك نطبق ونقول إن المسيح كان ينطق «بالكلمة» اللوغُس التي أعطاها له الله
فأعطاها هو للناس لتعمل عملها في الخلق والتجديد. ولكن معروف أن المسيح لما كان يتكلم
كان يتكلم بالحق، أو يتكلم الحق $\alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$ لا لأنه تعلم الحق بل لأنه هو الحق ذاته
 $\eta\ \alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$: «أنا هو... الحق» (يو:١٤:١٦)، تماماً كما نقول أنه كان يعطي الحياة لأنه هو
الحياة: «أنا هو... الحياة» (يو:١٤:١٦). إذن، فكل ما هو «المسيح» هو «كلمته»
اللوغُس! «فقال لهم يسوع أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به.» (يو:٨:٢٥)

أي أن المسيح لما كان يتكلم كان يستعلن ذاته أنه هو ما يتكلم به، لأنه لما كان يتكلم
بالحق كان يستعلن الحق في ذاته. «فالكلمة» عند المسيح هي «ذاته». فالمسيح هو الكلمة
– اللوغُس – الذي خرج من عند الآب وأرسله الآب ليعطينا كلام الآب. وأقوى صورة للكلام
الذي كان يتكلم به المسيح هو «الحق». وقد جعل من هذه الكلمة «الحق» المعيار الأعلى الذي
يصف به قوله: «الحق الحق أقول لكم...» فالكلمة عند المسيح هي الحق $\alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$

والمسيح جاء خصيصاً ليستعلن الكلمة اللوغُس باعتبارها كلمة الله الحق المطلق. ويكون بذلك أنه من الخطأ أن نحسب أن كلام المسيح هو مجرد كلام منطوق به بل هو هو الحق ἀλήθεια مُستعلن في الكلام ومن الكلام. وهذا الحق ἡ ἀλήθεια الكائن في كلمة المسيح هو في الواقع تعبير حي عن فكر الله ومقاصده أو تعبير عن الله في ذاته أو هو اللوغُس.

هنا تظهر الضرورة الحتمية لتسمية المسيح بالكلمة، لأننا بالكلمة وحدها أدركنا فكر الله ومقاصده بل أدركنا حقيقة الله. فالكلمة اللوغُس هو الوسيط الحتمي الذي كان عليه أن يختزل الهوة بين الله الحق المطلق والإنسان الذي وإن كان غريباً عن الحق ولكنه يحمل صورته ويسمى نحوه.

ومن هنا أيضاً كان يتحتم على اللوغُس الكلمة الأزلي أن يخرج من عند الآب ويتجسد حتى يكلمنا الله مباشرة فيه بكلمة الله الحية الفعالة المحيية لإعادة الخلق روحياً، وذلك أكمله الكلمة المتجسد بإعطاء ذاته للإنسان كمصدر للحق والحياة والنور.

لقد ابتدأ العهد القديم «بكلمة الله» التي أرسلها الله لشعب مختار ومدرب (إسرائيل) على فم الأنبياء ليُعرفهم الحق. ولكنهم تعشروا في فهمها وطاعتها فأخطأوا إلى المعرفة وإلى الله. لذلك تحتم أن يعطي الله للإنسان عامة «الكلمة ذاتة» الذي هو الحق والحياة جوهرياً لا لكي يعرف الإنسان الله بل ليعطيهم ذاته، أي الله، يعطيهم الحق ἀλήθεια والحياة الأبدية: «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي τὸν λόγον μου ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يوه: ٢٤)؛ «من يأكلني فهو يحيا بي.» (يوه: ٦٥)

القديس يوحنا يسلمنا سير معرفته باللوغُس:

مما سبق يتضح أن اللوغُس في إنجيل يوحنا يعسر فهمه إلا بعد أن يكون الإنسان قد استوعب كل كلام المسيح وتبع أعماله حتى النهاية حتى بعد بلوغه الذكصا العليا عندما عاد الإبن راجعاً إلى الآب واستعاد مجده الأول، بعد أن أكمل رسالة حب الله من نحو العالم. لأن القارىء عندما يكون قد أكمل تتبُّعه لمسيرة الإبن على أرض الزمان ودخل معه دائرة الخلود في الأبدية حتى ولو من بعيد، حينئذ فقط يستطيع أن يستوعب فكر القديس يوحنا وهو يسرد مسيرة اللوغُس مبتدئاً من الأزلية حتى حفظه لنا على أرض الواقع الزمني.

القديس يوحنا رأى المسيرتين على الأرض وفي السماء ورافقه فيها، لقد كان التلميذ الذي يحبه يسوع والوحيد الذي رافقه حتى الصليب. ثم هو وحده الذي اختير من بين التلاميذ والإنجيليين الذي

أخذ بالروح وعاین وشاهد ما یجری وراء أرضنا وزماننا؛ هناك فی دائرة الخلود فی صمیم الحياة ومقابل الحضرة الإلهیة: «یوحنا الذی شهد بكلمة الله وبشهادة یسوع المسیح بكل ما رآه... كنت فی الروح فی یوم الرب وسمعت ورائی صوتاً عظیماً كصوت بوق قائلاً: أنا هو الألف والباء الأول والآخر...» (رؤا: ۱۰و۱۱و۱۲)

تقریر القدیس یوحنا عن اللوغس والمسیح هو تقریر مزدوج: شهادة واستعلان، أي سرد حقائق نظرها وعاینها ثم كشف مضمونها وأسرارها: «ثم رأیت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس علیه یدعی أميناً وصادقاً وبالعدل یحکم ویحارب. وعیناه كلهیب نار وعلى رأسه تیجان كثيرة وله اسم مكتوب لیس أحد یعرفه إلا هو. وهو متسربل بثوب مغموس بدم ویدعی اسمه كلمة الله δ λόγος του θεου والأجناد الذین فی السماء كانوا یتبعونه.» (رؤا: ۱۱-۱۴)

والقدیس یوحنا إنجیلی بالدرجة الأولى، فكل خبراته — عن كل أسرار المسیح والكلمة — یطرحها أمام الكنيسة لكي تشترك الجماعة فیما حصل علیه. فی نهاية سرده لآیات المسیح فی إنجیله یقول: «وأما هذه فقد کُتبت لتؤمنوا أن یسوع هو المسیح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (یو: ۲۰: ۳۱)

وهو یرید هذا الإعلان وضوحاً وتأكيداً فی رسالته: «الذی رأیناه وسمعناه نخبركم به لكي یكون لكم أيضاً شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه یسوع المسیح. ونكتب إلیكم هذا لكي یكون فرحكم كاملاً.» (یو: ۱: ۴و۳)

وفی مستهل رؤيته التي رآها بصورة ممتازة وفائقة لم یبلغها آخر یقول: «أنا یوحنا أخوكم وشریکكم فی الضيقة وفي ملكوت یسوع المسیح وصبره، كنتُ فی الجزيرة التي تُدعی بَطْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة یسوع المسیح... وسمعت ورائی صوتاً... والذی تراه أكتب فی كتاب وأرسل إلى السبع الكنائس.» (رؤا: ۱۰و۱۱و۱۲)

فالقدیس یوحنا یكتب مقدمة إنجیله عن اللوغس مسجلاً كل ما رآه وعرفه وكل ما استعلن له، یكتبها باسم الكنيسة: «نحن» ویتودعها صدر الكنيسة علی مدى الدهور: «ورأینا مجده مجداً كما لوحد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.» (یو: ۱۴)

رؤية القدیس یوحنا للوغس:

+ اللوغس عند القدیس یوحنا كائن فی البدء فی «الأرخی» ἀρχή أي قبل الزمن. فهولا یمتُ للخليفة بشيء ولا للعالم بالتالي. هذا هو یسوع المسیح قبل أن یتجسد، عند القدیس یوحنا.

وهو حينئذ يرفع عن المسيح في شخص اللوغس أيّ انتفاء للعالم أو الخليقة فهو إنما يمهد لموقع المسيح من العالم والخليقة كخالق في البداية ثم مخلص وكفاحٍ وديانٍ بالنهاية.

+ ذِكْرُ البدءِ «الأرخي» ἀρχή منسوباً للوغس استدعى في الحال تحديد علاقة اللوغس بالله لأن البدء خاص بالله وحده. فحدده يوحنا بقوله: «كان عند الله = πρὸς τὸν θεόν» وهي تفيد المكانة (لأن لفظ المكان يمتنع في الإلهيات). فكانة الكلمة اللوغس بالنسبة لله هي «عنده» أي في المقابل المتّجه على الدوام. وقد عرّفها القديس يوحنا على مستوى الإستعلان للذات الإلهية بأن «الآب يحب الإبن» (يو: ٣: ٣٥). فالإبن متجه نحو الآب مجذبه حب الآب المستمر الأزلي والأبدي، عبّر عن ذلك المسيح: «أنا حيّ بالآب.» (يو: ٦: ٥٧)

ويقابل جذب الآب انجذاب الإبن بالحُب أيضاً، فالإبن يحب الآب: «ليفهم العالم أني أحب الآب.» (يو: ١٤: ٣١)

فا رآه القديس يوحنا في اللوغس هو «عند الله» في المطلقات فيما وراء الزمن، استعلنه لنا في المسيح على مستوى الزمن بالفكر الشعوري الإنساني فقال إنها محبة أزلية مزدوجة بين المسيح الإبن والله الآب لا انفصام فيها!!

ورؤية القديس يوحنا للوغس في مكانته وهو عند الله كحالة وجود قائم بذاته ثابت وأزلي يستعلنه لنا في المسيح على مستوى الزمن بالفكر اللاهوتي المسيحي أن المسيح قائم في الآب، والآب في الإبن: «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيّ.» (يو: ١٤: ١٠)

وبالتجسد صار المسيح يخاطب الآب «أنا فيهم وأنت فيّ» (يو: ١٧: ٢٣)، ومن جهة الأعمال التي كان يعملها المسيح: «الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال.» (يو: ١٤: ١٠)

كذلك فإن رؤية القديس يوحنا للكلمة اللوغس قائماً عند الآب منذ البدء أي أزلياً يعني أن قبل الكلمة لم يكن صمت أو سكوت في الله، فالله ناطق بالكلمة اللوغس ولم يوجد قط غير ناطق باللوغس، وهذا يستعلنه على مستوى الفكر المسيحي أن المسيح الإبن كائن دائم في حضن أبيه. لم يوجد الآب بدون الله ولا وُجد بدون الآب: «أنا والآب واحد»، «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر.» (يو: ١٠: ٣٠، ١٨: ١)

ولكن الوجود الذاتي للكلمة اللوغس عند الله πρὸς τὸν θεόν ككيان قائم بذاته قد يُفهم خطأ أنه ثنائية في الله وأيها السابق وأيها اللاحق. لهذا عَجَل القديس يوحنا بتوضيح وحدانية الله بقوله وكان الكلمة الله، مسجلاً للاهوت المسيحي امتناع الثنائية وبالتالي المرؤسية أو التبعية في

الله. فليس في الله أول وثاني أو أعظم وأقل. وهذا استعملناه لنا على مستوى الإنجيل: «وكل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي» (١٧: ١٠)، «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (٣: ٣٥)

هنا الكلمة – اللوغس – والله لكل منها وجوده الذاتي غير أنها ذات واحدة. صحيح أن هذا اللغز يتضح حلّه بتفسير أن الآب والإبن ذات واحدة في الله، وكلٌّ من الآب والإبن له شخصه وذاته التي يتكلم بها. ولكن لنا أيضاً في «اسم الله» في العهد القديم توضيحاً صريحاً آخر: فاسم الله له كيان الله وعمل الله ولكن يعمل بمفرده كما يعمل الله بمفرده تماماً. «ها أنا مُرْسِلٌ ملاكاً أمام وجهك ليحفظك في الطريق وليجيء بك إلى المكان الذي أعدته. احترز منه واسم لصوته ولا تتمرد عليه. لأنه لا يصفح عن ذنوبكم لأن اسمي فيه» (خر ٢٣: ٢٠ و ٢١). كذلك أيضاً في إشعياء: «هوذا اسم الرب يأتي من بعيد غضبه مشتعلٌ والحريق عظيم. شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كمنار آكلة. ونفخته كمنر غامر يبلغ إلى الرقبة لغريلة الأمم.» (إش ٣٠: ٢٧ و ٢٨)

هكذا الكلمة – اللوغس – يعمل عمل الله وهو قائم بمفرده في الله. واللوغس في العهد القديم هو المشار إليه بأنا هو εγω ειμι (٣): «أنا هو أنا هو الرب المتكلم بالصدق»
 εγω ειμι εγω ειμι Κύριος ο λαλων δικαιοσυνην (إش ٤٥: ١٩ – السبعينية)

فكون اللوغس قائماً عند الله في التساوي اللاهوتي أي بذات الطبيعة الإلهية الواحدة، صحَّ أن يقول: «وكان الكلمة الله» (يو: ١: ١) – وهنا الله في اليونانية بدون أُل التعريف – حيث الكلمة اللوغس هنا هو المبتدأ والخبر، هو الله، وهذا يعني أن الكلمة بطبيعة الله وليس بمعنى هو الله وإلاَّ كان يلزم أن يُقال أن الله هو الكلمة. هنا نسبة الله – بدون أُل التعريف – للكلمة اللوغس يعطيه حق «الطبيعة الإلهية» وليس «الذات الإلهية الكلية» وهكذا يظل «الله» محتفظاً بوحداية الطبيعة والذات (٤).

هذا يستعملناه لنا القديس يوحنا على مستوى اللاهوت المسيحي أن الآب والإبن إله واحد – «أنا والآب واحد» (يو: ١٠: ٣٠) – وأنها متساويان في الكرامة والمجد «لكي يكرم الجميع الإبن كما يكرمون الآب، من لا يكرم الإبن لا يكرم الآب الذي أرسله» (يو: ٥: ٢٣). أما المجد الواحد: «والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو: ١٧: ٥)، حيث صار الإبن كما كان «ربي وإلهي» (يو: ٢٠: ٢٨). «الذي رأيته فقد رأى

(٣) أنظر الشرح تحت عنوان «أنا هو» εγω ειμι صفحة ٢٢٠.

(٤) ذات الله واحدة وحدانية مطلقة وهي ذات كاملة آب وإبن وروح قدس.

+ ولكي يجرس القديس يوحنا التساوي الأفتنومي أو الشخصي بين الكلمة اللوغس والله أعطى الجملة الحارسة للوحداية مرة أخرى «هذا كان في البدء عند الله.» (يو: ١: ٢)

«هذا» هنا تنصب على اللوغس، فبعد أن قال «وكان الكلمة الله» (يو: ١: ١)، عاد وضبط المعنى حتى لا ينحرف نحو الثنائية أو تعدد الله فقال: «هذا كان في البدء عند الله»، أي أن الله الكلمة كان عند الله. هذا التناقض paradox ينحل في الحال إذا فهمنا أن الكلمة اللوغس هو «الله متكلماً»، أو ناطقاً. حينئذ يكون «الله متكلماً» ليس غريباً عن الله، ولا ثانياً له، بل هو الإستعلان الذاتي لله. فالكلمة اللوغس هو المستعلن لذات الله. هذا أيضاً يعود القديس يوحنا ويستعلنه في إنجيله على مستوى الإبن والآب. فالإبن هو المستعلن للآب. هنا يتحتم أن يكون الإبن من طبيعة الآب ويساويه حتى يستطيع أن يقدم استعلاناً كاملاً وتاماً له. ولكن يظل الإبن والآب هما الله الواحد. الإبن في ذات الله هو المستعلن والآب هو ذات الله المستعلن. «الله لم يره أحد قط. الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر.» (يو: ١٨: ١٨)

+ ولكن لثلا يظهر اللوغس وكأنه عمل استعلاني لله محصوراً في دائرة الزمن، أضاف القديس يوحنا مرة أخرى «في البدء»: «هذا كان في البدء عند الله» (يو: ١: ٢). وهذا بدوره يعود القديس يوحنا ويستعلنه لنا في المسيح على مستوى الفكر اللاهوتي أن الإبن قائم مع الآب منذ الأزل، لا يمت للحدث الزمني: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو: ١٧: ٢٤)؛ «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو: ٨: ٥٨)

فإن كان اللوغس هو الله - بدون «أل» - التعريف - المستعلن لله كما سبق وقلنا، أصبح كوننا نسمع من اللوغس هو أننا نسمع لله رأساً. وبالتالي إذا تكلمنا عن اللوغس فنحن نكون نتكلم عن الله. لأن هذا الإستعلان الذي يقوم به اللوغس عن الله بالنسبة لنا هو مشيئة الله لخلاصنا الذي تم تدييره عند الله منذ البدء وابتدأ اللوغس بتنفيذه قبل الزمن منذ البدء.

ورب سائل يقول: وكيف يتم استعلان الله قبل الخلق وقبل الزمن ولحساب من يكون هذا الإستعلان؟ هنا لا يفوت على القارئ اللبيب أن القديس يوحنا بدأ يستعلن لنا اللوغس نفسه قبل الزمن وقبل الخلق لما قال: «في البدء كان الكلمة» ثم «والكلمة كان عند الله»... إلخ. هذا مجد ذاته استعلان لله وللوغس قبل الزمن وقبل الخلق! فنحن وإن كنا لم نكن قد خلقنا بعد

ولكن الله بدأ يعمل لخلاصنا لأن الله هو الله لا يُستحدث عليه شيء، ولكن فعل الخلق هو الذي أوهمنا أن بدء علائقنا بالله تبدأ عند بدء الخلق.

ولكن الله استودع في الإنسان وعياً روحياً بالغ العمق يمتد حتى خارج حدود الزمن والخلق نعرف به الله في ذاته وصفاته وأعماله. فعلى أساس هذا الوعي وقبل أن يوجد فينا، كان الله يرتب خلاصنا. وهذا طرف من استعلان اللوغس لله من نحونا من جهة تدبير خلاصنا.

سؤال آخر يطراً على الذهن: وماذا كان قبل تدبير خلاصنا؟

أمران خطيران للغاية يمتنع أن يكون في الله سكون أو عدم:

الأول: هو الوعي العميق الممتد الذي استودعه الله في الإنسان وقدرته الهائلة في الإمتداد ليخترق الزمن وفعل الخلق ذاته، فهو بذلك يتحدى العدم ويسخر من السكون.

والثاني: هو «في البدء كان الكلمة» أي بدء الإستعلان الإلهي بالفعل لحساب الإنسان قبل الزمن والخلق، في الأزل!!

معنى «الكلمة» اللوغس:

أما اسم «اللوغس» الذي تُرجم بـ «الكلمة» في اللغة العربية فهو في الحقيقة ذو صلة جذرية بوظيفة اللوغس ذاته بصفته «المستعلن» Revealer لله بمعنى أن عمله هو أن يجعل الله معروفاً. فهو جدير بأن يكون «الكلمة» لأن «الكلمة» وليدة «المطلق» باعتبارها «كلمة الله» في إحدى صورها. فهي أعلى من مثيلها البشري بلا حدود. فالكلمة عند الإنسان وليدة العقل، والعقل البشري محدود. لذلك فاللوغس أعلى من الفكر العقلي عند الإنسان.

كذلك فالكلمة اللوغس حيناً قام بفعل الخلق فهذا «الفعل» أعلى من مثيله لدى الإنسان، فاللوغس كفعل هو أعلى من كل أفعال الإنسان. لأن فعل الإنسان محكوم تحت محدودية الخليفة؛ أما اللوغس كفعل فهو خلاق ومُبدع من العدم لا يعتمد على القوة كطاقة مخلوقة؛ بل يعتمد على طاقة الله في الخلق والإبداع.

لذلك لا يصح أن نشبّه اللوغس «بالفكر» ولا «بالفعل» لأن مفهوم الإنسان للفكر والفعل يختلف عن مضمونها الإلهي في اللوغس كل الاختلاف. وهذا هو بعينه قصد القديس يوحنا من وضعه للكلمة «في البدء كان الكلمة»، أي قبل أن يوجد التفكير العقلي للإنسان وقبل الفعل المتولد من القوة المخلوقة عند الإنسان. ومن جهة هذا الأمر يستعلن لنا القديس يوحنا في شخص المسيح — على مستوى اللاهوت — بأن أقنوم المسيح استخدم «الفكر» واستخدم «الفعل»

(القوة) استخداماً. وذلك تحت سلطان «كلمته»: «كان يعلمهم كَمَن له سلطان» (مر ١: ٢٢)، «لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو ٧: ٤٦)، «أعمالاً كثيرة حسنة أريتمكم من عند أبي. بسبب أي عمل منها ترجموني؟ أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو ١٠: ٣٢ و٣٣). العمل «بالكلمة» هنا أعلى من مستوى الفعل البشري. فالمسيح لم يكن إنسان العقل ولا إنسان الإلهام ولم يكن إنسان القوة الخارقة، بل إله العقل والقوة ورب الفكر والفعل حتى في أعلى صورها. أو بمعنى آخر إن فكر المسيح الذي كان يعلم به والطاقة الإلهية التي كان يعمل بها الأعمال لم تكن تنتمي للزمن أو للخليقة بل كانت إلهية وكائنة فيه كيان الأزل: «أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به» (يو ٨: ٢٥)، «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» (يو ٧: ١٦)، «لولم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية.» (يو ١٥: ٢٤)

دحض القول بأن «اللوغُس» مأخوذ من الفلاسفة:

القديس يوحنا لم يستلف اللوغُس من اليونان، ولا استقرأه من أسفار الحكمة ولا تعلمه على يد الغنوسيين أو ورثه عن فيلوبل لوغُس القديس يوحنا هو «المسيح» وقد أدركه القديس يوحنا من أقواله وتعليمه ثم استلمه بالرؤيا وتكلم عنه كما يتكلم الإنسان عن شخص يراه.

٢ - «المسيا» في إنجيل يوحنا

سبق أن قدّمنا مفهوم لقب «المسيا» في إنجيل يوحنا في عرضنا لعلاقة هذا الإنجيل بالعهد القديم. (أنظر الباب الثاني - الفصل الثالث - ص ٨٩).

٣ - «ابن الإنسان» في إنجيل يوحنا وبالتالي في اللاهوت المسيحي

لقد صار من أهم معالم إنجيل يوحنا العناية الكبيرة التي أعطاها للقب ابن الإنسان بصورة فريدة، فقد ورد في أكثر من أحد عشر موضعاً:

— «وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان.» (٥١:١)

— «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (١٢:٣)

— «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان.» (١٤:٣)

— «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته... وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان.» (٥:٢٦ و٢٧)

— «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه.» (٦:٢٧)

— «فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم.» (٦:٥٣)

— «فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً...» (٦:٦٢)

— «فقال لهم يسوع: متى رفعت ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أي أنا هو ولست أفعل شيئاً من نفسي بل أتكلم بهذا كما علمني أبي.» (٨:٢٨)

— «وأما يسوع فأجابها قائلاً: قد أنت الساعة ليتمجد ابن الإنسان.» (١٢:٢٣)

— «فأجابه الجميع نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد، فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان؟ من هو هذا ابن الإنسان.» (١٢:٣٤)

— «فلما خرج قال يسوع: الآن تمجد ابن الإنسان، وتمجد الله فيه، إن كان الله قد تمجد فيه فإن الله سيمجده في ذاته ويمجده سريعاً.» (١٣:٣١ و٣٢)

والحقيقة المدهشة أن هذه النصوص تحمل تركيباً منسجماً ذا علاقة متصلة. فبالتحليل نجد الآتي:

- ١) في الآيات (١٢:٣)، (٦٢:٦) نجد أن ابن الإنسان ينزل من السماء ويصعد ثانية.
- ٢) وفي الآيات (١٤:٣)، (٢٨:٨)، (٣٤:١٢) نجد ارتفاع ابن الإنسان إشارة إلى رفعه على صليب المجد.
- ٣) وفي الآيات (٢٣:١٢)، (٣١:١٣) نجد تمجيد ابن الإنسان.

فالثلاث المجموعات تصنع تركيباً متقابلاً ومتصلاً:

فالارتفاع والتمجيد في الآيات (مجموعة ٢) و (مجموعة ٣) متصلان إتصلاً وثيقاً، وساعة الإرتفاع والتمجيد هي نفسها ساعة الصعود (كما في الآيات مجموعة ١)، وهي نفسها «الآن».

ثم بالتطبيق مع الخبز الحيّ النازل من السماء الذي هو شخص ابن الإنسان المعطي الحياة الأبدية، ومع خبز الإفخارستيا الذي يؤكل للحياة الأبدية وهو الخبز الذي يعطيه ابن الإنسان أيضاً نجد أن العلاقة وثيقة. فهو يمثل النزول والإرتفاع.

فالكلام الوارد بخصوص ابن الإنسان ليس مجرد أوصاف حسب الظاهر، بل هي حقائق جوهرية متصلة تُعتبر مفتاحاً لفهم الإنجيل روحياً.

وحينما سأل المسيح سائلٌ من الجمع: «ومن هو ابن الإنسان» (يو ١٢: ٣٤)، فإن هذا في الواقع يحمل لفظة من الإنجيل عميقة ومُبدعة فهو ينبه ذهن القارئ أنه هو هو «المسيح» الذي على أساسه وُضعت أو قيلت الآيات على ابن الإنسان بتعليم عميق مسترسل ومتوازٍ ومتصل. وبشيء من الذكاء نفهم أن كلاً من السائل والقديس يوحنا يضمن من السؤال «من هو ابن الإنسان؟» توضيحاً لحقيقة شخص المسيح أنه المسيح. وهذا الحوار متصل أو منتهي بقول المسيح: «متى رفعت ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أني أنا هو $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota$ » (٢٨: ٨) أي أنه المسيح!!! ابن الله. أما الآن فهو المسيحاً في سر!!

ف«ابن الإنسان» هو اللقب المختار الذي يختفي وراءه لقب «المسيح». ليظل محتجباً عند الرافضين كما كان الله في العهد القديم: «حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلص». (إش ٤٥: ١٥)

وحتى لو أخذنا الآية المنفردة بذاتها التي جاءت في الأصحاح الأول (١: ٥١) التي تفيد أن ابن الإنسان على الأرض هو بآن واحد في السماء بمعنى أنه باتصال دائم مع الله، فهذه الآية تحمل

المضمون الإلهي نفسه من جهة النزول والصعود وتفيد أنه نزل ليكلّمنا عن ما هو في السماء كرسالة وبعدها يعود. وما نزول الملائكة وصعودها عليه إلاّ تعبيراً عملياً أو تكميلاً لعمل ابن الإنسان في الإتصال الدائم بين السماء والأرض. فابن الإنسان يعمل على الأرض وفي السماء بأن واحد. ولكن لينتبه القارئ فنحن نعلم مسبقاً الآن مضمون النزول والطلوع والغاية منه. ولكن أثناء خدمة المسيح التي يتتبعها الإنجيل جاء هذا التعليم ليهده في أذهان التلاميذ لحوادث الصلب والقيامة والصعود. فهو تعليم غاية في الأهمية للتلاميذ والمؤمنين به الذين كانوا يسمعون أنّس. وأيضاً لكي ينبه أذهان تلاميذه أنه مزعم أن يتركهم ويختفي عنهم في مفهوم الإرتفاع.

كذلك الآية التي تقول أن الدينونة أعطيت له «لأنه ابن الإنسان» (٢٦:٥) فهي في القراءة السرية بحسب إنجيل يوحنا تكون: لأنه هو «المسيّا» المخلّص والموعود به. فلأنه سيخلّص الذين يؤمنون به فحتماً سيدين الذين لا يؤمنون، والإيمان به يتركز حسب قول المسيح نفسه في حالة الإرتفاع التي سيُستعلن فيها «ومتى رفعم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون (تعرفون) أني أنا هو».

وهكذا نجد أن نزول ابن الإنسان وارتفاعه يكوّنان معاً الهيكل التعليمي عن الخلاص والدينونة معاً مستعلّنان في شخصه المنظور ومخفياً في اسمه الذي اختاره لنفسه. «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق (أرتفع) لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة... وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين» (يو: ١٦:٧-١١)؛ «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو: ١٢:٣١)؛ وقوله: «الآن» لا يفيد في لغة إنجيل يوحنا الآنيّة الزمنية بل رؤية المسيح النافذة التي تستحضر المستقبل في صميم الحاضر: «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة.» (رو: ٤:١٧)

والفرق بين نظرة الأناجيل الثلاثة للقب ابن الإنسان بالنسبة للمسيح عنها في إنجيل يوحنا يتركز في كون هذا اللقب أخذ في هذه الأناجيل مأخذاً رؤيويّاً فقط على مستوى نبوة دانيال النبي، أي أنه لقب مستقبلي يستعلن فيه المسيح في مجيئه؛ ولذلك لم تنشغل الأناجيل بابن الإنسان كحالة واقعة على الأرض في ملء الزمن مثلما ركز إنجيل يوحنا معتبراً أن المستقبل الزمني انفتح على الحاضر في شخص ابن الله المتجسد إذ نزل ابن الإنسان من السماء بالفعل ليفتح الملكوت الأبدي الذي تنبأ عنه دانيال. فابن الإنسان هو اللقب الأكثر مناسبة للمسيح في مجيئه (نزوله) وفي حياته على الأرض كما هو في ظهوره الآتي من السماء، بل وفي ملكوته الأبدي، أليس هو الذي أملى على دانيال الإسم؟

وقد استشهدت أسفار العهد الجديد على العموم بما جاء عن ابن الإنسان في العهد القديم:

+ مما ورد في المزمور ٨: ٤ و٥: «فَمَنْ هُوَ الْإِنْسَانُ حَتَّى تَذَكَرَهُ أَوْ ابْنَ الْإِنْسَانِ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ. أَنْقَضْتَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلَائِكَةِ (فِي مَظْهَرِهِ وَمَوْتِهِ) وَبِالْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ تَوَجَّهَتْ (فِي قِيَامَتِهِ)» - (الترجمة السبعينية).

+ وفي دانيال ٧: ١٣ و١٤: «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدامه، فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.» (٤)

وقد استخدم المسيح في إنجيل القديس مرقس صورة ابن الإنسان وهو آتٍ على السحاب كما جاءت في نبوة دانيال: «أما هو فكان ساكناً ولم يجب بشيء. فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له: أنت المسيح ابن المبارك. فقال يسوع: أنا هو، وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحب السماء.» (مر ١٤: ٦١ و٦٢)

وواضح جداً من كلام المسيح أعلاه أنه كان يفضِّل لقب ابن الإنسان على لقب المسيَّا. كذلك أيضاً في قوله: «فقال لهم: وأنتم من تقولون أي أنا. فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح. فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه. وابتدأ يعلمهم أن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم...» (مر ٨: ٢٩-٣١)

وإنجيل يوحنا يبرز «ابن الإنسان» على مستوى «ابن الله» لا فرق على الإطلاق. فهو نزل من السماء ويصعد أيضاً وهو في كل المواضع متحد بالله وقائم فيه، فحتى أثناء وجوده على الأرض هو «ابن الإنسان الذي في السماء» (يو ٣: ١٣)، والمسيح يضع العلاقة بينه كإبن الإنسان وبين الله الأب كنموذج أعلى للعلاقة التي ينتهي إليها المؤمنون المختارون في اتحادهم بالله. وابن الإنسان هو النور الحقيقي والخبز الحقيقي والكرمة الحقيقية بمعنى أنه الحقيقة المطلقة لعناصر الحياة كلها. لذلك حينما يحل المسيح في المؤمنين تصير لهم حقيقة الحياة أو الحياة الحقيقية، ويصيرون متحدين به كاتحاد الأغصان بالكرمة ذاتها. وهنا تظهر الكليَّة أو الشمولية التي يعنها المسيح من لقبه المختار ابن الإنسان، فهو يحمل البشرية المفديَّة ويمثلها أمام الأب. فإن الإنسان نزل من السماء ليجمع في شخصه وفي جسده البشرية المختارة، ويصعد إلى السماء بهم ليرثوا ميراثه وينظروا مجده ويكونوا معه حيث يكون.

ولقب «ابن الإنسان» بالنسبة للاهوت المسيحي سواء في الأناجيل الثلاثة أو في رسائل بولس

(٤) للمعتقد حسب التقليد وقانون الأسفار أن دانيال عاش في زمن السبي في القرن السادس قبل الميلاد.

الرسول أو في إنجيل يوحنا يحمل عقيدة لاهوتية مضمونها أن المسيح والمؤمنين يكونان جسداً واحداً إنساناً واحداً. يشرح ذلك القديس بولس الرسول على مستوى الجسد الواحد والمسيح رأس له: «الأمم شركاء في الميراث والجسد» (أف ٣: ٦)؛ «... لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح إلى أن ننتمي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح» (أف ٤: ١٢ و١٣)؛ «بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً...» (أف ٤: ١٥ و١٦)

وهذا يشرحه القديس متى على المستوى العملي هكذا: «لأنني جُعت فأطعمتموني عطشت فسقيتموني كنت غريباً فأوتموني عرياناً فكسوتوني مريضاً فزرتوني محبوساً فأتيتم إليّ... الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبني فعلتم» (مت ٢٥: ٣٥-٤٠)؛ وأيضاً في إنجيل متى: «مَنْ يقبلكم يقبلني.» (مت ١٠: ٤٠)

أما إنجيل لوقا فيتفق أيضاً في هذه الوحدة: «الذي يسمع منكم يسمع مني والذي يرذلكم يرذلني.» (لو ١٠: ١٦)

ويأتي إنجيل يوحنا ويقدم نفس التقليد «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أرسله يقبلني.» (يو ١٣: ٢٠)

هذه الرابطة أو الوحدة العملية بل والوجودية - أي بالإتحاد الجسدي - في شكلها وكيانها الكامل بين المسيح وشعبه هي هي قائمة ومكونة في اللقب الذي اختاره المسيح لنفسه: «ابن الإنسان»!!

ونحن لو فحصنا بتدقيق ما جاء في نبوة دانيال نجد نفس الرابطة الكيانية بين ابن الإنسان «وقديسي العلي» إذ يذكرهما دانيال النبي الواحد بدل الآخر في أخذ المملكة وامتلاكها هكذا: «... ابن الإنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدامه. فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوته لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض... وأما قديسو العلي فيأخذون المملكة ويمتلكون المملكة إلى الأبد وإلى أبد الأبد... حتى جاء القديم الأيام وأُعطي الدين لقديسي العلي وبلغ الوقت فامتلك القديسون المملكة... والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تُعطى لشعب قديسي العلي. ملكوته (الهاء تعود على شعب قديسي العلي) ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون...» (دا ٧: ١٣-٢٧)

هنا التقابل بل التطابق بين «ابن الإنسان» وبين «شعب قديسي العلي» شيء مذهل للعقل حتى أن دانيال كان معذوراً أن يقف مذهلاً أمام عظمة هذا السر، سراحثواء ابن الإنسان لشعب قديسي العلي: «أما أنا دانيال فأفكاري أفرعتني كثيراً وتغيّرت عليّ هيأتى وحفظت الأمر في قلبي» (د ٧٨: ٢٨). وقديسو العلي عند دانيال هم شعب إسرائيل الجديد الذي يراه من خلف السنين.

وفي مزمو ٨٠، الذي تستشهد به أسفار العهد الجديد وتقليد الكنيسة حتى اليوم، يأتي ابن الإنسان، والكرمة، والإبن، والشعب، كلهم معاً والواحد بدل الآخر في تناسق ووحدة عجيبة الشكل (٥)!! «كرمة من مصر نَقَلت... مَدَّت قُضبانها إلى البحر وإلى النهر فروعها، (= أنا الكرمة وأتم الأغصان - يوه ١٥: ٥)... يا إله الجنود ارجعنا اطلع من السماء وانظر وتعهد هذه الكرمة، والغرس الذي غرسه يمينك والإبن الذي اخترته لنفسك... وعلى ابن الإنسان الذي اخترته لنفسك، فلا ترتد عنك. أحييتنا فدعو باسمك يا رب إله الجنود أَرْجِعْنَا. أنر بوجهك فنخلص.» (مز ٨٠)

وهكذا يقف مزمو ٨٠ الدعامة الأولى والأكثر أهمية في جميع أسفار الكتاب بل ويتقدم على نبوة دانيال أيضاً في توضيح لقب «ابن الإنسان» الوارد في إنجيل يوحنا (٦).

والنص الوارد في إنجيل يوحنا (١: ٥١) واضح فيه كل الوضوح أن المسيح يتكلم وحلم يعقوب إسرائيل مائل في ذهنه بصورته وألفاظه وحركته: «الساء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان...» حيث يرد «ابن الإنسان» بدل «إسرائيل» في حلم يعقوب. فلو أدركنا أن اسم يعقوب-إسرائيل يؤخذ دائماً أبداً كشخص يعقوب إسرائيل وكشعب إسرائيل دون أي تفريق، حينئذ نفهم السر وراء اختيار المسيح لإسم ابن الإنسان ووضعه موضع إسرائيل في حلم يعقوب إسرائيل، وأن الملائكة عوض أن تصعد وتنزل على يعقوب إسرائيل (٧) يرد في كلام المسيح أنها تنزل وتصعد على ابن الإنسان، لذلك فإن ذلك هو القصد المضمّر في اختيار المسيح لإسم ابن الإنسان وأن ذلك يشمل بالضرورة شعب المسيح، إسرائيل الجديد، الإنسان الجديد أو الخليقة الجديدة.

(٥) راجع شرح ما جاء في مزمو ٨٠ في عرضنا لرمز الكرمة.

⁶ C.H. Dodd, The Fourth Gospel, p. 245.

(٧) يميل كل علماء الكتاب الآن بعد فحص التقليد اليهودي في شرح سلم يعقوب، إلى الأخذ بأن الملائكة تصعد وتنزل ليس على السلم بل على يعقوب إسرائيل، وبالتالي يكون إعلان المسيح عن نفسه كإبن الإنسان أن الملائكة تنزل وتصعد عليه مطابق لحلم يعقوب.

وبالتالي فإن السماء المفتوحة هي مختاري الله المفدين، والملائكة تنزل وتصعد على أولاد الله لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص. لأن المسيح لم يكن قط محتاجاً لمعونة ملائكة. فإن كان ابن الإنسان قد نُوحِّق بقيامته من الأموات ملكاً لقديسي الله فهو «جعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه» (رؤ ١: ٦)، لأننا قننا معه. فهو بحسب تعبير سفر الرؤيا «ملك الملوك.» (١٧: ١٤)

وفي دائرة العهد القديم يُعتبر نزول الملائكة على يعقوب إسرائيل وصعودهم عليه نوعاً من التمجيد الخاص. لذلك ربط الحكماء الرّبِّيون اليهود في تعليم «المشناة» بين صعود ونزول الملائكة على يعقوب في سفر التكوين، وبين تمجيد الله الخاص بيعقوب في إشعياء «وقال لي: أنت عبدي إسرائيل الذي به أتمجد» (إش ٤٩: ٣) – أي أن الله يتمجد فيه. وتعود النبوة في الآية التي بعدها لتضع في فم يعقوب كيف أنه تمجد أيضاً – أي أن الله مجدّه: «والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل فأتمجد في عيني الرب وإلهي يصير قوتي» (إش ٤٩: ٥). وهذا ما يردده المسيح في إنجيل يوحنا بالمثل ويمتدّى التتابع عندما يقول بصفته ابن الإنسان «الآن تمجد ابن الإنسان، وتمجد الله فيه» (١٣: ٣١). ثم بالعودة إلى لماذا يتمجد الله في يعقوب ويتمجد يعقوب في عيني الله نجد أنّ السبب واضح، إذ مذكور أنه سيجمع خراف بيت إسرائيل الضالة: «والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه (الشعب الضال) فينضم إليه إسرائيل فأتمجد...». وهذا أيضاً ينطبق على المسيح بصفته ابن الإنسان بمنتهى الدقة والتتابع «إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزعم أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد.» (يو ١: ٥١ و٥٢)

وهنا يتضح أمران: الأول لماذا يموت المسيح؟ والثاني لماذا يتمجد الله في المسيح ويتمجد المسيح في الله؟ ويضيف الإنجيل إلى إرجاع أمة إسرائيل جمع شمل أبناء الله في العالم.

وأيضاً بالعودة إلى نبوة إشعياء نجد سبب عمل يعقوب لجمع شمل إسرائيل وخلاص كل الأمم وإرجاعهم إلى الله يعتمد على صفة الإستنارة الممتازة ليعقوب: «فقال قليل أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب وردّ محفوظي إسرائيل. قد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض» (إش ٤٩: ٦). ثم يشرح إشعياء النبي عمل النور في يعقوب: «قائلاً للأُسرى اخرجوا. للذين في الظلام اظهروا» (إش ٤٩: ٩). وبالمثل يأخذ إنجيل يوحنا نفس المبادرة لإبن الإنسان ليكون نوراً للذين يسرون وراءه: «أنا قد جئتُ نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة» (يو ١٢: ٤٦)؛ «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمسي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو ١٢: ٨)

ثم بالعودة إلى نبوة إشعياء نجد أن إرسالية «عبدى إسرائيل» تتحمل إطعام الشعب السائر وراءه ورعايتهم على المرتفعات فلا يجوعون ولا يعطشون: «على الطرق يرعون وفي كل الهضاب مرعاهم. لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضرهم حر ولا شمس لأن الذي يرحمهم يهديهم وإلى ينابيع المياه يوردهم» (إش ٤٩: ١٠ و ٩). وإذا فحصنا إنجيل يوحنا نجد المطابقة لا تزال دقيقة ومتسقة مع النبوة: «أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى — من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية — أنا هو خبز الحياة. من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو ١٠: ٩؛ ٤: ١٤؛ ٦: ٣٥)

ولا يتوه عن بالننا أن في النبوة يظهر العبد (يعقوب إسرائيل) مرة أنه «إسرائيل» كشعب، ومرة أخرى يُعرّف بأنه «إسرائيل» فرد كرسول من الله. ومعنى استعلاني تكون الفردية الشخصية، والجماعية الشعبية ملتحمتان يستحيل التفريق بينها لأنها من صميم الشخصية ومن صميم العمل والإرسالية معاً. وهذا هو نفسه التعريف بمفهوم وبمضمون «ابن الإنسان» في إنجيل يوحنا.

وعلى أساس هذا المعنى العميق الذي يحويه «ابن الإنسان»، أي الإتحاد والإلتحام بين ابن الإنسان وبين شعبه المفدى = قديسي العلي = البشرية الجديدة، يمكن أن نفهم الآن المعنى العميق الذي يحتويه سر الإفخارستيا: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦)، «الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم» (يو ٦: ٥٣)، «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيم في اليوم الأخير» (يو ٦: ٥٤). فما معنى هذا على ضوء مفهوم «ابن الإنسان»؟ واضح أن الإتحاد والإلتحام «بابن الإنسان» هو رسالة المسيح، وهو هبته العظمى للقديسين، وهو صفته الذاتية والشخصية؛ لأن معنى «ابن الإنسان» يحمل حتماً الإتحاد بشعب الله، لذلك فأكل جسده وشرب دمه هو أعلى مفهوم جوهرى منبثق من طبيعة المسيح وأعظم ضمان للإتحاد بابن الإنسان والحصول على الحياة الأبدية فيه، الأمر الذي من أجله نزل من السماء — تجسد — وصعد إلى السماء ليكمله، أما في اليوم الأخير فسيستعلنه!! أي أن لقب «ابن الإنسان» يفسر رسالة المسيح كلها بل يكشف عن كل مقاصد الله فيه من نحونا! وربما نعر على أسرار ابن الإنسان أكثر في مضمون هذه الآية العجيبة «لأنه يولد لنا ولد ونُعطي ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام.» (إش ٩: ٦)

٤ — « ابن الله »

ὁ υἱὸς τοῦ θεοῦ

في إنجيل القديس يوحنا

لقب « الكلمة » كأساس لإستعلان بنوة المسيح لله:

حينما افتتح القديس يوحنا إنجيله بتسميته المسيح « الكلمة » = λόγος لم يكن هذا اللقب أول تسمية للمسيح تحمل تعليماً للكنيسة يفيد الصفة الوظيفية والتعبير اللاهوتي الخاص بالمسيح. كذلك فهذا اللقب لا يمتُّ إلى الحيك الشعري أو التصور البشري ولكنه حقيقة شخصية تقوم على الواقع بالدرجة الأولى.

ونحن هنا نقدم أربعة أمثلة من كتابات القديس بولس الرسول المعتبرة من المدونات الأولى للأسفار المقدسة في العهد الجديد: توضح فكر الكنيسة الأولى عن مَنْ هو المسيح بالنسبة للقب « الكلمة ».

(١) ١ كور: ٢١-٢٤ :

« إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة... لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة... وأما للمدعوين (أي المختارين) يهوداً ويونانيين فبالمسيح «قوة الله» و«حكمة الله». فالمسيح هنا هو القوة الفعالة لله والحكمة المفكرة لله.

(٢) ١ كور: ٦ :

« لكن لنا إله واحد: الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له، وربُّ واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به». وهنا المسيح هو العامل أو الفاعل في الخلق. وأيضاً الوسيط بين الله والناس.

(٣) كولوسي ١: ١٥-١٧ :

«الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة. فإنه فيه خُلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خُلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل.»

المسيح صورة الله، هنا الصورة أو الأيقونة ليست مجرد طبعة طبق الأصل منظورة للأصل غير المنظور، بل استعلان ذاتي يستمد وجوده وذاته وحياته من الأصل ذاته، فهو ذات من ذات ووجود من وجود وحياء من حياة. الأول غير منظور والثاني منظور. فالتطابق مطلق وبالتالي فالتكامل مطلق.

(٤) عب ١: ٣ و٢:

«الله... كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين. الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته...»
هنا واضح أن المسيح هو «كلمة الله» لنا، «وابن الله» و«فعل الله» الخالق. والخلقة هنا المُستندة للمسيح هي عالم الروح والسماوات وعالم الأرض جميعاً. كذلك فالمسيح هنا هو المجد المنظور لمجد الله الأب غير المنظور والصورة أي الرسم المدرك لجوهر الله غير المدرك، والذي يحمل كل شيء أي يجمع ويحوي ويسيطر على كل ما في الوجود بقوته الناطقة، أي بتدبير قوته الفكرية.

هكذا نجد أن بلوغ القديس يوحنا إلى تسمية المسيح في وجوده السابق على التجسد «بالكلمة» في مفهومها المطلق غير المحدود كأساس لإستعلان بنوته لله بعد ذلك، إنما يمثل الخطوة الأخيرة في الطريق الذي عبر عليه الوحي الإلهي منذ البدء في تشخيص المسيح طبقاً لجوهره وأعماله وعلاقته الفريدة بالأب الذي انتهى بتجسده وتأنسه.

صفات المسيح في إنجيل القديس يوحنا تثبت أنه ابن الله:

وإذا درسنا محتويات إنجيل يوحنا فلن يكون من الصعب أن نبلغ إلى لقب «ابن الله» كلقب هو الأكثر مناسبة للمسيح، فجميع أقواله وأعماله تثبت بكل جرأة وتأكيد العلاقة الوثيقة والإتحاد الكامل مع أبيه. كما يؤكد هو ويشهد لنفسه أنه ابن الله (يو ١٠: ٣٦).

والعوامل التي تبرز شخص المسيح وتكشف عن لاهوته وبنوته الفريدة لله كثيرة:

١ - فعرفة المسيح بكل الناس معرفة كاشفة لأفكارهم ونياتهم ومستقبل تصرفاتهم توضح حقيقة لاهوته. فهو قادر دائماً أن يقرأ ما في القلوب ويرد على الأفكار الخائرة دون سؤال:
+ «ورأى يسوع نشنائيل مقبلاً إليه فقال عنه هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه، قال له نشنائيل من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك. أجاب

نشائيل وقال يا معلم أنت ابن الله.» (يو: ٤٧-٤٩)

+ «وآمن كثيرون باسمه... لكن يسوع لم يأتهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع ولأنه لم يكن محتاجاً أن يشهد أحد عن الإنسان لأنه علم ما كان في الإنسان.» (يو: ٢٣-٢٥)

+ «أجابت المرأة وقالت: ليس لي زوج. قال لها يسوع: حسناً قلتِ ليس لي زوج، لأنه كان لك خمسة أزواج والذي لك الآن ليس هو زوجك، هذا قلتِ بالصدق. قالت له المرأة يا سيد أرى أنك نبي.» (يو: ١٧-١٩)

+ «لكني قد عرفتكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم.» (يو: ٥: ٤٢)

+ «ولكن منكم قوم لا يؤمنون. لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يُسلمه.» (يو: ٦٤: ٦٤)

+ «فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من تطلبون.» (يو: ١٨: ٤)

٢ - بل ويعلم من هو ومتى كان !!:

+ «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن ἔγω εἶμι» (يو: ٨: ٥٨). وترجمتها الدقيقة: «قبل أن يأتي إبراهيم إلى الوجود أنا كائن.»

٣ - ويعلم مدى سلطانه وماذا وضع الله في يديه ومن أين أتى وإلى أين يذهب:

+ «الآب يجب الإين وقد دفع كل شيء في يده.» (يو: ٣: ٣٥)

+ «يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي...» (يو: ١٣: ٣)

+ «وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأنني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتى ولا إلى أين أذهب.» (يو: ٨: ١٤)

+ «خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب.» (يو: ١٦: ٢٨)

٤ - ويعلم ماذا سيعمل ومتى يكمل العمل:

+ «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل فلكني يتم الكتاب قال أنا عطشان.» (يو: ١٩: ٢٨)

٥ - وفي حضرته ليس التلاميذ فقط كانوا يخافونه بل وبيلاطس نفسه:
+ «نظروا يسوع ماشياً على البحر مقترباً من السفينة فخافوا.» (يو: ٦: ١٩)
+ «أجاباه اليهود: لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله. فلما سمع
بيلاطس هذا القول إزداد خوفاً.» (يو: ١٩: ٨ و ٧)

٦ - وحينما استنار المعمدان بالروح استطاع أن يتعرف على من هو المسيح:
+ «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو: ١: ٣٤)
+ «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع... الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع.» (يو: ٣: ٣١)
+ «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو: ٣: ٣٥)
+ «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة أبدية بل يمكث عليه
غضب الله.» (يو: ٣: ٣٦)

على أن معنى «غضب الله» بالمفهوم الإيجابي الروحي في إنجيل يوحنا، هو الانفصال عن دائرة
حب الله والحياة معه المعلنة في ابنه.

كذلك عمومية رسالة المسيح في إنجيل يوحنا: برفع خطية العالم، خلاص العالم، دينونة العالم،
إنارة كل إنسان آت إلى العالم، رعاية حظائر أخرى غير حظيرة إسرائيل، وموته ليس عن أمة اليهود
فقط بل وليجمع أبناء الله المتفرقين، وقد رأى فيه السامريون عن خبرة أنه «مخلص العالم»
(يو: ٤: ٤٢)؛ هذه العمومية المطلقة سواء لخلاص العالم أو دينونة العالم توضح ارتفاع وعلو شخصية
المسيح فوق مستوى النبوة العادية بدون قياس.

وأعمال المسيح الإلهية المطابقة لعمل الله والصادرة من إرادة الآب تشهد لبنوته ومساواته للآب،
ووحده معه. وهذا ما ركز عليه المسيح نفسه في شهادته لبنوته للآب.

«الآب» و«الإبن» في إنجيل القديس يوحنا:

وقد ورد في إنجيل يوحنا تعبير «الإبن» بصفته المطلقة بدون ذكر الآب كما ورد تعبير
«الآب» بدون ذكر الإبن، كما يتبادل لفظ «الآب» مع لفظ «الله» عند ذكر إرسال الإبن.
وكل منها - أي الآب والإبن - له أعمال وله صفات الألوهة متبادلة دون أي تمييز «بتساوي
مطلق» مما يستبعد أي ثنائية في الطبيعة. ثم يعود الإنجيل ويذكر الآب والإبن في توافق وحب
ومجد وكرامة وإرادة ومشية وفكر وقول وعمل واحد مما يؤكد «الوحدة» المطلقة في الذاتية.

ومن التساوي المطلق بين الآب والإبن مع تبادل الوجود والكيان، يوضح قيام شخصين

متعادلين أو كما تسميهم الكنيسة أثنومين: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني» (يو: ٨: ١٨)، «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو: ٥: ١٧). ثم من واقع إتحداهما إتحداءً مطلقاً: «أنا في الآب والآب فيّ» (يو: ١٤: ١٠)، و«أنا والآب واحد» (يو: ١٠: ٣٠)، يتضح أنهما ذات واحدة!!

فالآب والإبن لهما طبيعة واحدة أي جوهر إلهي واحد وهما ذات واحدة؛ بمعنى أن الذات الواحدة لله تحمل الأبوة والبُنوة معاً. وهذا ليس غريباً عن واقع أي «ذات». فالذات البشرية هي مجد ذاتها أب وابن معاً لا يفرقهما إلا الزمن. فكل أب كان ابناً، وكل ابن يمكن أن يصير أباً والذات هي هي. ولكن لا يوجد في ذات الله عامل الزمن فهو أب وابن دائماً ومنذ الأزل ولم يكن الله قط أباً بدون ابن ولا كان ابناً بدون أب. فكيفانها واحد وكل واحد كائن في الآخر. وهذا هو سر الله أو سر اللاهوت الذي كان مخفياً عن عقل الإنسان وإدراكه إلى أن أعلنه الله بإرساله ابنه — متجسداً علناً — لتجديد خلقة الإنسان.

أولاً: الإبن: ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة:

- ١٤: ١ «مجد كما لوحيده لأبيه» δ μονογενής .
- ١٦: ٣ «أحب الله العالم حتى بذل الإبن الوحيد» (بحسب الأصل اليوناني).
- ١٧: ٣ «لم يرسل الله الإبن إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم» (بحسب الأصل اليوناني).
- ٣٥: ٣ «الآب يحب ،، الإبن ،، وقد دفع كل شيء في يده» .
- ٣٦: ٣ «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية» .
- ٣٦: ٣ «الذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» .
- ١٩: ٥ «لا يقدر الإبن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل» .
- ١٩: ٥ «لأن مهما عمل ذلك (الآب) فهذا يعمله الإبن كذلك» .
- ٢٠: ٥ «لأن الآب يحب ،، الإبن ،، ويريه جميع ما هو يعمل» .
- ٢١: ٥ «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك ،، الإبن ،، أيضاً يحيي من يشاء» .
- ٢٢: ٥ «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للإبن» .
- ٢٣: ٥ «لكي يكرم الجميع ،، الإبن ،، كما يكرمون الآب» .
- ٢٣: ٥ «من لا يكرم ،، الإبن ،، لا يكرم الآب الذي أرسله» .

- ٢٦:٥ : «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى ,, الإبن,,، أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» .
- ٤٠:٦ : «كل من يرى الإبن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» .
- ٣٥:٨ : «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد، أما ,, الإبن,,،، فيبقى إلى الأبد» .
- ٣٦:٨ : «فإن حرركم ,, الإبن,,،، فبالحقيقة تكونون أحراراً» .
- ١٣:١٤ : «مهما سألتكم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب ,, بالإبن,,،» .
- ١:١٧ : «أيها الآب قد أتت الساعة، مجدّ ,, ابنك,,،، ليجدك ,, ابنك,,، أيضاً» .

ويلاحظ أنه ورد في ١٦:٣ و١٧ أن الإبن منسوب «لله» بكل وضوح عوض «الآب»، كما في مواضع أخرى كثيرة: «الله... بذل الإبن» (١٦:٣)، «الله أرسل الإبن» (١٧:٣)، هنا ترتاح كلمة «الآب» بعد ذلك في كل مواضعها على «الله» بدون اهتزاز.

كذلك يلاحظ أن هذه الشواهد كلها تقريباً نطقها «المسيح» بنفسه، فأوضح أنه هو هو «الإبن» كما قال بوضوح: «أنا أتكلّم بما رأيت عند أبي..» (يو٨:٣٨)

فإذا بحثنا في الشواهد الخاصة بالإبن التي وردت عليه لنستخلص منها رسالة «الإبن» الخاصة به والتي تفوق قامته أي نبي بل وجميع الأنبياء والملائكة والرؤساء معاً، نلخصها في الآتي:

١ - إرسالية «الإبن» من «الله» أو «الآب» للعالم كله!! كرسالة خلاص نحو العالم؛ تتناسب مع العلاقة التي تربط الآب بالإبن، قام بها الإبن بصورة كاملة وفائقة.

٢ - انتقال محبة الله إلى العالم عن طريق محبة الآب للإبن.

٣ - قيام الإبن بأعمال خير وصلاح نحو العالم هي أصلاً أعمال الله الخاصة لم يكن ممكناً أن يقوم بها إلا الآب شخصياً.

٤ - تقديم الطاعة والمحبة والمجد لله الآب. قام بها الإبن نيابة عن العالم فكانت أعظم عمل تقبله الله الآب من البشرية؛ جاء على مستوى عظيمته.

٥ - رفع حالة الإنسان عامة من حالة العبودية إلى حالة النبوة لله، كعمل يستحيل أن يقوم به إلا الإبن بمؤهلاته الخاصة جداً.

٦ - إيجاد علاقة حب صميمية بين البشرية والله الآب تسمح بأن يطلب الإنسان من الله مهما يشاء باسم ابنه فيستجيب الله بتوسط شفاعته الإبن عند الآب.

٧ - كل مخصصات الإبن عند الآب من حب ومجد وحياة أبدية سلمه الإبن للبشرية «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو١٧:٢٢)

ثانياً: «الآب»: ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة:

أ - الآب الذي أرسلني:

- ٣٦:٥ «هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني.»
٣٧:٥ «والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي.»
٤٤:٦ «لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه ,, الآب ,, الذي أرسلني.»
٥٧:٦ «كما أرسلني الآب الحي وأنا حيٌّ بالآب، فَمَن يأكلني فهو يحيا بي.»
١٦:٨ «وإن كنت أنا أدين فدينونتي حق لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني.»
١٨:٨ «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي ,, الآب ,, الذي أرسلني.»
٣٦:١٠ «فالذي قدّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله.»
٤٩:١٢ «لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم.»
٢٤:١٤ «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل ,, للآب ,, الذي أرسلني.»
٢١:٢٠ «فقال لهم يسوع أيضاً: سلام لكم. كما أرسلني الآب أرسلكم أنا.»

وضع لفظ «الله» بدل «الآب» في إرسال الإبن:

- ١٧:٣ «لأنه لم يرسل ,, الله ,, ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم.»
٣٤:٣ «لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله.»
٢٩:٦ «أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل ,, الله ,, أن تؤمنوا بالذي هو أرسله.»
٤٢:٨ «لأني خرجت من قِبَلِ الله وأتيت. لأني لم آت من نفسي.»

المسيح يخاطب الآب في الصلاة بصفته الإله الحقيقي الذي أرسله:

- ١١:٤١ و٤٢: «ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي... ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت. ليؤمنوا أنك أرسلتني.»
٣:١٧ «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.»

- ٨:١٧ «وهم قَبِلُوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني» .
- ١٨:١٧ «كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم» .
- ٢١:١٧ «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني» .
- ٢٣:١٧ «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكمّلين إلى واحد وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني» .
- ٢٥:١٧ «أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتك وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني» .

ب - الآب يعطي الإبن :

- ١١:١٧ «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك ،، الذي أعطيتني ،، ليكونوا واحداً كما نحن .» (٨)
- ١٢:١٧ «حين كنت معهم في العالم كنت أحفظهم في اسمك الذي أعطيتني» .
- ٢٢:١٧ «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أنا نحن واحد» .
- ٢٤:١٧ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا» .
- ٨:١٧ «لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم» .
- ٣٦:٥ «وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكمّلها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني» .
- ٤:١٧ «أنا مجدّتك على الأرض . العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» .
- ٣٥:٣ «الآب يحب الإبن وقد دفع (أعطى) كل شيء في يده» .
- ٣:١٣ «يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع (أعطى) كل شيء إلى يديه» .
- ٢٦:٥ «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» .
- ٢٢:٥ «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للإبن» .
- ٢٧:٥ «وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان» .
- ٢:١٧ «مجدّ ابنك ليجدّك ابنك أيضاً إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته» .
- ٣٧:٦ «كل ما يعطيني الآب فالّي يُقبل ومن يُقبل إليّ لا أخرجه خارجاً» .

(٨) بحسب الأبحاث ومراجعة المخطوطات الموثوق بها ثبت صحة «... اسمك الذي أعطيتني»، وليس «... الذين أعطيتني» .

أنظر: Schnackenburg, According to St. John, vol. 3, p. 179.

- ٣٩:٦ «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير» .
- ٢٩:١٠ «أبي الذي أعطاني إياها (الخراف) هو أعظم من الكل» .
- ٦:١٧ «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم» .
- ٧:١٧ «والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك» .
- ٩:١٨ «ليتّم القول الذي قاله إن الذين أعطيتني لم أهلك منهم أحداً» .
- ٣٢:٦-٣٥: «أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء: لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم... أنا هو خبز الحياة...»
- ٥١: الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» .

وهذه هي أعظم عطية أعطهاها الله الآب للعالم على أساس المحبة، أعطاه المسيح مبدولاً من أجل حياة العالم حتى لا يهلك كل من يؤمن به!

- ١٢:٤٩ و٥٠: «لأنني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته (تُختم بالصليب) هي حياة أبدية» .
- ٣١:١٤ «ولكن ليفهم العالم أني أحب الآب وكما أوصاني الآب هكذا أفعل» .
- ١٨:١٠ «ليس أحد يأخذها (أي نفسه) مني بل أضعها أنا من ذاتي (أموت بإرادتي). لي سلطان أن أضعها (أموت) ولي سلطان أن آخذها أيضاً (القيامة) هذه الوصية قبلتها من أبي!!» .
- ١٠:١٥ «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبتت في محبته» .
- ١١:١٨ «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغمد. الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» .
- وكانت هذه العطية هي لمجد المسيح وخلص العالم.

ج - الآب يحب الإبن:

كشّف سر عمق وحدة الآب مع الإبن وانعكاسها على حياة المسيح على الأرض.

- ٣٥:١٣ «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده» .
- ٢٠:٥ «الآب يحب الإبن ويريه جميع ما هو يعمله وسيره أعمالاً أعظم...» .
- ١٧:١٠ «لهذا يحبني الآب لأنني أضع نفسي لآخذها أيضاً» .

٩:١٥: «كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا».

هذه الآيات والآيات الأخرى التي توضح الإتفاق بل الإنطباق الكلي بل الوحدة المشتركة في القول والعمل والسلوك حتى الموت، هذه كلها منبعها وحدة الجوهر أي الطبيعة مُضافاً إليها عمق الحب الإلهي المطلق بين الآب والإبن. هذا الذي رفع سيرة المسيح إلى مستوى الألوهة في كل شيء ولكنها ألوهة تفيض بالحب والحنان والإنعطاف الفائت نحو البشر. فهي قوة لاهوت مصبوبة في قالب من العواطف البشرية التي تسمو فوق قامة البشر. وهذا بالتالي ينطق بالعلاقة التي تربط المسيح بالله فهي فعلاً وبالضرورة علاقة ابن بآب، إنما على مستوى لاهوت. أو كيف يمكن أن يقول المسيح «قد أعطيت كل سلطان في السماء وعلى الأرض»؟ أو «كل شيء دُفع في يدي»؟ أو أن كل الدينونة أعطيت لي؟ أو أنه يعطي الحياة الأبدية ويقم من الموت الجسدي والروحي؟ أو أن الآب يمجده عند ذاته بالمجد الذي له قبل كون العالم؟ أو أنه في الآب والآب فيه أو أنه يعرف كل ما عند الآب؟ أو أن كل ما للآب هو له أو أنه هو والآب واحد؟ لهذا قال المسيح عن حق أن مَنْ يعرفه يعرف الآب وَمَنْ يراه فقد رأى الآب!! وكانت هذه منتهى رسالته في استعلان الله.

د – الآب يشهد للإبن (١)، يضمن ويساند ويحتم:

٣٧:٥: «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي».

١٨:٨: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني».

واضح من كل ما سلف من الآيات أن الآب أرسل الإبن فصار يضمن رسالته ويساندها وخاصةً فيما يضطلع به الإبن من استعلان حقيقة الله وعمل الخلاص الذي جاء ليكمله. كما هو واضح أنه وقف وراء كل الأعمال والأقوال: «لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم.» (يو١٢: ٤٩ و٥٠)

كما أنه واضح أيضاً كيف يساند الآب كل مجهودات الإبن فهو الذي يجذب المهتئين للإيمان ليُقبلوا إليه (يو٦: ٣٧ و٤٤)؛ كما يساند بشهادته سواء العلنية من السماء بالصوت المسموع (يو١٢: ٢٨) أو بالأعمال التي تبرز مجد الإبن (يو٥: ٣٦). وما شهادة المعمدان للمسيح التي كان لها أكبر الأثر في بدء الخدمة إلا تدخلُ مباشر من الآب. كما أن إرسال الروح القدس لتكميل الشهادة ولموازة عمل المسيح وتكميله وتمجيده ما هي إلا تديرٍ خاص من الآب. بل وأيضاً فإن

(٩) أنظر الباب الثالث، الفصل الأول ص ١١٢.

قبول واستجابة صلاة المؤمنين باسم المسيح هي مجد ذاتها تمجيد للآب وللإبن وتركية فائقة لعمله :
 «ومها سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالإبن» (يو ١٤: ١٣)؛ «في ذلك اليوم تطلبون
 باسمي. ولست أقول لكم: إني أسأل الآب من أجلكم لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد
 أحببتموني وآمنتم أتي من عند الله خرجت.» (يو ١٦: ٢٦ و٢٧)

ثالثاً: «أبي»: ورود الكلمة بصورتها التخصصية في فم المسيح:

كثيراً ما يدعو المسيح الله الآب أباً خاصاً له «أبي»:

- ١٦: ٢ : «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» .
 ١٧: ٥ : «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» .
 ٤٣: ٥ : «أنا قد أتيت باسم أبي» .
 ٣٢: ٦ : «أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء» .
 ١٩: ٨ : «لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» .
 ٢٨: ٨ : «أتكلم بهذا كما علمني أبي» .
 ٤٩: ٨ : «لكني أكرم أبي وأنتم تهينوني» .
 ٥٤: ٨ : «أبي هو الذي يمجّدي» .
 ١٨: ١٠ : «هذه الوصية قبلتها من أبي» .
 ٢٥: ١٠ : «الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي» .
 ٢٩: ١٠ : «أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد
 أبي» .
 ٣٢: ١٠ : «أعمال كثيرة حسنة أريتمكم من عند أبي» .
 ٣٧: ١٠ : «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي» .
 ٢: ١٤ : «في بيت أبي منازل كثيرة» .
 ٧: ١٤ : «لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» .
 ٢٠: ١٤ : «في ذلك اليوم تعلمون أنني أنا في أبي وأنتم فيّ وأنا فيكم» .
 ٢١: ١٤ : «الذي يحبني يحبه أبي» .
 ٢٣: ١٤ : «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي» .
 ١: ١٥ : «أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرام» .
 ٨: ١٥ : «بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذي» .
 ١٠: ١٥ : «كما أنني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته» .

- ١٥:١٥ : «لأنِّي أَعَلَّمْتِكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَهُ مِنْ أَبِي» .
 ٢٤:١٥ : «أَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي» .
 ١٠:١٦ : «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَلَا تَرَوْنِي أَيْضاً» .
 ١٧:٢٠ : «إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهُكُمْ» .

لم يجرؤ أحد غير المسيح أن يدعو الله أباً خاصاً له بهذا المعنى الفريد «أبي». فنحن ندعو الله «أبانا» بمعنى أنه أب لجميعنا بالتساوي، وأما أن يدعو أحد «أبي» فهذا يعني أن له بنوة فريدة من نوعها أي أنه «الإبن الوحيد». ولم يُقْتِ على الفريسيين ما في هذه العبارة من خطورة إذ لما قال لهم المسيح «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» أرادوا أن يرحموا بتهمة أنه «دعا الله أباً خاصاً له *πατέρα ἰδίου* جاعلاً نفسه مساوياً لله *ἴσον τῷ θεῷ*» (يوه: ١٨) — بحسب الأصل اليوناني). فعبارة «أبي» في فم المسيح تعني أن المسيح يعتبر نفسه ابن الله الوحيد بل والمساوي أيضاً للآب، بشهادة الفريسيين أنفسهم!

ويلاحظ أن في إنجيل يوحنا كله لا نجد أي ذكر لله بأنه أب لنا إلا مرة واحدة فقط في الآية الأخيرة التي ذكرناها، وهي التي قالها الرب للمجدلية بعد القيامة «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». فالقديس يوحنا يحتجز إعلان أبوة الله لنا إلى ما بعد القيامة (بخلاف الأنجيل الثلاثة الأولى — أنظر مثلاً مت ٦: ٣٢). وفي هذا إشارة لاهوتية إلى أن بنوتنا نحن لله لم تتحقق بالفعل إلا بعد الصليب والقيامة، أي بعد أن دفع ثمنها الإبن الوحيد. وفي نص هذه الآية «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» ما يفيد التبادل الخلاصي العجيب الذي تم بيننا وبين «ابن الله». فالله أصلاً ليس أباً لنا بل هو أب للإبن الوحيد، وأما لنا فهو إلهنا ونحن عبيد له، كذلك الله لم يكن أصلاً إلهاً للإبن الوحيد بل أب مساوٍ في الكرامة والألوهة، ولكن لما تجسد صار الله إلهاً للإبن الإنسان!!

فلما اشترك ابن الله في حال عبوديتنا، أشركنا معه في بنوته، فصار أبوه الخاص أباً لنا نحن أيضاً. «هو أخذ الذي لنا (حال عبوديتنا فصار الله إلهنا له)، وأعطانا الذي له (البنوة لله فصار الله أباً لنا) فلنسبحه ولنجدده ولنزيده علواً»!

لكن لينتبه القارئ! فإن بنوتنا نحن لله لا يمكن أبداً أن تتساوى مع بنوة «ابن الله» الوحيد. فنحن أبناء بالتبني، وأما هو فهو يتي الإبن الوحيد بحسب الطبيعة والجوهر. وإمعاناً في إبراز الفرق بين بنوتنا نحن لله وبنوة الإبن الوحيد، يتبع القديس يوحنا قاعدة ثابتة في كل إنجيله ورسائله ولا يحيد عنها ولا مرة واحدة، وهي أنه يدعونا نحن باستمرار «أولاد الله» *τὰ τέκνα τοῦ θεοῦ* ،

بينما يحتجز للمسيح وحده لقب «ابن الله» ὁ υἱὸς τοῦ θεοῦ

الطريق من الآب وإليه:

لقد افتتح الآب بنفسه الطريق من السماء إلى قلب الإنسان بإرساله الإبن، كما افتتح الإبن بموته على الصليب وارتفاعه الطريق من الإنسان إلى قلب الله. وبمنتهى رضى الآب أعد الإبن منازل كثيرة في بيت الآب مهياً لاستقبال من سيأخذهم إلى هناك «ليكونوا حيث يكون هو»، «وليتبعوا الخروف أينما سار».

الآب هنا يأخذ على عاتقه تكريم محبي ابنه ويقبلهم ويحبهم «لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأعد لكم مكاناً. وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتى أيضاً وأخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً. وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق... أنا هو الطريق... ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي... لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه... الذي رأي فقد رأى الآب.» (يو: ١٤: ١-٩)

* * *

في جميع هذه الآيات التي انتخبناها والتي تخص «الإبن» والتي تخص «الآب» تتضح العروة الوثقى التي تربط الآب بالإبن، وتُستعلن أعماق الصلة بينها التي تؤلف جوهر الديانة المسيحية ومنهجها وقوة الخلاص القائمة على هذه الصلة والناعبة منها والتي تصب فيها^(١٠). حيث محور المسيحية الأساسي وقلبا النابض وسرّها المعلن يتركز في صفة المسيح الجوهرية التي تجسد بها: أنه «ابن الله». فهي كلمة السر أو مفتاح الإستعلان الذي به ندخل إلى الله الآب وإلى مضمون الخلاص والحياة الأبدية وتجديد الإنسان. بل ونكتشف من هذه الصلة أسرار الحب الإلهي بين الآب والإبن والعمل المشترك النابع من هذا الحب بائتلاف يفوق الوصف حباً في الإنسان وخلاصه وإعادةه إلى كرامته الأولى.

ومن نجاح المسيح المذهل في طاعة الآب لتكميل إرادة الخلاص التي حملها إلى الأرض حتى الموت، وتكريمه وتمجيده للآب على الأرض وتكيله للعمل الذي أعطاه إياه، وفتح باب الخلاص الأبدي وإعلان بدء ملكوت الله بكل قدرة وسلطان، الذي نال عليه كل المجد «مجدت وأمجد أيضاً» يتضح بأبلغ بيان أنه حقاً «ابن الله».

(١٠) أنظر هامش (١) ص ١١٣.

أما إرسال الروح القدس «روح الموعد القدوس» حسب وعد الإبن الذي تم علنا لتكميل الشهادة والرسالة التي اضطلع بها «ابن الله»، والذي لا يزال يعمل حتى اليوم وهذه الساعة في كل أنحاء العالم؛ فهو ختم صدق الله والمسيح الذي نتمسك به حتى الموت.

وبهذا صار «ابن الله» هو رأس مال الكنيسة وأساسها وجوهر لاهوتها وقوة خلاصها وفخر مسيحيتها.

وهكذا وفي ختام بحثنا عن «ابن الله»، وهي الصفة الجوهرية القائمة في الله التي استعلنت في المسيح وكانت هي سر حياته وموته وقيامته والتي صارت أساساً للاهوت المسيحي، نجد أن هذه الصفة في إنجيل يوحنا مُعلنة بصورة عملية بعيداً عن مجادلات الفكر كحقيقة ينصبُّ عملها في خلاص الإنسان على أساس الفداء، أي الموت الذي جازه المسيح عن البشرية كلها وقيامته التي أنهى بها حكم الموت عن الإنسان.

وبذلك صار جوهر الإيمان المسيحي هو التجديد الروحي الكلي للمؤمن الذي صنعه المسيح بدمه وروحه ليؤهله للحياة الأبدية مع الله: «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله»، «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله»، «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح.» (يو ٣: ٥ و ٦)

— «عمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس.» (مت ٢٨: ١٩)

— «مَن آمن واعتمد خلص.» (مر ١٦: ١٦)

٥ — «أنا هو» = ἐγώ εἰμι

وهو لقب الكينونة الإلهية

ينفرد إنجيل يوحنا دون بقية الأناجيل في استخدام هذا اللقب كما هو في أسفار العهد القديم بصورة مكثفة، فقد ورد فيه هذا اللقب على لسان المسيح ٢٦ مرة في حين ورد في الأناجيل الثلاثة الأخرى أربع مرات.

ويُعتبر هذا اللقب لقباً استعلائياً في إنجيل يوحنا، فهو يلفت النظر أن المتكلم هو نفس المتكلم في أسفار العهد القديم: «أنا هو الرب»، «أنا هو الرب الإله».

ويزيد إنجيل يوحنا في الإمعان للتأكيد على استعلان المسيح بهذا اللقب، بأن جعله اسماً شخصياً للمسيح في بعض المواضع، تماماً كما جاء كذلك في بعض مواضع العهد القديم للتعبير عن اسم الله. بل ويزيد على ذلك — ولكن بصورة استعلائية يكشف فيها مصدر الاسم — بأن يقول المسيح لله: «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذي أعطيتني» (يو ١٧: ١١)؛ و«حين كنت معهم في العالم كنت أحفظهم في اسمك الذي أعطيتني» (يو ١٧: ١٢). بمعنى أن اسم المسيح «أنا هو» الذي نادى به هو «اسم الله» الذي أعطاه الله للمسيح ليتكلم به معلناً أنه هو هو كلمة الله وأنه هو رسالة الله الشخصية، وهو حينما يتكلم فالله هو المتكلم.

وبسبب أهمية هذه الحقيقة ووضعها اللاهوتي الخطير، أوليناه عناية فائقة لما يضيفه هذا اللقب على المسيح في إنجيل يوحنا من قيمة استعلائية تفوق في وزنها كثيراً الإعتبارات الأخرى.

ولهذا رأينا أن نقدم مختصراً نبحت فيه أصول هذا اللقب ومعانيه. وقد رتبنا هذا البحث على

النحو الآتي:

أولاً: لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι» في أسفار العهد القديم.

ثانياً: لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι» في إنجيل يوحنا.

ثالثاً: مقارنة للمضاهاة.
رابعاً^(١١): فحص الأهداف الخلاصية لهذا اللقب على المستوى اللاهوتي المسيحي.

(١١) لم تُكتب كعنوان محدد، ولكن سنركّز اهتمامنا في أثناء عرضنا هذه الثلاثة فقط على فحص الأهداف الخلاصية لهذا اللقب على المستوى اللاهوتي المسيحي.

أولاً : لقب «أنا هو Eγώ ειμι» في أسفار العهد القديم

جاء «أنا هو» في كلام الله خلال أسفار العهد القديم أول ما جاء ليعبر عن اسم الله، كما أعلمه إبراهيم أولاً ثم موسى ثم شعب إسرائيل، ولكن بألفاظ متغيرة سنأتي على ذكرها جميعاً.

واسم الله في الحقيقة ليس، كأبي اسم مجرد، اسم عَلِمَ يُعرف به الإنسان من بين الناس، ولكن اسم الله جاء يحمل طبيعة الله وصفاته، وهي عناصر أساسية يتكون منها الإسم، وصارت هي نفسها عناصر الإيمان بالله نفسه. لذلك يمتنع معرفة الله إلا إذا آمن الإنسان بعناصر هذا الإسم الذي تحوطه الأسرار والهيبة والجلال.

فالذي يؤمن بإسم الله هو الإنسان الذي عرف طبيعة الله وأدرك صفاته وبالتالي انضوى تحت سلطانه وخضع لمشيئة صفاته. من هذا نفهم لماذا كان «الإسم»، أي اسم الله، محل رهبة ومحافة وحذر شديد. وتمثّلنا النسخة السبعينية لترجمة التوراة بالنص الأصلي والصحيح للآية لاويين ١٦:٢٤: «كل من نطق بإسم الرب موتاً يموت، كل جماعة إسرائيل ترجمه بالحجارة سواء كان دخيلاً أو مواطناً، يموت لأنه نطق بإسم الرب». ولكن الترجمة العربية أوردتها: «كل من جدّف». إن اسم الله كان غير كلمة «الرب». أما كلمة «الرب» فقد وُضعت مكانها تقادياً لنطق الإسم الذي كان عليه هذا التحذير، وسيأتي الكلام عليه.

اسم الله: يَهُوَه YHVH

نقرأها في سفر الخروج ٣:١٥: «وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يَهُوَه (١٢) إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم».

ويوه بحروفها اللاتينية YHVH (١٣) بدون تشكيل وردت بالإنجليزية Yahwah. ولكن في عصر النهضة حوالي سنة ١٦٠٠م عُدّلت الكلمة فصارت تُكتب Jehova، غير أن الكلمة «يَهُوَه» بنطقها الأصلي ضاعت معالمها وطريقة نطقها من اللسان اليهودي، وذلك منذ حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد بسبب إحجامهم عن كتابتها أصلاً في الأسفار، إذ بسبب الخوف والرهبة من هذا الإسم

(١٢) جاء في هامش الكتاب المقدس - طبعة بيروت - تفسيراً لهذه الكلمة هكذا: [يوه في العبرانية اسم علم للإله الحقيقي معناه «يكون» وقد تُرجم في هذه الترجمة بلفظة «رب»].

(١٣) أنظر: Oxford Dict. of Chr. Chur.: Yahwah

استبدلوه بالكلمة العبرية «أدوناي» التي في العربية «الرب»، وفي الإنجليزية Lord ، وفي اليونانية κύριος كما جاءت في النسخة السبعينية، وفي اللاتينية Dominus كما جاءت في القولجاتا، وفي الألمانية Herr ، وفي الفرنسية Seigneur .

أصل كلمة يهوه وعلاقتها بـ «أنا هو» εγω ειμι :

أول ما جاءت كلمة «يهوه» كما سبق وقلنا كانت في سفر الخروج كتلقين من الله لموسى ليُعلم بها شعب إسرائيل. ولكن جذورها الأولى ظهرت في آية سابقة في نفس الأصحاح: «فقال موسى لله ها أنا أتى إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي: ما اسمه؟ فإذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: «أهيه الذي أهيه». وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم.» (خر: ١٣-١٤)

وفي هامش الكتاب المقدس - طبعة بيروت - يقدم المترجم تفسيراً عربياً للكلمة ويقول: ومعناه «أكون الذي أكون». هذا يفسر لنا معنى اسم الله فهو يعني الكائن، لأن الأصل اليوناني لهذا الإسم «أهيه الذي أهيه» هو «εγω ειμι ο ων» وترجمتها بالإنجليزية «I am the being» أي «أنا الكينونة».

وقد وصلنا التفسير العبري لهذا الإصطلاح «أهيه الذي أهيه» إذ يقول أن معناها: «I am who cause to be»، أو «I am he who cause to be». وترجمته: «أنا الذي أقيم الكيان أو الوجود» أو «أنا هو الذي أقيم الكيان أو الوجود».

أما ظهور الله لإبراهيم فقد عرّف فيه نفسه لإبراهيم هكذا: «أنا الله القدير» (تك: ١٧: ١). وجاءت بالعبرية: «إلوهيم شداي».

وقد أغلّم الله موسى أنه سابقاً لم يكن يُعرف بإسم يهوه «ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء وأما باسمي يهوه، فلم أعرف عندهم.» (خر: ٦: ٣ و٢)

بدء تدهور النطق واختفاء الكلمة «يَهْوَه» وظهور «أنا هو»:

وبسبب التحذير الواضح من نطق اسم الله كما جاء في لاويين ٢٤: ١٦ - طبعاً في غير الصلوات والتلاوات فإنهم اكتفوا بالكلمة «أدوناي» بدلاً منها - بدأ الإسم «يهوه» ينحصر في الإستخدام الطقسي فقط، ثم بعد ذلك بدأ يزحف على المخطوطات كلها، فلكي يتحاشى القارىء نطق يهوه - (التي لا نعرف الآن لا نحن ولا اليهود في كل العالم نطقها الصحيح) - وضعوا عليها

تشكيلاً من عندهم هو نفسه التشكيل الذي تنطق به أدوناي، وهو فتحة ثم ضمة ثم فتحة، حتى إذا لمح القارئ هذا التشكيل على كلمة YHVH ينطق أدوناي بدلاً عنها.

وأخيراً وفي القرن الثالث اتفق اليهود على حذف كلمة «يهوه» من المخطوطات، ووضع كلمة «أدوناي» عوضاً عنها مع البادئة «أنا هو»، حيث «هو» تأتي من كلمة «أهيه الذي هو أهيه» أي الكائن، وفي مفهومنا العربي تعني «المهوية» أي الكينونة الشخصية أو ما نسميه تحقيق الشخصية. فـ «أنا هو» تعني «أنا الكائن بذاتي». لذلك فإن «هو» تحسب في العبري في هذا الموضوع فعلاً وليس ضميراً، لذلك تجيء في الإنجليزية I am . فبدل أن كانت تُقرأ «أنا يهوه» صارت «أنا هو أدوناي»، «أنا هو الرب». وكثيراً ما تأتي «أنا هو» بدون تعريف آخر، فتكون هي التعبير الكامل عن «يهوه» أي اسم الله.

وهكذا بعد أن كان الإسم «يهوه» هو الإسم الوحيد، بدأ يزاحمه الإسم «أدوناي». فإزاء ورود «يهوه» ٦٧٠٠ مرة في كافة الأسفار في القرن العاشر قبل الميلاد، ورد لفظ «أدوناي» ٤٥٠ مرة، وكثيراً ما كان يُضاف «أدوناي» على «يهوه» للتفخيم: «السيد الرب»^(١٤). حتى جاء زمن النسخة السبعينية حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، فأُبدلت يهوه نهائياً بأدوناي = الرب δ κύριος.

ولكن بقيت «أنا هو» ἐγώ εἰμι هي التعبير المباشر للإسم «يَهْوَه». وهي شديدة التأثير على السمع، حيث تعني كما قلنا: «أنا هو الكائن بذاتي، والمقيم لكل كيان». ولا يزال هذا الإسم يهوه وعلاقته بـ «أنا هو» محل أبحاث.

أنا هو ἐγώ εἰμι :

وهي إما تجيء بمفردها لتعبّر عن الإسم الكامل لله . أو تجيء ومعها الأسماء الأخرى :

١ - «أنا هو» وباللغوية ἐγώ εἰμι .

وبالعبرية «أني هـ ani hu = אֲנִי הוּא :

٢ - أو تجيء ومعها «الرب» وباللغوية κύριος .

وبالعبرية «أدوناي adonai» .

٣ - أو تجيء ومعها «الرب الإله» وباللغوية κύριος ὁ θεός .

وبالعبرية «أني أدوناي إيل : el, elohim» .

(١٤) أنظر مثلاً تك ١٥: ٢ (אֲנִי הוּא אֱלֹהִים) (أدوناي يهوه) حيث تُرجمت «أيا السيد الرب».

ويلاحظ أنها في العبرية لا تأخذ الفعل hu «هو» = «am» فهي «أني أدوناي». أما في اليونانية فهي إما تأتي بدون فعل أو بالفعل «am» = «εγω ειμι» أو «εγω». علماً بأن إضافة «الرب»، و«الإله» أو «الرب الإله» مع «أنا هو» تعتمد على موضع اسم الله من الآية: هل يقوؤها الله للتعريف بنفسه أو للتأكيد على وجوده أو للتحذير. ولكن للأسف الشديد فإنه وبالرغم من الحساسية الشديدة من جهة الإضافة أو الحذف بالنسبة للفظ «أنا هو» للتعبير عن اسم الله، نجد النسخة العربية كثيراً ما تحذف «هو» من النص وتقول مباشرة «أنا الرب» أو «أنا الرب الإله» في حين أنها تأتي في النص اليوناني في السبعينية «أنا هو». وهذا في الحقيقة يضيّع علينا في النسخة العربية مفهوم «أنا هو» بجد ذاته في الآية. لذلك التزمنا بالرجوع إلى النص اليوناني في السبعينية في إيراد الآيات بجوار النص العربي.

وسوف يندهش القارئ حينما يعلم أن اسم الله «أنا هو» سواء جاء هكذا مطلقاً بدون إضافات أو مع الإضافات مثل «أنا هو الرب» أو «أنا هو الرب الإله»، جاء في مجموع أسفار العهد القديم ١٠٦ مرات، في حين أنه جاء في إنجيل يوحنا ٢٦ مرة، وفي بقية الأناجيل الثلاثة أربع مرات. وهذا يعني بوضوح أن إنجيل يوحنا هو إنجيل استعلافي كُتب بالروح خصيصاً ليستعلن «أنا هو الله» في كل ما يختص بـ «أنا هو» من معاني وأهداف لاهوتية.

وقد ورد هذا النص «أنا هو» في سفر اللاويين ٢٤ مرة، وفي الأصحاح التاسع عشر بمفرده ورد اثنتي عشرة مرة. وهذا بالنسبة لكونه السفر المختص بالفرائض والوصايا الهامة جداً، والتي لا يزال معظمها يُعتبر من أرقى التوصيات الأخلاقية الموروثة في العالم المتحضر مما يعني أنها كانت فرائض تأسيسية للبشرية كلها، ولذلك دَعَمَهَا بِاسْمِهِ إِزَاءَ كُلِّ فَرِيضَةٍ هَامَةٍ مِنْهَا.

كذلك ورد في سفر حزقيال ٣٢ مرة، وهو سفر الأخرويات والرؤى والنبوات عن أيام المسيا، لذلك جاءت «أنا هو» كضمان عهد وتوكيد وُعْدٍ.

أما سفر إشعياء ففي جزئه الأول ١-٤٠ المعروف بإشعياء الأول فلم يَرِدُ فِيهِ وَلَا مَرَّةً وَاحِدَةً. ولكن من أصحاح ٤١-٦١ جاء ١٩ مرة، وهو ما يسمى بسفر إشعياء الثاني، وكلها تختص بتعزية إسرائيل عمّا أصابها وبما سَيُعَوِّضُهَا بِالْحُبِّ وَالْبَرَكَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالنُّورِ فِي أَوَاخِرِ الْأَيَّامِ.

علماً بأننا أسقطنا من أمثلتنا كل الآيات التي لم يرد فيها «أنا هو» أي التي تقول «أنا الرب» أو «أنا الرب الإله»، وذلك لسبب واحد هو أننا بصدد شرح «أنا هو» ومعناها وقيمتها في إنجيل يوحنا.

وقد حدث في أيام ما قبل المسيح بمدة أن زاد التدقيق في عدم ذكر اسم «يهوه» حتى في الطقوس، فما كان من الكهنة الذين كانوا يسبحون بمزمور ١١٧ وهم يدورون حول المذبح بأوصانا أن استعاضوا بالإلهام عن يهوه في «أنا هويهوه» بأن قالوها تلقائياً «أنا وهوه»^(١٥) بدل «أنا هو يهوه» أي بإضافة واو العطف. ومنذ ذلك الحين سرت في كل الليتورجيات وفسرها المفسرون بعد ذلك (رابي فنحاس Pinchas – منتصف القرن الثاني) بأنها تعني إسرائيل كشعب «أنا وإسرائيل». ولكن الواضح أنها تعبير سرّي عن الله. وواضح أيضاً أن المسيح استخدمها أو فكّ رموزها حينما كان يقول «أنا وأبي»، «ولست أنا وحدي»، «أنا والآب الذي أرسلني».

المواضع الأساسية التي جاءت فيها «أنا هو εγώ εἰμι» في العهد القديم

لكي نخرج بفكرة عامة جامعة عن الإصطلاح المقدس «أنا هو εγώ εἰμι» الذي جاء في العهد القديم معبّراً عن شخص الله، يمكننا حصر المواضع والأسباب التي جاءت فيها «أنا هو εγώ εἰμι» في المجموعات المختارة الآتية:

١ – المجموعة الأولى:

ويأتي «أنا هو» لتستعلن شخص الله وكأنها رد على سؤال مضمّر: مَنْ أنت؟ فالله هنا يبادر بتعريف نفسه.

أ – خر ٢: ١٣ و١٤: «فإذا قالوا لي ما اسمه؟ فإذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: أهيه الذي أهيه». وقد جاءت في السبعينية εγώ εἰμι ὁ θεός ويفهمها العبرانيون أنها تعني إما: I am he who cause to be أو I am who cause to be وترجمتها «أنا هو الذي يقيم الوجود» أو «أنا الذي أقيم الوجود». ولكن النسخة الإنجليزية ترجمتها I am the being أي «أنا الوجود» أو «أنا الكينونة».

والكلمة المُحيّرة هنا هي θεός. ولكي نعطي فكرة عنها نقرأها في آية أخرى وردت فيها بمعنى القادر على كل شيء أو كلّي القدرة:

¹⁵ C.H. Dodd. op. cit. 95.

خر ٦:٣: «وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب، بأني الإله القادر على كل شيء،...» باليوناني θεός ὁ ὢν. وتُقرأ « ὢν » في النسخة العبرية = شَدَّاي، وتُترجم بالإنجليزية هكذا God Almighty. وبهذا تكون الكلمة اليونانية « ὢν » قد ظهرت أول ما ظهرت في زمن إبراهيم أب الآباء، وكانت تعني «شَدَّاي» أي القادر على كل شيء = omnipotent. وظلت هذه الصيغة بهذا المعنى قائمة ومستخدمة بكل لغة حتى هذا اليوم أي «كَلِّي القدرة».

ب - تك ١٧:١: «وظهر الله لإبراهيم وقال له: أنا الله القدير. سِرْ أمامي وكن كاملاً».

هذا هو الموقف الذي أشارت إليه الآية السالفة ونفس النص أيضاً «أنا الله القدير». وواضح أن الله هنا يعرف نفسه لإبراهيم لأول مرة. فهي بداية تاريخ تعرف البشرية على الله، أو بالحري أول استعلان الله لنفسه للبشرية على مستوى التاريخ. ويلاحظ أن الترجمة العربية أسقطت «هو» مع أنها موجودة في النسخة السبعينية «εγώ εἰμι ὁ θεός σου» «أنا هو إلهك». ولكن في الأصل العبري جاءت: «أني إيل شَدَّاي» بدون «هو»، لأن «هو» هي أصلاً مرتبطة بـ «يهوه»، ويوه هو الإسم الكَلِّي القداسة الذي أُعلن أول ما أُعلن لموسى النبي (خر ٦:٣): «وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب، بأني الإله القادر، على كل شيء وأما بإسمي، يَهْوَه، فلم أعرف عندهم».

وهكذا صار «أنا هو يوه» هو الإسم الرسمي عند شعب إسرائيل منذ أيام موسى النبي: «وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يَهْوَه - إله آبائكم، إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله يعقوب - أرسلني إليكم، هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكرني إلى دور فدور.» (خر ٣:١٥)

ج - تك ٢٦:٢٤: «فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له: أنا إله إبراهيم أبك. لا تخف لأني معك».

وفي الترجمة السبعينية جاءت «εγώ εἰμι ὁ θεός Ἀβραάμ»، ويلاحظ أن السبعينية جاء فيها «أنا هو إله إبراهيم»، بينما جاءت في

الترجمة العربية بدون «هو»: «أنا إله إبراهيم». كما يلاحظ أيضاً أن التعريف بإسم «أنا هو» في هذه الآية جاء معتمداً على ما شرحه الله عن نفسه من المعاني سابقاً لإبراهيم بسبب قوله: «أنا إله أبيك».

د - خر ٧: ٥: «فيعرف المصريون أني أنا الرب حينما أمدُّ يدي على مصر وأُخرج بني إسرائيل من بينهم».

في السبعينية جاء فيها «أنا هو الرب» « $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \delta\ \kappa\upsilon\rho\iota\omicron\varsigma$ ».

هـ - خر ١٤: ١٨: «فيعرف المصريون أني أنا الرب حين أتمجد».

في السبعينية جاء فيها «أنا هو الرب» « $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \delta\ \kappa\upsilon\rho\iota\omicron\varsigma$ ».

و - مز ٤٦: ١٠: «كفُّوا واعلموا أني أنا هو الله» « $\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \delta\ \theta\epsilon\omicron\varsigma$ ».

٢ - المجموعة الثانية:

وتأتى الأوصاف المضافة للإسم «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمّر: مَنْ أنت؟ وماذا تريد؟ ومواضعها دائماً في إعطاء الوصايا العشر وفي فرائض سفر اللاويين، وخاصة عند الكلام عن القداسة والتقديس لإعطاء الوصايا ضغطاً وتأكيداً أو رهبة ووقاراً.

أ - خر ٢٠: ٢ و ٣: «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر... لا يكن لك آلهة أخرى أمامي». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهك».

$\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \kappa\upsilon\rho\iota\omicron\varsigma\ \delta\ \theta\epsilon\omicron\varsigma\ \sigma\upsilon$

ب - خر ٢٠: ٥: «لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهك».

$\epsilon\gamma\omega\ \gamma\acute{\alpha\rho}\ \epsilon\iota\mu\iota\ \kappa\upsilon\rho\iota\omicron\varsigma\ \delta\ \theta\epsilon\omicron\varsigma\ \sigma\upsilon$

ج - لا ١١: ٤٤: «إني أنا الرب إلهكم فتتقدسون وتكونون قديسين لأني أنا قدوس». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهكم».

$\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \kappa\upsilon\rho\iota\omicron\varsigma\ \delta\ \theta\epsilon\omicron\varsigma\ \upsilon\mu\acute{\omega}\nu$

د - لا ١٩: ١٢: «لا تحلفوا باسمي للكذب فتُدنّس اسم إلهك. أنا الرب». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهكم».

$\epsilon\gamma\omega\ \epsilon\iota\mu\iota\ \kappa\upsilon\rho\iota\omicron\varsigma\ \delta\ \theta\epsilon\omicron\varsigma\ \upsilon\mu\acute{\omega}\nu$

هـ - لا ١٩٤: ١٤ : «لا تشتم الأصبم وقدام الأعمى لا تجعل معثرة. بل اخش إهلك. أنا الرب». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهكم».

ἐγὼ εἰμι κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

٣ - المجموعة الثالثة:

وتأتى الأوصاف المضافة للإسم «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمرة: من أنت؟ وما هي قدراتك الذاتية؟ وهي التي تختص بتفرد الله في الألوهة والقدرة والخلاص:

أ - يوثيل ٢: ٢٧ : «وتعلمون أني أنا في وسط إسرائيل وأي أنا الرب إلهكم وليس غيري». وفي السبعينية تحيي: «أنا هو وأنا الرب إلهكم».

ἐγὼ εἰμι, καὶ ἐγὼ κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

ب - إش ٤٨: ١٢ و ١٣:

«اسمع لي يا يعقوب وإسرائيل الذي دعوته. أنا هو. أنا الأول وأنا الآخر ويدي أسست الأرض وعميني نشرت السموات». وفي السبعينية: «أنا هو الأول وأنا هو إلى الدهر».

ἐγὼ εἰμι πρῶτος καὶ ἐγὼ εἰμι εἰς τὸν αἰῶνα.

ج - إش ٤١: ٤ : «أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو». وصحتها في السبعينية: «أنا الله الأول وإلى نهاية المستقبل أنا هو».

ἐγὼ θεὸς πρῶτος, καὶ εἰς τὰ ἐπερχόμενα ἐγὼ εἰμι

د - إر ٢٣: ٢٣ و ٢٤:

«أعلّي إله من قريب يقول الرب ولست إلهاً من بعيد... أنا يقول الرب. أما أملأ أنا السموات والأرض؟ يقول الرب». في السبعينية: «أنا هو الله من قريب».

θεὸς ἐγγίζων ἐγὼ εἰμι .

هـ - حز ٣٧: ٥ و ٦ : «هكذا قال السيد الرب هذه العظام هأنذا أدخل فيكم روحاً

فتحيون، وأضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلدًا وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أني أنا الرب».

في السبعينية: «أنا هو الرب».

ἐγὼ εἰμι κύριος .

و - حز ٣٧: ١٣ و ١٤:

«فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من
قبوركم يا شعبي وأجعل روحي فيكم فتحيون» .
في السبعينية جاءت: «أنا هو الرب» . ἐγὼ εἰμι κύριος

ز - ملا ١: ١٤ : «لأنني أنا ملك عظيم قال رب الجنود واسمي مهيب بين الأمم» . في
السبعينية: «أنا هو، ملك عظيم» .

διότι βασιλεὺς μέγας ἐγὼ εἰμι.

٤ - المجموعة الرابعة:

وتأتي فيها الأوصاف المضافة لـ «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمرة: من أنت؟ وماذا
تستطيع عمله لنا؟؛ وفيها يقدم الله نفسه كماحي الذنوب، والمخلص، والشافي، والمُعزّي،
والراعي، ومعلم الطريق، والمتكلم بالحق والبر.

أ - إش ٤٣: ٢٥ : «أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي وخطاياك لا أذكرها» .
وجاءت في السبعينية ἐγὼ εἰμι ἐγὼ εἰμι . التكرار هنا للتأكيد
وللتحميل على «أنا هو» باعتبارها اسماً شخصياً، وهي شديدة الشبه بقول
المسيح المتميز في إنجيل يوحنا: «الحق الحق أقول لكم» .

ب - مز ٣: ٣٥ : «قُلْ لنفسي خلاصك أنا» .
في السبعينية «أنا هو» . σωτηρία σου ἐγὼ εἰμι

ج - خر ١٥: ٢٦ : «إني أنا الرب شافيك» .
وفي السبعينية «لأنني أنا هو الرب إلهك شافيك» .

ἐγὼ γάρ εἰμι κύριος ὁ θεός σου.

د - إش ٥١: ١٢ : «أنا أنا هو مُعزّيكم» . وفي السبعينية: «أنا هو أنا هو» .

ἐγὼ εἰμι، ἐγὼ εἰμι ὁ παρακαλῶν σε.

هـ - حز ٣٤: ١٥ : «أنا أرفع غنمي وأربضها يقول السيد الرب وسيعلمون أني أنا هو
الرب» . جاءت في السبعينية:

ἐγὼ βοσκήσω ... ἐγὼ ἀναπαύσω ... ἐγὼ εἰμι κύριος.

و – إش ٤٨: ١٧ : « هكذا يقول الرب ، فادبك ، قدوس إسرائيل :

أنا الرب إلهك معلمك لتنتفع ،
وأُمسِّيك في طريق تسلك فيه » .

وفي السبعينية : « أنا هو إلهك علمتك كيف تجد الطريق الذي
تسلك فيه » . . εγώ εἰμι ὁ θεός σου .

ز – إش ٤٥: ١٩ : « أنا أنا الرب متكلم بالصدق (الحق) ومُخبر بالإستقامة » .

في السبعينية جاءت : « أنا هو أنا هو » . εγώ εἰμι εγώ εἰμι .

ح – تث ٣٢: ٣٩ : « انظروا الآن أنا أنا هو وليس إله معي . أنا أُميت وأُحيي » .

في السبعينية : « انظروا انظروا إني أنا هو » (إلحاح للتحذير) .

ἴδετε ἴδετε ὅτι εγώ εἰμι .

٥ – المجموعة الخامسة :

وهي التي فيها تجيء « أنا هو » في وضعها الخاص كإسم « الله » . فجرد النطق بها يشير إلى أن
الله هو المتكلم ويدعو إلى الإيمان به .

أ – إش ٥٢: ٦ : « لذلك يعرف شعبي اسمي . لذلك في ذلك اليوم يعرفون أني ، أنا

هو ، المتكلم هأنذا » . وفي السبعينية ترجمتها الصحيحة : « لذلك فإن
شعبي سيعرف اسمي في ذلك اليوم إني ، أنا هو ، المتكلم » .

εγώ εἰμι αὐτὸς ὁ λαλῶν

ب – إش ٤٣: ١٠ : « أنتم شهودي يقول الرب وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا بي

وتفهموا إني أنا هو » . وفي السبعينية تجيء الترجمة هكذا : « أنتم شهودي

وأنا أيضاً أشهد يقول الرب الإله وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا

وتفهموا إني أنا هو » . ὅτι εγώ εἰμι .

يلاحظ أن « أنا هو » التي جاءت في هذه الآيات هي المقابل للعبري « أني هـ

אני־הוא » وهي المترجمة بالإنجليزية « I am » . حيث يتضح أن « هو » في « أنا هو »

ليست مجرد ضمير بل فعل كينونة أو هويّة . وهي من وجهة النظر العبرية ذات صلة أساسية

بـ « يهوه » الإسم المقدس الذي يتحاشى اليهود كتابته أو قراءته .

وهذه النماذج التي قدمناها هي محاولة لخصر المعاني والمواقف التي قيلت فيها أو قيلت بسببها. ولكن بالرغم من تنوع المواقف والمعاني، إلا أن «أنا هو» Ἐγώ εἰμι تربطها معاً في وحدة الشخص والكيان المتكلم، وإن كانت الأسفار الأولى جاءت مشحونة بـ «أنا هو» على مستوى التعريف بقدرات الله الفائقة لإستعلان صفات الله بالنسبة للشعب عامة، لكن نجد الأسفار الأخيرة أي النبوات تجيء «أنا هو» فيها مشحونة أيضاً بالوعود القادمة من جهة التعزيات والفداء والخلاص وخاصة في سفر إشعياء. وهذا ينقلنا بسهولة إلى إنجيل يوحنا.

ثانياً: «أنا هو εγώ ειμι» في إنجيل يوحنا

إذا تأملنا في موقف الله بالنسبة لإبراهيم حينما بدأ يعلن نفسه له دون كل عشيرته وأهله، أو بالنسبة لموسى وهو يرمي غنمات يثرون حيه على جبل سيناء، أو حينما استقبل شعب إسرائيل في مصر الخبر من فم موسى أن الإله الذي يُدعى يَهُوَه يدعوهم للخروج من بلد قُدُور اللحم والبصل والكُرَّات؛ نجد أن المسيح في بداية خدمته واستعلانه لنفسه سواء لتلاميذه الأخصاء أو للشعب اليهودي ذاته واجه نفس المواقف والظروف.

فإن كان الله في القديم رأى أن يبتدىء يُعرِّف نفسه من مصدر القوة هكذا فعل المسيح:
«أنتم من أسفل أما، أنا هو، فمن فوق.» (يو: ٨: ٢٣)

εγὼ ἐκ τῶν ἄνω εἶμι

«أنا هولستُ من هذا العالم.» (يو: ٨: ٢٣)

εγὼ οὐκ εἶμι ἐκ τοῦ κόσμου τούτου.

«قبل أن يكون إبراهيم، أنا هو، (كائن) εγώ ειμί.» (يو: ٨: ٥٨)

وإن كان الله قد أعلن لهم قوة «أنا هو» بأنه يميت ويحيي (تث ٣٢: ٣٩)، فالمسيح رأى أن يعلن لهم هذا أيضاً: «كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء»، و«أنا هو القيامة والحياة.» (يو: ٥: ٢١؛ ١١: ٢٥)

وإن كان الله لما أراد أن يعدهم بوعود طيبة للغاية لعصدها بـ«أنا هو» كنوع من ضمان العهد، هكذا أيضاً وباتمام فعل المسيح «أنا هو خبز الحياة»، «أنا هو نور العالم»، «أنا هو الراعي الصالح»، «أنا هو الطريق والحق والحياة.» (يو: ٦: ٣٥؛ ٩: ٤؛ ١٠: ١١؛ ١٤: ٦)

وهكذا تجد أيها القارئ العزيز أن «أنا هو» الله العهد القديم بكل معناها وبكل ما يسندها من قوة إلهية وبكل ما يدعو إليها من ظروف غاية في الأهمية، صارت هي «أنا هو» المسيح في إنجيل يوحنا بكل انطباق. ولم يجد المسيح أي حذر أو ما يدعو للحذر في استخدامها بالرغم من سطوع شكلها ونبراتها في أسماع اليهود، حتى إنهم لما سمعوها واضحة من فم المسيح رفعوا الحجارة ليرجموه لأنهم لم يخطئوا معناها ولا القصد منها!!!

ولكن - وهذا بكل تأكيد - لم يستخدمها المسيح كَمَنْ يريد أن يعلن أنه هو الله!!، بل

استخدمها بالفعل ليستعلن الله الذي فيه، وأن يعلن بكل قوة ويقين عن «أنا هو» الله الذي فيه «أنا في الآب والآب فيّ» (يو ١٤: ١٠)، والآب والإبن واحد «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠)، هكذا رسالة المسيح العظمى هي استعلان الله فيه كآب واستعلان لاهوته كإبن متجسد لله.

فإن كان المسيح في موقف استعلاني لذات الله بالحقيقة، فاستخدامه لـ «أنا هو» هي ضرورة حتمها التجسد. بل هي استمرار لاستخدام الله لـ «أنا هو» في الأسفار المقدسة القديمة بلا أي اهتزاز أو نشاز ومن مصدر السلطة ذاتها.

والمسيح لم يغفل مصدر السلطة الذي به يتكلم. «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني» (يو ١٤: ٢٤). فـ «أنا هو» المسيح هي من داخل «أنا هو» الله الذي أرسلني، فوعد «الفداء» و«العزاء» و«الخلاص» و«القيامة» و«الحياة» التي وعدها الله في العهد القديم، ها هوذا قد جاء لينفذها. «فأنا هو المسيح» تجمع الوعد والتنفيذ معاً اسمعه وهو يقول في هذا الصدد: «أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦). إذن فـ «أنا هو» المسيح هي الموصّل الوحيد والكاشف لأعماق «أنا هو» الله: «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيّ»؛ «أنا والآب واحد» (يو ١٤: ١١؛ ١٠: ٣٠). نعم فـ «أنا هو» واحدة في الأسفار جميعاً قديمها وجديدها.

ولكي نعطي للقارئ فكرة جليظة عن «أنا هو» في إنجيل يوحنا جمعناها في مجموعات، كل منها ينضوي تحت رؤية واحدة وربما هدف واحد.

المجموعة الأولى:

وفيها «أنا هو» تأتي حرّة وبدون خبر أو أوصاف حيث يستعلن فيها المسيح ذاته فقط. لذلك فهي الإسم السري والخاص للمسيح بكل أصالة المعنى.

- ١ - يو ٤: ٢٦: «قال لها يسوع، أنا هو، الذي يكلمك». يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι
- ٢ - يو ٦: ٢٠: «فقال لهم، أنا هو، لا تخافوا». يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι
- ٣ - يو ٨: ٢٤: «لأنكم إن لم تؤمنوا، إني أنا هو، تموتون في خطاياكم». يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι
- ٤ - يو ٨: ٢٨: «فقال لهم يسوع متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون، إني أنا هو». يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι
- ٥ - يو ٨: ٥٨: «فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا (كائن)

هو». يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι
٦ — يوحنا ١٣: ١٩: «أقول لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون أي، أنا هو».
يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι
٧ — يوحنا ١٨: ٥ و٤:

«من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: «أنا هو».
يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι
٨ — يوحنا ١٨: ٦: «فلما قال لهم إني، أنا هو، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض».
يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι
٩ — يوحنا ١٨: ٨: «أجاب يسوع قد قلت لكم أي، أنا هو»، يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι

المسيح هنا في هذه التسعة الأمثلة يقدم نفسه فيها بالصفة المطلقة «أنا هو» (ἐγώ εἰμι) وهي تعريف حقيقي لشخصه على مستوى القدرات الفائقة التي لا يُسمع عنها إلا في أسفار العهد القديم، كما أن علوّها وسُمُوها مستمدان من قائلها في العهد القديم؛ ولكن هنا على مستوى تميم الوعد! [رجاء الرجوع إلى كل مثل].

في المثل الأول: يعرف نفسه أنه هو المتكلم كما جاء في القديم «فتعرفون أي أنا هو المتكلم. هانذا» (إش ٥٢: ٦) التي جاءت في السبعينية:

ὅτι ἐγώ εἰμι αὐτὸς ὁ λαλῶν .

ويلاحظ تشابهها الشديد مع ما جاء في إنجيل يوحنا للسامرية: «أنا

هو المتكلم» ἐγώ εἰμι ὁ λαλῶν σοι.

وفي المثل الثاني: يعرف نفسه من مستوى الحال كسائر على المياه! (قارن أي ٩: ٨ الماشي على أعالي البحر).

وفي الثالث: يعرف نفسه أنه الوحيد الذي يغفر الخطايا! (قارن إش ٤٣: ٢٥ أنا هو الماحي ذنوبك).

وفي الرابع: يعرف نفسه من مستوى المجد الذي سيبلغه حتماً إن بالصليب أو بالقيامة.

وفي الخامس: إنه كان الكائن الأزلي قبل إبراهيم والأنبياء وكل كائن.

وفي السادس: أنه هو المتخطي الزمن والعارف بما سيكون.

وفي السابع: يظهر بشخصيته على حقيقتها وعلى مستوى قائلها في العهد القديم.

وهكذا في الثامن والتاسع. وفي هذين المثليين يُلْمَح الإنجيل على أنه إذا استحالَت المعرفة بالإقناع فلا مانع أن يُظهر لهم ذاته بحضرة الإلهية التي لما رأوها سقطوا على الأرض. كما ظهر الملاك لحمار بلعام وبعد ثلاث مرات يخلي فيها الحمار الطريق للملاك الذي يعترضه فيضربه بلعام بلا ذنب، أدرك بلعام ما أدركه الحمار بعد أن وبَّخه حيوان أعجمي فسقط على الأرض: «خرَّ ساجداً على وجهه» (اقرأ سفر العدد ٢٢: ٢٢-٣٥)، وتم القول «الثور يعرف قانيه والحمار مغلف صاحبه؛ أما إسرائيل فلا يعرف شعبي لا يفهم.» (إش ١: ٣)

ولكن يتبقى السؤال فإن كان المسيح له هذه القدرات الفائقة والتي من خلالها وعلى أساسها يقف كإنسان - وهو يسوع - ويقول «أنا هو»، فما هو قصد المسيح بالأساس؟ إلا أن يُظهر نفسه أنه حامل «لإسم الله» كما في أسفار العهد القديم، ليس اختطافاً بل عن نفس القدرات الشخصية الفائقة لله قديماً التي تكلم عنها الله أنه سيوظفها لخدمة الإنسان، وبقيت هكذا معلقة إلى أن جاء المسيح وأكملها.

لذلك فإن لجوء المسيح للتعبير عن شخصه بهذا الإسم «أنا هو» هو من أقوى وأقصر الإستعلانات التي استخدمها المسيح لإستعلان لاهوته المخفي تحت ستار بشريته. ولما صرَّح المسيح أنه مع إمعانه في استخدام «أنا هو» إنما كان يستعلن اسم الآب أيضاً؛ صارت جميع الأقوال والأعمال التي عملها وقالها بالتركيز مع هذا الإسم «أنا هو» هي الوسيلة الفائقة والبارعة التي استعلن بها شخصه الإلهي وعلاقته المساوية لله الآب معاً. فقول المسيح «أنا هو εγω ειμι» «بلء معناها هو المقابل السري لقوله: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠). ولكي يشرح ذلك قال مراراً إنه جاء بإسم الآب: «أنا قد أتيت بإسم أبي (أنا هو εγω ειμι) ولستم تقبلوني. إن أتى آخر بإسم نفسه فذلك تقبلونه.» (يو ٥: ٤٣)

فالأمر الذي كان يعتبره اليهود أنه تجديف على اسم الله: «لسنا نرجمك من أجل عمل حسن بل لأجل تجديف فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو ١٠: ٣٣، ٨: ٥٩)؛ هو في الحقيقة إثبات أنه جاء بإسم الله «أنا هو» المعروف، وذلك بكل يقين، من أسفار العهد القديم ولم يجيء باسم نفسه، وقد قدم لهم الدليل الواضح على ذلك أنه لا يطلب مجد نفسه بل مجد الذي أرسله.

ولما طالبوه بإلحاح أن يقول «من هو» وهل هو المسيح؟ أوضح تأكيداً لقوله أنه لم يأت بإسم نفسه حتى ولو كان هو المسيا!!: «إني قلت لكم (إني أنا هو) ولستم تؤمنون، الأعمال التي أنا أعملها بإسم أبي - أنا هو εγω ειμι - هي تشهد لي» (يو ١٠: ٢٥). فلما ربط المسيح بين الأعمال التي يعملها «باسم الآب» وبين قوله عن نفسه «أنا هو» قطع عليهم خط الرجعة

بالنسبة للتجديف، فهو ليس آخر بالنسبة لله، ولا هو يختطف اسمه طالما يعمل عمل الله ويمجد اسمه. لذلك فبكل جرأة وكل صدق وحق وإخلاص يخاطب المسيح الله قائلاً: «أنا أظهرتُ اسمك للناس» (يو ١٧: ٦)، «وعرّفتم اسمك وسأعرفهم» (يو ١٧: ٢٦). وذلك طبعاً عن طريق الجمع بين عمل الله واسم الله «أنا هو».

وفي موضع آخر أيضاً يوضح أنه لا يختلس اسم الله لنفسه بل إن الله هو الذي أعطاه اسمه عن حق وجدارة وليس تنازلاً: «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذي أعطيتني» (يو ١٧: ١١)، علماً بأن الترجمة العربية غير دقيقة بينا الأصل اليوناني يوضح ذلك بلا كُتب (١٦): «حينما كنتُ معهم في العالم كنتُ أحفظهم في اسمك الذي أعطيتني» (١٧) (يو ١٧: ١٢).

وفي موقف آخر أكثر حساسية صرّح المسيح لتلاميذه أن المجد الذي سيحوزه بالإرتفاع على الصليب هو بعينه مجد لإسم الآب: «أما يسوع فأجابها قائلاً قد أتت الساعة ليمجد ابن الإنسان» (يو ١٢: ٢٣). وبعدها مباشرة خاطب الآب لسمعوه لأن الصوت الذي جاء من السماء كان لهم: «أيها الآب مجدّ اسمك (الذي فيّ). فجاء الصوت مجدّتُ وأمجّدُ أيضاً.» (يو ١٢: ٢٨)

أما كيف مجدّ الله اسمه في المسيح، فهذا واضح، لأنه من بعد تلك الساعة أصبح اسم المسيح قوة مجيدة مجد ذاته وصار بموازاة اسم الله في المجد: «ومهما سألتُم باسمي فذلك أفعله ليمجد الآب بالإن» (يو ١٤: ١٣)، «إن سألتُم شيئاً باسمي فإني أفعله» (يو ١٤: ١٤). «لكي يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي» (يو ١٥: ١٦). «وفي ذلك اليوم لا تسألوني شيئاً. الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم.» (يو ١٦: ٢٣)

وهكذا صار اسم المسيح «أنا هو» ذا قوة فعّالة ليس في الأرض فقط بل وفي السماء لدى الآب، فباسم المسيح طلب المسيح من الآب أن يرسل الروح القدس، فأرسل: «وأما المعزي (الباراكليت) الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويدنّركم بكل ما قلته لكم.» (يو ١٤: ٢٦)

وهكذا نفهم أن اسم المسيح «أنا هو» قد صار بالموت والقيامة على مستوى قوة الروح القدس وعمله. لذلك نفهم قوة السر الكائن في الإيمان باسم المسيح ابن الله، ومدى الخسارة في عدم الإيمان

¹⁶ ἐν τῷ ὀνόματί σου ᾧ δέδωκάς μοι.

¹⁷ Ibid.

به. «الذي يؤمن به لا يُدان، والذي لا يؤمن به فقد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو: ٣: ١٨). أنظر كيف صارت «قوة الإسم» على مستوى غفران الخطايا.

وقد انتبه جميع الآباء الرسل القديسين إلى القوة الإلهية التي صارت كائنة في اسم المسيح وترجموه إلى معناه القديم الأول: «لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السموات ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع هو رب كُوريوس لمجد الله الآب» (في ٢: ٨-١١). يلاحظ القارئ هنا أن اسم المسيح بدأ يأخذ ترجمته كما شرحناها في أسفار العهد القديم. فقد قام — شيخ الفريسيين سابقاً — بولس الرسول بترجمة «أنا هو» مباشرة إلى المقابل السري كُوريوس رب الذي استخدمه الربيون والفريسيون في أسفار العهد القديم عندما حوّلوا يهوه إلى كُوريوس أي «رب» ليتفادوا النطق بالإسم المقدس.

وأيضاً نجد شرحاً للإسم طريفاً للغاية إذ جاء من فم المسيح نفسه:

في مت ٢٢: ٤١-٤٤: «وفيما كان الفريسيون مجتمعين سأهم يسوع قائلاً ماذا تظنون في المسيح ابن من هو؟ فقالوا له ابن داود. قال لهم فكيف يدعوه داود بالروح رباً كُوريوس قائلاً قال الرب لربي كُوريوس τῷ κυρίῳ μου اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك». فهنا باللغة اليهودية السرية التي يفهما الفريسيون تماماً: الله ربّ والمسيح ربّ في قوله: «قال الرب لربي».

أع ٢: ٣٦: «فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً كُوريوس ومسيحاً خريستون».

رو ١٠: ١٢ و ١٣:

«لأنك إن اعترفت بضمك بالرب يسوع كُوريوس Ἰησοῦν وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلُصت... لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن رباً واحداً للجميع ὁ γὰρ αὐτὸς κύριος πάντων غنياً لجميع الذين يدعون به لأن كل من يدعوا باسم الرب كُوريوس τὸ ὄνομα κυρίου يخلص».

١ كو ٨: ٦: «لنا إله واحد الآب εἰς θεὸς ὁ πατήρ الذي منه جميع الأشياء

ونحن له ورب واحد يسوع المسيح». εἰς κύριος Ἰησοῦς Χριστός.

١ كو ١٢: ٣: «ليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب كُوريوس ΚΥΡΙΟΣ ΙΗΣΟΥΣ إلا بالروح

القدس».

أف ٤ : ٥ : «رب واحد εἰς κύριος وإيمان واحد ومعمودية واحدة» .

والآن إذا فحصنا الأمر بوعي مسيحي أصيل، غير تاركين الوعي التقليدي اليهودي الأول، الذي كشف لنا مكنوناته الإلهية شيخ الفريسيين المتقدم على أترابه جميعاً في العلم والمعرفة والأصول التفسيرية للتوراة، فإذا نجد؟ نجد أن القديس بولس الرسول هو الذي اكتشف الأصول الأولى التي نبع منها اسم المسيح بحكم استعلان شخصه الإلهي المجيد. فهو الذي ترجم ليس اسم المسيح بل شخصه المهيب بما يوازيه ويساويه في القديم فوجده بالعلم وبالروح معاً أنه هو هو ο κύριος الرب في كل أسفار العهد القديم، دون أن يلتفت إلى «أنا هو εγώ εἰμι» ولا مرة واحدة لأنه لم يسمع المسيح قط متكلاً بالسر بل سمعه ممجداً متكلاً من السماء وهالة النور تغطيه. ثم يجيء بعده القديس يوحنا الرسول فيكتشف في المسيح سر «اسمه» الذي استخدمه باستمرار دون أن يلتفت إليه أحد εγώ εἰμι «أنا هو» فيسلط عليه الأضواء ويركزها بشدة ويكرر إبرازه للوعي المسيحي الفاحص لعله يدرك الجذور ويكتشف الحق العجيب الذي يحتويه الاسم!

فإذا جمعنا وعي بولس المدعو سابقاً شاول العجيب مع وعي يوحنا المدعو بالحبيب، ظهر لنا إنجيل يوحنا تحت أضواء الأسفار الإلهية القديمة اسماً وحقاً وعملاً.

فإذا عدنا إلى أسفار العهد القديم لنفحص متى وكيف توارد الإسمان معاً «إله ورب» كما أوردهما القديس بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس «إله واحد الأب... ورب واحد يسوع المسيح» (١ كو ٨: ٦)، نجد ذلك واضحاً في سفر الخروج ٦: ٢ و٣ «ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء = θεός ὢν وأما باسمي يهوه (رب كما جاءت في السبعينية) ὄνομά μου κύριος فلم أعرف عندهم»: اسمان إله ورب، والمتكلم واحد!

لقد انكشف هذا الحق الإلهي مرة واحدة لتوما التلميذ الذي كان يحتاج في إيمانه إلى التأكيد بوضع الأصبع على جروح المسيح القائم من الموت! فلما تأكد صرخ «ربي وإلهي» (يو ٢٠: ٢٨). إذن، فبالقديس توما صحَّ وتأكد قول المسيح: «متى رفعت ابن الإنسان (أي تمجد) فحينئذ تعرفون إني أنا هو εγώ εἰμι = ,, الرب الإله,,».

المجموعة الثانية:

وهي مجموعة «أنا هو» التي جاءت مع قول الرب: «حيث أكون أنا» أو حيث أتيت وإلى حيث أذهب. فإذا كانت «أنا هو εγώ εἰμι» هي التعبير عن الكينونة الذاتية، فن الواضح إذن أنها تأتي متصلة بالكينونة المكانية، حيث المكان بالنسبة للمسيح هو كما نعلم سمائي محض «ابن

الإنسان الذي نزل من السماء» و«ابن الإنسان الذي هو في السماء».

١ - يو: ٧: ٣٤ «ستطلبوني ولا تجدونني وحيث أكون أنا هو εγω ειμι εγω لا

تقدرون أن تأتوا.» (تكرر هذا القول في يو: ٧: ٣٦)

٢ - يو: ٨: ٢٣ «فقال لهم أنتم من أسفل أما أنا هو ففن فوق.»

εγω εκ των ανω ειμι

«أنتم من هذا العالم أما أنا هو فليست من هذا العالم.»

εγω ουκ ειμι εκ του κοσμου τουτου

٣ - يو: ٨: ١٨ و ١٩: «أنا هو εγω الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني. فقالوا

له: أين هو أبوك؟ أجاب يسوع: لستم تعرفوني أنا ولا أبي.»

«وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأنني أعلم من أين أتيت وإلى أين

أذهب.» (يو: ٨: ١٤)

٤ - يو: ١٢: ٢٦ «إن كان أحد يخدمني فليتبني وحيث أكون,, أنا هو,,

εγω ειμι εγω هناك يكون خادمي. وإن كان أحد يخدمني يكرمه

الآب.»

٥ - يو: ١٤: ٣ «وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً أتى أيضاً وأخذكم إليّ حتى حيث

أكون,, أنا هو,, εγω ειμι εγω تكونون أنتم أيضاً.»

٦ - يو: ١٧: ٢٤ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون,, أنا

هو,, εγω ειμι εγω.»

+ في «أنا هو» في المثل الأول يوضح المسيح استحالة وصول الإنسان إلى حيث يكون εγω ειμι εγω «حيث أكون أنا هو» لأن هذا المكان فائق عن مستوى إدراك أو وصول الإنسان. هنا يعلن التوافق الكلي بين «أنا هو» والمكان الذي سيذهب إليه. فهو يستعلن كيانه الذاتي المطلق في وجوده الإلهي المطلق الخارج عن المكان المدرك للإنسان. والقصد الأساسي من هذا الاستعلان الفائق أن الفرصة للإيمان به محدودة. بجوار تسجيل خطأ شنيع يرتكبه اليهود في رفض رسالته.

+ في المثل الثاني: يوضح المسيح مقر سكناه في الأعالي حتى يبيّن ذهنهم الكليل بواسطة

إشارتين شديديتي الوقع على الأذن «أنا هو» و«أنا من فوق». «فأنا هو» قول ذات الله، و«أنا من فوق» قول لا يقوله إلا الساكن في السموات الذي يقدمون له الخدمة والإكرام كل يوم. هذا الفهم لا يسقطه إلا الأذن التي تغرّبت عن الصوت الإلهي وعن مضمون العبادة.

+ في المثل الثالث: ترتبط «أنا هو» بالشهادة وترتبط الشهادة بمعرفة «من حيث أتى المسيح» و«إلى حيث سيذهب» «أنا هو الشاهد لنفسي وشهادتي حق لأني أعرف من حيث أتيت وإلى أين أذهب».

هنا حجّة المسيح القوية في رسالته الإلهية. فإن كانوا يرونه إنساناً يتكلمم إلا أن كلامه يسفر عن ألوهية تتكلمم بسلطان. فإن كان قوله: «أنا هو نور العالم» صار مصدر احتجاج الفريسيين لأنه بهذا يشهد لنفسه، فاحتجاج المسيح أنه يشهد للنور كالتزام لأنه كيف لا يشهد النور لنفسه، وإن شهد فهو حق، فإذا شهد الإنسان أي إنسان للحق فهو يشهد بقوة لأنه يعرف المصدر الذي يشهد له. فما بالك إذا كان النور أو الحق يشهد لنفسه وهو نفسه مصدر النور والحق. فالمسيح يعرف من أين أتى، هذه هي قوة إرسالته كنور وحق؛ ويعرف إلى أين يذهب، وهذا مصدر دينونة العالم. هكذا ارتبط اسم المسيح «أنا هو» بـ«حيث أكون» لحساب خلاص العالم.

+ في المثل الرابع: هنا النقلة الخلاصية التي جاء من أجلها المسيح ليجعل «حيث يكون خادمي» تساوي «حيث أكون أنا εἶμι ἔγω» . هذا هو السخاء الإلهي العجيب أن يجعل كينونته اللانهائية الذاتية والمكانية مفتوحة على الإنسان «فسيروا ما دام لكم النور». «الذي يجني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو ١٢: ٣٥؛ ١٤: ٢١). هكذا صار الإيمان بالمسيح كخدمة في النور وحياة في حب بالنسبة للإنسان. لأن «أنا هو εἶμι ἔγω» صار جسداً فصرنا فيه لا خدّام إلهيات بل في شركة طبيعته وأمجاده. وهكذا صار الإنسان يجيا من داخل «أنا هو εἶμι ἔγω»، بل وصار «أنا هو» يجيا في الإنسان.

+ وفي المثل الخامس: عجيب قول الرب أنه سيذهب ويعد لهم مكاناً في اللامكان!! قصد الرب واضح، أنه ذاهب ليفتح بشريته طريقاً إلى الأقداس العليا يصلح أن يقتني أثره الإنسان وهو ممسك به ليدخل إلى المواضع السماوية، تلك التي يقف اللسان عاجزاً عن أوصافها. لقد تنازل الله أيّماً تنازل عندما صار حيث نكون نحن، أي تجسد. والآن صار التنازل الأعظم أن نكون نحن حيث يكون هو. لقد قلنا أن «أنا هو» في الأسفار القديمة، أي الله، صار جسداً، فصار لنا بالحق مكان في «أنا هو». إنه حق اكتسبته البشرية بتجسد ابن الله. والآن تظهر المقاصد الحسنة والغاية الإلهية

من محبة الله للإنسان، وهي أن يصير للإنسان مكان «حيث أكون أنا». هذا هو غاية المحبة المصلوبة وأسعد وأبهج أعمال ابن الإنسان من نحو الإنسان.

+ وفي المثل السادس: يتسرع المسيح ويروح وهو على عتبة الصليب بسر مقاصده الحسنة إلى الآب بصلاة مسموعة، ويطلب غاية ونهاية لأعمال آلامه وصليبه: أن يفرح بمفديه حينما يشاركونه أفراح مجده. كان هذا هو أجره المسيح التي يطلبها من الآب ثمناً لدمائه المسفوكة على أرض الإنسان، أن يحيا الإنسان في أفراح ابن الإنسان ويسعد برؤية مجده.

المجموعة الثالثة:

وهي الأكثر شيوعاً ووضوحاً في إنجيل يوحنا. حيث تأخذ «أنا هو» اسماً آخر يبدو للتشبيه بنوع من المجاز يقع من «أنا هو» موقع الخبر: «أنا هو الراعي الصالح»، «أنا هو الكرمة الحقيقية»، «أنا هو خبز الحياة». وقد تبدو هذه الجملة المركبة وكأنها نوع من التشبيه بالشيء. ولكن الخطورة أن المسيح يضيف إلى الاسم المشبه به كلمة «الصالح»، والصلاح لقب الله وحده؛ و«الحقيقي»، ومعروف أن الأليثيا ἀληθεια توقف حالة التشبيه في الحال وتجعلها حقيقة واقعة بنوع ما «إلهي»، ف«أنا الكرمة الحقيقية» ترفع من مفهوم الكرمة لتضعه في مستوى الإلهيات. أما الكرمة الأرضية فتهدم إلى مستوى التشبيه وذلك بعكس ما يظن الشراح. فأوصاف المسيح لذاته بالكرمة والخبز الحي ليست رموزاً ولا تشبيهات بل هي حقائق جديدة إلهية.

وإنجيل يوحنا يورد سبعة أمثلة لذلك:

الخبز - نور العالم - باب الخراف - الراعي الصالح - القيامة والحياة - الطريق والحق والحياة - الكرمة.

١ - يوحنا ٦: ٣٥: «فقال لهم يسوع: أنا هو خبز الحياة، من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً».

ἐγὼ εἶμι ὁ ἄρτος τῆς ζωῆς

٢ - يوحنا ٦: ٤٨: «أنا هو خبز الحياة».

ἐγὼ εἶμι ὁ ἄρτος τῆς ζωῆς

٣ - يوحنا ٦: ٤١: «فكان اليهود يتذمرون عليه أنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء».

Ἐγὼ εἶμι ὁ ἄρτος ὁ καταβάς ἐκ τοῦ οὐρανοῦ

٤ - يوحنا ٥١: ٥١ : «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد».

ἐγὼ εἰμι ὁ ἄρτος ὁ ζῶν ὁ ἐκ τοῦ οὐρανοῦ καταβάς

٥ - يوحنا ١٢: ١٢ : «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة».

Ἐγὼ εἰμι τὸ φῶς τοῦ κόσμου

٦ - يوحنا ١٠: ٧ : «الحق الحق أقول لكم: إني أنا هو باب الخراف».

ἐγὼ εἰμι ἡ θύρα τῶν προβάτων

٧ - يوحنا ١٠: ٩ : «أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد

مرعى» . ἐγὼ εἰμι ἡ θύρα

٨ - يوحنا ١٠: ١١ : «أنا هو الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف».

Ἐγὼ εἰμι ὁ ποιμὴν ὁ καλός

٩ - يوحنا ١٠: ١٤ : «أما أنا فإني هو الراعي الصالح وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني».

Ἐγὼ εἰμι ὁ ποιμὴν ὁ καλός

١٠ - يوحنا ١١: ٢٥ : «قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا».

Ἐγὼ εἰμι ἡ ἀνάστασις καὶ ἡ ζωὴ

١١ - يوحنا ١٤: ٦ : «قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى

الآب إلا بي».

Ἐγὼ εἰμι ἡ ὁδὸς καὶ ἡ ἀλήθεια καὶ ἡ ζωὴ

١٢ - يوحنا ١٥: ١ : «أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرام».

Ἐγὼ εἰμι ἡ ἄμπελος ἡ ἀληθινή

«أنا الكرمة وأنتم الأغصان».

ἐγὼ εἰμι ἡ ἄμπελος, ὑμεῖς τὰ κλήματα.

هذه الأمثلة السبعة، الموزعة على الآيات الإثنتي عشرة، كانت في علم اللاهوت والأدب

العبريين السائدين في أيام المسيح الموروثين من واقع النبوات، عبارة عن رموز ترمز للتوراة والناموس وإسرائيل... إلخ. ولكن لما اتخذها المسيح لنفسه بصفته الإلهية «أنا هو» رفعها إلى مستوى الحقائق الإلهية التي تُعاش، وهو لم يكن لها مفسراً بل مُستَعَلِناً لحقائق الله في ذاته بأعماله!

وعلى سبيل المثال، فالنور المعروف أنه كناية عن الله، لأنه قادهم في البرية على هيئة عمود من السحاب المضيء يضيء لهم طريق التيه نحو كنعان الأرضية. ظلّوا يعمّدون له باعتباره الرمز الذي يعيشون على ذكره فقط كل سنة مرة في عيد المظال فيضيئون المنارات في رواق النساء ليضيء أورشليم! في هذه اللحظة وقف المسيح وقال: «أنا هو نور العالم». هنا فكّ المسيح رمز النور عند إسرائيل، ليس كأنه نور لإسرائيل يضيء أورشليم، بل باعتباره نور العالم، وليس للتعبيد السنوي، بل: «مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو: ٨: ١٢)، أي نور يُعاش بالليل والنهار، في الأيام السوداء والبيضاء، في الظعن (الترحال المضيئي) أو الإقامة على السواء، نور للحياة وليس للعيد.

ولكن بأن يدعم المسيح كونه النور بالإسم المقدس «أنا هو»، جعل النور طبيعة تشع من المسيح كصفة إلهية دخلت العالم جديداً في شخص يسوع. هنا الإسم الإلهي «أنا هو» صار فعلاً يضيء كيان الإنسان في العالم — فأين هذا من منارات رواق النساء يوم عيد المظال؟ أنظر كيف رفع المسيح الرمز إلى حق يُعاش لما استعلنه في ذاته!

ويعوزني الوقت والمجال الضيق الذي أتيج لي لأشرح كلمة «أنا هو» في إنجيل يوحنا، لأمرّ على هذه الأمثلة كلها مثلاً مثلاً، فهذا معناه أني سأكلّف بشرح إنجيل يوحنا كله من خلال «أنا هو».

ويكفي أن نقول أن المسيح لما استخدم هذه الرموز مدعّمة ومقوّاة بـ «أنا هو» فرفعها إلى مستوى الحقائق الإلهية الدائمة في ذاته؛ لم يقصد استعلان ذاته أو استعلان الآب وحسب، بل كانت الغاية الأكثر عجباً وإدهاشاً لنا في هذه الأمثلة جميعاً هي توصيل هذه الحقائق الإلهية إلى الناس على المستوى المفهوم والمحسوس.

وبذلك فإن هذه الأسماء التي تقدست بالحق الإلهي، سواء «الراعي» أو «الخبز» أو «الكرمة»، لما تبّناها المسيح في «أنا هو» في إنجيل يوحنا، صارت منهج خلاص واستعلان أسرار المسيح التي هي بالمفهوم الغربي الكريستولوجيا أو منهج المسيحيات العميق. إذ جعلت أعمال الخلاص منظورة في المسيح بصورة ساطعة ورموز رفع عنها الغطاء فأذ هي «أليشا» حق وحياة بلا تحفظ. وبسهولة ظل المسيح يقودنا من خلال هذه الـ «أنا هو» من آية لآية حتى أفنعنا أن نأكل جسده ونشرب دمه، وأننا إن فعلنا ذلك صرنا أغصاناً حقيقية في كرمة حقيقية عصيرها يحمل سر

الدم والحياة بالروح الأزلي فيها.

وحيثما قال: «أنا هو الباب»، اندهشنا كيف يكون هذا، ولما أكمل قوله أن «لا أحد يدخل إلى الآب إلا بي» زال الإندهاش وجاء العجب بهذه البساطة المتناهية كيف يشرح المسيح منهج الخلاص بهذا القدر، ولكن بشيء من التعمق تزداد الرؤيا ويزداد العجب لأن «أنا هو» ليست مجرد «أنا» بل هي تعبير عن الكينونة والطبيعة الإلهية الكائنة بذاتها، فالباب هنا لما نُسب لـ «أنا هو» ارتفع من مجرد منظر مرسوم أو صورة أو حتى رمز، إلى حقيقة إلهية قائمة لو فقدتها الإنسان ضاعت منه الحياة الأبدية!!

لقد صوّر لنا المسيح بهذه الصورة التي ضمها إلى طبيعته بقوله: «أنا هو» كل محيط الخلاص من كل نواحيه التي تحمل سر الحياة للإنسان من الراعي الصالح لخبز الحياة للكرمة الحقيقية؛ كل هذه الصور التي ملأت آفاق الليتورجيا في الكنيسة بل وكل فنونها المقدسة بل وملأت العالم.

ثالثاً: مقارنة للمضاهاة

الآن نجد من السهولة وبعد أن استوفينا «أنا هو εγω εμι» في كلٍّ من العهدين القديم والجديد، أن نقدم مقارنة بسيطة ومختصرة بين «أنا هو» العهد القديم و«أنا هو» العهد الجديد لنرى مقدار التوازي البديع أحياناً ومقدار التقابل الملفت للنظر ثم مقدار التكميل المثير للدهشة والإيمان. ففي التوازي نرى «أنا هو» في مقابل «أنا هو» وكل منها يناظر الآخر في الدقة والموقف والمعنى وفي التقابل مقدار التشابه الذي يجعل «أنا هو» الجديد هو بعينه القديم، أما التكميل فنرى كيف «أنا هو» العهد القديم ظلت معلقة بلا تكميل تنتظر «أنا هو» الجديد الذي تمم وأكمل الوعد والعهد، فصار «أنا هو» الله في القديم أميناً وصادقاً فيما قال، وصار المسيح «أنا هو» الكلمة الذي أكمل الوعد بكل أمانة البذل وصدق العمل.

أنا هو

العهد القديم على فم الله

أنا هو

العهد الجديد على فم المسيح

خر ٣: ١٣ و ١٤:

«فإذا قالوا لي ما اسمه فإذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى أكون الذي أكون» (أنا هو) ومعناها في العبري واليوناني: أنا الكائن بذاتي.

يو ٨: ٥٣ و ٥٨:

«ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات؟... مَنْ تجعل نفسك؟ الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن». الترجمة العربية ترجمت «أنا هو» مباشرة إلى أنا كائن.

خر ١٤: ١٨:

«فيعرف المصريون، أي أنا هو، حيناً أتمجد». الترجمة العربية قدمت أنا الرب والأصل أنا هو.

يو ٨: ٢٨:

«فتى رفعم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون، أي أنا هو»، «علماً بأن رفع المسيح على الصليب والقيامة هو التمجيد.

إش ٤٣: ١٠، تث ٣٢: ٣٩:

«لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا إني أنا هو»، «انظروا الآن. أنا أنا هو وليس إله معي أنا أُميت وأُحيي».

يو ٨: ٢٤:

«لأنكم إن لم تؤمنوا إني أنا هو، تموتون في خطاياكم».

تك ٢٦: ٢٤ :

يو ١٧: ١٧ - ٢٠ :

« فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له : أنا هو »
وله إبراهيم أليك لا تخف لأني معك » .
« وكان الظلام قد أقبل ، ... وهاج البحر ...
ونظروا يسوع ماشياً على البحر ... فقال لهم : أنا هو
لا تخافوا » .

إش ٤٨: ١٧ :

يو ١٤: ١٤ و٤ :

« أنا هو الرب إلهك معلمك ... أمشيك في
طريق تسلك فيه » .
« وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون
الطريق ... أنا هو الطريق والحق والحياة » .

جز ٣٤ و٣٥ و٣٠ :

يو ١٠: ١٤ :

« أنا أرعى غنمي وأريضها يقول السيد
الرب ... فيعلمون أني أنا هو الرب » .
« أنا هو الراعي الصالح وأعرف خاصتي
وخاصتي تعرفني » .

جز ٣٧: ١٢ - ١٤ :

يو ١١: ٢٥ ؛ ١١: ٤٣ :

« أضع عليكم عصياً وأكسيكم لحماً وأبسط
عليكم جلدأ وأجعل فيكم روحاً فتحيون
وتعلمون أني أنا هو الرب » .
« ها أنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم
يا شعبي ... فتعلمون أني أنا هو الرب عند فتحي
قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي
وأجعل روحي فيكم فتحيون » .

في سفر الرؤيا للقديس يوحنا

إش ٤٨: ١٢ و١٣ :

رؤ ٨: ١ ؛ رؤ ١٧: ١٨ و١٧ :

« اسمع لي يا يعقوب وإسرائيل الذي دعوته أنا
هو . أنا الأول وأنا الآخر . ويدي أسست
الأرض ويميني نشرت السموات » .
« أنا هو الألف والياء . البداية والنهاية يقول
الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على
كل شيء » .
« أنا هو الأول والآخر والحي وكنت ميتاً وها
أنا حي إلى أبد الأبد » .

إش ٤١:٤:

زؤ ٢١:٦:

«مَنْ فَعَلَ وَصَنَعَ دَاعِيًا الْأَجْيَالَ مِنَ الْبَدءِ . أَنَا
الرَّبُّ الْأَوَّلُ وَمَعَ الْآخِرِينَ أَنَا هُوَ» .
«قَدْ تَمَّ . أَنَا هُوَ الْأَلْفُ وَالْيَاءُ الْبَدَائِيَّةُ
وَالنَّهَائِيَّةُ . أَنَا أُعْطِيَ الْعِطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ
مَجَانًّا» .

إر ١٧:١٠:

رؤ ٢٣:٢٣:

«أَنَا الرَّبُّ فَاحِصُ الْقَلْبِ مُخْتَبِرُ الْكُلِّيِّ
لَأُعْطِيَ كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ طَرَفِهِ حَسَبَ ثَمَرِ
أَعْمَالِهِ» .
«فَسَتَعْرِفُ جَمِيعَ الْكِنَائِسِ أَنِّي أَنَا هُوَ
الْفَاحِصُ الْكُلِّيُّ وَالْقَلُوبِ وَسَأُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ
مِنْكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِ» .

الفصل الثاني

الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا

«الباراكليت»

في الترجمة العربية لإنجيل يوحنا لم يذكر المترجم اسم «الباراكليت» بهذا اللفظ المعرّبة حروفه. وهذا نقص مريب وتصرف من المترجم حيث ترجم معناها من اليونانية إلى معناها بالعربية وجعلها اسم صفة: «المعزّي» παράκλητος

فإذا فحصنا كلمة «الروح» τὸ πνεῦμα نجد أنها تأتي في الإنجيل، في اللغة اليونانية الأصلية، لغوياً ومن جهة النحو - كإسم مجرد، أي اسم معنوي يفيد المعنى العام، ومحامد الجنس (لا مذكر ولا مؤنث) neuter . والكلمة تعني إما ريح أو رياح أو نفخة أو نفس أو ملاك أو روح إنسان، أو الروح القدس حيث وُضعت صفة «القدس» كصفة خاصة للتعبير عن روح الله «القدوس»^(١).

أما لفظ «الباراكليت» فيأتي كإسم عَلَم شخص مذكّر. لذلك يُعتبر إنجيل يوحنا هو الإنجيل الوحيد الذي أعطى للروح القدس - لغوياً من جهة النحو - صفته الشخصية إذ نقله لغوياً من دائرة المجرّدات كقوة إلى ذات مُشخّصة. وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد مهد بهذا اللقب لمفهوم الثالوث الأقدس^(٢).

ولكن بحسب الأبحاث اللغوية فإن العلماء لم يستقروا على ترجمة لهذا الإسم «الباراكليت» وقد اتفقوا جميعاً على ترك الإسم كما هو بألفاظه المنقولة عن اللفظ اليوناني، «الباراكليت»،

¹ Liddle and Scott Lex.

² Barrett. op. cit. p. 77.

وذلك بسبب تعدد معنى الكلمة باليونانية. وهذه هي المعاني التي تحورها هذه الكلمة:
١ - تأتي بمعنى المُعين = called to the side of ، أي بغرض المساعدة.

٢ - كما جاءت في الترجمة اللاتينية advocatus كإصطلاح شرعي يفيد معنى المستشار أو المحامي للدفاع الرسمي في المحكمة. وقد وجدها العالم وستكوت Westcott في كتابات الربيين تفيد هذا المعنى.

٣ - في رسالة برنابا (كُتبت ما بين عام ٧٠ - ١٠٠ م.) علّق الكاتب على كلمة «الباراكليت» بمعنى المعزّي Consoler أو المُرِح Comforter وهي الصفة التي صارت شائعة عند الآباء اليونان. ويقول العلماء أنه بالرغم من الإحترام الفائق الذي يكنّه العلماء لرأي الآباء اليونان إلا أنه ببسبب الكلمة وُجد أنها لا تفيد الإيجابية فقط أي العطاء الإيجابي مثل إعطاء العزاء أو الراحة ولكن يفيد فعلها أيضاً درء الخطر، أي منع السلبات، بمعنى «الدفاع»؛ فهو يشفع ويتوسل ويدافع عن شعب المسيح، والآيات التي توضح ذلك تكشف عن صدق هذا المعنى مثل: «فتي ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا. بل مها أعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا. لأن لستم أنتم المتكلمين بل الروح القدس» (مرقس ١٣: ١١). وهنا فإن الروح القدس يكون هو المتكلم فهو يأخذ وظيفة المحامي والمدافع والمعين أيضاً. وفي الآية المقابلة في هذا المعنى في إنجيل لوقا تجيء هكذا: «لأن الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه» (لوقا ١٢: ١١). وهنا الروح القدس يأخذ وظيفة المعلم والناصح والمرشد في وقت الخطر.

وعمل الروح القدس بوجه عام في إنجيل يوحنا نجمله في النقاط الآتية:

١ - يُعتبر هو العامل الأساسي في فاعلية الأسرار (٣: ٥؛ ٦: ٦٣)، سواء المعمودية أو الإفخارستيا حيث بواسطة الروح القدس ينال المؤمن في الأسرار مواعيد الله ومواهبه وعطية الحياة الأبدية.

٢ - هو عماد الإقتراب من الله بالعبادة. فالعبادة لله في العهد الجديد هي «بالروح والحق» و«الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له... بالروح والحق» (يو ٤: ٢٣ و٢٤). إذن، فليس بالوسائل المادية ولا الجسدية بل بالروح لأن الله روح.

٣ - هو أساس وقوة الخدمة في الكنيسة حيث تقف الإرسالية كعمل إلهي مساوٍ لإرسالية الآب للإبن: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس» (يو ٢٠: ٢١ و٢٢). وهكذا الخدمة، فهي لا تقوم إلا بقوة الروح القدس.

٤ - مقارعة الروح القدس لروح العالم، فهو يوبخه ويكشف أعماله ويضعه تحت الدينونة. وطبعاً يكون ذلك من خلال شهادة الكنيسة.

٥ - الروح القدس هو الذي سيكشف الأمور الخاصة بالمستقبل أي كل ما يتعلق بالآخرة والأخرويات = الإسخاتولوجيا والحياة القادمة: «يخبركم بأمر آتية» (١٦: ١٣). أي سيكون له وظيفة الأنبياء في العهد القديم والتي تحققت في العهد الجديد. فهو سيعلم لنا ما هو آت، وما هو فوق، وهي الأمور التي أعدها الله لمحبيه. وإن كان عمله الآن هو أن يعرفنا كل الحق فهو يكشف لنا كيف سيستعمل هذا الحق يوماً ما ليكون عوناً لمحبيه وعاراً على رافضيه؛ أي أنه سيكمل عمل المسيح.

وفي إنجيل يوحنا جاء التعريف بالروح القدس في مواضع خمسة:

التعريف الأول:

ويأتي على لسان يوحنا المعمدان: «وأنا لم أكن أعرفه. لكن ليظهر لإسرائيل، لذلك جئت أعمد بالماء. وشهد يوحنا قائلاً إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه. وأنا لم أكن أعرفه. لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذلك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو: ٣١-٣٤)

هنا عمل الروح القدس كان أول عمل يتم من السماء على الأرض مباشرة لإستعلان شخص يسوع المسيح أن هذا هو ابن الله. كما كان أول إعلان عن علاقة المعمودية بالروح القدس. ولو رجعنا إلى القديس مرقس في رواية عماد المسيح نجد المرادف هكذا: «ولوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه. وكان صوت من السموات. أنت ابني الحبيب الذي به سررت» (مر: ١٠ و١١). وهكذا يبدأ الروح القدس عمله في استعلان بنوة المسيح لله. ومن الروايتين يتضح أن عمل الروح القدس في عماد المسيح كان لإظهار، أو للإعلان عن شخص المسيح أنه ابن الله، كشهادة مسموعة لكل من المسيح والمعمدان. ويلاحظ أن هذه هي الوظيفة الأساسية للروح القدس: «هو يشهد لي.» (يو: ١٥: ٢٦)

أما كيف أن المسيح سيعمدهم بالروح القدس (يو: ١٦: ٣٣) حسب قول المعمدان، فهذا يتضح من حديث المسيح مع نيقوديموس: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله... الحق الحق أقول لك إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا.» (يو: ٣: ١١ و٥)

ولكن المسيح لم يعمد بالماء كما جاء على لسان القديس يوحنا الرسول: «مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه» (يو: ٤: ٢)، أما الروح المعمد فكان يهبه المسيح في كلماته: «أنتم الآن أنقياء، لسبب الكلام الذي كلمتكم به» (يو: ١٥: ٣) «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة.» (يو: ٦٣: ٦)

أما الروح القدس كشخص ذي عمل محدد في الخلاص فلم يبدأ عمله أثناء حياة المسيح: «من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزعمين أن يقبلوه. لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجّد بعد (أي لم يُصلب ويقوم بعد).» (يو: ٧: ٣٨ و٣٩)

ولكن المسيح بعد القيامة مباشرة نفخ في تلاميذه قائلاً: «اقبلوا الروح القدس» (يو: ٢٠: ٢٢) (كمقدمة ليوم الخمسين)، وأعطاهم سلطان مغفرة الخطايا.

التعريف الثاني:

وقد جاء بلسان المسيح: «وأنا أطلب من الآب فيعطيك معزياً آخر ليكث معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه ما كثر معكم ويكون فيكم.» (يو: ١٤: ١٦ و١٧)

هنا الروح القدس يأخذ وظيفة التعزية والشفاعة معاً في معنى الباراكليت تماماً عوض المسيح. كذلك يأخذ صفة إلهية خاصة بالمسيح نفسه أي «الحق». فإن كان المسيح هو «الحق» فالروح القدس هو «روح الحق». فكما أن «الحق» الذي في المسيح كان مرشداً للتلاميذ أنه ابن الله، كذلك فإن «روح الحق» سيصير مرشداً للتلاميذ للتعرف على الآب والإبن. كذلك كما أن المسيح وعد أنه سيكون فيهم: «أنا فيهم وأنت في» (يو: ١٧: ٢٣)، كذلك عن الروح القدس، فقد وعد المسيح أنه سيكون «فيهم».

التعريف الثالث:

«بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويدرككم بكل ما قلته لكم.» (يو: ١٤: ٢٥ و٢٦)

وهنا يعيدُ المسيح تلاميذه وهو موجود معهم أنه بعد أن يتركهم فإن الآب سيرسل الروح القدس باسم المسيح كما أرسل المسيح باسم الآب، ليعلمهم كما كان المسيح يعلمهم؛ وهنا يضيف كلمة «كل شيء» وهي الأشياء التي لم يستطيعوا معرفتها من المسيح بسبب عدم وجود

الروح القدس: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن» (يو ١٦: ١٢)، وهذه هي التي سيعلنها لهم بواسطة الروح القدس الذي سيأخذ مما له ويخبرهم! وقد تم هذا بصورة عظيمة في كتابة إنجيل يوحنا نفسه! وقول المسيح أن الآب سيرسل الروح القدس باسمه - أي باسم المسيح - يعني أنه سيضطلع بتكميل رسالة المسيح قولاً وعملاً، كما أتى المسيح باسم الآب ليكمل إرادة الآب قولاً وعملاً.

التعريف الرابع:

«ومتى جاء المعزي، الذي سأرسله، أنا، إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق. فهو يشهد لي - وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يو ١٥: ٢٦ و٢٧)

هنا يبلغ الإعلان عن «شخص» (أقنوم) الروح القدس وطبيعته (جوهره) أقصى إعلان في أسفار العهد الجديد. وذلك من جهة علاقته بالآب والإبن حيث يبلغ الثالث المقدس أول ظهوره على فم المسيح في إنجيل يوحنا هكذا: «سأرسله أنا إليكم من الآب».

ويعود المسيح ويكشف عن كيفية خروج الروح القدس كأقنوم من عند الآب هكذا: «الذي من عند الآب ينبثق»: $\delta \text{ παρὰ τοῦ πατρὸς ἐκπορεύεται}$

هنا بحسب تحقيق العلماء المتخصصين تكون ἐκπορεύεται حينما تأتي وحدها تفيد الإنبثاق أو الخروج وحسب، فإذا أخذت الحرف ἐκ فهي تفيد الإنبثاق «من المنبع أي من الجوهر»، وقد جاءت بهذا التركيب في الآية: «وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها» (رؤ ١٦: ١٦). أما الوضع الثاني أي الخروج أو الإنبثاق «كإرسال» فهي تحتاج حتماً إلى الحرف παρὰ أي من عند أو من جانب. وهي الجملة المعروفة والسائدة في خروج الإبن من عند الآب بمعنى الإرسال، مثل «لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت» (يو ١٦: ٢٧). وهنا النص على انبثاق الروح القدس من عند الآب يقطع بخروج أو انبثاق الروح القدس من عند الآب «كإرسال» زمني. كما جاءت في الموضعين: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب» وباللغوية:

$\delta \nu \text{ ἐγὼ πέμψω ὑμῖν παρὰ τοῦ πατρὸς}$

«روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي»: وباللغوية:

$\tauὸ \text{ πνεῦμα τῆς ἀληθείας ὃ παρὰ τοῦ πατρὸς ἐκπορεύεται}$

لذلك عندما قرر الآباء في المجامع المسكونية مسوقين بالروح القدس نفسه، أن انبثاقه هو صدور

من المنبثق وليس مجرد إرسال زميني، هذا من جهة طبيعته وعلاقته الذاتية الأزلية بالآب — قالوا هكذا:

ونؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب:

هكذا باليونانية: τὸ πνεῦμα τὸ ἅγιον τὸ ἐκ τοῦ πατρὸς ἐκπορευόμενον

لتفديد الإنبثاق الأزلي غير الزمني بحسب الجوهر. أي أنهم استخدموا ἐκ أي «خروج من» بدل الحرف παρά «خروج من عنده أو من جانبه أو من جواره». ونقلوا الفعل من وضعه في مضارع الصيغة الإخبارية الذي يمكن أن يفيد المستقبل ἐκπορεύεται إلى وضع المفعول به المضارع الدائم ἐκπορευόμενον ليفيد الإستمرار الكياني للروح القدس في انبثاقه من الآب (٣).

والذي يهمننا في هذا المجال هو أن إرسال الروح القدس المرسل من عند الآب يفيد هنا عملية الشهادة للحق بصفته «روح الحق»، أي أن يشهد لحق المسيح فيما يخص حقيقة ارتفاعه أي صلبه كختام كل أعماله على الأرض الذي ارتفع به أيضاً إلى أعلى السموات. فهنا إرسالية الروح القدس هي للتوعية والدفاع معاً عن حقيقة صلب المسيح في محيط الناس. وفي نفس الوقت قصد المسيح قصداً من هذه الآية التعريف بالروح القدس وبصلته الأزلية بالآب والإبن فهو دائماً من الآب بالإبن.

كما يلاحظ أن المسيح هنا لم يقل «سأرسله لكم من عند أبي» بل «من عند الآب»، للتعبير عن أبوة الله العامة للناس، فالروح القدس مُرسل من الله الآب للناس تماماً كالإبن المرسل من الله الآب للعالم. وكما أن العالم لم يعرف «الكلمة»، كذلك الروح القدس «لا يعرفه العالم». (يو: ١٤: ١٧)

ومعنى أن الروح القدس يشهد للمسيح هو أنه ينطق داخل قلوبهم سواء للوعظ أو لكتابة الأنجيل والرسائل كما يقول قانون الإيمان: «الناطق في الأنبياء». وفي ذلك يقول القديس أغسطينوس: «لأنه هو سينطق، لذلك أنتم حتماً ستتكلّمون، هو ينطق في قلوبكم وأنتم تتكلمون بأفواهكم، هو بالإلهام وأنتم بالكلمة» — شرح يوحنا ٩٣. (PL 35)

التعريف الخامس:

«لكني أقول لكم إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن

³ Westcott op. cit. p. 224,225.

ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذلك يبيّت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على بر فلأنّي ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً. وأما على دينونة فلأنّ رئيس هذا العالم قد دين.» (يو ١٦: ٧-١١)

المسيح يكشف هنا بوضوح امتناع تلازم الخدمتين معاً: خدمة التجسد وخدمة عمل الروح القدس. فخدمة الإبن متجسداً تختص باستعلان وتمجيد الآب؛ وخدمة الروح القدس تختص باستعلان وتمجيد الإبن. وبالنهاية فالخدمتان هما عمل واحد متصل لإستعلان طبيعة الله وعمله في الثالث الأقدس.

لذلك يشدد المسيح على أنه بالنسبة للتلاميذ فخير لهم أن ينطلق حتى يبدأ الروح القدس يكمل لهم استعلان كل الأمور أو، كما يقول المسيح، «كل شيء» و«كل الحق»، دون أن تنقطع شركتهم غير المنظورة مع المسيح الذي وعد أن يكون فيهم ومعهم كل الأيام.

على أن وظيفة الروح تظل بالنسبة للعالم في حدود عمل المبيّت إزاء كل جحود وعدم إيمان ليظل فيه بصيص من الأمل في التوبة وذلك بواسطة الوعظ بالكلمة وشهادة الكنيسة للمسيح: «الروح يشهد لي وأنت أيضاً تشهدون.» (يو ١٥: ٢٦ و٢٧)

التعريف السادس:

«إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن. وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية. ذلك يجديني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم.» (يو ١٦: ١٢-١٤)

هنا يصرّح المسيح أن كل التعاليم والإعلانات التي أكملها مع تلاميذه، سواء ما تخص الآب أو ما تخصه أو ما يخص علاقتهم بالملكوت والحياة الأبدية وأمور حياتهم اليومية، لم تغلّها الثلاث السنين والنصف التي قضاها معهم، ليس بسبب قصر المدة بل بسبب عدم استطاعتهم استيعاب أعماق أسرار الروح، خاصة أخبار الصليب والجلد وسفك الدم — لوحيد من الآب المملوء نعمة وحقاً!! فإن مجرد تصوّر هذا الجمل فقط يقصم الظهر ويذهل العقل الطبيعي «من صدّق خبرنا؟ ولن استعلنن ذراع الرب» «واندهش منك كثيرون» (إش ٥٣: ١؛ ٥٢: ١٤)، أو كما يقول المسيح نفسه: «لا تستطيعون أن تحملوا الآن» (يو ١٦: ١٢)، حيث جاءت كلمة «تحملوا» βασιτάζειν بمعنى «الجمل الثقيل» وباللاتينية في الشولجاتا Portare. ولاحظ كلمة «الآن» فالمسيح كان يدرك فداحة تصوّر الصليب على التلاميذ، ولكنه بعد أن صُلب ثم تمجد وارتفع وصار

أعلى من السموات، صار هذا الحمل خفيفاً هيناً، فصار حمل المسيح هذا عينه – أي الصليب – هو ناموس المسيح البديع: «احملوا نيري عليكم ... لأن نيري هينٌ وحملِي خفيف.» (متى ١١: ٣٠ و ٢٩)

هذا الحمل حمله القديس بولس فاستلذَّ به ألياً لذة وسَمَاءَ «ناموس المسيح»، وصار يبشر به: «احملوا بعضكم أثقال بعض (أي احملوا صلبان بعضكم بعضاً) وهكذا تمموا ناموس المسيح.» (غل: ٦: ٢)

فالقِيامة بروحها المبهج أقعدت الصليب ثقله وألغت مرارته وحزنه. وهذا كله صنعه الروح القدس، فهذه صَنَعته!!

وهكذا بمجيء الروح القدس سوف تمتد خدمة الإستعلان وإدراك الحق الإلهي من جميع نواحيه وفي كل الأمور حتى إلى كمال استطاعة الوعي البشري، لأن البصيرة ستتمو والمعرفة ستزداد لحساب مجد المسيح والآب.

أما قوله: «ونخبركم بأُمور آتية»، فتأتى في اللغة اليونانية معرفة بأداة التعريف τὰ ἐρχόμενα أي بأُمور المستقبل المعدَّة من قِبَل الله للتنفيذ في وقتها. وهذا ينصب على كيفية نمو الكنيسة وتأسيسها وقيامها واكتمال هيأتها مع مرور السنين لتمثيل «النظام الإلهي» عوض النظام اليهودي المتداعي، باعتبار الكنيسة هي الإستعلان الزمني للملكوت الله على الأرض، كونها خاضعة للتدبير الإلهي ومُسيَّرة بالروح القدس.

الفصل الثالث

الكنيسة والأسرار في إنجيل القديس يوحنا

١ - الكنيسة بالمفهوم اللاهوتي في إنجيل القديس يوحنا^(١)

الكنيسة في واقعها الإلهي نشأت في اللحظة التي قال فيها المسيح للتلاميذ: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياهم تُغفر له. ومن أمسكتكم خطاياهم أمسكت.» (يو ٢٠: ٢١-٢٣)

هنا الكنيسة قامت وتأسست على الثالوث الأقدس والآب والإبن (المسيح) والروح القدس، تستمد رسالتها أو إرساليتها في العالم من الآب والإبن وبسلطان الروح القدس لغفران الخطايا.

ولودققنا النظر، لوجدنا أن رسالة إنجيل يوحنا من أوله إلى آخره تهدف إلى ظهور الكنيسة المسيحية في مقابل اختفاء الكنيسة اليهودية التي رفضت وجودها بيدها. علماً بأن القديس يوحنا كان يكتب إنجيله ويشخص إلى الكنيسة التي أمامه وهي بنت سبعين سنة! وهي وسط أعنف تيارات الإضطهاد والضغط من كل جهة.

وقد استخدم القديس يوحنا في إنجيله بعض الرموز اللاهوتية للتعبير عن المضمون الكنسي والسرثري. فمن جهة الأسرار نجد أن الماء والميلاد الجديد يعبران عن المعمودية^(٢)، والخبز التازل من السماء الباقي للحياة الأبدية المبذول من أجل حياة العالم والمأكول بالروح، يعبر عن

(١) لم نشأ أن نُعثر القارئ بآراء النقاد ونقدتهم السليبي المرير لإنجيل يوحنا بادعاء أنه أغفل الكنيسة كمفهوم لاهوتي وكشعب مختار وجماعة ذات وجود سرثري ولاهوتي. ولكن اكتفينا بالرد.
(٢) أنظر ذلك بأكثر تفصيل في فصل «الرموز في إنجيل القديس يوحنا».

الإفخارستيا^(٣)، والماء والدم النابعان من جنب المسيح يعبران عن سرّي الحياة الأبدية النابعين من المسيح، وهما المعمودية والإفخارستيا معاً، كسرّين متلازمين وحتميين^(٤)، وتحويل الماء خراً في عرس قانا بحضور المسيح يُعبّر عن تقديس سرّ الزبيجة^(٥)، ورفعهُ إلى مستوى بهجة التجديد بالحضور الإلهي عوض ثمرة الحزن الأول (تك ٣: ١٦ و١٧).

وأما من جهة الكنيسة نفسها فقد عبّر عنها إنجيل يوحنا على أنها شعب الله وأولاد الله، وذلك بالرموز المقروءة روحياً أيضاً:

أ - فيبدأ إنجيل يوحنا بتعريف شعب المسيح الجديد أي الكنيسة بصورة سرّية بأنه شعب عوض شعب، وخاصّة مقبولة عوض خاصّة مرفوضة: «جاء إلى خاصته (شعب اليهود) وخاصّته لم تقبله (الرفض الحتمي). أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله (شعباً جديداً بالتبني) أي المؤمنون باسمه (الإيمان الجديد بالإسم)، الذين وُلدوا ليس من دم (آدم الأول) ولا من مشيئة جسد (شهوة الزبيجة) ولا من مشيئة رجل (إرادة بشرية) بل من الله (ميلاداً روحياً سماوياً من فوق).» (يو ١: ١١-١٣)

ب - ووضع إنجيل يوحنا قاعدة العبادة للكنيسة في ناموس المسيح عوض ناموس العبادة الجسدي في العهد القديم «ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون (عوض السجود الشكلي بالجسد) يسجدون للآب بالروح والحق (بدافع الروح القدس وتدبيره وإلهامه للكنيسة). لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له (عنصر العبادة في الكنيسة يعبّر عن تكميم مشيئة وإلحاح من الله «طالبٌ»). الله روح (تفوق العبادة في الكنيسة عن كل تصوّرات العهد القديم الحسيّة) والذين يسجدون له فبالروح والحق (العبادة في الكنيسة مستمدة من طبيعة الله) ينبغي أن يسجدوا.» (يو ٤: ٢٣-٢٤)

ج - الفردية والجماعية في الكنيسة:

١ - في مَثَل «أنا الكرمة وأنتم الأغصان»: هنا ليس هذا الرمز سهلاً كما يتراءى لأول وهلة، فأصل الرمز أو المَثَل مأخوذ من كرمة العهد القديم (مز ٨٠: ٨ و١٤). وفيها «أنا» هو ابن الإنسان

(٣) أنظر نفس الفصل المذكور.

(٤) أنظر نفس الفصل المذكور.

(٥) أنظر نفس الفصل المذكور.

متحدداً بشعب الله^(٦). لذلك فبالرغم من حتمية الإيمان الفردي والثبوت الفردي للمسيحي في المسيح إلا أن المسيح هنا يجمع ويوحد الأغصان في نفسه: «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» (يوه١:٤). فالكنيسة هنا موجودة ومُعلنة بالفرد والجماعة في المسيح. والذي يحكم الثبوت الفردي في الكرمة واحتساب الفرد عضواً حياً ضمن الجماعة أي الكنيسة هو إثماره. فهنا قانون صلاحية الفرد وصحة الجماعة قائم كالسيف «كلُّ غصنٍ فيّ لا يأتي بثمر ينزعه (يُقطع)» (يوه١:٢)، كما يقوم في الحال بجواره وفي مقابله قانون النمو والتوبة ليخفف من شدته ويستقطب حدوثه: «وكل ما يأتي بثمرٍ ينقيهِ ليأتي بثمرٍ أكثر.» (يوه٢:١٥)

ولكن الذي يتحتم الإنتباه إليه جداً هو حقيقة تأهيل العضو وكيفية اتصاله بالكنيسة. فالتأهيل والكيفية يضعها مثل الكرمة في وضع الإلتحام الطبيعي العضوي الحي القائم على التغذية الحية بعصارة الحياة القادمة من أصل الكرمة. فالعضوية في الكنيسة ليست عضوية نظام وتنظيم ودفع أموال وتقديد أسماء في كشوفات أو اعتراف شفاهي أو عضوية فخرية، بل تغذية وإثمار «بدوني لا تقدرُون أن تفعلوا شيئاً.» (يوه١٥:٥)

فإذا كانت الكرمة والأغصان هي الكنيسة، إذن فقد صحَّ القانون القائل أن: [خارج الكنيسة لا يوجد خلاص]، وأن الانفصال عن الكنيسة هو موت، لأنه يحمل حتماً الحرمان من كل وعد المسيح للكنيسة. لذلك فكلمة «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» ذات وزن عالٍ جداً على مستوى الكنيسة الحية.

وجمَّع شمل المؤمنين في الكنيسة هو عمل سرِّي من أعمال المسيح الفائقة نسمع صداه في صلاة المسيح للآب: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يوه١٧:٢١). وهنا فإن عامل الحب الإلهي المتبادل هو العنصر الموحد للفرد في المسيح وفي الجماعة لإستعلان الكنيسة: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يوه١٤:٢١). فالفردية في الكنيسة قائمة على الإيمان الفردي، والجماعية في الكنيسة قائمة على المحبة؛ ولا غنى عنها كليهما، لأن الكنيسة في إنجيل يوحنا مبنية على الإيمان والمحبة: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌّ بعضاً لبعض» (يوه١٣:٣٥). بهذا يُحسب إنجيل يوحنا أنه بالدرجة الأولى إنجيل استعلان طبيعة الكنيسة الفائقة المستمدة من حضور المسيح الدائم وفعل محبته السرِّي الذي يفوق العقل.

(٦) أنظر ما جاء في شرح لقب «ابن الإنسان» عن التمام الشخصية الفردية مع الجماعة الشعبية حيث تقدّم أيضاً شرحاً مفصلاً للمزمور الثمانين.

٢ - في مثل الراعي الصالح:

كذلك فإن الفردية المخفية في الجماعة، والجماعة المبنية على الفردية واضحة في مثل المسيح كراعٍ صالح في قوله «ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتى بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعيّةً واحدةً وراعٍ واحد» (يو: ١٠: ١٦). هنا منتهى كمال استعلان سر الوحدة في الكنيسة المجموعة من خراف كثيرة ذات أوطان وألوان أخر. ومن هنا جاء الإصطلاح الكنسي المجيد كنيسة واحدة وحيدة جامعة رسولية. وهذه اللمحة للصفة الإلهية الجامعة للكنيسة كانت حاضرة في ذهن القديس يوحنا بوضوح حينما شرح نبوة قيافا رئيس الكهنة: «ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب (اليهودي - الخراف العتيقة) ولا تهلك الأمة كلها - ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزعم أن يموت عن الأمة. وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين (في العالم) إلى واحد.» (يو: ١١: ٥٠-٥٢)

فالرعية والخراف والحظيرة كلها رموز تهدف لتحديد موقع الكنيسة من المسيح. فهي رعية المسيح وخراف المسيح وحظيرة المسيح (يو: ١٠: ١٦). وهنا الصورة الجماعية للكنيسة تبدو ممتازة جداً كملكية شخصية للمسيح، فهو الراعي، والكنيسة هي الرعية، تعرف صوته وتتبعه حيث يقودها. هنا رباط الإلتزام الواحد بالآخر يبدو وكأنه بلا انفكاك. فعلى مستوى قول المسيح «أنا هو الراعي الصالح» تقف الكنيسة لترد قائلة: «وأنا هي الرعية - المدعوة والمختارة والمحبوبة - التي للراعي الصالح». فلا الراعي يبقى بلا رعية ولا الرعية تبقى بلا راعٍ. والإيمان هو الرباط الذي يربطها به: «إلى من نذهب. كلام الحياة الأبدية عندك. ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي» (يو: ٦٨ و٦٩). ويرد المسيح «الراعي» على ذلك بقوله: «أليس أي أنا اخترتكم أنتم الإثني عشر.» (يو: ٦٧)

د - سر الكنيسة كعروس المسيح:

مثل العريس والعروس: على فم المعدادان جاء هذا التعبير الكنسي كاستعلان غاية في السمو لوظيفة المسيح بالنسبة للكنيسة وموقع يوحنا المعدادان من هذا السر: «قن له العروس فهو العريس، وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذا فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يو: ٣٠-٢٩). هنا استعلان السر القائم في علاقة المسيح بالكنيسة علاقة عروس بعريس. في العهد القديم كان شعب إسرائيل محسوباً أنه مربوط بالله كزوجة، ولكن لما أخطأ شعب إسرائيل خطية تستوجب الطلاق، أعلن الله حالة طلاق رسمي لشعب إسرائيل كما قال الرب بضم إشعيا النبي: (هنا نقدم القراءة الصحيحة بحسب النسخة السبعينية): «هكذا قال الرب (يسأل) ما العلة التي يحملها كتاب طلاق أمكم؟

أو من هو الدائن الذي بعثكم له؟ (ويقدم الله الجواب) هوذا من أجل آثامكم قد بُعتم ومن أجل ذنوبكم طلقتُ أمكم» (إش ٥٠: ٢١). والآن نحن بصدد العروس الجديدة (الشعب والكنيسة الجديدة) التي جاء يوحنا المعمدان بروح إيليا لكي يعلن ويوثق عُرسها. فالمعمدان هو الإشبين المرسل من عمق الماضي بروح إيليا الذي طالما تاق توقفاً لرؤية هذا العريس من خلال حُجب ظلام الماضي. لذلك أيّ فرح يكون للمعمدان إذ رأى وسمع صوت العريس؟ في الواقع إن المتكلم هنا هو هو إيليا، نعم كم هي فرحتك يا إيليا، لقد انتظرتها انتظاراً وها هي تكلمت لك. أما النقصان فليس للمعمدان ولا لإيليا بعد، ولكن لكنيسة البرية لكنيسة العهد القديم في شكلها ومبناها. وأما الزيادة فهي ليست للمسيح، فكيف يزداد مَنْ «مِنْ هَلْهُ نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (١٦: ١)؟ لأن المسيح هو استعلان الله الكامل، والله لا يزداد كمالاً، وإنما الذي ازداد ويزداد فهو العروس كنيسة المسيح التي سقاها دمه، العروس التي زُفَّت إليه يوم صلبوته، حين غسلها بالماء وقدسها بالدم التابعين من جنبه المفتوح.

وسيرُ الكنيسة كعروس لمسيحها الذي اختارها وفداها وغسلها بالماء والدم واضح في سفر الرؤيا أيضاً: «لنفرح ونهتلى ونُعطي المجد لأن عُرس الخروف قد جاء وامرأته هيأت نفسها وأعطيت أن تلبس بزاً نقياً بيباً (كتان أبيض) لأن البرّ هو تبرّرات القديسين» (رؤ ١٩: ٧-٨). فالقديس يوحنا إنما هو على يقين مما رأى وسمع. والكنيسة في سفر الرؤيا هي هي أورشليم الجديدة التي سيستعلن مجدها في مجيء المسيح:

— «وتكلّم معي قائلاً هلّم فأريك العروس امرأة الخروف. وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من عند الله...» (رؤ ٢١: ٩-١٠)
 — «وأنا يوحنا رأيتُ المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم.» (رؤ ٢١: ٣-٢)

فأين تكون أمامها أورشليم العتيقة قاتلة الأنبياء وراجة المرسلين؟

وإذا ظهر المسيح مشتهى الأنبياء ورأته العين ولمسته اليد، فأين يقف المعمدان أو إيليا أو كل النبوات؟ وإذا «ظهرت الآية العظيمة في السماء امرأة امرأة متسرّبة بالشمس (المسيح) والقمر (يوحنا المعمدان) تحت رجلها، وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً (الرسول)» (رؤ ١٢: ١)، فأين تكون التي بكى عليها المسيح التي لم تعرف زمان افتقادها، التي صلبت مخلصها وجلست وحدها تبكي على زمان ترمُلها؟!!

هـ - سر الكنيسة وخروج الماء والدم من جنب المسيح:

لقد أعطى القديس يوحنا أهمية كبيرة لحادثة خروج الماء والدم من جنب المسيح على الصليب، مع أن بقية الإنجيليين لم يهتموا ولا حتى بذكرها:

- «وللوقت خرج دمٌ وماء. والذي عاين شهد وشهادته حقٌ وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم.» (يو ١٩: ٣٥)

ثم عاد في رسالته الأولى إلى تأكيد أهمية هذه الحادثة:

- «هذا هو الذي أتى بماء ودم يسوع المسيح. لا بالماء فقط بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد.» (١ يوح ٥: ٨)

ويتضح من هذا التركيز على هذه الحادثة أن لها أهمية لاهوتية أساسية في فكر القديس يوحنا. وقد اعتبر كثير من الآباء أن القديس يوحنا يريد أن يشير بذلك إلى خروج أسرار الكنيسة أي المعمودية (الماء) والإفخارستيا (الدم)، وبالتالي إلى خروج الكنيسة نفسها بصفتها حواء الجديدة، من جنب المسيح النائم على الصليب، كما خرجت حواء الأولى من جنب آدم النائم (القديسون أغسطينوس وكيرلس الأورشليمي وذهي الفم وغيرهم حسب تحقيق العالم Lagrange) (٧).

وجدير بالملاحظة أننا نجد ما يوازي هذا الفكر عند القديس بولس الرسول إذ أنه في نهاية حديثه عن الكنيسة كعروس للمسيح قال:

«فإننا نحن جسده من لحمه ومن عظامه» (أف ٥: ٣٠). وواضح أن هذا الإقتباس مأخوذ من قول آدم في سفر التكوين عقب خروج حواء من جنبه حيث قال: «هذه الآن عظمت من عظمي ولحم من لحمي.» (تك ٢: ٢٣)

و - الكنيسة في جوهرها وحدة في الآب والإبن:

الكنيسة تستمد جوهرها وكيانها الحقيقي من الوحدة الأزلية الكائنة بين الآب والإبن. يتضح ذلك من كلام الرب السري في صلاته الأخيرة (يو ١٧):

+ «كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو ١٧: ٢١)؛

حيث يظهر من ذلك أن الوحدة الأزلية بين الآب والإبن ليست فقط النموذج الأعلى (بقوله «كما»...) لوحدتنا الكنسية، بل هي فوق ذلك الوسط الإلهي المعروض علينا أن ندخل فيه: «ليكونوا واحداً فينا»، لتتحقق داخله وحدتنا الكنسية. فالكنيسة بالأساس مغمورة في هذا الوسط الإلهي الذي هو الحب المتبادل بين الآب والإبن.

7 M.-J. Lagrange, Evangile selon saint Jean, Paris, 1925, p. 499.

+ «أنا فيهم» (بالتجسد) وأنت فيّ (بعلاقتي الجوهرية بك كإبن وحيد لك، كائن فيك منذ الأزل) ليكونوا مكمّلين إلى واحد. وليعلم العالم أنك أرسلتني.» (يو ١٧: ٢٣)

عبارة «أنا فيهم» بدأت تتحقق لما صار الكلمة جسداً، فإن تجسد الكلمة هو جوهر تكوين الكنيسة، أي جوهر دخولنا في الوحدة مع الآب والإبن. فالكنيسة بالأساس هي امتداد لتجسد الكلمة أي لإتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح^(٨).

+ الكنيسة في جوهرها شركة مع الآب والإبن: ما سمعه القديس يوحنا من فم الرب في صلاته الأخيرة عن وحدة المؤمنين في الآب وفي الإبن، أعاد صياغته في رسالته الأولى مستخدماً عبارة «الشركة» *κοινωνία*، تلك الكلمة التي دخلت فيما بعد في التقليد المسيحي للتعبير عن «الشركة الكنسية»:

«نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا *κοινωνία* (الشركة الكنسية). وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (الشركة مع الآب والإبن هي الأساس الوحيد الذي تُبنى عليه الشركة الكنسية). ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً (هذه الوحدة مع الآب والإبن التي نحن مدعوون أن ندخل إليها في سر الكنيسة، والتي تفوق الزمن، هي سر الفرح الكامل).» (١ يو ١: ٤ و٣) (٩)

ز – النظام وتدبير الخدمة في الكنيسة، في إنجيل يوحنا:

لم يضع لها إنجيل يوحنا مفردات كثيرة ولكن وضع لها قاعدته العريضة التي إن سارت عليها الكنيسة وسار عليها رؤساؤها عاشت وازدهرت، وإن تمرت عليها انحصرت وتضايقت: «فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم: أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض لأني أعطيتكم مثلاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم

(٨) راجع شرح هذه النقطة بأكثر تفصيل في كتاب: «العصرة» للمؤلف، (أعيد طبعه ضمن كتاب: «الروح القدس الرب المحيي» ص ١٣٥-١٨١)، حيث يقول: «لقد استُعملت الكنيسة أول ما استُعملت في تجسد الإبن؛ لأن إتحاد اللاهوت بالناسوت هو في الواقع أصل ومعنى وحقيقة الكنيسة (إجتماع الله بالناس). لذلك فظهور الله في جسد إنسان هو أول استعلان لطبيعة الكنيسة وتحقق وجودها عملياً على الأرض... فإذا نظرنا إلى المسيح المولود من العذراء من جهة اللاهوت الكنسي لنتيقن أنه هو الكنيسة في معناها الإلهي المطلق» (ص ١٥٣). «إذن غاية التجسد الإلهي قد بلغت ذروتها يوم الخمسين حينما صار الكل في المسيح... لقد صار وكمل في العلية ما بُدئ به في بيت لحم. لقد وُلد المسيح في بيت لحم لتولد الكنيسة في العلية.» (ص ١٥٦)

(٩) راجع ما جاء في الباب الثالث – الفصل السادس عن الوحدة والشركة مع الله كمعايير روحية أساسية في إنجيل القديس يوحنا (ص ١٧٣ وما يليها).

أيضاً. الحق الحق أقول لكم إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مُرسله. إن علمتم هذا فطوبياكم إن عملتموه» (يو ١٣: ١٢-١٧). هذا هو قانون النظام في الكنيسة وقاعدة التدبير فيها.

ح - الإرسالية وتنصيب الرعاة ومنحهم سلطاناً

لمغفرة الخطايا والكراسة، في إنجيل القديس يوحنا:

« الحق الحق أقول لكم الذي يقبل مَنْ أُرسله يقبلني. والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني. »

(يو ١٣: ٢٠)

السيد المسيح هنا يتبنى عملية تعيين الرسل والمرسلين والإرساليات، ويرفع من قدر المرسل رفعاً إلهياً خطيراً، فالمرسل المسيحي يحمل اسم المسيح والآب، ورسالته أخطر مما يتصور الناس فهي على التوازي والتكامل مع إرسالية الآب للإبن. هذا هو المفهوم الإلهي للإرساليات في الكنيسة.

« أنا أرسلتكم لتحصّدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم. »

(يو ٤: ٣٨)

عمل المرسلين سبق المسيح وأسس منهجه وتولى تذليل مصاعبه، وزرع وسقى ونمّى، وما بقي على المرسل إلا الحصاد. لقد تولى المسيح رفع كل أتعاب الخدمة وعثراتها بعمله الروحي الخفي، وضمن للعامل نجاحه وفرحه.

« يا سمعان بن يونا أتخبرني أكثر من هؤلاء؟ قال له نعم يا رب أنت تعلم أي أحبك. قال

له ارع خرافي. » (يو ٢١: ١٥)

الرعاية في الكنيسة هي أمر تنصيب من قِبَل راعي الرعاة الأعظم. ومؤهلات الراعي في الكنيسة التي تجعله متقدماً على خراف الرعية هي المحبة الأكثر: « أكثر من هؤلاء ».

« فقال لهم يسوع أيضاً سلام لكم. كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ

وقال لهم اقبلوا الروح القدس. مَنْ غفرتم خطاياهم تُغفر له. وَمَنْ أَمَسَّكُمْ خطاياهم أُمَسَّتْ. »

(يو ٢١: ٢٣-٢١)

المسيح يمنح المرسلين في الكنيسة سلامه الخاص لينحوه بدورهم، وروحه القدس لمغفرة خطايا

الشعب أو لحجب الغفران (للتأديب والتوبة).

هنا يضطلع الروح القدس بوظيفة الكنيسة: « وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب

باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويدّركم بكل ما قلته لكم » (يو ١٤: ٢٦). « روح الحق الذي

لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ما كُتِّم معكم ويكون فيكم» (يوه١٤: ١٧). «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً...» (يوه١٥: ٢٦ و٢٧). «وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق...، وتخبركم بأمر آتية. ذلك يجديني لأنه يأخذ مما لي وتخبركم.» (يوه١٦: ١٣ و١٤)

وهكذا إذ تكون الكنيسة قد تكاملت نضجها، في منظور إنجيل القديس يوحنا، تنطلق لتكترز بما رأت وسمعت ببشارة الفرح: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح - (بالروح القدس) - ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (يوه١: ٤ و٣)

ط - مركز الرسل في الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا:

- «وسور المدينة (الكنيسة) كان له اثنا عشر أساساً وعليها أسماء رسل الخروف الإثني

عشر.» (رؤه٢١: ١٤)

الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا كما رآها في رؤياه مبنية على أساس الرسل. أما أسماؤهم المكتوبة على الأساس فهي تعبير قوي عن حضورهم الدائم بالروح في الكنيسة، ويمثله الآن التقليد الرسولي المدون في الأربعة الأناجيل، والشفاهي المسلّم للكنيسة في الأسرار وشرح الكلمة بالتسليم.

- «أما أنتم فما سمعتموه من البدء فليثبت إذأ فيكم.» (يوه٢٤: ٢٤)

لقد أزرهم المسيح بالروح القدس حتى يتذكروا كل ما قاله لهم ويعلمهم كل الحق ويأخذوا للمسيح ويخبرهم بالأمر التي عسر عليهم فهمها في حينها حتى يشهدوا له: «أنتم تشهدون أيضاً لأنكم معي من الإبتداء» (يوه١٥: ٢٧). هذه هي الميزة العظمى التي كانت لشهادة الرسل والتي عليها وبها قامت الكنيسة في كل العالم. ولقد حملت الكنيسة في كيانها هذه الشهادة كذخيرة لا يمكن أن تتكرر قط. فعندما نقول إن الكنيسة رسولية، فهذا يعني أنها تحمل الشهادة المدموغة بالروح القدس وختم المسيح.

ي - رؤية الكنيسة من الداخل:

«إصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا. وللوقت صرت في الروح وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس. وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق، وقوسُ فُزج حول العرش في المنظر شبه الزمرد. وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً. ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخاً (قسيماً) جالسين متسرلين بتياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب.» (رؤه٤: ١-٤)

القديس يوحنا صعد إلى السماويات ورأى، كما صعد موسى بالروح ورأى؛ هذا رأى شبه السماويات وظلّها، وذاك رأى السماويات عينها. أما موسى فصنع خيمة الاجتماع كما رآها بالروح؛ وأما القديس يوحنا فرتّب نظام الكنيسة وترتيبها من الداخل لتكون صورة منظورة لما سيكون في السماء. وكان القديس يوحنا بالفعل يلبس ملابس رئيس الكهنة بيضاء وعليه صدره وربما إكليل^(١٠). ونعتقد أن الكنيسة تسلمت منه شكلها وترتيبها الداخلي وترتيب جلوس الأسقف وحوله الكهنة. ونستدل هذا من رسائل القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية، وهو تلميذ القديس يوحنا، وذلك في رسائله الست التي كتبها سنة ١٠٧ إلى كنائس آسيا ومقدونيا وهو في طريقه إلى الإستشهاد في روما، حيث يحث أساقفة الكنائس — وحتى إلى پوليكارپوس نفسه أسقف سميرنا — على كيفية الاجتماع والجلوس داخل الكنيسة واحترام الأسقف: [حيث يكون الأسقف في موضع الله والكهنة في موضع جماعة الرسل]^(١١)، تماماً حسب الرؤيا التي رآها القديس يوحنا في السماء حيث عرش الله يحيط به عروش الأربعة والعشرين شيخاً بملابسهم البيضاء وأكاليلهم.

وهكذا أيضاً نتأكد من بقية رسائل القديس إغناطيوس أن النظام والقانون الكنسيين وتديرو الخدمة بدأت تأخذ كماها الإلهي في أيام القديس يوحنا وبعده.

٢ — الأسرار الكنسية في إنجيل القديس يوحنا

يقول العالم باريت في صفحة ٦٩ من كتابه شرح إنجيل القديس يوحنا: [في إنجيل القديس يوحنا توجد تعاليم عن الأسرار أكثر من بقية الأناجيل]. هذا رداً على النقاد الذين يقولون إن إنجيل يوحنا يخلو من الحديث عن الأسرار الكنسية.

وقد سبق أن قلنا في تعريفنا للكنيسة، أن الرموز الخاصة بالأسرار في إنجيل القديس يوحنا تحمل معاني خصبة للغاية «الميلاد من الروح»، «الماء الحي»، «الميلاد الثاني من فوق»، «تفتيح عمي الأعمى»، و«الإغتسال في بركة سلوام»، مقعد بيت حسدا ذو ٣٨ سنة على سرير الخطية. كلها أنوار مسلّطة على المعمودية تشرح كل لاهوتها. وكذلك وليمة الغذاء في حضرة الرب في معجزة الخمس الخبزات، والخبز النازل من السماء الذي من يأكله لا يموت، الشكر الإفخارستي عليه، والمسيح ناظر إلى أعلى، وتكسير الخبز (القسمة) والتوزيع، وجمع الكسر حتى

¹⁰ Euseb. Eccl. Hist. III,31; V,24.

¹¹ Ep. Magn VI, Trall. ii,iii cited by W.F. Hourd Christ. Acc. to St. John, p. 129.

لا يضيع شيء، «أكل الحق وشرب الحق». ثم الخمر في عرس قانا الجليل والكرمة، أنوار مسلّطة كلها على سر الإفخارستيا. وحضور المسيح (كعريس حقيقي) في عرس قانا الجليل، والأم العذراء حاضرة أيضاً (الكنيسة)، أنوار مسلّطة على سر الزيجة. ونفخ الروح القدس في وجه التلاميذ وإرسالهم للخدمة وإعطاؤهم سلطان غفران الخطايا، أضواء مسلّطة على سرّي الكهنوت والإعتراف.

وفي هذه الرموز جميعاً يُبرز إنجيل يوحنا الصلة الجوهرية بين الأسرار والمسيح، فكلها تنبع منه وتبقى قائمة ودائمة فيه. وقد التزم السيد المسيح بالرموز في حديثه عن المعمودية (يو ٣) وعن الإفخارستيا (يو ٦)، ولم يشرح السر عملياً لأنه لم يكن يكلم الكنيسة آنئذ بل كان يتكلم إما مع معلم التاموس أو في المجمع في كفرناحوم.

وإنجيل يوحنا ينفرد دون بقية الأناجيل في شرح الغرض من هذه الأسرار وتوضيح لزومها وأهميتها المطلقة بالنسبة للحياة الأبدية، بل ويجعل من ممارستها حتمية خلاصية: «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يو ٣: ٣)، «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يو ٣: ٥). ولكن جاءت كلها بلغة سرية مستقبلية، فهو يتكلم مع اليهود ولكن يخاطب كنيسة الدهور: «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشرّبوا دمه فليس لكم حياة فيكم» (يو ٦: ٥٣). اليهود رفضوا هذا وبعض التلاميذ أيضاً، لأن الكلام لم يكن لهم.

وواضح أن اختصاص إنجيل يوحنا يتجاوز دائماً الممارسات الشكلية لأنه كان يتكلم مع غير المختصين بالشكل والأداء. فهو لم يصف طريقة ممارسة سر العماد، ولا وصف طريقة ممارسة سر الإفخارستيا؛ ولكنه تجاوز الشكل والحركة إلى المضمون والجوهر. ويكفي أنه لم يذكر قط كلمة واحدة عن ميلاد المسيح أو نسبه أو بلده أو عماده. ولكنه أسهب في وصف تجسده الذي هو التعبير اللاهوتي عن الميلاد. ثم أسهب في وصف شهادة يوحنا المعمدان وما سمعه بالروح القدس وشهادة الله عن ابن الله وقت العماد.

كذلك يختص إنجيل يوحنا بالتأكيد على دور الروح القدس في المعمودية، فبعد أن ذكر الميلاد من فوق والميلاد من الماء والروح، عاد ثالثة ليؤكد أنه ميلاد من الروح القدس: «هكذا كل من وُلد من الروح» (يو ٣: ٥٧ و٥٨). كذلك في سر الإفخارستيا، فإنه بعد أن وضع أساس الإفخارستيا كأكل الجسد وشرب الدم، عاد وأكد أن للروح القدس الفعل الجوهرية في عملية السر بأكمله. «الروح هو الذي يحيي، أما الجسد — كمجرد طعام بالفم — فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة.» (يو ٦: ٦٣)

ويلاحظ أن «الجسد» في الإفخارستيا هو التعبير الكامل عن جسد المسيح الحي الذي مات وقام. ولا يمكن فصم الجسد عن الروح القدس الذي فيه باعتبار أنه جسد الابن الوحيد الحامل لروح الله، كذلك لا يمكن فصله عن الروح القدس الذي حلَّ عليه واستقر فيه، فالذي يأكل الجسد يقبل الروح القدس الذي فيه. لذلك فالجسد محيي «لأنني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩). وكذلك الدم فهو في المسيح قائم «بروح أزي» (عب ٩: ١٤)، ومعروف في لاهوت العهد القديم أن «الحياة في الدم» (لا ١٧: ١٠ و١٦). أما دم المسيح ففيه الحياة البشرية والحياة الأبدية معاً أو الحياة التي بلا فساد أو موت، فالذي يشربه يتحد به ويحيا إلى الأبد ولا يجوز عليه الموت. لذلك اعتبر الآباء القديسون أن الإفخارستيا هي antidote أو ترياق عدم الموت أو الدواء الذي يمنع الموت. وقد أجهل القديس يوحنا في رسالته الأولى عمل الروح مع الماء مع الدم كعمل واحد ذي شهادة «والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم في الواحد.» (١ يو ٥: ٨)

ثم يعود القديس يوحنا ليؤكد على العمل السريري في حياة المسيح بصورة عميقة للغاية. فبحسب الإنجيل عامة كتقليد رسولي، فإن حياة السيد المسيح تبدأ بالعمودية والروح القدس وتتم بالإفخارستيا، طقساً في الثلاثة الأناجيل، وتعليماً في إنجيل يوحنا، وتطبيقاً على الصليب في الأناجيل الأربعة. ويُعقَّب على هذا القديس يوحنا في رسالته بقوله عن المسيح ككل: «هذا هو الذي أتى بماءٍ ودم يسوع المسيح، لا بالماء فقط (يوحنا المعمدان) بل بالماء والدم، والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق» (١ يو ٥: ٦). لأن الروح القدس هو الذي شهد في العمودية وهو أيضاً اضطلع بإقامة المسيح من الموت (رو ٤: ٤)، معلناً بذلك أن دم الصليب كان للفداء.

+ وقد أكد القديس يوحنا ثلاث مرات على قيمة الإعترا ف بالخطايا كسرٍّ من أسرار الغفران والشفاعة:

— «و دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية.» (١ يو ١: ٧)

— «إن قلنا إنه ليس لنا خطية نُضَلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل (أمين بحسب الوعد وعادل بحسب القضاء) حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.» (١ يو ١: ٩ و٨)

— «إن قلنا إننا لم نخطئ نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا... وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الأب يسوع المسيح البار، وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً.» (١ يو ١: ١٠، ١ يو ٢: ٢١)

- + كما يبرز القديس يوحنا الإيمان بالمسيح على أساس أنه سر خلاصي:
- « كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله. » (١ يوه: ١)
 - « كلُّ من وُلد من الله يغلب العالم . وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا. » (١ يوه: ٤)
 - « من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله. » (١ يوه: ٥)

الفصل الرابع

الرموز في إنجيل القديس يوحنا

(أو اللاهوت الرمزي)

الراعي الصالح ، الكرمة الحقيقية ، الخبز الحي ، الماء الحي... إلخ.

يستخدم المسيح هذه الرموز في إنجيل يوحنا لتوضيح حقائق أبدية. وهذه هي إحدى خصائص إنجيل يوحنا.

١ - رمز الراعي الصالح:

في مثل «أنا هو الراعي الصالح» يقول الرب إنه هو باب الخراف أيضاً، ويستحيل بحسب المدلولات أن يكون الراعي هو الباب؛ فهذه رموز تهدف إلى حقيقة أخرى إلهية أو لاهوتية عالية جداً. فبعد أن يعرف المسيح نفسه بأنه هو الراعي وأنه هو باب الخراف وأنه «يعرف خاصته وخاصته تعرفه»، يرتفع مرة واحدة بالرمز ليدخله في دائرة الله ليكشف عن هويته هكذا: «كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب...» (يو: ١٠: ١٥)، ثم من داخل الرمز يشير إلى رسالته حتى منتهاها بكلمة: «وأنا أضع نفسي عن الخراف» (يو: ١٠: ١٥). فالمسيح يستخدم كلمة «الراعي» وكلمة «الباب» وكلمة «الخراف» كشيء أو رمز لموضوع حقيقي على مستوى عمله الإلهي وهو: كيف سيخلص المؤمنين باسمه الذين عرفوه وعرفهم، وسوف يعطيهم الحياة الأبدية، وكيف ستكون الصلة بينه وبينهم؟

والمسيح لم يستخدم هذه الرموز كشيء جديد، بل هي بعينها رموز العهد القديم التي استخدمها الله مع شعبه. ففي العهد القديم معروف من المزامير أن «الرب راع»، فيهوه يرعى شعبه، وشعبه هو بمثابة خراف «الرعية»: «نحن شعبك وغنم رعايتك» (مز: ٧٩: ١٣). والله نفسه هو «الراعي».

والنبوة تشير على أن الله سيأتي كراع له صفة القوة والبأس مع حنان وعطف: «هوذا السيد الرب بقوة يأتي، وذراعه تحكم له. هوذا أجرتة معه (ليس أجيراً) وغمثته معه. كراع يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان، وفي حضنه يحملها، ويقود المرضعات.» (إش ٤٠ : ١٠ و١١)

ولكن على مدى السنين اختار الله رعاة من المختارين من الشعب ليقوموا بالرعاية من تحته هو «كراعي الرعاة الأعظم». «واختار داود عبده وأخذه من حظائر الغنم، من خلف المرضعات أتى به ليرعى يعقوب شعبه وإسرائيل ميراثه، فرعاهم حسب كمال قلبه وبمهارة يديه هداهم.» (مز ٧٨ : ٧٠-٧٢)

ولكن في السبي ابتداء الله يصرح على فم أنبيائه أنه سيعاقب الرعاة، وأنه فيما بعد سيرعى بنفسه وسيقوم رعاة أيضاً. والإشارة واضحة على المسيح والرسول ثم الكنيسة: «ويل للرعاة الذين يهلكون ويددون غنم رعيتي يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبي. أنتم بددتم غنمي وطردهتموها ولم تتعهدوها. ها أنذا أعاقبكم على شر أعمالكم يقول الرب. وأنا أجمع بقية غنمي من جميع الأراضي... وأقيم عليها رعاة يرعونها فلا تخاف بعد ولا ترتعد ولا تفقد يقول الرب.» (إر ٢٣ : ١-٤)

ولكن على مدى الأيام فسد الرعاة وأفسدوا الرعية جداً، ومن جهة هذا الأمر يصرخ حزقيال النبي: «وكان إليّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم تنبأ على رعاة إسرائيل، تنبأ وقُلْ لهم: هكذا قال السيد الرب للرعاة، ويل لرعاة إسرائيل الذين كانوا يرعون أنفسهم، ألا يرعى الرعاة الغنم. تأكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم (أي نهبوا الرعية). المريض لم تقووه والمجروح لم تغصبوه والمكسور لم تجبروه والمطروود لم تستردوه والضال لم تطلبوه، بل بشدة وبعنف تسلطتم عليهم. فتشتتت بلا راع وصارت مأكلاً لجميع وحوش الحقل وتشتتت. ضلت غنمي في كل الجبال وعلى كل تلّ عالي. وعلى كل وجه الأرض تشتت غنمي ولم يكن من يسأل أو يفتش... هكذا قال السيد الرب: ها أنذا على الرعاة وأطلب غنمي من يدهم وأكفهم عن رعي الغنم. ... هكذا قال السيد الرب: ها أنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها كما يفتقد الراعي قطيعه... أرهاها في مرعى جيد... أنا أرمي غنمي وأربضها يقول السيد الرب.» (حز ٣٤ : ١-١٥)

ويقول المسيح: «إن كل الذين جاءوا قبلي (من الرعاة) هم سُراق ولصوص» (يو ١٠ : ٨)، والله نحاهم: «أكفهم عن رعي الغنم». وجاء هو بنفسه يهود بنفسه: «أنا أرمي غنمي يقول السيد الرب». وزاد المسيح بقوله: «أنا أضع نفسي عن الخراف»، وجعل هذا برهاناً لصلاحه: «أنا هو

الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.» (يو ١٠: ١١)

والآن لو تأمل القارئ جيداً في نبوة حزقيال (١) في قوله إن الله سيكشف الرعاة المفسدين عن رغبي الغنم وأنه سيرعى بنفسه الغنم، فإنه لا يجد لهذا القول أي تنفيذ عملي في العهد القديم من بعد زمان حزقيال النبي. فلا الرب أوقف الرعاة عن الرعاية، ولا الرب قام بنفسه برعاية الشعب، بل على النقيض أهمل الأمة تماماً، وظلت كلمة الرب محبوسة بلا نبي ولا معلم إلى مجيء المسيح، ما عدا نبوات الأنبياء الصغار الذين جاءوا من بعد حزقيال وحَدَّوْا حَدَّوْه في نقد أعمال الرعاة.

وفجأة وبعد أربعمئة سنة من آخر نبي من الأنبياء الصغار، كلها صمتٌ، يأتي العهد الجديد ويقف المسيح فيقول: «أنا هو الراعي الصالح» (يو ١٠: ١١)، ويؤكد: «أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي (من الرعاة) هم سُراق ولصوص» (يو ١٠: ٨ و٧). وهكذا ومن هذا الصوت القوي ندرك أن يهوه يتكلم، فهذا صوت السيد الرب الذي نطق في حزقيال قديماً.

وبهذا ينكشف أمامنا سر قوله: «أنا هو الراعي الصالح»، أي أنه ليس مثل رعاة إسرائيل الذين سرقوا الشعب ونهبوه ونتفوا صوفه وأكلوا لحمه وعصروا لبنه حتى الدم، بل هو «صالح». وفي موضع آخر صرَّح بغاية الوضوح أن ليس «صالحاً» إلا الله. وهكذا يصل بنا الرمز إلى استعلان شخص المسيح استعلاناً كاملاً.

وهذا هو أسلوب إنجيل يوحنا في استخدام الرمز، إذ يستعلن به الجديد المحفِّي في القديم، ويضرب به من بعيد ما فسد وساء، ويرفع به من قَرَبه الله ورفعته وعلاه.

٢ - رمز الكرمة:

وأيضاً إذا جئنا إلى رمز الكرمة في قول الرب: «أنا الكرمة وأتم الأغصان» (يو ١٥: ٥)، والكرام يقظ، كلُّ غصن فيه لا يثمر يقطعه والذي يثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر. فلونحننا جانباً شرح العلاقة الحيَّة السرية بين الكرمة وأغصانها وبين عصير الكرمة ودم المسيح الذي يعطي حياة أبدية للأغصان الثابتة والمثمرة - لونحننا هذا جانباً لنسأل: لماذا اختار المسيح هذا الرمز بالذات؟

فإننا نجد هنا العودة إلى الوعود والتوسلات المقبولة التي قُدمت في العهد القديم عن الكرمة

(١) حزقيال النبي: كتب نُبوته قبل وبعد السبي، حوالي (٥٩٧-٥٨٦ ق.م.) وهو ثالث الأنبياء الكبار وآخرهم بعد إشعياء وإرميا.

ومضمونها. فنرى في مثل المسيح أنه يتم وعداً وعده الله على لسان داود بالروح، وعلى لسان إشعياء أيضاً نرى وعداً لم يتم قط في العهد القديم حتى نهايته إلى أن جاء المسيح ليعلن أن زمان تحقيق وعد الله ورجاءات الأنبياء بالروح قد تم في شخصه!!

نبوة إشعياء: كما يتغنى إشعياء بأغنية حزينة عن «الكرمة»، فالروح القدس ينطق على فمه نشيداً مُبكيّاً عن كرمه (كانت محبوبة لله)، والكرمة هي الشعب، أي شعب إسرائيل قديماً الذي أعزّه جداً واعتنى به للغاية كما يعتني كرام صالح بكرمه. ثم يعطي الروح الكلمة للمسيح ليتكلم عن كرمه ويحتكم إلى شعبه شعب يهوذا (أي الكرمة ذاتها)، ويُفصح عن عزمه على كسر أسوارها أي رفع العناية الإلهية بها ثم هدمها، وقد هدمها بالفعل سنة ٧٠م؛ ويوصي السماء أن لا تمطر عليها، أي يرفع نعمته ورحمته عنها. فعلاً صار شعب إسرائيل ويهوذا مهاناً مردولاً في العالم كله. «لأنّشيداً عن حبيب نشيد محبّي (أي محبوبي my beloved) لكرمه: كان لحبيبي كرم على أكمة خصبة فنقبه ونقى حجارته وغرسه كرم سورك (سورك للأسف كلمة يونانية عن العبرية وضعت كما هي σωρική وترجمتها جيد أو مختار)، وبني برجاً في وسطه ونقّر فيه أيضاً معصرة فانتظر أن يصنع عنباً فصنع عنباً رديئاً. والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا، احكموا بيني وبين كرمي. ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له. لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً. فالآن أعرفكم ماذا أصنع بكرمي. أنزع سياجه فيصير للرعوي. أهدم جدرانته فيصير للدّوس. وأجعله خراباً لا يُقبض ولا يُنقب فيطلع شوك وحسك وأوصي الغيم أن لا يُمطر عليه مطراً. إن كرم رب الجنود هو بيت إسرائيل وغرس لُدّته رجال يهوذا. فانتظر حقاً، فإذا سنك دمْ؛ وعدلاً، فإذا صراخ.» (إش ٥: ٧-١)

تعقيب على نبوة إشعياء: ولكن ما جاء في المزمور ٨٠: ٨-١٧ يُعتبر تشفّعاً واسترحاماً لِمَا جاء في إشعياء النبي هنا. فنبوة إشعياء تنتهي بخراب الأمة وهجران الله لشعب إسرائيل وصبّ غضبه ونقمته عليه. ولكن المزمور ٨٠ الذي يتكلم عن كرمه داود، سبق فنظر إلى ما بعد الخراب والغضب والهجران، وتطلع من بعيد إلى الكنيسة الجديدة - إسرائيل الجديد - الكرمة المحبوبة التي غرسها المسيح في جسده ومن جسده، ورواها بدمه وسيجّ حولها بالروح القدس لتبقى إلى الأبد.

نبوة كرمه داود: «كرمة من مصر تَقَلَّتْ (٢). طردت أمماً وغرستها. هيأت قدامها فأصلت أصولها فلأت الأرض. غطى الجبال ظلّها، وأغصانها أرز الله. مدّت قصبانها إلى البحر، وإلى النهر

(٢) هنا الكرمة هي شعب إسرائيل الذي انحدر من فلسطين كفروع جاف أو عُقْلَة تحتاج إلى رعاية كثيفة لتنمو جيداً، أرسلها الله إلى مصر وشيّلت هناك في أرض الفراعنة لتشرب الحكمة، وترضع الفنون، وتتهذب بأخلاق الفراعنة الأماجد، وتنمو وتزدهر على

فروعها. فلماذا هَدُمَتْ جدرانها فيقطعها كل عابري الطريق. يُفسدها الخنزير من الوعر ويرعاها وحش البرية. يا إله الجنود ارجعنا أَطَّلِعْ من السماء وانظر وتعهّد هذه الكرمة، والغرس الذي غرسته يمينك، و«الإبن»، الذي اخترته لنفسك... لتكن يدك على رَجُل يمينك وعلى ابن آدم (أي ابن الإنسان) الذي اخترته لنفسك. «(مز ٨٠: ٨-١٧)

واضح هنا أن الرمز «الكرمة» يستعلن من داخله «أشخاصاً»؛ فيوجد «الإبن» الذي اخترته لنفسك، ويوجد «ابن الإنسان» الذي اخترته أيضاً لنفسك بجوار «الكرمة» في حد ذاتها التي ينصبُّ مدلوها على شعب إسرائيل بكل وضوح. ولكن النبوة تجمع الكرمة (الشعب)، و«الإبن»، و«ابن الإنسان» في مفهوم واحد: كيف يكون ذلك؟ هذا أمر مستحيل حسب الشكل والمنطق (٣).

ثم نأتى إلى الدعاء الملحّ، وهو مُقَدَّم بالروح: «ارْجِعْ أَطَّلِعْ من السماء، وانظر وتعهّد هذه الكرمة...، وهذا الإبن...، رَجُل يمينك...، وعلى ابن الإنسان...».

وهذا لم يتم في العهد القديم على الإطلاق، فإله بعد داود لم يفقد هذا الشعب، و«الإبن» الذي هو المسيح لم يظهر، ولا عُرف مَنْ هو «رَجُل يمين الرب»، ولا مَنْ هو «ابن الإنسان».

ولكن يأتي المسيح ويقول: «أنا هو الكرمة الحقيقية» (يوه ١٥: ١)، هنا وبكلمة الحقيقية ἀλήθεια يرتفع إلى الطبيعة الإلهية. ويعود المسيح مباشرة ويميط اللثام عن علاقة هذه «الكرمة الحقيقية» (أي المسيح) بالله، فيقول: «وأبي الكرّام» (يوه ١٥: ١)، أي أنه «ابن الكرّام». وهنا يرتفع بالرمز حتى يوصله بالله مباشرة. إذن، فالكرمة ليست مجرد شجرة بل هي «الإبن» — «ابن الكرّام». ثم يعود مباشرة ويقول: «وأنتم الأغصان» (يوه ١٥: ٥). إذن، فهو من نوع أو من جنس الأغصان؟؟ أي هو «ابن الإنسان». وهكذا وفي آية واحدة أخذ المسيح الرمز من العهد القديم: «الكرمة» واستعلن بها ذاته الإلهية، وعلاقته بالآب، وتجسّده، مرة واحدة، أليس هذا عجباً؟؟ وليس هذا فقط، بل بقوله أنه ابن الكرّام وابن الإنسان معاً يفيد اتحاده بشعبه، فهو يستعلن الكنيسة من داخله، الكرمة الحقيقية الكاملة، «أنتم فيّ وأنا فيكم»، الكنيسة الجديدة التي نقلها من الأرض إلى السماء. لذلك أخذت الكنيسة مَثَل الكرمة هذا وجعلت منه تسبحة ترددها

= ضفاف النيل، حتى ضربت جذورها وضلّحت للنقل فنقلها الله من مصر. وفي مصر أيضاً غرس كنيسته المحبوبة، كنيسة القبط، التي كانت معلّمة المسكونة. فصر هي حقل الله الذي تبثّه لنفسه.

(٣) راجع شرح لقب «ابن الإنسان» واتصاله بما جاء في المزمور ٨٠، ص ٢٠١.

على مدى الأجيال، فهذا اللحن يُقال في القداس الإلهي^(٤).

ولولا أن المسيح قال هذا المثل لظلت نبتة كرمة داود (في المزمور ٨٠، وفي نبوات إشعياء) متعطلة كوعد بلا تنفيذ، وكدعاء بلا استجابة. وهذا مستحيل في منهج الله والأنبياء.

٣ - رمز «الخبز النازل من السماء»:

«خبز السماء» لم يكن يُنظر إليه كرمز في العهد القديم، بل كحقيقة واقعة، ولكن في حدود الجسد، فهو خبز الشعب الجسدي «فقال لهم موسى: هو الخبز (المن) الذي أعطاكم الرب لتأكلوا» (خر ١٦: ١٥). وقد أشمته داود في المزمور بخبز السماء: «سألوا فأتاهم بالسَّلوى وخبز السماء أشبعهم» (مز ١٠٥: ٤٠). كما أسماه المزمور أيضاً خبز الملائكة: «أكل الإنسان خبز الملائكة.» (مز ٧٨: ٢٥)

ونحميا يدعوه خبزاً من السماء: «وأعطيْتهم خبزاً من السماء لجوعهم وأخرجت لهم ماء من الصخرة لعطشهم» (نح ٩: ١٥). هذا الخبز الذي عبّر عنه نحميا «خبز من السماء» - الذي هو نفس تعبير المسيح «أنا هو الخبز الحي النازل من السماء» (يو ٦: ٥١) - كان يفتقر حقاً إلى تصحيح، فإن «خبز من السماء» لا يمكن أن يكون لجوع الإنسان الجسدي. فالأرض مسؤولة عن خبز الجسد، وعرق جبين الإنسان (ثمرة الخطية) هو الذي ينتج هذا الخبز.

فالمن الذي نزل من السماء كان خبزاً، نعم، ولكن على مستوى النبوة لما هو آتٍ. فالله سبق فأنبأ عن نزول «الخبز الحي الحقيقي»، خبز الحياة الأبدية، لإعالة شعبه ليس في قفر التيه في سيناء، بل في قفر تيه العالم.

والمسيح لما صنع معجزة الخمس الخبزات والسّمكتين حيث الخبز كان بديلاً للمن، والسّمك بديلاً للسّلوى، كان يريد أن ينبه ذهن إسرائيل وهم في قفر بيت صيدا الجليل أن بديل المن المادي قائم أمام أعينهم، إذ بثّ قوته الإلهية التي من السماء فجعل الخمس الخبزات تطعم خمسة آلاف رجل، أي رفع حدود العدد والرقم، ألغاه وأبطله ليمتد إلى مالا نهاية، إلى مئات ألوف ألوف، أو إلى العالم كله، بل ويفيض للملء الشعب.

(٤) [أيها الرب إله القوات، ارجع واطلع من السماء،

أنظر وتعهّد هذه الكرمة، أصلحها وثبتها،

هذه التي غرستها يمينك.]

ويُعرف هذا اللحن في الطقس باسم «أسبسم واطس».

وهكذا هو يمهّد لقوّته الإلهية المستعلّنة لشخصه وطبيعته: «أنا هو الخبز... النازل من السماء الواهب حياة للعالم» (يو: ٦: ٤١ و٣٣). فكما فتح عينيّ الأعمى المولود بلا عينين خالقاً له البصر من جديد ليرى نور العالم لكي يستطيع أن يقول بالحق كل الحق: «أنا هو نور العالم» (يو: ٩: ٥)، ويكون صادقاً؛ كذلك بثّ قوّته السماوية في الخبز ليشبع الألوّف لكي يستطيع أن يقول: «أنا هو خبز الحياة... النازل من السماء» (يو: ٦: ٣٥ و٣٣). إن سِرَّ الشع الذي بثّه في الخبز بلا حدود هو قوته الإلهية التي أعلنها لهم في وضعها الروحي الأصيل، كسرّ شع الروح والحياة، الذي أسماه: «الطعام الباقي للحياة الأبدية»؛ في مقابل المنّ أو الخمس الخبزات، أي «الطعام البائد»، إلا إذا اكتشف فيه الإنسان سِرَّ الرمز.

فالمسيح صحّح الوضع القديم في سيناء إذ جعل «خبز السماء» هذا أو «خبز من السماء» (ثمرة محبة الله) ليس لإشباع الجوع الجسدي للإنسان، بل لإشباع جوعه الروحي. وهو لا يؤكل بالفم، وإنما يؤكل بالروح، فخبز السماء هو زاد السماء وليس زاداً للأرض. فلا يُعقل أبداً أن الله يعطي خبزاً من عنده من السماء لأوّد الجسد ليأكله الإنسان ويموت، حاشا. فهذا كان رمزاً أرضياً للآق. وهو ككل رموز العهد القديم يظل في حدوده المادية شبه الحقيقية ينتظر من يحقّقه على مستوى «الحقيقة ἀληθεια». إلى أن جاء المسيح وقال: «أنا هو الخبز الحقيقي»: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء، بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء» (يو: ٦: ٣٢)، «أنا هو خبز الحياة» (يو: ٦: ٣٥). فالمن لم يكن خبزاً حقيقياً، بل شبه الحقيقة كباقي كل رموز وصور العهد القديم: «شبه السمويات وظلّها.» (عب ٨: ٥)

— كان «الرمز» القديم كلُّ من يأكله يجوع أيضاً، أما الخبز الحقيقي الذي فكّ الرمز فالذي يأكله لا يجوع إلى الأبد: «أنا هو خبز الحياة، من يُقبل إليّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو: ٦: ٣٥)

— وكان «الرمز» القديم كلُّ من يأكله يموت أيضاً، أما الخبز الحقيقي الذي فكّ الرمز فالذي يأكله لا يموت: «أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المنّ (خبز السماء الرمزي) في البرية وماتوا. هذا هو الخبز (الحقيقي) النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (يو: ٦: ٤٨—٥٠)

— كان «الرمز» القديم مأكلّاً زائلاً، أما الخبز الحقيقي الذي فكّ رمز الأكل من الخبز فهو مأكلٌ حقيقيّ باقي إلى الأبد: «الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي... جسدي مأكلٌ حقٌّ ἀληθής.» (يو: ٦: ٥١ و٥٥)

— كان «الرمز» القديم في صورة مادية ميتة، ينتن إذا تُرك لليوم الثاني، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ الرمز فهو حيٌّ ومحيي: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.» (يو: ٦٠: ٥١)

— كان «الرمز» القديم أكله يُنشئ شهوة: «جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب... كما زنى أناس منهم...» (١ كو: ١٠: ٧ و٨). أما الخبز الحقيقي فيبطل الشهوة وينشئ تقوى: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه.» (يو: ٦٠: ٥٦)

— كان «الرمز» القديم لامتداد الحياة الأرضية للإنسان العتيق، أما الخبز الحقيقي فهو طعام الحياة الأبدية لقوام الإنسان الجديد: «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو: ٦٠: ٥٧)، كما «أنا حيٌّ بالآب» (يو: ٦٠: ٥٧)!!

والآن، فليُنظر القارئ كيف اقتحم المسيح هذا الرمز: «خبز من السماء (المنُّ)» ليكشف قصوره في القديم وعدم توافقه على الإطلاق مع طبيعة الإنسان، إذ هو «مَنْ السماء»، ولكنه لم يشبع ولم يُغني عن جوع بل أنشأ شهوة بل خطية بل موتاً. لهذا كان أمراً حتمياً، وبالضرورة، أن يتبنى المسيح هذا «الرمز»؛ ليستعلن فيه طبيعته السماوية، ونزوله الحقيقي من السماء، ومصدره الإلهي، وفعله المحيي الخلاق في طبيعة الإنسان. الأمر الذي من أجله أنزل الله المنُّ من السماء في القديم، ليكون عربوناً لعطية الله العظمى بتجسد ابنه المسيح يسوع الذي جاء ليعطي الإنسان الجديد خلقته الروحية الثانية، ويقم أودها من جسده الإلهي لتحيا ولا تموت، ولتوهل حياة الأبد.

لقد سلّم المسيح لكنيسته الأولى هذا الرمز المستعلن بالروح في جسده للأكل وفي دمه للشرب، لتظل تُطعم بها أولاد الله المخلوقين جديداً حسب صورة خالقهم، لا أربعين سنة كخبز الدموع والمشقة والتيه الذي ينتظر راحة في أرض كنعان وقمحاها، ولكن إلى نهاية كل الدهور كطعام الحق والفرح والتهليل وبهجة القيامة، حياة ممتدة في المسيح إلى أن يجيء.

٤ — رمز الماء النابع من جنب الصخرة:

أولاً: رمز المياه في القديم:

أ — الوجه السلبي للمياه: كانت المياه في وجهها السلبي مخيفة في الفكر اليهودي، فياه الفيضان تمثل غضب الله على عالم الأشرار أرضاً وزرعاً وأحياءً وذلك سواء في الفيضان أو في انطباق مياه البحر الأحمر على الأعداء المتعجبين للشعب الهارب من مصر فقتلتهم؛ أما هم فالمياه خدمتهم وسهّلت طريقهم «شقَّ البحر فعبرهم ونصب المياه كندً» (مز: ٧٨: ١٣). «وانتهر بحر سوف فيبس وسيهرهم في اللجج كالبرية. وحلّصهم من يد المبغض وفداهم من يد العدو، وغطت المياه

مضايقيهم واحدٌ منهم لم يَتَّقَ.» (مز ١٠٦: ٩-١١)

ولكن في هذا الوجه السلي للمياه الخيفة كان الله صاحب سلطان على المياه يطأها بقدمه. «أبصرتك المياه يا الله، أبصرتك المياه فزعت. ارتعدت أيضاً للبحر» (مز ٧٧: ١٦). «في البحر طريقك وسبلك في المياه الكثيرة وآثارك لم تعرف» (مز ٧٧: ١٩). هكذا سار المسيح فوق المياه؛ كما أن المياه وهي عدوٌ، فتحت طريقاً لأرجل الكهنة وبعدهم الشعب ليعبروا نهر الأردن (يش ٣: ١٤ و ٨)؛ وكذلك إيليا وأليشع من بعده (٢ مل ٢: ٨).

وفي التقليد اليهودي بحسب إشعياء النبي، فالمياه تمثل في وجهها السلي القوى الشريرة، فتمثل بالتنين الحية القديمة، بينما سلطان الله يطأها: «استيقظي استيقظي، البسي قوة يا ذراع الرب، استيقظي كما في أيام القدم كما في الأدوار (الدهور) القديمة، ألسيت أنت القاطعة رَهَبَ الطاعة التنتين. ألسيت أنت هي المنشقة البحر مياه الغمر العظيم الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفديين. ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنم وعلى رؤوسهم فرح أبدي.» (إش ٥١: ٩-١١)

ب - الوجه الإيجابي للمياه:

١ - المياه التابعة من جنب الصخرة:

وهذا الوجه الإيجابي للمياه له شأن عظيم في التقليد والأدب اليهودي وعند الرابين. فالصخرة التي نبعث منها المياه في بركة سيناء لم تكن صخرة عادية بل هي جزء مقدس من الأرض أخرج الماء من الأعماق، وهذه المياه، في عزف هذا التقليد، هي المسئولة عن إبطال كل فيضان على الأرض، فهي التي أوقفت غضب الله!! فلم تعد المياه تُميت وتمسح الحياة من على وجه الأرض! بل وإن المياه التابعة من جنب هذه الصخرة إنما تسري في عروق تتخلل كل الأرض في كل أنحاء العالم! وهذه المياه هي المسئولة عن خصوبة الأرض، وهي تنبع من الصخرة استجابة للصلوات والطقوس التي تقدم على رمز الصخرة المقدسة (كانت تقدم فوق مذبح المحرقة في الهيكل من جرة فضية تُملأ من مياه بركة سلوام، وتُفرغ على المذبح المعتبر أنه هو الصخرة بضربها على المذبح فتتشق ويخرج منها الماء الذي يفيض على المذبح - وذلك في طقس عيد المظال)، حيث من هذا المكان سوف ينبع نهر الفردوس في الدهر الآتي وهو نهر الخلاص لري المحلّصين^٥). لقد اهتم المسيح أن يحضر هذا العيد ويستعلن نفسه - في هذه اللحظة التي تنكسر فيها الجرة ويخرج منها الماء - وذلك ليلغي هذا الطقس، ويعلن أنه هو الصخرة وأن ماءها هو الروح الذي سيعطيه، الذي هو نهر الفردوس لري المحلّصين بلا نزاع.

⁵ Theological Dict. of the N.T., Vol. VIII, p. 320.

أما الجزء الآخر في الوجه الإيجابي للمياه، فهو مياه التطهير:

وبالإضافة إلى مسألة الغسيل والتنظيف، فالمياه كانت تدخل في مفهوم التقديس، في ترحيض الجسم في المناسبات المقدسة وخاصة عند الترائي والوقوف أمام الله أو في هيكله (لا ١١-١٥). ويُشترط في مياه التطهير للتقديس أن تكون مياهاً جارية أي مياهاً حية: «ويأمر الكاهن أن يُدبح العصفور الواحد في إناء خزفٍ على ماء حي (من مصدر مياه جارية). أما العصفور الحي فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويغمسها مع العصفور الحي في دم العصفور المذبوح على الماء الحي، وينضح على المتطهّر من البرص سبع مرات فيطهّره ثم يطلق العصفور الحي على وجه الصحراء» (لا ١٤: ٥-٧). وواضح هنا الفداء بالماء والدم، وواضح أيضاً أن الدم هو من عصفور «مذبوح حيٌّ»، إشارة بليغة لدم الصليب وللماء والدم اللذين خرجا من جنب المخلص الذي طهّرنا من برص الخطية!!

وعلى هذا المنوال يتم التطهير بالماء في الناموس على أشكال متعددة، ولكن مضمونها كله يجمعه المزمور هكذا: «طهّرني بالزوفا فأطهّر. اغسلي فأبيض أكثر من الثلج... استر وجهك عن خطاياي وامح كل آثامي» (مز ٧: ٩). هنا تلميح اسكاتولوجي - أي أخروي - للتطهير بالروح وبماء إلهي من نوع يقدمه الله.

هذا الأمر يوضحه حزقيال النبي بغاية الوضوح: «وأرش عليكم ماءً طاهراً فُتطهّرون، من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم أطهركم. وأعطيك قلباً جديداً وأجعل روحاً جديداً في داخلكم» (حز ٣٦: ٢٥ و٢٦). ويلاحظ هنا أهمية اقتران الماء الطاهر (الإلهي) مع الروح الجديد: «وأجعل روحي في داخلكم» (حز ٣٦: ٢٧)، مع التجديد ممثلاً في القلب. فالله هنا سوف يطهّر شعبه بماء طاهر من عنده، وبروحه الخاص في داخلهم - الأمر الذي لم يحدث قط في العهد القديم - والذي دفع الله أن يعطي هذا العهد الجديد وهذا الوعد والموعود، هو عدم نفع ماء تطهير الناموس والطقوس!

وإشعياء النبي يوضح أن مثل هذا التطهير الإلهي بهذا الماء الطاهر وهذا الروح إنما هو وعد إلهي سيتم في حينه - ولم يتم قط على مدى كل العهد القديم: «ويكون أن الذي يبقى في صهيون والذي يُترك في أورشليم (مشيراً إلى ما سيحدث بعد خراب سنة ٧٠م) يُسمّى قدوساً: (بولس الرسول يسمي المسيحيين بالقدوسين في...)، كلُّ من كُتِب للحياة في أورشليم. إذا غسل السيد قَدَر بنات صهيون ونقى دم أورشليم من وسطها بروح القضاء وروح الإحراق.» (إش ٤: ٣ و٤)

طقس غسل الأيدي ومعناه اللاهوتي: «إذا وُجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك

لتمتلكها واقعاً في الحقل لا يُعلم من قَتله... يغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتل أيديهم على العِجْلة (البقرة) المكسورة العُنُق في الوادي، ويصرِّحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر. اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل. فيُغفر لهم الدم»^(٦) (تث ٢١: ١-٨). وهذا أصل وسبب غسل الأيدي قبل كل صلاة. «حين تبسطون أيديكم أَسْتُرْ عَيْنِي عنكم. وإن كَثُرَتْ الصلاة لا أسمع. أيديكم مَلَأَتْ دَمًا. اغتسلوا. تنقَّوا. اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني. كُفُّوا عن فعل الشر.» (إش ١: ١٦ و١٥)

«أَغْسِلْ يَدِيَّ فِي النِّقاوَة فَأَطوْفُ بِمَذْبَحِكَ يَا رَبَّ» (مز ٢٦: ٦)؛ بمعنى أنه يعلن براءته من كل خطية وإثم.

وقد صار طقس غسل الأيدي قبل الإقتراب من الصلاة والوقوف أمام الله طقساً كهنوتياً هاماً ولدى المتنسكين أيضاً فكان يُعمل به لدى الربيين والأسيين. ثم تطور عند اليهود وصار طقساً إلزامياً لدى كل اليهود أي كل الشعب قبل الأكل.

وكان الإعتقاد السائد الراسخ والسائد لدى الربيين اليهود أن الماء لا يُطَهَّر بذاته لذلك كان يلزم تكرار التطهير. وهذا هو تعليم الربيين أيام المسيح: [في كل حياتك (إعلم) أن الميت لا يدنّس وأن الماء لا يطهر ولكنها وصايا ملك الملوك.]^(٧)

وكان إيمان الأسيين اليهود السائد هو [الله سوف يقوم بالتطهير النهائي وسوف ينضح روح الحق مثل غسيل الماء]، معتمدين على نبوة حزقيال النبي: «وأرْسُ عَلَيْكُمْ مَاءً طَاهِراً فَتُطَهَّرُونَ مِنْ كُلِّ نَجَاسَتِكُمْ... وَأَعْطِيَكُمْ قَلْباً جَدِيداً وَأَجْعَلُ رُوحاً جَدِيداً فِي دَاخِلِكُمْ... وَأَجْعَلُ رُوحِي فِي دَاخِلِكُمْ.» (حز ٣٦: ٢٥-٢٧)

ومعروف أن المسيح رفض مبدأ تطهير اليدين قبل الأكل لا من جهة الغسيل للنظافة ولكن بمعنى التطهير الطقسي، لأن المسيح كان يطلب نقاوة القلب لا نقاوة اليدين. «ولما رأوا بعضاً من تلاميذه يأكلون خبزاً بأيدي دنسة أي غير مغسولة لا موا. لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم

(٦) في إنجيل القديس متى يذكر أن بيلاطس أجرى هذا العمل: «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغب أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إني بريء من دم هذا البار. أنصروا أنتم» (مت ٢٧: ٢٤). وللأسف الشديد أخذ الشعب على مسؤوليته هذا الدم: «فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا» (مت ٢٧: ٢٥). وليتهم ما قالوا أبداً أبداً.

⁷ Theological Dict. of the N.T., op. cit., p. 321.

باعتناء لا يأكلون... ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيدي غير مغمسولة. فأجاب وقال لهم حسناً تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرأتين كما هو مكتوب: هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فبتعد عني بعيداً. وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس.» (مر ٧: ٢-٧)

من هذا يتضح أن التطهير بالماء في مفهومه الميكانيكي، كمجرد غسل لتتيم تعاليم الناس، يُخلى وصايا الله من مضمونها الروحي.

٣ - الله مصدر المياه الحية:

— «شعبي عمل شرين: تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آباراً آباراً مشقة لا تضبط ماء.» (إر ١٣: ٢٠)

— «يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم، لأن عندك ينبوع الحياة. بنورك نرى نوراً.» (مز ٣٦: ٩ و٨)

إذن فلا بد أن يكون هناك عطش إلى الله:

— «يا الله إلهي أنت. إليك أبكر. عطشت إليك نفسي.» (مز ٦٣: ١)

— «كما يشتاق الإيل (الغزال) إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله.»

(مز ٤٢: ١)

— «عطشت نفسي إلى الله إلى الإله الحي. متى أجيء وأترأى قدام الله.» (مز ٤٢: ٢)

— «هوذا أيام تأتي يقول السيد الرب أرسل جوعاً في الأرض (٤٠٠ سنة من آخر الأنبياء إلى

السيد المسيح) لا جوعاً للخبز ولا عطشاً للماء بل لاستماع كلمات الرب.» (عا ١١: ٨)

— «أبها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا اشترُوا وكُلُوا، هلموا اشترُوا

بلا فضة وبلا ثمن خمرًا ولبنًا.» (إش ٥٥: ١)

— «لأني أسكب ماءً على العطشان وسيولاً على اليابسة، أسكب روحي على نسلك وبركتي

على ذُرَّتِكَ.» (إش ٤٤: ٣)

ثانياً: رمز المياه في العهد الجديد:

هذه النبوات كلها لم تتحقق في العهد القديم، وهي نبوات يتحتم بالضرورة أن تتحقق ليكون الله صادقاً في كل مواعيده وتعهدهاته. كذلك فإن الصفات التي أوردتها النبوات عن الله أنه يعطي الماء ويروي العطشان ويطهّر ويغسل بماء طاهر، هذه كلها كان لا بد أن تتم وتُسْتَعْلَن. إنجيل

القديس يوحنا أخذ على عاتقه أن يسجل للمسيح كل الأعمال التي تعهد الله قديماً أن يكملها بنفسه في وقتها وزمانها المحدد؛ هذه أكملها المسيح وأعلنها وحققها بنفسه، كما جاءت تماماً حسب قول المسيح «ليتِم الكتاب.» (يو: ١٣: ١٨ ولو: ٢٤: ٤٤)

+ فالماء، كعدوٍ عنيد يهدد بالموت، وطأه المسيح بقدميه وسار عليه كما على اليابس. ولما اتحد الماء مع الريح العاصف ليهيج البحر ويهدد بالموت، انتهر الرب الريح والبحر معاً، فهدأت الرياح وصمت البحر. وكان المسيح يواجه تينياً حياً ينتهره، فيسمع التنين ويرضخ. وهكذا حقق الله نبوة إشعياء التي يستصرخ الله فيها أن يستعيد الله عمله كما كان في القديم ويهتف بذراع الرب أن استيقظي: «استيقظي استيقظي إبسي قوة يا ذراع الرب، استيقظي كما في أيام القدم... ألسنت أنت هي المنشفة البحر مياه الغمر العظيم الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفدين» (إش: ٥١: ١٠ و٩). ومن هو «ذراع الرب» الذي يستصرخه إشعياء لكي يُستعلن، إلا يسوع المسيح الآتي في ملء الأيام، الذي لابس القوة وتمنطق بها، وسار على وجه الماء العاصف، وأخرس الريح، والبحر أبكمه؟

— «وهاج البحر من ربح عظيمة تهب... ونظروا يسوع ماشياً على البحر.» (يو: ١٨ و١٩)
— «يا معلم أما يهملك أننا نهلك. فقام وانتهر الريح وقال للبحر اسكت. أبكم. فسكنت الريح وصار هدوء عظيم... فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا بعضهم لبعض من هو هذا، فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه.» (مر: ٤: ٣٨-٤١)

سؤالهم هذا له مدلوله، فالله وحده الذي له سلطان إسكات عجيج البحار وانتهاز الريح:
— «المهدىء عجيج البحار عجيج أمواجها.» (مز: ٦٥: ٧)
— «يا رب إله الجنود مَنْ مِثْلِكَ قوي؟ ... أنت متسلط على كبرياء البحر. عند ارتفاع لججه أنت تسكنها.» (مز: ٨٩: ٩ و٨)

— «هم رأوا أعمال الرب وعجائبه في العمق. أمر فأهاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه. يصعدون إلى السموات يهبطون إلى الأعماق. ذابت أنفسهم بالشقاء... يتمايلون وبترنحون مثل السكران وكل حكمتهم ابتلعت. فيصرخون إلى الرب في ضيقهم ومن شدائد بهم يخلصهم. يهدىء العاصفة فتسكن وتسكت أمواجها. فيفرحون لأنهم هدأوا فيهديمهم إلى المرفأ الذي يريدونه.» (مز: ١٠٧: ٢٣-٣٠)

هكذا تم بالحرف الواحد للتلاميذ يوم عبروا بحيرة طبرية. وهكذا آمنوا أن قوة الله ورحمته ومعونته

هي في المسيح في فمه وصوته الذي أسكَّت البحر وأبْكم الرياح، ونجاهم من الهلاك.

+ أما الوجه الإيجابي للماء، فالصخرة نفسها التي ضربها موسى بعصاه فخرج الماء منها، كانت هي المسيح، في وضعها السري، أي ما كانت الصخرة بماثها الذي خرج من جنبها بضربة عصا موسى (خر ١٧: ٦). إلا رمزاً ملموساً للمسيح الذي طعن في جنبه بالحربة فخرج منه دم وماء لخلاص العالم: «لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح» (١ كو ١٠: ٤).

ولكن العجيب حقاً أن يذكر القديس بولس أن الماء الذي كان يخرج من الصخرة في سيناء كان شراباً روحياً. «وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحياً (المن) وجميعهم شربوا شراباً واحداً روحياً، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح.» (١ كو ١٠: ٤ و ٣)

فلينتبه القارئ إلى سر الرمز قديماً، فالصخرة كانت روحية والماء كان شراباً روحياً، ولكن بسبب عدم إيمان الشعب وضعف رؤيته وكثرة تدمره على الله أخفى عن عيونهم حقيقة الصخرة وحقيقة مائها. فهل إلى الأبد يبقى هذا السر الإلهي مكتوماً؟ فإن كان قد جاء الزمان الذي تفتحت فيه قلوب وعيون وأسماع الإنسان بقبول الإيمان وتصديق الحق وطاعة الله وانسكاب الروح القدس، لذلك كان من المحتم أن يعلن المسيح عن نفسه أنه كان هو الطعام الروحي الذي أكلوه في هيئة المنّ ولم يعرفوه، وهو هو الشراب الروحي الذي شربوه وارتووا من الصخرة في برية سيناء الذي تدمروا عليه. أما هؤلاء القوم، شعب إسرائيل — فلم ينتفعوا بما أكلوا وبما شربوا، إذ يقول القديس بولس الرسول: «لكن بأكثرهم لم يُسرَّ الله لأنهم طُرحوا في القفر... وهذه الأمور حدثت مثلاً لنا.» (١ كو ١٠: ٦ و ٥)

لذلك فالمسيح — وهو حاضر في عيد المظال، في اليوم العظيم منه وهم يحتفلون فيه بخروج الماء من الصخرة في سيناء بكسر جرة فضية مملوءة ماءً من بزكة سلوام على مذبح المحرقة المحتسب أنه هو الصخرة — وقف ونادى وكأنه يقول أنا هو الصخرة وأنا هو ينبوع الماء الحي: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي.» (يو ٧: ٣٧ و ٣٨)

هذا، ولو أضفنا إليه ما يقوله المسيح للسامرية بنوع خاص، لأدركنا تفوق واقع المسيح عن مضمون النبوة: «كلُّ من يشرب من هذا الماء (بئر يعقوب وماء بركات الآباء) يعطش أيضاً،

ولكن مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.» (يو: ٤: ١٣ و١٤)

واضح من قول الرب أن ماء بثر يعقوب لم يغني السامرية عن فعل الخطية مع أنه ماء الآباء الذي يحمل ذكراهم وبركاتهم، ولكن الماء الذي يعطيه المسيح يطفى الشهوة ويبطل فعل الخطية فلا يعود الإنسان يعطش إلى حياة الدنيا حياة الخطية أو التعلق بهذا العالم؛ على أساس أن هناك فرقاً جوهرياً بين هذا الماء وذلك: فماء بثر يعقوب هو أصلاً مادة أرضية لحاجة الجسد أما «ماء الحياة» الذي يعطيه المسيح فهو ليس ماءً مادياً أرضياً بل هو كلمة الله وفعله — روح وحياة — حيناً يستقبلها الإنسان بقلبه وروحه بواسطة الروح القدس الذي يحولها في قلب الإنسان إلى شهادة وكراسة وإلى صلاة وعبادة، فلا يعود الإنسان يعطش بعد إلى أمور العالم وخطاياها، لأن ينبوع الروح القدس يظل يفيض من قلبه تعزيات وأفراحاً يتعزى بها ويفرح ويعزى الآخرون ويُفرح قلوبهم أيضاً.

يلاحظ القارىء أن تعبيرات المسيح عن عطيته الروحية وقدرته على فك رموز العهد القديم في شخصه تفوق تعبيرات النبوات التي جاءت عنه جميعاً وتزيد عليها أضعافاً. فإنسان العهد الجديد الذي آمن بالمسيح والتصق بالرب كالغصن الملتصق في أصل الكرمة لا يرتوي من المسيح والروح فقط حسب كل رجاء ودعاء الأنبياء بل ينبع منه الروح أيضاً ويفيض ارتواءً للآخرين. هذا لم يحظر على بال النبي في تصوراتهِ وتوسلاتهِ القديمة للعهد الجديد.

كذلك فإن الماء الحقيقي الذي يعطيه المسيح دعاه بـ «الحياة» أو «الحقيقي»، لأنه ليس فقط يغسل ويطهر البدن ويروي العطش، بل أيضاً يجدد الداخل ويخلق الإنسان حياة أسمى. والشرب من الماء الذي يعطيه المسيح هو عملية الإيمان بالمسيح، فهو استقاءً وارتواءً بالروح كأرض عطشانة فاضت عليها المياه، حيث تقبل الطبيعة البشرية الجافة المتعفنة وشبه الميتة روح المسيح، فتحيا وتتعش وتزهر وتعطي أثمارها للخلاص.

٥ — رمز الخبز والماء معاً:

«الخبز الحي والماء الحي»، «المأكل الحق والمشرب الحق».

الصلة الكامنة بين الحقيقي وغير الحقيقي:

نحن لا نشتهي الخبز من أجل الأكل ولا نشتهي الماء من أجل الشرب، كذلك نحن لا نشتهي الأكل والشرب في ذاتها ولا حتى من أجل الشبع والإرتواء، ولكن هناك علّة نفسانية خفيفة هامة

للغاية وراء الأكل والشرب هي:

أولاً: الخوف من الجوع والعطش وبالتالي من الموت.

ثانياً: رغبة ملحة ومستميتة في الحياة. فنحن في الحقيقة نشتهي الحياة شهوة غلابة كما نخاف خوفاً طبيعياً جباناً من الموت. لذلك نأكل ونشرب بتهم أحياناً. ولكن لسان حالنا، ونحن نكرر الأكل ونكرر الشرب بلا هوادة، هو أننا نرغب أشد الرغبة في دوام الحياة أو الحياة الدائمة، وهذا مستحيل، لأن دوام الحياة هو الحياة الأبدية، والحياة الأبدية يستحيل بلوغها عن طريق الأكل والشرب اللذين مآلهما للفناء.

إذن، هنا في شهوة الأكل من الخبز البائد يكمن خداع بصر لا بد أن نتحول عنه، فنطلب ونشتهي الخبز الحقيقي والماء الحقيقي. المسيح وحده عنده خبز الحياة الأبدية وشراب الحياة الأبدية — الذي يأكله ويشربه يحيا ولا يموت — ولكن هذا الخبز وهذا الشراب هو في الحقيقة كلمته التي هي روح وحياة، فهو لا يتم عن طريق الجسد بل عن طريق الروح، أي يؤكل ويُشرب بالروح، ليس لماء البطن بل لماء قامة الإنسان الروحية، ليؤهل أن يكون إنساناً جديداً كاملاً لاثقاً للحياة الأبدية.

هذا الخبز الحي والماء الحي إذ هما «روح» و«حياة»، هما أيضاً للأكل الدائم والشرب الدائم مرات ومرات: «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء». (١ كور ١١: ٢٦)

إذن، فأكل خبز الحياة وشرب ماء الحياة لا ينتهيان عند حدّ أيضاً. ولكن كل مرة نأكل من طعام الحق ونشرب من شراب الحق نزداد في الحق وفي الحياة، وليس كأكل خبز الجسد وشرب ماء الجسد اللذين ينتهيان كل مرة إلى جوع ونقصان، وربما إلى مرض أو إلى موت.

والمسيح يقول إنه يعطي خبز الحياة وماء الحياة دائماً وباستمرار: «من يُقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو ٦: ٣٥)، كما تقول الحكمة: «الذي يأكلني يجوع إليّ والذي يشرب مني يعود إليّ عطشاً» (ابن سيراف ٢٤: ٢١). لأنه بمجرد أن يذوق الإنسان هذا الطعام وهذا الشراب فلن يطلب شبعاً من آخر، لأن استعلان الحياة الأبدية التي في المسيح هي بحد ذاتها شبع فوق شبع وارتواء فوق ارتواء لا ينتهيان. فالإنسان جائع أصلاً وبالأساس إلى الحياة مع الله، ولن يسدّ جوعه إلا الله: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧). القديس بولس الرسول أكل وشبع فقال: «لي الحياة هي المسيح» (في ١: ٢١). وما معجزة الخمس الخبزات إلا وسيلة إيضاح!! تم تطبيقها على الصليب.

وإشعياء النبي يصدّق بنبوته على قول المسيح هكذا: «لا يجوعون ولا يعطشون... لأن الذي يرحمهم يهديهم، وإلى ينابيع المياه (الحقيقية) يوردهم» (إش ٤٩: ١٠). إشعياء يتكلم عن خبز الحياة الذي كل من يأكله لا يجوع إلى شيء غيره، وماء الحياة الذي كل من يشرب منه يعود إليه وحده. فهو ليس ماءً بعد، بل هو الروح، وهو ينبوع الخلاص. كما تنبأ إشعياء أيضاً: «هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب (من موت)، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً. فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص.» (إش ١٢: ٣ و٢)

وإنجيل القديس يوحنا يُلخّ على القارئ أن لا يخطأ خطأ السامرية، إذ ظنت أن المياه الحية الحقيقية التي يعطيها المسيح ستستقي منها وهي في الحرام، وتسقي زوجها الذي هو ليس زوجها، أو أن هذه المياه ستغنيها عن عطش الجسد والحاجة إلى الماء الطبيعي، وتريحها من عناء الذهاب إلى البئر كل يوم وثقل الدلو وبُطء البكرة التي هدّت ذراعها، هذا خداع بصر؛ يسقط فيه كل يوم معظمنا وأعظمنا حيناً يطلبون المسيح وعطاياه - وفي وسطهم حرام - ليزدادوا راحة جسدية أو شعباً من مال أو عيال أو نجاح أو مكاسب، أو هرباً من حزن أو اضطهاد أو موت! لأن هذا معناه أننا أخطأنا الرؤيا كما أخطأت السامرية.

واستعلان سر المعمودية من كلام المسيح واضح في حديثه عن الماء. فقوله: «إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. مَنْ آمَن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو ٣٧: ٣٨)، لم يفت على القديس يوحنا أن يعلن فيه سر المعمودية الكامن وراء الكلمات، فعقّب على كلام المسيح بقوله: «قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزعمين أن يقبلوه، لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجّد بعد.» (يو ٣٩: ٧)

هنا يلزم بكل احتراس فهم أن الروح القدس في المعمودية مرتبط ارتباطاً كلياً بموت المسيح، أي بالدم المسفوك على الصليب. لذلك فإن الروح القدس لم يُعط إلا بعد أن أتم المسيح الفداء بالدم. لهذا يضغط القديس يوحنا بشدة على حقيقة خروج دم وماء من جنب المسيح المطعون (يو ١٩: ٣٤)، إشارة بليغة إلى ارتباط المعمودية بالدم وبالإنفخارستيا، وبالتالي بموت المسيح!! حيث يتقدس الجسد بالماء الطاهر أي المتقدّس، والروح أو النفس أو القلب يتقدس بالدم والروح القدس. ولهذا أيضاً فإن المسيح لم يعط «ماء الحياة» إلا بعد قيامته، وذلك بإرسال الروح القدس يوم الخمسين، حيث بدأ الرسل العمامد بالماء والروح القدس باسم الثالوث: «ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء» (يو ١٥: ٢٦ و٢٧). هذه الشهادة للمسيح من الروح القدس

والرسل معاً بدأت واستمرت بالعمودية (الماء) وبالإنفخارستيا (الدم). لهذا كان ولا يزال من طقس المعمدين الأساسي هو تناول الجسد والدم بعد العماد مباشرة. أما الآن فيحل الإعراف الذي هو بمثابة ختم التوبة، والتوبة هي العمودية الثانية المتكررة قبل كل تناول من الجسد والدم. حتى الكاهن نفسه يتحتم عليه أن يستبرئ ذمته ويغسل يديه قبل أن يقترب من الجسد والدم.

إذن، فالعطش هو للحياة الأبدية، والشرب هو الإيمان بالمسيح وقبول الروح القدس، والأنهار الحية النابعة من داخل المؤمن هي هي الروح القدس بمفاعيله الخلاصية، من كرازة وشهادة. إذن، فعطية المسيح للذي يقبل — أي يؤمن به — هي الروح القدس — الذي يعتمد به — الذي يسكن قلبه ويبقى معه إلى الأبد، وهو الذي يبيح أي يُدخله الحياة، الحياة الأبدية. هذا هو الماء الحي. فالروح القدس يأخذ في الأسفار المقدسة صفات الماء الطبيعي ولكن فعله يكون روحياً. لذلك، فالعمودية بالروح القدس تسمى اغتسالاً للنفس، في التقليد الكتابي والكنسي والليتورجي. ويُقال عن الروح القدس أنه «ينسكب» مع أن الإنسكاب صفة الماء: «بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس الذي سكبهُ بغيرنا بيسوع المسيح مخلصنا» (تي ٣: ٥ و٦). وهو نفس الإصطلاح الذي استخدمه يوثيل النبي: «ويكون بعد ذلك إني أسكب روعي على كل بشر... وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روعي في تلك الأيام» (يوثيل ٢: ٢٨ و٢٩). وحتى اسم «النهر» يستعيره الأنبياء للتدليل على الروح القدس: «ومن نهر نعمتك تسقيهم» (مز ٣٦: ٨)، مع أن السقي هو من عمل الماء.

نعود إلى ما قلناه أن إنجيل القديس يوحنا يحتم أن معمودية الماء تشمل في مضمونها الإلهي السري دم المسيح (أي موته). من جهة هذا يصرح القديس يوحنا في رسالته الأولى هكذا: «هذا هو الذي أتى بماءٍ ودمٍ، يسوع المسيح؛ لا بالماء فقط بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة «الآب والكلمة والروح القدس»، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة «الروح والماء والدم»، والثلاثة هم في الواحد» (١ يوه ٥: ٦-٨). علماً بأن المسيح نفسه — بحسب اللاهوت الآبائي — هو الذي يعمد كما هو واضح في هذه الآية: «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها مُطَهِّراً إياها بغسل الماء بالكلمة» (أف ٥: ٢٥ و٢٦). حيث «بالكلمة» يعني الدعاء بمنطوق دستور أو قانون الإيمان الخاص بالعماد، و«دعاء» الإسم حيث الإسم — اسم المسيح — يجعل المعمودية صيغة. وهذا الطقس يلغي جميع طقوس الغسولات والتطهيرات في العهد القديم؛ وحيث المعمودية لا تُكرَّر قط لأنها ليست اغتسالاً بالمعنى المادي بل هي ختم، وصيغة، وتقديس.

والأمر الهام الذي ينبغي ملاحظته أن ماء المعمودية يعتبره بعض المعلمين أنه مادة المعمودية الساذجة، ولكن الروح القدس هو الفعّال في المعتمد في سر المعمودية. غير أن القديس كيرلس الكبير ينبه أن الماء يتقدس بالروح القدس ويكون له فعل روحي إلهي: [إذ كما أن الإنسان مرگّب في طبيعته وليس بسيطاً، وهو مرگّب من جسد محسوس ونفس عاقلة، لذلك فهو محتاج شفاءً مزدوجاً ليبلغ ميلاده الجديد لكلا العنصرين فيه، أي الجسد والنفس. لأن بالروح تتقدس روح الإنسان؛ وبالماء الذي تُقدّس يُقدّس الجسد. لأن الماء إذا وُضع في إبريق على النار فإنه بلامسته للنار يتقبل في طبيعته فعل تأثير النار. هكذا يفعل الروح القدس، فإن الماء المحسوس تتغير طبيعته trans-elemented أو يتغير معدنه إلى تأثير إلهي غير منطوق به فيقدّس كل من يقترب إليه]^(٨). من هنا كان ترتيب الكنيسة الأولى من جهة تصريف ماء المعمودية في نهر جارٍ وليس في البالوعات^(٩).

ويشترك مع القديس كيرلس الإسكندري الكبير الآباء الأوائل، فهو تقليد منذ ما قبل القرن الثاني وبعده:

فالقديس إغناطيوس الأنطاكي المعروف بصلته بالقديس يوحنا الرسول يقول في رسالته إلى أفسس: [إنه وُلد واعتمد ليُطهّر (يقَدّس) καθάρῖω الماء بالآمه] (أفسس ١٨: ٢).

كذلك العلامة ترتليانوس يقول نفس الشيء: [المُخلّص نفسه اعتمد لكي يقَدّس sanctify مياه التجديد]^(١٠).

ومن بعد القرن الثاني ابتدأ يوضع دعاءً خاصاً بالإسم epiclesis على الماء للتقدّيس، وقد ذكر ذلك كلٌّ من القديسين كبريانوس وإيرينيئوس، كما ذكره العلامة أوريجانوس من قبل (في تفسيره يو: ٣: ٥). وهو مذكور أيضاً في مؤلف العلامة هيبوليتس «في التقليد الرسولي» (٦: ٢١).

والعلامة ترتليانوس يذكر في كتابه عن المعمودية: [الروح بحسب جوهره السماوي ينزل على الماء بواسطة الدعاء إلى الله ويمنح الماء قوة التقديس.]^(١١)



(٨) شرح إنجيل القديس يوحنا ٣: ٦-٨ ص ١٦٨ وص ١٦٩ = Lib. of Fathers of the H.C. Church, vol. I.

(٩) لم نحاول أن نشرح سر العماد أو طقسه لأن ليس المجال هنا مجاله، إذ اكتفينا بالعبور مجرد عبور على رمز «الماء» في العهد القديم وفق رموزه في العهد الجديد.

¹⁰ Adv. Judaeos 8.

¹¹ Tert. Bapt. 4, cf. 8.

والذي يهمننا من هذه الرموز جميعاً، التي اخترنا الأمثلة الهامة منها، هو توضيح أن كل الرموز التي وقفت وتصلّبت عند حدودها الأرضية في الواقع المنظور في العهد القديم، حيناً تبنّتها المسيح استعملها كحقائق للحياة الأبدية، فصارت لبّ الإنجيل، ثم تبنّتها الكنيسة باعتبارها جسد المسيح المستعلن في هاته الرموز، واستحضرت فيها الجسد الحقيقي بالروح والكلمة، وصارت سرّها الإلهي ككرمة حقيقية تلد أغصاناً جُدداً، وتُرضعهم من عصيرها للحياة: فالخبز، بدعاء الإسم عليه، يُستعلن فيه سر الجسد المأكول كطعام الحق $\alpha\lambda\theta\epsilon\iota\alpha$ ، والخمر يُستعلن فيه سر الدم الإلهي كذلك كشراب الحق $\alpha\lambda\theta\epsilon\iota\alpha$ ، أو شراب الروح.

والماء أيضاً، بدعاء الإسم عليه، يحل الروح القدس عليه وفيه، فيتقدّس ويولد حياة جديدة كخليقة روحية. هذا كله نابعٌ من أن المسيح تبنى هذه الرموز، فاستعلن فيها حياة جديدة للإنسان من كل نوع.

والمسيح لما صنع بداية معجزاته، أعلن بغاية القوة والوضوح عن سر التحول هذا الذي هو هو صميم وقلب رسالته، وذلك حيناً حوّل ستة أجران ماء التطهير إلى خمر جيد، و«الجيد» في المفهوم الإنجيلي يرقى إلى «الروحي». والتحول هنا هو تحوّل في صميم طبيعة الناموس والمادة.

ثم انتقالاً من تحويله الخمس الخبزات والسمكتين إلى طعام يشبع الآلاف بلا حدود، يصبح التحول هنا واقعاً في صميم الحدود التي تنحصر فيها المادة، فهو قام بفكّ هذه الحدود لتقبل «اللانهاية» في صميم طبيعتها، واللانهاية صفة الروح اللامحدود. ثم لما أمسك الخبزة في يده وقسمها وقال: «خذوا كُلُّوا جسدي المكسور عنكم»، قام بإجراء تحوّل هو قمة التحول الفائق من المادة الميتة التي هي الخبز إلى الجسد الحي المحيي بالروح الذي فيه، فهذه الحقيقة القيامة. كذلك لما أمسك الكأس الذي به الخمر الممزوج بالماء وقال: «هذا هو دمي، خذوا اشربوا منه كلكم»، فإنه قام هنا بعملية تحوّل من خمر إلى دم هي مثيل لتحوّل الخبز إلى جسد أي من مادة ميتة إلى روح، لأن الروح في الدم — حسب إيمان الكتاب (لا ١٧: ١١).

وبالنهاية، كما قال للعازر الميت المتن: «قم»، فقام وعاش ودبّت فيه الحياة، محوّل الموت إلى قيامة؛ هكذا سلّم الإنسان طريق التحول كله من القديم إلى الجديد، من أسفل إلى فوق، من أرضي إلى سماوي، من موت إلى حياة، حيث انتهى بالتحول إلى صميم خِلقة الإنسان من خليقة أولى عتيقة ميتة إلى خليقة أخرى روحية سماوية مُعدّة لميراث الحياة مع الله. وكل هذا التحوّل يتم بمجرد دعاء «الإسم» الذي هو هو حالة «حضور إلهي سري».

وإن إنجيل القديس يوحنا غنيُّ بصورة عميقة للغاية في الكشف عن سر الحضور الإلهي، هذا الذي بدأ منذ قال: «والكلمة صار جسداً، وحلَّ بيننا، ورأينا مجده... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يو: ١٤ و١٦)! هنا الأبدى غير الزمني صار زمنياً، ظهر كحادثة، عاش بيننا وعشناه ولمسته أيدينا ورأته عيوننا. وهو هو الحق والحياة عينها!! الأليثيا $\alpha\lambda\eta\theta\epsilon\iota\alpha$.

وإنجيل القديس يوحنا كله يستضيء بهذه الحقيقة الأساسية: «الكلمة صار جسداً»، وبالتالي فإن المادة صارت متجلية بحلول اللاهوت فيها؛ وهكذا صارت الرموز المادية القديمة متجلية بحلول الحق الإلهي «الأليثيا» فيها. فاللاهوت الرمزي الذي يتبعه القديس يوحنا في إنجيله، يحمل الطابع الأساسي لهذا الإنجيل كله الذي هو حلول اللاهوت في المادة المنظورة! حتى خرجت المادة المنظورة من حدودها الميتة وصارت حاملة للحق الأزلي «الأليثيا»!

لقد استطاع المسيح أن يمجّد المظهر الإنساني ويكرم المادة التي يتعامل معها الإنسان لحسابه، ويفك لغز الرموز وسرّها ويستعلن فيها لاهوته والخلاص الذي يمارسه، ويطعم الإنسان ويسقيه بالأليثيا، بل ويُلبسه الروح الإلهي عوض ثوب الخطية. لذلك دُعي الإنسان في العهد الجديد باللابس الروح = «ابنصفماتوفورس» بل واللابس المسيح = «خريستوفورس»، بل واللابس الإله = «ثيئوفورس».

الفصل الخامس

المعجزات (الآيات) في إنجيل القديس يوحنا

| | |
|---------|--------------------|
| σημεῖον | «آية» باليونانية |
| ἔργον | «عمل» باليونانية |
| τεράς | «معجزة» باليونانية |
| δύναμις | «قوة» باليونانية |

في كل أسفار العهد الجديد تقابل هذه الإصطلاحات للتعبير عن المعجزات التي صنعها الرب، فكل معجزة تحوي ثلاثة مفاعيل أو ثلاثة مؤثرات:
الأول: الدهشة، التي تترك الناس في تعجب واندهال.

الثاني: القوة، وجمعها قوات، وهذا تعبير عن سلطان الله المؤثر على أي جزء من الإنسان ليصلحه ويعيد له القوة والعمل، سواء العقل، أو البدن، أو النفس، أو القلب الكسير.

الثالث: الإشارة إلى عمل الله ووجوده «ملكوت الله»، سواء في الطبيعة أو في الرحمة والمحبة الموجهة للإنسان.

معنى المعجزة في الأناجيل الثلاثة الأولى:

إنها حقيقة واضحة أن الثلاثة الأناجيل جعلت «استعلان» ملكوت الله — «ومجيئه» — هما الهدف اللاهوتي الذي تتحرك نحوه كل المعجزات. وملكوت الله يعني «حكم الله» كمفهوم أخروي (اسخاتولوجي)، ويفيد عمل الله الفائت لخلاص الإنسان وغلبة الشر وتأسيس النظام الإلهي الجديد أي العهد الجديد. وليس ذلك بمجرد الرجاء أو التمني في الأفق البعيد — كشأن النبوات، وإنما كحقيقة واقعة منظورة وملموسة. فكانت القوات المعمولة، أي المعجزات، بمثابة

الإشارة والدليل على افتتاح عهد مجيء ملكوت الله بقوة بواسطة المسيح — أي المسيح — الذي فيه تُستعلن قوة الله الحي حسب النبوات.

وقد كانت هذه القوات، إما بالمعجزات وخاصة الأشفية كطرد لروح السقم، باعتبار الأمراض استبداداً من جانب قُوى الطبيعة بضعف الإنسان؛ أو بتمزيق قوة الشياطين التي كانت قد استبدت بالإنسان، وقد صار ذلك كله إعلاناً عن غلبة الشر وانهزامه.

إذن، كانت القوات المعمولة بواسطة المسيح في الأناجيل الثلاثة هي بمثابة ظهور ملكوت الله أو حكم الله بالفعل!! وذلك كجزء لا يتجزأ من رسالة المسيح: «ولكن إن كنت بأصبع الله أُخرجُ الشياطين فقد أُقبل عليكم ملكوت الله» (لوقا: ١١: ٢٠؛ مت ١٢: ٢٨)؛ «وأشْفُوا المرضى... وقولوا لهم قد اقترب منكم ملكوت الله.» (لوقا: ١٠: ٩؛ مت ١٠: ٨ و٧)

وفي نفس الوقت، كان يصاحب المعجزات ويسندھا الأمثال التي فاه بها الرب يسوع المسيح عن مجيء وفو ملكوت الله.

كذلك، ومن وجهة أخرى، كان لهذه المعجزات مغزى آخر أشار إليه المسيح في الثلاثة الأناجيل، كقوات خارقة تعلن عن تكميل النبوات التي تخص مجيء الزمان وظهور المسيا وتتميم وعد الله. وذلك واضح غاية الوضوح من قول الرب لتلميذي العمدان اللذين جاءا بسؤال من معلمهم: «هل هو الآتي أم ننتظر آخر؟»؛ «فأجاب يسوع وقال لهما اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما. إن العُمي يُبصرون والعرج يمشون والبُرص يُطهرون والصمُّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يُبشرون. وطوبى لمن لا يعثر في» (لوقا: ٧: ٢٢-٢٣). وهذا الرد يسترجع ما قاله إشعياء النبي عن ظهور ملكوت الله والمسيا سمعاً وبصراً: «ويسمع في ذلك اليوم الصمُّ أقوال السفر، وتنظر من القتام والظلمة عيون العُمي» (إش ٢٩: ١٨)؛ «حينئذٍ تنفتح عيون العُمي، وأذان الصمِّ تنفتح» (إش ٣٥: ٥)؛ «روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشّر المساكين، أرسلني لأعصّب منكسري القلب، لأنادي للمسيين بالعِثق وللمأسورين بالإطلاق» (إش ٦١: ١). الأمر الذي طوّب المسيح فيه عيون تلاميذه وآذانهم لأنها سمعت ورأت ملكوت الله بقوة قولاً وعملاً!!

الآيات في إنجيل القديس يوحنا: آية = σημεῖον = وآيات = σημεῖα

وقد اختص إنجيل يوحنا بـ«الآيات» للتعبير والإشارة والإعلان عن سر وجود الله، أي حضوره، وسر محبته للإنسان في المعجزات التي كان يعملها المسيح. وقد وردت هذه الكلمة ١٧ مرة في إنجيل يوحنا، وهي تأتي بمعنى «المعجزة» و«القوات»، وهما اللفظان اللذان اختارتها الأناجيل

الثلاثة. أما إنجيل يوحنا فقد امتنع عن استخدامها بمعناها الوارد في الثلاثة الأناجيل للإعلان عن مجيء ملكوت الله - كما قلنا - واستبدل الكلمة «معجزة» بالكلمة «آية» للإعلان عن مجد الله وعن عمله الخلاصي.

وواضح أن القديس يوحنا تحاشى في إنجيله أن يقدم «المسيّا» بصورة القوة الزمنية كملك بالمفهوم السياسي حسب ترقّب اليهود الخاطيء؛ إذ اعتبر جميع المعجزات التي صنعها المسيح أنها مجرد آيات تشير إلى أن المسيح هو ابن الله! على أساس أن هذه «الأعمال» هي أعمال يعملها الله الآب الحالّ فيه، توضيحاً وإعلاناً عن أن الآب يعمل الأعمال بالإبن. الآب «مهيئته» والإبن «فعله»، الآب «فكره»، والإبن «نطقه». فالآب والإبن هما واحد يعملان عملاً واحداً.

وقد ركز إنجيل القديس يوحنا على كلمة «الآية» للعمل الذي يعمله المسيح على أساس أن العمل إنما يشير إشارة خفية إلى، أو يعلن إعلاناً صامتاً عن معاني روحية أو حقيقة إلهية أكبر من المعجزة مجد ذاتها.

وفي العهد القديم الذي يستند إليه إنجيل يوحنا، فإن الآية التي كان يعملها النبي، فبجوار أنها كانت حَدَثاً هاماً يحدث في الحال فهي كانت أيضاً وفي واقع الأمر تعني شيئاً سيحدث في المستقبل، ولكنه يكون قد بدأ بالفعل في التدبير الإلهي!

فالآية، التي هي بالعبرية oth «عوت»، هي عمل رمزي تحمل مُسَبِّقاً صورة لما هو آتٍ وتعهداً بتحقيقه كعربون يقطع بالتميم في حينه ولا بد!! فمثلاً في سفر إرميا حينما أخذ إرميا النبي حسب قول الرب الجرة الفخارية وكسرها في وادي ابن هنوم (إر ١٩: ١-٣)، لم يكن ذلك مجرد عمل درامي يوضح كيف سيكون خراب أورشليم كتحتطيم الجرة الفخارية، ولكن كان يُحْتَسَب في الواقع الروحي والإلهي أنه جزء لا يتجزأ من العملية ولكنه غير مرئي، «لأنه متمم أمر وقاض بالبر. لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض» (رو ٩: ٢٨). فالعمل النبوي ولو أنه يشير إلى حَدَثٍ قادم، إلا أنه يُحْتَسَب من جهة الله أنه قد تم.

إنجيل يوحنا يمتد بهذا المفهوم النبوي للمعجزة كآية تحدث في الزمن المنظور، لتشير إلى حدث أو حقيقة قد تمت بالروح في غير المنظور، كبداية لعهد كامل وشامل قد بدأ بالفعل، وليس يُنتَظَرُ في المستقبل. فالأعمى منذ ولادته صُنعت فيه معجزة خَلَقَ عَيْنَ جديدة يرى بها نور العالم، إشارة تقول وتنادي وتشهد وتحكي أن «النور الإلهي الحقيقي» قد دخل بالفعل والقول إلى العالم!! وأن المسيح - الذي كأنه أخذ من نوره وأعطى للأعمى - هو النور الحقيقي الصانع المعجزة، وهو الخالق

بالضرورة فيما كان - الخلق القديم - وهو الخالق الآن، إنما الآن خِلْفَة جديدة أعمق وأبعد من العين التي ترى نور العالم. لأن الأعمى بعد أن قَبِلَ نور عينيه ليرى العالم، تعرّف على المسيح وآمن أنه ابن الله، فتعرّف على الله في المسيح، وهذا هو «النور الحقيقي». وهذا النور الحقيقي قد بدأ وجوده وبدأ فعله في الإنسان العائش في ظلمة العالم المادية والروحية، وسوف يستمر وجوده وفعله إلى الأبد: «ما دمت في العالم فأنا نور العالم» (يو: ٩: ٥)، «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (مت ٢٨: ٢٠)

وهكذا يرى معي القارىء أن هذه الوسيلة في التعليم هي أقوى وأعمق الوسائل طُرّاً في تعليم الحقائق الروحية التي تختص بالله وتعلن عنه وعن وجوده وعمله، وهذا ما شهد به نيقوديموس معلم الناموس: «فقال (نيقوديموس) له: يا معلّم نعلم أنك قد أتيت من الله «معلّماً» لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعملها إن لم يكن الله معه.» (يو: ٣: ٢)

كذلك، فإن إطعام المسيح للجموع الحاشدة في مكان قفر حتى شعوا وفاض عنهم اثنتي عشرة قفة مملوءة كِسْراً، من الخمس الخبزات والسمكتين، إنما هو بمثابة عمل إلهي غير منظور قد ابتدأ فعله في العالم في ذلك اليوم وسيظل فاعلاً وفائضاً إلى نهاية الدهور، ولكن ليس على مستوى الظاهر، بل كأن المسيح كان يقسم فعلاً من جسده ولحمه ويُطعم هؤلاء الجائعين. لذلك شرح هذا العمل هكذا: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا - ابن الإنسان - الله الأب قد ختمه (ليكون هو الخبز الحي السماوي)» (يو: ٦: ٢٧) [حيث كلمة «ختمه» تعود على «ابن الإنسان» ولا تعود على «الطعام» وذلك بحسب التحليل اللغوي للكلمات اليونانية للآية.] «أنا هو خبز الحياة. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو: ٦: ٣٥)؛ «الخبز الذي أنا أُعْطِي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو: ٦: ٥١)؛ «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو: ٦: ٥٧)؛ وهذه هي الحياة الأبدية.

فالمعجزة الباهرة من خارجها لا تفيد شيئاً: «الروح هو الذي يُحيي. أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يو: ٦: ٦٣)، ولكن الآية التي فيها، هي استعلان روحي لعمل خطير للغاية لفعل جديد لا يمتُّ للجسد أو العالم، بل هو عمل وفعل الله لحياة متصلة بالله.

القديس يوحنا يؤكد على هذه الحقيقة ويشير إليها مراراً حتى ينتبه القارىء والسامع. في معجزة قانا الجليل عندما حوّل المسيح الماء خِراً، أردف خبر المعجزة بقوله أنها كانت «آية»: «هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به تلاميذه» (يو: ٢: ١١). وكلمة «أظهر مجده» تعني «استعلن وجوده» أو «استعلن حضوره الإلهي»، وهذا المعنى الذي عبّر عنه القديس

يوحنا من قبل بقوله عن كلمة الله «وحلَّ بيننا، ورأينا مجده» (يو: ١٤). هذا الحلول أو استعلان الحضور هو هو المجد بعينه. وهذه الآية يقول عنها الإنجيل أنها «بداية الآيات»، أي بدء استعلان حضور الله، الذي كان على مستوى تحويل الماء رمز التطهير إلى خمر رمز الفداء بالدم. والمسيح أكمل استعلان هذا التحويل بآخر آيات التحويل عندما أمسك كأس «الخمر الممزوج بالماء» بيده وقال: «هذا هو «دمي»، «خذوا اشربوا منه كلكم». إذ أصبح في يد الإنسان وفي فمه «سر التحوُّل نفسه»، الذي به يتحول الإنسان من القديم الجسدي إلى الجديد الروحي.

والقديس يوحنا يعتبر أن إنجيله إنما هو سجلٌ يحوي آيات ذكرها باختيار خاص من ضمن أولف آيات أخرى، حتى إنَّ كلَّ من قَبِلَها ويؤمن ينال الحياة: «وآيات أُخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكْتَب في هذا الكتاب، وأما هذه فقد كُتِبَتْ لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه.» (يو: ٢٠: ٣٠-٣١)

مقارنة بين مفهوم المعجزات في الثلاثة الأناجيل ومفهوم الآيات في إنجيل القديس يوحنا: لم يُكثِر المسيح من استعمال كلمة «آيات»، ولكنه استخدم في موضعها ومعناها كلمة «أعمال» εἵργα التي جاءت ١٨ مرة ليصف بها «أعمال الآب»، أو الأعمال التي أعطاه الآب أن يعملها؛ بل واستخدمها أيضاً لشرح كل رسالته: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو: ١٧: ٤). والمسيح، بهذا الإصطلاح، إنما يشير إلى أعمال الله في العهد القديم سواء في الخليفة أو في التمهيدي للخلاص. وبذلك يجمع المسيح بين أعمال الله في العهد القديم وأعماله في العهد الجديد، وصرَّح بذلك قائلاً: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو: ٥: ١٧). ولكن القديس يوحنا هو الذي يعبر عن هذه الأعمال بأنها آيات، مشيراً بذلك إلى نفس الآيات أيضاً التي أجراها الله في القديم، خاصة في مصر في أعمال الخروج التي تشكل الخلفية الذهنية في الإنجيل. فالمعجزات كانت في القديم في حقيقتها آيات تشير إلى ما هو سيصير حادثاً مع المسيح.

إذن، تسمية أعمال المسيح بالمعجزات هو عودة إلى الوراء، ولكن تسميتها بالأعمال هو امتداد صحيح لأعمال الله، وتسميتها من جهة القديس يوحنا بالآيات هو إشارة إلى أن عمل المسيح قد أكمل القصد من معجزات القديم. فمعجزة الخمس الخبزات هي، في حقيقتها الإستعلانية، ليست معجزة بل آية تشير إلى أن معجزة المرَّ في سيناء قد استعلنها المسيح في نفسه كخبز حي نازل من السماء باعتبار أن العهد الجديد المشار إليه في القديم قد جاء واستعلن.

وبمعنى توضيحي، فإن ملكوت الله الذي كان العهد القديم يشير إلى مجيئه وظهوره في ملء الزمان قد جاء وظهر في المسيح وبه.

إذن، عدم ذكر كلمة «ملكوت الله» في إنجيل يوحنا – إلا مرة واحدة مع نيقوديموس (يو: ٣: ٥٥) – لا يشكّل أي نقص في إنجيل يوحنا، فالإنجيل يعبر عن مجيء ملكوت الله بالآيات التي يصنعها المسيح، كأعمال حقيقية يعملها الآب به، مفتتحاً بها عصر الخلاص واستعلان دخول الله في تاريخ الإنسان، فهي ليست معجزات بعد ولا حتى آيات بالنسبة للمسيح نفسه بل هي أعمال ممتدة للآب وله!! وهذه الأعمال لم تُعدّ تعبر عن مجيء ملكوت الله بل عن مجد الله المنظور، وعن الخلاص والحق والحياة في صميم الواقع الزمني. وهكذا، فإن ما تعتبره الثلاثة الأناجيل في المعجزات التي كان يعملها المسيح أنها إعلان عن ملكوت الله، يعتبرها إنجيل يوحنا هي نفسها، ولكن تحت اسم «أعمال»، أنها هي هي ملكوت الله تحت اسم «الحياة الأبدية» وأنها قد أظهرت.

«الأعمال» في إنجيل القديس يوحنا: عمل = ἔργον؛ أعمال = ἔργα

لقد صمم إنجيل يوحنا أن يسمى المعجزات أو الآيات التي كان يعملها المسيح «أعمال»؛ وهي نفس الكلمة التي تُطلق على أعمالنا العادية سواء كانت شراً أو خيراً. وكان قصد المسيح والإنجيل من ذلك هو لكي يردّ المعجزات إلى وضعها الصحيح عند الله والمسيح، فهي ليست معجزات، لا بالنسبة لله ولا بالنسبة للمسيح. بل إن كل الأمور الفائقة التصور والإدراك عندنا، هي أعمال الله العادية التي باشرها المسيح كابن الله! فإصرار الإنجيل على اعتبار أن المعجزات هي مجرد أعمال، يهدف مباشرة إلى التعريف بالمسيح أنه ليس مجرد إنسان كما يدل مظهره، ولكنه أيضاً إله حسب حقيقته وجوهه. فأعمال المسيح هي أعمال الله، وأعمال الله كلها معجزات في نظرنا وتفكيرنا.

لذلك يصيرُ المسيح أيضاً من وجه آخر بأن هذه الأعمال هي أعمال الله وهي «بالآب معمولة»، والآب الحالُّ فيه هو يعمل الأعمال (يو: ١٤: ١٠)، والله لا يقصد أن يعمل أعمالاً إجازية مخصوصة لتظهر لنا باهرة وأخاذة حتى نؤمن بالمسيح الذي يعملها، ولكن العكس صحيح، فالمسيح يصيرُ على أنها مجرد أعمال الله التي يعملها منذ البدء في الخلق، وأنه إنما يكمل أعمال الخليفة التي بدأها مع الآب: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو: ١٧)، وأنه يستمر في تكميلها، إنما على المستوى الروحي التجديدي، أي لتجديد خلقة الإنسان وإصلاح ما فسد فيها.

وحينما اعترض اليهود على شفاء المسيح للإنسان المشلول المقعد منذ ٣٨ سنة في يوم سبت، كان رد المسيح عن هذه الآية أنه يتمم ويصحح ويقم من الموت الخليفة التي خلقها مع الآب. وواضح من قوله للمقعد بعد أن شفاه: «فلا تخطيء أيضاً لئلا يكون لك أشر» (يو: ١٤)، أن الرجل هو

الذي أفسد خلقته بإرادته، بعمله الشر، والمسيح إنما رفع عنه لعنة الخطية المفسدة فصار صحيحاً. وقوله: «لا تخطيء أيضاً»، معناه أنه صار الآن بلا خطيئة، أي خلقة جديدة، فكلمة المسيح مجددة ولها قوة الخلق والإحياء والتجديد.

لذلك، كان المسيح يعترض على الذين يطلبون منه عمل المعجزات لكي يؤمنوا به: «لا تؤمنوا إن لم تروا آيات وعجائب» (يو ٤: ٤٨). فهو يعملها من ذاته لأنها عمله الذي جاء ليعمله، والآب أرسله لكي يعمل أعمال الآب. ويكفي أن يروه يعمل الأعمال التي لم يعملها أحد قبله ليدركوا أنه ابن الله. فإذا أصرُّوا على طلب معجزة، فعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا به أنه ابن الله بل مجرد إنسان صانع معجزات مدهشة فيكرموه لذاته؛ مع أنه جاء ليشهد بهذه الأعمال للآب الذي أرسله. فالذي يؤمن بالأعمال، فهو يجد الآب الذي أرسله، وبالتالي يجده لأنه يعمل أعمال الله. لذلك كان المسيح يكرر قوله لليهود: «إن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأنا فيه» (يو ١٠: ٣٨).

والقديس يوحنا لم يذكر حادثة التجلي كأنها عمل فريد أو آية فريدة في حياة المسيح، لأنه رأى في أعمال المسيح كلها والتي كان يعملها ويعلم بها كل يوم أنها «تجلي» بأقصى معناه: وهو إظهار مجده وإعلان نوره. لذلك كان تعليق القديس يوحنا على معجزة قانا الجليل أنه بها «أظهر مجده»، أي بالمعنى اللغوي اليوناني والروحي واللاهوتي أنه «تجلى»، فإظهار المجد هو إظهار أو استعلان وجوده الإلهي. وقول المسيح في صلاته للآب: «أنا أظهرت اسمك للناس، أنا مجدتك على الأرض» (يو ١٧: ٤٦) يعني أنه أظهر وجوده وحلوله فيه على الأرض، وهذا منتهى «التجلي» لله في المسيح.

كذلك في تفتيح عيني أعمى مولود بلا عيتين، فإن هذا عمل الله. فإذا عمله المسيح فهو يقوم بعمل الله المخصص بصميم خلقة الإنسان. لذلك لما سأله تلاميذه عن هذا الأعمى: «من أخطأ هذا أم أبواه» (يو ٩: ٢)، كان رد المسيح: «لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لبتظهر أعمال الله فيه، ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني» (يو ٩: ٣-٤). عمل المسيح في تفتيح عيني الأعمى هو آية وليس معجزة، هو عمل من صميم اختصاص عمل المسيح والله معاً، وهذا هو استعلان شخص المسيح أنه ابن الله الذي أرسله الله إلى العالم ليعمل أعمال الله ليتعرف الناس على الإبن من خلال عمل الآب. وهذه هي رسالة محبة الله للعالم أنه أرسل ابنه ليعلم عن محبة الله نحو الإنسان التي استعلنت في أوج قوتها بالفداء. وهذا ما قرره المسيح في نهاية إرساليته وهو على عتبة الصليب: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته... ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم»

(يو ١٧: ٤ و ٢٦). وهذه كانت شهوة المسيح الأساسية وشغله الشاغل الذي كان ينسبه الطعام والشراب: «طعامي أن أصنع مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله.» (يو ٤: ٣٤)

وفي نهاية «الأعمال» نلفت نظر القارئ أن كلمة «أعمال» = ἔργα — ἔργον « هو اللفظ الذي اختاره المسيح، ولم يستخدم كلمة «آية» إلا مرتين في غير وضعها كأعمال. لذلك فكلمة «أعمال» في إنجيل يوحنا وعلى فم المسيح هي جزء لا يتجزأ من المنهج اللاهوتي في الإنجيل باعتبار أن المسيح بالأعمال (التي نسميها نحن بالمعجزات والآيات) إنما يمارس عمله الإلهي الذاتي مع الآب. على أن كل عمل إلهي هو في الحقيقة يحمل في طياته استعلاناً أي آية تشير إلى طبيعة المسيح الإلهية. فالآية تأتي كإشارة داخل «العمل»، فالعمل هو الأساس في الإستعلان، والآية مستخرجة منه.

الفصل السادس

الشخصيات الواردة في إنجيل القديس يوحنا

وهي نماذج للبشرية المتجاوبة أو الراضية للنور

في إنجيل القديس يوحنا يلمح القارىء حركة مدَّ عام إلى الأمام، صعوداً وهبوطاً، تسير جنباً إلى جنب مع حركة استعلان المسيح كابن الله في امتدادها وتدرُّجها في الإستعلان.

فجميع الشخصيات التي احتكت بالمسيح إما تزداد هبوطاً إلى أسفل؛ أو تزداد ارتفاعاً إلى الأعلى، إما تتمادى في المقاومة والعناد وعدم الإيمان؛ وإما تتمادى في القبول والإذعان والإيمان. هذه الحقيقة وليدة التأثير المباشر بحركة استعلان حقيقة المسيح كنور الآب. فالنور يكشف ذوي البصيرة ويزيدهم إبصاراً، كذلك وبنفس المقدار يفضح الكارهين للنور ويفقدهم الرؤيا: «لديونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون.» (يو: ٩: ٣٩)

أولاً: الراضون: «جاء إلى خاصته، وخاصته لم تقبله»:

الشعب اليهودي ينقسم في إنجيل القديس يوحنا إلى قسمين رئيسيين، يسميها الإنجيل «الجموع»، و«اليهود».

أ - الجموع: ὁ ὄχλος

وهم يمثلون التجمعات العامة للسكان اليهود الذين يظهرون في مسرح الحياة اليومية في الإنجيل، وأغلبهم من منطقة الجليل. وهم شديدو الإنفعال، وليس لهم سياسة محددة ولا يثبتون على رأيهم، يتجمعون بسرعة لكل بادرة تطرأ في محيطهم. وهم الذين استقبلوا المسيح استقبالاً حافلاً عند نزوله إلى منطقتهم، أي الجليل، بعد رؤيتهم المعجزات التي صنعها المسيح في أورشليم (يو: ٤: ٤٥)، وهم الذين كانوا يتبعونه في جموع غفيرة: «خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد» (مت: ١٤: ٢١)،

وكانوا يزحفون خلفه حتى إلى الجبال، وعلى مدى اليوم كله، حتى بلا طعام!! وعلى القارىء أن يتصور هذا الحشد الهائل يسير وراء المعلم دون أي اعتبارٍ لتعبٍ أو جوعٍ أو زمن: في إنجيل القديس متى نقرأ: «الموضع خلاء والوقت قد مضى» (مت ١٤: ١٥)، وإنجيل القديس مرقس يقول: «فابتدأ يعلمهم كثيراً، وبعد ساعات كثيرة تقدّم تلاميذه...» (مر ٣٤: ٣٥)، وفي إنجيل القديس لوقا: «فابتدأ النهار يميل» (لو ٩: ١٢). هذا المنظر يكشف لنا عن أمرين: الأول طباع أهل الجليل، والثاني شدة تأثير المسيح في قلوب الناس، فإنه على قدر امتداد النور، على قدر ما كان امتداد حركة الشعب.

أما إيمان أهل الجليل فصار ملتهاً بعد سماعهم للمسيح هذه الساعات الطوال، حتى إنهم بعد أن رأوا معجزة الخمس الخبزات والسمكتين لم يحتلموا التسويف فيما أضمره بل تحركوا ليختطفوه ويجعلوه ملكاً بالقوة (يو ٦: ١٥).

كانوا يتركون بيوتهم ومدنهم ويزحفون وراءه صعوداً إلى أورشليم في كل المناسبات، ويذكروهم الإنجيل بكلمة «جموع كثيرة» مثل عيّنة «الخمسة الآلاف». ويلاحظ القارىء أن الجليليين هم الذين تبعوا المسيح إلى أورشليم ومعهم سعف النخيل وزفؤه في موكب ملكي ارتجت له أورشليم المدينة، وبالأخص لما انضم إليهم سكان أورشليم الذين كانوا قد زاروا بالأمس بيت عنيا لتعزية مرثا ومريم ورأوا معجزة قيامة لعازر: «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها فائتة من هذا؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل.» (مت ٢١: ١٠-١١)

كما، وللأسف، هم أيضاً الجليليون الذين دفعهم رؤساء الكهنة والشيوخ ليصرخوا أمام بيلاطس: «أصلبه أصلبه»: «ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرّضوا الجموع...» (مت ٢٧: ٢٠). وهذا المشهد الأخير المبكي حقاً يوضح مدى خطية رؤساء الكهنة والشيوخ في تضليل هذا الشعب الطيب المتحمس الذي كان على أتم استعداد للإيمان والشهادة! وهل ننسى أن معظم التلاميذ الإثني عشر كانوا من الجليل...؟

ب - اليهود:

وهؤلاء يأتون في المقابل للجموع في إنجيل يوحنا. فكما أن كلمة «الجموع» اصطلاح يعبر عن أخلاق أهل الجليل، كذلك كلمة «اليهود» فهي اصطلاح يعبر عن أخلاق وسلوك أهل أورشليم العاصمة: «وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟» (يو ١٩: ١٥) وكما أن «الجموع» موطنهم الجليل، كذلك «اليهود» فإن موطنهم إقليم اليهودية، وهو القسم الجنوبي من فلسطين وعاصمته أورشليم.

ولكن بينما «الجموع» كانوا يمثلون جماعة، أكثر مما يمثلون اتجاهاً فكرياً، إذ ليست لهم مبادئ معينة، نجد اليهود يتمسكون جداً بآمال الأمة وانتظار الشعب لمسيحاً الملك القومي لسيادة اليهود على العالم، فهم يمثلون أصدق تمثيل العنصرية اليهودية المتعصبة بالطبيعة.

بدأ اليهود مصادمتهم مع المسيح في أول معجزة تمت في سبت: «إنه سبتٌ. لا يحلُّ لك أن تحمل سريرك» (يوه: ١٠). وأنها رسالة تعصبهم، التي أنهاها في الحقيقة على أنفسهم، حينما وقفوا يحرصون السبت بتكسير أرجل المحكوم عليهم ليُثبِتوا على حياتهم قبل حلول السبت: «فلنكني لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً سأل اليهود بيلاطس أن تُكسر سيقانهم ويُرفعوا.» (يوه: ١٩: ٣١)

وبينما كانت «الجموع» تقف تسمع التعاليم بانفعال وإعجاب وقبول: «فقالوا له يا سيد أعطينا في كل حين هذا الخبز» (يوه: ٦: ٣٤)، نجد اليهود يعترضون ويشوشون ويتذمرون: «فكان اليهود يتذمرون عليه لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء» (يوه: ٦: ٤١). وحتى إذا ما رأوا بعضاً من زملائهم اليهود وقد قبلوا التعليم بفرح كانوا ينازعونهم: «فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لناكل.» (يوه: ٦: ٥٢)

وإذا وقفت «الجموع» تصغي، كانت تخاف أن تُظهِر مشاعرهما ومدى إيمانها بالتعليم خوفاً من «اليهود»: «وكان في الجموع»، مناجاة كثيرة من نحو، بعضهم يقولون إنه صالح، وآخرون يقولون لا بل يُضل الشعب. ولكن لم يكن أحد يتكلم عنه جهاراً لسبب الخوف من اليهود.» (يوه: ٧: ١٢-١٣)

وحتى إذا اقتنع اليهود وآمنوا بالفعل، كانوا يقدمون التحفظات على الكلام والإستفسارات الإستنكارية التي تنتهي بهم إلى النكوص: «فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به: إنكم إن تَبَتُّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم، أجابوه إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط، كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً؟» (يوه: ٨: ٣١-٣٣) وهكذا انتهى بهم الموقف إلى الرفض الكامل: «لماذا لا تفهمون كلامي، لأنكم لا تقدرُونَ أن تسمعوا قولي، أنتم من أب هو إبليس.» (يوه: ٨: ٤٣ و٤٤)

ومن أجل غيرتهم على الناموس كانوا مستعدين أن يرحبوا المسيح: «فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه.» (يوه: ١٠: ٣١)

واليهود كانوا في الحقيقة هم العنصر الغالب في التقرير النهائي بضرورة صلب المسيح، لأن قيافا

نفسه لم يستطع أن يقرر ذلك إلا بعد أن أشار إلى اليهود لكي يتحركوا: «وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود أنه خيرٌ أن يموت إنسان واحد عن الشعب.» (يو ١٨: ١٤)

واليهود هم الذين وقفوا وقفة إصرار أمام بيلاطس ليُصدِر حكمه بالصلب: «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم، فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحداً (هذا كذب فقد قتلوا استفانوس فيما بعد).» (يو ١٨: ٣١)

والمسيح نفسه كان يعرف تماماً أنهم العنصر الأساسي في صلبه: «لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدّامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود» (يو ١٨: ٣٦)؛ «خرج (بيلاطس) أيضاً إلى اليهود وقال لهم أنا لست أجد فيه علةً واحدة، ولكم عادة أن أطلق لكم واحداً في الفصح، أقتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ فصرخوا أيضاً جميعهم قائلين ليس هذا بل باراباس. وكان باراباس لصاً.» (يو ١٨: ٣٨-٤٠)

والقديس يوحنا لا يتحامل في إنجيله على اليهود، ولكنه بعد أن مرّت به هذه السنين الطوال، فإنه ينظر نظرة حزن وأسى متأملاً كيف أن المسيح كان يترجى لـ«إسرائيل» الخلاص، ويرى فيهم من الصفاء والصدق ما يصلح أن يكون لهم دورٌ في الخلاص. اسمعه وهو يسجّل للمسيح قوله عن نشنايل: «هوذا إسرائيلي حقاً، لا غشّ فيه» (يو ١: ٤٧)، فهنا «إسرائيل» واقعة في ضمير المسيح موقع الحق بحسب ما كان يترجى. أو اسمعه وهو يسجل للمعمدان قوله: «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظَهَرَ لإسرائيل لذلك جنّت أعمد بالماء» (يو ٣: ٣١)، هنا «إسرائيل» صاحبة الحق الأول في التعرف على مسيحها!! وذلك بحسب ما كان يظن ويترجى المعمدان بل والمسيح نفسه: «لأن الخلاص هو من اليهود.» (يو ٤: ٢٢)

وإنجيل القديس يوحنا يهتم بصورة عامة أن يجعل خدمة المسيح على خلفية يهودية، فكل عمل وكل قول يجعله يتحرك على خلفية يهودية والأمثلة كثيرة: فإن معجزة تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل أجراها على خلفية يهودية: «وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير،، اليهود،،.» (يو ٢: ٦)

ومعجزة الخمس الخبزات وحديث الجليل المطول في الأصحاح السادس يجريان على خلفية من اليهود مع أنه كان في الجليل: «فصعد يسوع إلى الجليل وجلس هناك مع تلاميذه، وكان الفصح عيد،، اليهود،، قريباً.» (يو ٦: ٣-٤)

ومعجزة ابن خادم الملك التي صنعها وهو في الجليل، هذه أيضاً صنعها على خلفية من اليهودية

واليهود: «هذا إذ سمع أن يسوع قد جاء من اليهودية، إلى الجليل انطلق إليه وسأله...» (يو: ٤٧)؛ «هذه أيضاً آية ثانية صنعها يسوع لما جاء من اليهودية، إلى الجليل.» (يو: ٤٤: ٥٤)

وحتى لما جاء إلى الجليل ليقم فيها، أقام فيها على خلفية من اليهودية واليهود: «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل، لأنه لم يُرد أن يتردد في اليهودية لأن اليهود، كانوا يطلبون أن يقتلوه.» (يو: ٧: ١)

ولما ترك المسيح الجليل وصعد إلى أورشليم، كان ذلك أيضاً على خلفية من اليهود،: «وبعد هذا كان عيد اليهود، فصعد يسوع إلى أورشليم.» (يو: ٥: ١)

ولما بشر المرأة السامرية بالخلاص وقبلت الإيمان، بشرها على أساس اليهود: «لأن الخلاص هو من اليهود.» (يو: ٤: ٢٢)

هذا الإصرار في جعل اليهود واليهودية خلفية عامة لخدمة المسيح المطوّلة، يوضح عقيدة القديس يوحنا الراسخة أن اليهود كانوا أصحاب الحق الأول في خدمة المسيح وفي الخلاص لولا أنهم لم يقبلوه.

بل ولا يزال القديس يوحنا يلح على هذه الحقيقة — إنما بصورة سرية ورمزية أيضاً — حتى آخر لحظة على الصليب حينما التفت المسيح إلى أمه وقال، آخر ما قال، للتلميذ الذي كان يسوع يحبه: «هوذا أمك» (يو: ١٩: ٢٧)؛ القديس يوحنا يسجلها باهتمام وكأنها الوصية الأخيرة للكنيسة ممثلة في القديس يوحنا — آخر رسول للمسيح وآخر تلميذ — أن تبقى الأمة اليهودية (أم المسيح)، ممثلة في جميع أسفارها وذخائر أنبيائها وروحانياتها، قائمة كأمة للكنيسة تُرضع لبنها العتيق المعتق. كما أن وصية المسيح لأمه «هوذا ابنتك» (يو: ١٩: ٢٦) أن تبقى الكنيسة (التلميذ الذي كان يسوع يحبه) في حضن الأم العتيقة لا تفصل عنها.

وقد صار ذلك بالفعل، إذ احتضنت الكنيسة العهد القديم وصارت تغتذي من كنوزه حتى اليوم.

واليهود ينقسمون عامة إلى شيعتين: شيعة الفريسيين، وشيعة الصدوقيين. أما الصدوقيون فلم يذكرهم القديس يوحنا بالإسم ولكنه يذكر خصائصهم تحت اسم رؤساء الكهنة، زمرة حنان وقيافا، الرؤساء المغامرون الذين يختلفون على طول الخط مع زمرة الفريسيين الغيورين على الدين. على أن الفريقين — الصدوقيين والفريسيين — يظهرون في مظهر الإتحاد ويعملون معاً داخل الجمع

الكبير: «سمع الفريسيون الجمع يتناجون بهذا من نحوه (أي المسيح) فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خُذاًماً ليمسكوه» (يو: ٧: ٣٢). «فجاء الخُذّام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين...» (يو: ٧: ٤٥)؛ «فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجعاً وقالوا ماذا نصنع...» (يو: ١١: ٤٧)؛ «وكان أيضاً رؤساء الكهنة والفريسيون قد أصدرُوا أمراً...» (يو: ١١: ٥٧)؛ «فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح.» (يو: ١٨: ٣)

وهم يجتمعون ضمناً لتوحيد كلمتهم ككتلة متعاونة شكلاً، ولكن غير منسجمة في الداخل. ويأتي رؤساء الكهنة في المركز الأول من جهة القسوة واستخدام العنف، ولكن ما يستفز رؤساء الكهنة (الصدوقيين) هو الإستشعار بأي خطر نحو نظامهم الكهنوتي. أما الفريسيون، وهم الممثلون الشرعيون لليهود، فكان ما يستفزهم هو الإخلال بالناموس، وهم الذين أرسلوا بعثة تقصي الحقائق عن خدمة المعمدان (يو: ١٠: ٢٤)؛ وأيضاً ما ترامى لأسماعهم عن أن الرب يعمّد، إذ اعتبروا ذلك أمراً خطيراً بالنسبة لسلطانهم، بل إن هذا وحده كان كفيلاً أن يعجل بالصدام والصليب، لذلك نسمع: «فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يُصير ويعمّد تلاميذ أكثر من يوحنا — مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمّد بل تلاميذه — ترك اليهودية ومضى أيضاً إلى الجليل» (يو: ١: ٣-٤)، لأن الساعة لم تكن قد جاءت بعد.

والفريسيون يحقرون اليهود غير المتعلمين ويرفضون آراءهم: «فأجابهم الفريسيون ألعكم أنتم أيضاً قد ضلّتم. ألعل أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون» (يو: ٧: ٤٧-٤٩). والذي كان يستفز كبرياء الفريسيين بشدة، تفرد المسيح بسلطانه الذي كان يعلم به: «فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقاً» (يو: ٨: ١٣). كما أدانوا معجزات المسيح الباهرة ليس لسبب إلا لأنها عُملت في سبت (يو: ٩: ١٦).

والفريسيون هم الذين أخذوا على عاتقهم حرمان وطرده أتباع المسيح: «ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله.» (يو: ١٢: ٤٢ و٤٣)

ولكن في ختام صداماتهم المتوالية بلغهم الإعياء، وأصيبوا بخيبة أمل من جراء نجاح المسيح واكتساحه الميدان رغماً عن محاصراتهم: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو: ١٢: ١٩). ومن بعدها تنحّوا وتركوا أمر تدبير خطة قتل المسيح لرؤساء الكهنة وحدهم، إذ لم يُعَدّ الإنجيل يذكّرهم بعد ذلك مع رؤساء الكهنة. وهذا يظهر من قول بيلاطس للمسيح: «ألعلي أنا يهودي؟ أمّنتك ورؤساء الكهنة أشلموك إليّ»

(يو ١٨: ٣٥)؛ «فلما رآه رؤساء الكهنة والخُدّام صرخوا قائلين أصلبه أصلبه» (يو ١٩: ٦). ولكي ينتهوا قسراً من قضية المسيح، ضغطوا على بيلاطس وأخرجوه، فوجدوا إيمانهم بالله علناً وكفروا بيهوه الملك العظيم الذي رعاهم وتبّأهم هذا الدهر كله: «ليس لنا ملك إلا قيصر.» (يو ١٩: ١٥)

وعلى العموم، فإن الصراع العنيف الذي لم يكفّ أبداً في إنجيل يوحنا بين اليهود والمسيح والذي تحمّله المسيح حتى أفضاه، كان يمثل ولا يزال صراع العالم مع الكنيسة الذي لم يهدأ ولا يوماً واحداً ولن يهدأ: «أنا قد أعطيتهم كلامك؛ والعالم أبغضهم لأنهم ليسوا من العالم، كما أنني أنا لست من العالم. لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير» (يو ١٧: ١٤ و١٥). وقد صدق الذي قاله القديس بولس الرسول: «إن كنا نتألم معه لكي نتمجّد أيضاً معه» (رو ٨: ١٧). ولكن يقولها إنجيل يوحنا بصورة الواقع الحاضر: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو ١٧: ٢٢)

ومن جهة الأخلاق أو السلوك الفردي وخط الرفض العريض، أي عدم الإيمان الذي أظهره اليهود والرومان في أثناء آلام الرب وصلبه، نجد ثلاثة عوامل شخصية تحكّمت في ثلاث نفوس انحطّت مقاديرها فأصابها العمى والضعف والأنانية:

+ أما العمى فبلغ أفضاه عند رئيس الكهنة الذي جلب الخراب على أمته إذ حكم على دم بريء!!

+ وأما الضعف فكان في الوالي الروماني الذي انقطع عزمه، وامتنع حزمه، وأهان كبرياء القضاء الروماني: «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم!!» (يو ١٨: ٣١)؛ «وقال لهم: أنا لست أجد فيه علّة واحدة!!» (يو ١٨: ٣٨)

+ وأما الأنانية فكانت في التلميذ الذي خان المحبة وأسلم معلمه.

ثلاثة أشخاص، ولكنهم، في الحقيقة كما يقدمهم لنا إنجيل يوحنا، هم ثلاثة عناصر مرذولة تمثل لا الرفض فقط، بل والعداوة تجاه الإيمان: «اليهود»، و«الأمم»، و«التلميذ».

+++ فقيافا يمسك عليه الإنجيل تصرّحه الخطير الذي يكشف الإتجاه النفسي عند اليهود عموماً، ويمثلهم الرؤساء والمسؤولون حينما يصيبهم العمى فيضحّوا بمستقبل الرسالة في سبيل الحفاظ على حطام الدنيا: «فقال لهم واحد منهم، وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها» (يو ١١: ٥٠ و٤٩). هكذا بلغ العمى أن تُقتل البراءة ويُزهق الحق لتبقى الأرض ويبقى الكيان! وعند هذه

المشورة توقفت العناية الإلهية عن مسار الكهنوت اليهودي، ورُفَعَت اليد العالية عن حماية الأمة، وأنطفأ مصباح الله في هيكل اليهود إلى الأبد.

فإن كانت الأمة اليهودية قد بدأت مع إبراهيم حينما قدّم ابنه اسحق ذبيحة لله حيث كان هذا قمة الإيمان الذي بنيت عليه الأمة؛ فقد انتهت وانتهى إيمانها مع رئيس الكهنة قيافا عندما قدّم ابن الله ذبيحة على مذبح الرومان.

+++ والأمم ويمثلهم ييلاطس. وتعلّقنا عليه هو هذه الآية من القديس بولس الرسول: «فإن كان لكم محاكم في أمور هذه الحياة فأجلّسوا المحتّمّرين في الكنيسة قضاة. لتخجيلكم أقول. أهكذا ليس بينكم حكيم ولا واحد يقدر أن يقضي بين إخوته. لكن الأخ يحاكم الأخ، وذلك عند غير المؤمنين. فالآن فيكم عيب مطلقاً لأن عندكم محاكمات بعضكم مع بعض. لماذا لا تُظلمون بالحري. لماذا لا تُسلّبون بالحري. لكن أنتم تظلمون وتسلّبون، وذلك للإخوة. أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله؟» (١ كو٦: ٤-٩)

+++ أما يهوذا التلميذ الذي سرق الصندوق، فليس عجباً إن هو باع النور. والذي أحب المال كان سهلاً عليه أن يدوس المحبة. ولكن يهوذا كان تلميذاً، وكان داخل الجماعة، وكان مؤتمناً على سر الكنيسة الصغيرة أي الإثني عشر، لذلك استطاع أن يسلم معلمه في الوقت المناسب وفي المكان المناسب. فكانت خطيته أعظم: «الذي أسلمني إليك له خطية أعظم.» (يو١٩: ١١)

يهوذا - بحسب إنجيل يوحنا - مثلّ دور أختيوفل الذي كان مشيراً لداود يجلس على مائدته ويأكل أفضل خبزه، هذا لما دخله الشيطان خان سيده داود مسيح الرب، وأشار على ابنه (ابن داود) أبشالوم أن يقتل أباه داود ليجلس ملكاً عوضاً عنه، ولما خابت مشورة أختيوفل بموت أبشالوم ذهب وخنق نفسه، هذا ما فعله يهوذا! ولهذا قال الرب: «لكن ليتم الكتاب، الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبه» (يو١٣: ١٨). أما الكتاب الذي أشار إليه الرب فهو الزمور ٤١: ٩: «رجل سلامتي الذي وثقتُ به، أكل خبزي، رفع عليّ عقبته.»

ثانياً: المؤمنون:

«أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.» (يو١٢: ١٢)

وكما يقدم إنجيل يوحنا الأشخاص الراضين في مدّ متهاوٍ إلى أسفل، حتى بلغ بهم الرفض وعدم الإيمان مبلغ تسليم الرب والمعلم للقتل ويبد تلميذ من الإثني عشر، هكذا يقدم الإنجيل المدّ الإيماني

الصاعد في النور إلى أعلى الدرجات. وهكذا نأقن إلى الأشخاص الذين سمعوا وقبلوا وآمنوا وتحمسوا وصاروا من التابعين.

وإذا أردنا أن نلقي نظرة على التلاميذ الذين تسابقوا في الصعود على سلّم الإيمان، ينبغي أن نترك الرسل الذين ذكرتهم الأناجيل الثلاثة الأولى؛ كبطرس وأولاد زبدي وأهمهم، والشخصيات الحبيبة التي رافقت طفولة المسيح ولازمته حتى النهاية، والنسوة التقيات اللائي أخذن على أنفسهن متابعة المسيح في اليهودية والجليل وأورشليم حتى الصليب والصرف عليه من أموالهن الخاصة؛ لأننا إلى الشخصيات التي لم تذكرها الأناجيل الثلاثة، وكيف يُبرز سجاياهم عن وعي روحي وانفساني عميق، إذ يضعهم القديس يوحنا في تيار الإنجيل فتتسق حركتهم الإيمانية مع حركة المدّ صعوداً في استعلان المسيح.

ويضع القديس يوحنا في افتتاحية طريق التعرف على الرب، «نثنائيل»، كزهرة تفتحت مبكراً لتعطر طريق الشهادة الحلو: «أجاب نثنائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل» (يو: ١٠: ٤٩). ويلازمه على الطريق في خطواته الأولى «أندراوس»، الذي ظهر كمن كان يدرس باجتهاد متى يأتي المسيح، «قد وجدنا مسياً» (يو: ١٠: ٤١). وكذلك «فيلبس»، واحد من زمرة الباحثين باهتمام من أين يأتي المسيح: «فيلبس وجد نثنائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة» (يو: ١٠: ٤٥). وفيلبس هذا هو القديس والرسل الذي يقول أقدم التقليد الموروث عن العلامة اكليمنديس الإسكندري^(١) إنه هو التلميذ الذي سأل الرب أن يذهب ويدفن أباه، فتلق هذا الرد الحاسم: «اتبعتي ودع الموتى يدفنون موتاهم» (مت: ٨: ٢٢)، فترك وتبع وكان من الراجحين!...

كما يقدم لنا شخصية «توما» باعتباره إمام الشكّاكين في المنهج المسيحي، ولكنه شكّ من أجل مزيد من الإيمان، فانتهى به شكّه إلى صرخة استعلان لم يبلغها أحد قبله: «ربي وإلهي.» (يو: ٢٠: ٢٨)

والقديس يوحنا يمهّد في إنجيله تمهيداً رائعاً لوكب الخطاة، تقوده أُمّية أو نصف يهودية، هي سامرية مكروهة مع كل السامريين، ولكن المسيح جاء من أجل المكروهين، فقد قيل عنه هون نفسه في الأنبياء: «هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدوسه للمُهان النفس، لمكروه الأُمّة، لعبد المتسلطين...» (إش: ٤٩: ٧). كانت مكروهة ولكن أحبا المسيح ليم في هذه السامرية العجيبة قول

¹ Clement of Alexandria, Stromata III.4 ch 25.

هوشع النبي «سأدعو التي ليست محبوبة محبوبة» (رو ٩: ٢٥، هو ٢٣: ٢٣ في الترجمة السبعينية)، ويتم في هذا الشعب السامري العجيب: «سأدعو الذي ليس شعبي شعبي» (رو ٩: ٢٥، هو ٢٣: ٢٣). كانت السامرية رائدة التائبين بل والمبشرين، فخلصت، وخلصت مدينة!!

وبعدها تأتي تلك التي كرمها الإنجيل بل والدنيا كلها: «المجدلية». ومن ذا الذي لا يعرف المجدلية؟ التي هي «مادلين» – باللغة الفرنسية؟ هذه التي استأسرت بعطف المسيح بعد أن كانت أسيرة لسبعة شياطين، فحفظت الجميل حتى الصليب والقبر وأيضاً القيامة. فكانت أول من نطق المسيح بإسمها: «يا مريم»، كأول كلمة بعد أنين الصليب وغصة الموت وصمت القبر!!!

وإنجيل يوحنا لا يقدّم روايات عن شخصيات، بل سهام من نور انطلقت تتقدم طريق النور الحقيقي وتتبعه شهادة تلو شهادة شيء يخطف الأبصار، منها من كان يسير بسرعة الضوء «أنت ابن الله» (يو ١: ٤٩ و ٣٤؛ ١١: ٢٧). ومنها من كان يتدحرج كطفل يمسك بتلابيب أمه يسير الهوينا، ولكنه ملتصق بالنور: «توما»: «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه» (يو ١١: ١٦). ومنها من كان يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى بإيمان زاحف كأنه يجر وراءه ثقلًا: «نيقوديموس» معلم إسرائيل، الذي جاء إلى المسيح مع صبح البشارة، وانتهى إليه في غسق الكرازة، لينزل الجسد من فوق الصليب ويستودع القبر في إيمان ذاهل لا يعرف متى أتاه وكيف يعلنه!

وفي تصوير القديس يوحنا، نرى من خلف نيقوديموس، السامرية تظهر وهي الإنسانية الالهية أو التي يلهو بها الناس، والتي بعد مناوشة لم تستغرق بعض الساعة ختمت لهو صباها بجديّة الرجال، وتركت جبرتها التي هي بمثابة صنعتها – ماء العطش – رهن إيمان اليقين الذي استبدّ بها، وكان لسان حالها: «لا خطية بعد الآن» و«لا» لكل أهل مدينتها ما دام «مسيًا» الآتي قد أتى!! فلا عودة لبيثريعقوب؛ ونبع الحياة قد صار في أعماقها. ومثلما قالت وعملت، هكذا قال كل أهل مدينتها وعملوا؛ وسرق السامريون الخلاص من اليهود إذ شهدوا: «هذا هو بالحقيقة المسيح مخلّص العالم.» (يو ٤: ٤٢)

ولكن ليس جزافاً أن يضع القديس يوحنا صورة السامرية في مقابل صورة نيقوديموس، فهذا النقيض البالغ حد المبالغة نراه في سباق الإيمان في إنجيل يوحنا: فقمة العلم في وجه قمة الجهالة: يهودي هو معلم إسرائيل فريسيّ حامي حمى أكاديمية التوراة وقداسة الناموس، عضو مجلس السندريم الأعلى، علّم في أورشليم العاصمة المقدسة، وعلى مشارف هيكل الله يأتيه خلصة في ظلام الليل يسأل عن كُنه المسيح؛ والصورة الأخرى: امرأة سامرية جاهلة، فتيلة مدخنة، ودخانها يعمي العيون السليمة، لا نبض فيها يُنبئ بأي حياة، فقد استهلكها الخطية واللامبالاة، قابلها أو هي قابلته على

مشارف هيكل جِزِيمِ المَكْرَسِ لعبادة منشقة حيث يسجدون لِمَا لا يعلمون، تأتيه في وضح النهار وقت الظهيرة والشمس ساطعة والكل غادٍ ورائح يطلب البئر!! يسألها المسيح ليشرب، وهي تُعْرِضُ عن السماع، وتستنكر السؤال، وتجفل من الحديث. والرب يتودد إليها، يُظهِرُ قَفْرَهُ وَيُخْفِي غَتَاهُ: «الذي افتقر من أجلنا وهو غني» (٢ كور: ٨: ٩)، لأنه لم يكن عطشاناً إلى مائها، ولكنه كان جائعاً حقاً لمشيشة الآب التي من أجلها نزل فقيراً متغرباً إلى عالم الخطاة والخطية، حتى أوصلته قدماء المتعبتان إلى البئر وإلى السامرية.

حديث نيقوديموس بدأ مزخرفاً بالتودد: «يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً، لأن ليس أحداً يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه» (يو: ٣: ٢)، ولكنه كان محشواً بالتنكر والإستنكار: «كيف يمكن؟؟» (يو: ٣: ٤)؛ «ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية؟؟» (يو: ٣: ٤)؛ «كيف يمكن أن يكون هذا؟؟» (يو: ٣: ٩). كان نيقوديموس عصيَّ الإيمان، لأن بُرِّعَ الناموس أخفى عنه نور وجه المسيح! فلما أعيى المسيح من رده وصلده، تركه ثلاث سنوات ونصف!...

وحديث السامرية بدأ بشبه عراك، كقطة قد استفزتها المباغته فأخرجت أظفارها. وقد بدأت السامرية بالتنكر والإستنكار: «كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية؟» (يو: ٩). ثلاثة استنكارات في جملة واحدة، فالشرب من يد السامريين نجاسة كأكل لحم الخنازير، واليهودي لا يعامل السامريين أصلاً، والرجل لا يليق به أن يكلم امرأة!! وسرعان سرعان ما نظرت إليه ملياً لتقول له: «يا سيد أرى أنك نبي» (يو: ٤: ١٩). ولكنه استصغر نظرتها، وكثف لها نور استعلائه، فارتفعت بسرعة النور الذي اخترق قلبها. وظلت تتساءل في هواجس أفكارها عمّا سمعته وهي صغيرة عن «مسيّا» آتٍ يستطيع أن يرد على كل سؤال ويحل كل مشاكل الإنسان — ومشاكلها كثيرة — ألعله يكون هو «المسيّا»؟ وأخيراً رمت بدلوها وهي هيّابة تقول وكأنها تسأل أو تتمنى: «أنا أعلم أن مسيّا الذي يُقال له المسيح يأتي، فتي جاء ذلك يخبرنا بكل شيء» (يو: ٤: ٢٥). فسمعت منه «أنا هو εγω ειμι» (يو: ٤: ٢٦). وهكذا، وفي أقل ما يمكن أن يسمح به الزمن لاستعلان حقيقة المسيح، بلغت هذه السامرية في سهولة عجيبة إلى قمة الإيمان: «هذا هو المسيح.» (يو: ٤: ٢٩)

نماذج أخرى للإيمان الزاحف في إنجيل القديس يوحنا:

إيمان فيلبس:

قلنا إن فيلبس، كما يقول التقليد، هو التلميذ الذي لما دعاه المسيح طلب مهلة لكي يدفن أباه،

فبادره المسيح بأن يُعدّل مسار إيمانه فيترك الموقى يدفنون موتاهم ويهتم هو بإتباع المسيح، أي الحياة. هذا في بكور تعرفه على المسيح وعلى معنى الإيمان، فتوكل فيلبس على مَنْ يُحيي الموقى، وانتقل من الموت إلى الحياة وكان من التابعين. ولكن بقايا إيمان الموقى كان لا يزال لاصفاً فيه، هذا كان يعلمه المسيح ويعلمه القديس يوحنا. وكان على المسيح أن يزيل بقايا رائحة الموت من إيمان فيلبس. إلى أن جاءت معجزة الخمس الخبزات والسمكتين، وأبصر المسيح الجمع الحاشد من حوله وكانوا قد قضوا ساعات طويلة في الإستماع إلى وعظ المسيح وجاعوا والمكان كان قفراً؛ فابتدر المسيح فيلبس يسأله: «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟» (يو: ٦: ٥). يقول القديس يوحنا: «إنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزعم أن يفعل» (يو: ٦: ٦). ويكاد هذا القول يحكي عن كيف كان إيمان فيلبس موضع امتحان في نظر التلاميذ، أو على الأقل في نظر يوحنا. وما حسبه المسيح ويوحنا كان صحيحاً إذ جاء رد فيلبس خالياً من الإيمان جملة وتفصيلاً، إذ بعد تقدير عدد الرجال والنساء والأولاد وحساب ما يكفيهم من طعام وبعد عملية حسابية تقوم على الجمع والضرب والقسمة، أجاب فيلبس: «لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً» (يو: ٦: ٧). هذا هو إيمان الحسابات وهو قرين إيمان دفن الموقى.

لم يكن جزافاً أن يسرد القديس يوحنا هذه الرواية، فهو هنا يضع الحد الفاصل بين إيمان وإيمان، إيمان المنطق والعقل والواقع والحسابات، وإيمان المسيح الذي يقيم الموقى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة، إيمان الخمسة الآلاف رجل والخمس الخبزات لا تقبل القسمة على الإطلاق، فالقديس يوحنا يعرض لنا نموذج ما ينبغي أن يكون عليه إيمان الذين يتبعون المسيح. ووقف فيلبس يوزع مع الموزعين من الخمس الخبزات ومن السمكتين ما أشبع الخمسة الآلاف رجل ومن معهم من النساء والأولاد، ثم انطلق مع التلاميذ يجمع الكسرة المتبقية ما ملأ اثنتي عشرة قفة مملوءة!!

كان درساً لمن يجوع في حضرة المسيح، يتعلم منه من يريد أن يتعلم أن مع المسيح «شبع سرور ويمينه ملائمة خيرات» (راجع مز: ١٦: ١١). وكان درساً لفيلبس أن يحدد حساباته والأرقام، طالما هو يتبع من دُفع له كل سلطان ما في السموات وما على الأرض.

ولكن إيمان فيلبس كان لا يزال ينبض فيه عرق الموقى. وكان المسيح على استعداد لإستئصاله أيضاً. فلما طرح المسيح في أواخر كرازته مشروع تسليم تلاميذه الطريق إلى الآب الذي عبده بالكلمة والروح والحياة وهو مزعم أن يدشنه بجسده، انفجر فيلبس دون باقي التلاميذ يسأل سؤاله الذي ينضح بنسيان كل تعاليم المسيح – وكأنه لم يسمع منه قط علاقته بالآب أن الفكر فكره والقول

قوله والعمل عمله والمشية مشيئة والحب حبه والحياة حياته؟ فإذا يتفق لفيلبس أن يسأل: «يا سيد أرنا الآب وكفانا» (يو١٤:٨)؟ هذه لما سمعها المسيح أخذ يراجع مع فيلبس الدروس من أولها متحسراً على زمان طويل قضاه فيلبس يسمع ولا يفهم وينظر ولا يرى ويسير مع السائرين دون أن يعرف الهدف. أجابه المسيح باختصار: «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟؟؟» (يو١٤:٩) وأردف بعدد وقفة حزن ليعطي الحقيقة الإلهية النهائية لشخصه وعمله ورسالته: «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو١٤:٩). وعاد يستنكر على فيلبس وعلى كل مؤمن وتابع مثل هذا السؤال الذي يعني عدم الإيمان: «فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ ألسنت تؤمن أي أنا في الآب والآب فيّ» (يو١٤:٩-١٠). وبهذا القول يكون المسيح قد راجع مع فيلبس وكل إنسان، في كل زمان ومكان، ما هو الإيمان المسيحي وكيف يتخلص من أعمال الموق ومنطق حسابات الدنيا ويرى المسيح صورةً منظورةً لله الآب غير المنظور.

إيمان توما:

كان إيمان توما ينقصه الرجاء الحي، وهذا العيب الخطير إذا أصاب الإيمان يجعله يحتاج إلى «العيان»، أي لا يثق إلا بما يرى ويسمع ويفهم. لأن الإيمان الصحيح غير المُعَاب هو: «الثقة بما يُرجى والإيقان بأمر لا تُرى» (عب ١١:١)، كما يقول القديس بولس الرسول، أي أن نثق أننا ننال ما نترجاه مثلاً، أو نؤمن بالله غير المنظور أو ننتظر قيامة الأموات.

وإيمان توما ظهر ضعفه أولاً عندما كان المسيح موجوداً في بيت عبّرة أو بيت عنيا عبر الأردن (شرق الأردن) - ومعروف في التقليد اليهودي أن المسيح كان له خمسة تلاميذ من عبر الأردن وكان توما واحداً منهم. وجاءه رسول من عند مرثا ومريم يخبره أن لعازر مريض، فقال المسيح بعد أن عرف أنه مات: «لنذهب إلى هناك» أي إلى اليهودية، وكان اليهود هناك متربصين به يريدون أن يقتلوه، فجزع توما من فكرة الذهاب إلى اليهودية ولكنه سلّم نفسه للموت على أنه ليس رجاء في الحياة إن هم ذهبوا إلى اليهودية، فقال واليأس يخيم على قوله: «فقال توما الذي يُقال له التوأم للتلاميذ رفقاءه لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه» (يو١٦:١٦). واضح من هذا القول أن توما يحب المسيح ويؤمن به ويتبعه من كل قلبه، ولكنه كان قد قرر أن يتّبع المسيح ليس وراءه إلا الآلام والموت، ولكن لا مانع من الإتيان.

وعلى نفس المنوال كان المسيح قد لاحظ اضطراب التلاميذ، وأولهم في هذا كان توما، عندما أحسوا من كلام الرب أنه ينوي تركهم وأن هناك موتاً ينتظره: «لا تضطرب قلوبكم أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي» (يو١٤:١). واضح أن المسيح يراجعهم في مستوى إيمانهم به إذ لم يكونوا قد وثقوا

بعد أنه «ابن الله» والإيمان به ينبغي أن يكون على مستوى الإيمان بالله. ثم أضاف: «في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم، أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً، وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتى أيضاً وأخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً، وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق» (يو ١٤: ٢-٤). وهنا يمهد المسيح في أذهان التلاميذ لقبول أخبار انطلاقه إلى الآب عبّر الصليب، وتدشينه الطريق إلى الأقداس العليا بدمه، مفتتحاً الباب لعودة الإنسان إلى كرامته الأولى للحياة في حضرة الله. ولكن توما لم يفهم شيئاً: «قال له توما يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق» (يو ١٤: ٥). لا هو فهم أين يذهب المسيح — وكان المسيح لم يكن له رسالة إلا تعزية توما والبقاء بجواره إلى الأبد، ولا هو فهم معنى الطريق المؤدي إلى السماء وكأنه سيعيش على الأرض مخلّداً، ولا هو فهم معنى الصليب! وفي جملة مختصرة للغاية أراد المسيح من توما أن يمسك به وكفاه كالطفل الذي يضح من صعوبة السير مع أمه ولا يعلم إلى أين تسير، فتقول له: «امسك في ثوبي واتبعني وكفى»: «قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦). فإن كان المسيح هو الطريق فلماذا تنعي همّ الطريق؟

وفجأة أخذ المعلم منه ورآه وقد احتواه القبر، إلى هنا توقف إيمان توما. فلما قام المسيح من بين الأموات وبلغته الأخبار — وغالباً كان توما متغيّباً عبر الأردن في مدينته؛ فلم يصدقها. ولما تواترت الأخبار أكثر فأكثر، حضر توما إلى أورشليم وقابل التلاميذ ولكنه لم يترشح عن إيمان الصليب والجروح والموت والقبر: «فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب. فقال لهم إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع أصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه لا أوّمن» (يو ٢٠: ٢٥). إيمانٌ تُعوّزه الرؤيا ويعوّزه تصديق الشهادة، هو هو إيمان الموت وكفى وهو الذي تعوّزه الحياة. لكن الحياة، وهي المسيح، قد أظهرت في إيمان القديس يوحنا الرسول وهي تحت الرؤيا والعيان، لذلك لم يمانع المسيح المُقام أن يظهر لتوما خصيصاً، وليس في الحقيقة لتوما ولكن لكل من بلغ في إيمانه شك توما وأعوّزه اليقين؛ ولكي تبقى شهادة توما صكاً محفوظاً في خزانة الإنجيل يُغني عن وضع الأصبع في أثر المسامير واليد في الجنب المفتوح!! «ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يديّ وهات يدك، وضّعها في جنبتي، ولا تكون غير مؤمن بل مؤمناً.» (يو ٢٠: ٢٧)

ولأول ولآخر مرة في تاريخ الإيمان بل في تاريخ الإنسان يتحسس إنسانُ القيامة بإصبعه ويده. إيمان توما بلغ هنا النهاية، بل بلغ الذروة: «أجاب توما وقال له ربي وإلهي» (يو ٢٠: ٢٨). لكن صبر الرب على شكوك توما بلغ أيضاً النهاية والذروة، فلم يعلّم يطبق هذا المنهج جملة وتفصيلاً: «قال له يسوع لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠: ٢٩). لقد حصر الرب

الطوبى أي البركة والسعادة في الإيمان الذي لا يطلب العيان .

ولينتبه القارئ فإنجيل القديس يوحنا ليس منشغلاً في تصوير شخصياته ولا كشف سيرّ أعمالهم وحياتهم ، ولكنه يقصد من هذا العرض المتعدّد القامات لرجال الإيمان ونسائه أن يُبرز شخص المسيح ، مجد ذاته ، كيف يلقي ضوءه فيغيّر من فكر الإنسان وسلوكه من قامته إلى قامته ومن مجد إلى مجد . هذا هو شغل إنجيل القديس يوحنا الشاغل .

الفصل السابع

الرباط السري الذي يربط إنجيل القديس يوحنا

إنجيل القديس يوحنا لا يستقيم فهمه أو شرحه على مستوى كل تعليم بمفرده أو كل آية بمفردها، أو حتى كل أصحاب بمفرده، دون الالتفات إلى الرباط السري الذي يربط الحديث بالمعجزة والمعجزة بمعجزة أخرى، سواء جاءت قبلها أو جاءت بعدها. فهناك ارتباط دقيق وعميق يربط بين حديث وآخر وبين معجزة وأخرى، بل وبين بدايته ونهايته. هذا الارتباط الذي يسري في كل الإنجيل يلجُّ على القارئ حتى يكتشفه. وبمجرد أن يكتشفه يعتبر أنه حصل على مفتاح الإنجيل الذي يدرك به مسار الروح في كل كلماته وأصحاحاته، ويبدأ يحس بحركة الروح تنتقل إلى قلبه وفكره وتضيء ذهنه. وهذا هو الاستعلان في إنجيل يوحنا، وهو من عمل الروح القدس الذي أوحى بالإنجيل وأملأه، وهذا ما ينشده كاتب الإنجيل أقصى ما ينشده!

هذا مع العلم أن كل آية تخدم موضعها تماماً، لتعطي المضمون الذي يقصده الحديث كجزء قائم بذاته، ليكون خطوة في كشف أو استعلان الحق والغرض الذي يهدف إليه الإنجيل. إلا أن كل آية بما يتصل بها من حديث وتعليم هي، في حقيقتها الكبرى، مرتبطة بآيات أخرى لتعطي في النهاية الصورة الكاملة المتدرّجة للإستعلان الذي يهدف إليه الإنجيل.

ويكفي لكي نلفت نظر القارئ إلى هذه الحقيقة أن نقول إن الموضوع الرئيسي الذي يهدف إليه الإنجيل هو: «لكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو ٣١: ٢٠)؛ وأن بداية التعليم الذي بدأ به إنجيل يوحنا هو «ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو ٣: ٧)؛ وينتهي بمعجزة القيامة من الأموات!

وهكذا فإن إنجيل يوحنا يحوي منهجاً تفصيلاً يخضع لحساسية متناهية من حيث ترتيب وتدرج المبادئ الأساسية بحيث لا يحتمل على الإطلاق أي تغيير في مواضع الآيات والتعاليم وإلا تختل الوحدة القوية التي يبرزها الفكر الخلاق الذي وضعها!!

وعلى سبيل المثال نقدم آية تفتيح عيني الأعمى:

إذ نجد أن الإنجيل قبل أن يسرد قصة تفتيح عيني المولود أعمى مباشرة، يقدم المسيح معلناً عن نفسه أنه نور العالم: «أنا هو نور العالم» (يو: ٩: ٥)؛ فيبدو الكلام صعباً يحتاج إلى ما يبرهنه ويصدق عليه، لأن المتكلم الواقف أمامهم هو مجرد إنسان بحسب مظهره، وهم يعرفونه ويعرفون أسرته ومدينته، فكيف يُقبل أن يكون هو نور العالم؟ وكيف؟ ولكن بعد خطوات وبدون تقديم أو تعليق يقدم الإنجيل معجزة شفاء المولود أعمى ويرى الناس أن الأعمى صار بصيراً وبالتالي كيف تحولت الظلمة عنده إلى نور. ولكن للأسف، فالناس ينشغلون بمعجزة الشفاء — مجد ذاتها — التي تمت في السبت، كما انشغلوا في قوله: «أنا هو نور العالم» كمقولة مجد ذاتها دون أن يربطوا ما قال بما عمل حتى يدركوا من يكون هذا الذي يعطي الأعمى نور العالم؟ لذلك فاتهم تطبيق القول على العمل ليروا أن العمل ينطق بجد ذاته بصدق ما قال، وهذا ما أخذه المسيح على اليهود، ويا ليت لا يأخذه أيضاً على القارىء. لأنه بمجرد الإحساس بالإرتباط بين كلام المسيح وعمله، تتكون لدى القارىء حاسة انفتاح البصيرة لإدراك سر المسيح.

وأيضاً حتى وبعد أن سرد الإنجيل المعجزة، لم يكتفِ الإنجيل بذلك. بل لكي يلفت الإنجيل فكر القارىء إلى الغاية من التعليم والغاية من المعجزة، عاد يحكي عن كيف قابل المسيح هذا الأعمى عينه، وكيف عرض عليه الإيمان به كابن الله؛ فنجد الأعمى بلا أي تردد على الإطلاق يؤمن في الحال ويسجد. وهكذا يكشف الإنجيل عن معجزة أخرى يودُّها ويتمناها للقارىء، وهي انفتاح بصيرة الأعمى روحياً وإدراكه سر المسيح، فنال الحياة الأبدية بعد أن نال نور العالم. الأعمى البصير ربط بين ما تم له وبين هذا الذي فتح عينيه، فقبله في الحال بصفته التي أعلن بها عن نفسه وزاد عليها أن سجد له متعبداً!!

وهكذا، فإن ربط التعليم بالمعجزة ينشئ الإيمان. ثم بالتعليم والآية والإيمان يشير الإنجيل في صمت مهيب إلى صدق بدء الشهادة التي يشهد بها القديس يوحنا للمسيح أن «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس» (يو: ١: ٤). وبذلك يربط الإنجيل بين ما جاء في الأصحاح التاسع بما جاء في الأصحاح الأول، دون أي لفت نظر أو شرح، ليعطي القارىء فرصة لكي يدخل هذا المجال ويعيشه.

وعلى نمط المثال السابق وبنفس العمق، يربط الإنجيل بين ما جاء في الأصحاح الثالث بما جاء في الأصحاح الرابع دون أي تعليق أو لفت نظر. ففي الأصحاح الثالث يفتح المشهد فجأة عن فريسي كبير معلم للناموس يأتي إلى المسيح في الظلام ليسأل عن الرسالة، فلا يردُّ المسيح عليه في

موضوع سؤاله، بل يداهه بحقيقة تقطع عليه خط الرجعة في حوارهِ الذي يريده، وتقلب كيان تفكيره، إذ تُنهي من دائرة معرفته كل مذكرات علمه وتعليمه؛ إذ قال له المسيح مباشرة لا يمكن لإنسان أن يرى أو يدخل ملكوت الله إلا إذا وُلد من جديد!! ولما اعترض واستنكر ووضع العقبات، بادره المسيح كما بادرنا معه: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا» (يو: ٣: ١٠)، لكي ينتبه ذهننا أن العهد القديم انتهى بعلميه، لأنه هوذا معلم إسرائيل لا يعرف. إذن، فقد انتهت المعرفة من القائمين على المعرفة. وأخيراً يتركه المسيح بعد أن وضع أساساً جديداً ومتيناً للعهد الجديد. وهنا يصمت الإنجيل.

وبعدها يدخل الإنجيل إلى الأصحاح الرابع ليقدم لنا المرأة السامرية، امرأة خاطئة بلا اسم، ليست يهودية ولا أممية، ولا تعلم أي علم، هذه اختارها السيد المسيح ليطبق عليها درس نيقوديموس. ومن خلال مناقشة قصيرة عن ماء بئر يعقوب — ماء بركات الآباء — الغاطس في قاع البئر وشحّه والمُعطش أيضاً، كناية عن تراث الماضي وعدم نفعه، يكلمها المسيح عن الماء الحي. فبسرعة مذهشة طلبته ولكن في غير استعداد، فاستدرجها المسيح لتعترف بما فيها وبخطاياها، فاعترفت ولم تنكر، وكانت صادقة، فسكب عليها الماء الحي أي الروح. فاعترفت من الماء، وكانت أول من شهد عن المسيح من غير اليهود. وهنا يصمت الإنجيل أيضاً، لترك القارئ يفكر ويفهم أن نصف الأمية قد وُلدت من جديد من الماء والروح على يدي المسيح؛ من حيث تعذرت ولادة معلم الناموس! ولكن صمت الإنجيل هناك عند نيقوديموس وهنا عند السامرية هو التعليم الروحي عند إنجيل يوحنا، لأن فيه دعوة سرية للقارئ ليرى ويقرر كيف خسر نيقوديموس العرض وكيف ربحته السامرية، وعلى أية شروط!!

ولكن لا ينتهي الربط بين هذين الأصحاحين بعد. إذ أننا لو عُذنا إلى الأصحاح الأول نجد أصل وشرح الأساس اللاهوتي والإيماني الذي فرّق أو الذي ربط بين نيقوديموس والسامرية!! أي بين الأصحاحين الثالث والرابع بجملة: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه، الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل، بل من الله.» (يو: ١٢ و١٣)

هذا هو إنجيل يوحنا، يشرح بإسهاب، ويقدم المعجزة ببساطة، ويترك للقارئ فرصة ليستعلن المسيح.

وعلى مدى الإنجيل يحاول الكاتب أن ينه ذهن القارئ بالرباط العميق الهادف، الذي يربط بين الحوادث والأقوال والمعجزات، وذلك بأن يذكر القارئ بالمواقف السابقة التي يكون قد عبرها

بأصحاحات كثيرة حتى يلتحم ذهن الإنسان بسر الإنجيل وينمو الإستعلان في قلبه .

فثلاً في الأصحاح الأول عدد ٣٠ يعطي الإنجيل فرصة ليوحنا المعمدان أن يشهد للمسيح قائلاً: «هذا هو الذي قلت عنه: يأتي بعدي رجل صار قدامي (في الرتبة) لأنه كان قبلي (أزلي)». وبعد ذلك في الأصحاح الثالث عدد ٢٦ يعتمد الإنجيل على ذاكرة القارئ فيما قرأ في الأصحاح الأول عن هذه الشهادة: «فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن (المسيح) الذي أنت قد شهدت له هو يعمّد» .

وبالمثل يذكر الإنجيل في الأصحاح الأول كلام الفريسيين ليوحنا المعمدان هكذا: «فسألوه وقالوا له فما بالك تعمّد إن كنت لست المسيح»؟ وبعد ثلاثة أصحاحات يعود الإنجيل ويستخدم ذاكرة القارئ فيما قرأ؛ حينما يواجه يوحنا المعمدان الفريسيين: «أنتم أنفسكم تشهدون لي أي قلت لست أنا المسيح.» (يو:٣: ٢٨)

ثم يعود الإنجيل في الأصحاح الخامس يستخدم هاتين الواقعتين معاً حينما يقول بضم المسيح مخاطباً الفريسيين: «أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق.» (يو:٥: ٣٣)

وأيضاً يقول المسيح في الأصحاح السابع مخاطباً اليهود: «ستطلبوني ولا تجدوني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» (يو:٧: ٣٤). ويعود المسيح في الأصحاح الثالث عشر يعقب على هذا القول مخاطباً تلاميذه: «يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد، ستطلبوني، وكما قلت لليهود، حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا.» (يو:١٣: ٣٣)

أما من حيث التدرج في الإستعلان مع الترابط الشديد في الأقوال والمعجزات فنعطي هذا المثل:

نقرأ في الأصحاح الخامس: «كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو:٥: ٢٦). وذلك توضيحاً للآية التي أتت قبلها هكذا: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسمعون يحيون.» (يو:٥: ٢٥)

ثم في الأصحاح الحادي عشر إذ يقترب من المعجزة – الآية – التي نوى أن يصنعها، يصرح بأكثر وضوح وهو في طريقه لغير لعازر الميت مشيراً إلى المعجزة أنها قيامة حقيقية من الموت بإعطاء الحياة: «أنا هو القيامة والحياة» (يو:١١: ٢٥). ثم أمام قبر لعازر الميت يقول لمرثا: «إن آمنت ترين مجد الله» (يو:١١: ٤٠)، مشيراً إلى أن إقامة الميت من القبر وإعطاءه الحياة هو تمجيد لله الآب الذي أعطاه هذا السلطان. وأخيراً يخاطب الميت كما يخاطب حياً: «لعازر هلم خارجاً»

(يو ١١: ٤٣)، فيقوم لعازر من بين الأموات، ويثبت المسيح أنه حقاً هو القيامة والحياة، ليطبّقها على نفسه على الصليب وما بعده.

والآن إذا عدنا إلى الأصحاح الأول نجد الأساس اللاهوتي الذي بُنيت عليه كل هذه الأقوال وهذه المعجزات: «كان الكلمة الله... فيه كانت الحياة» (يو ١: ١٠). هذه في الواقع هي المسحة الروحية التي كُتِبَ بها إنجيل يوحنا.

فإذا عاد القارئ إلى هذه الآيات وغيرها وراجعها في مواضعها بتدقيق وبحث عن المقابل والمكمل، يدرك شدة تداخل المواقف في الإنجيل واعتماد بعضها على بعض بصورة رتيبة دقيقة مركبة الواحدة فوق الأخرى، في امتداد مع ارتفاع متواصل في الاستعلان لخدمة بناء فكر وإيمان القارئ على أساس قوي لا يهتز.

هذا في الواقع قليل من كثير مما يفوق طاقة أي مؤلف بشري مهما كانت قدراته، وهذا مجد ذاته عجيبة في حد ذاتها وآية تهون بجوارها أي معجزة مهما كانت باهرة. فالروح واضح في الرباط الذي يربط بين القول والمعجزة، والمعجزة والمعجزة، والأصحاح والأصحاح، والبداية والنهاية.

هذا مع ملاحظة أن البؤرة التي تتجمّع فيها جميع هذه الأضواء المتسلطة من جميع الآيات وجميع التعاليم وجميع الرموز إنما هي شخص المسيح نفسه^(١) باعتباره الكلمة المتجسد، أي باعتبار شخصه الإلهي الظاهر في جسد إنسان! فكل ما في إنجيل يوحنا، سواء كان حادثة أو آية أو تعليماً أو رمزاً، إنما يهدف إلى إلقاء ضوء جديد على هذه الحقيقة العظمى المعلنّة من بدء الأصحاح الأول: أن المسيح هو الكلمة وقد صار جسداً وحلّ بيننا — ثم يُعتبر بالتالي دعوة سرية للقارئ ليؤمن به أنه ابن الله فينال منه الحياة الأبدية!

(١) راجع ما جاء في نهاية فصل «الرموز في إنجيل القديس يوحنا»، وفي نهاية فصل «المعجزات في إنجيل القديس يوحنا»، وفي نهاية فصل «الشخصيات في إنجيل القديس يوحنا»، وفي المقارنة بين «ملكوت الله» في إنجيل يوحنا والثلاثة أناجيل الأخرى.

الباب الخامس

علاقة إنجيل القديس يوحنا بأسفار العهد الجديد

لم نشأ أن نضع المقارنات بين إنجيل يوحنا وبقية أسفار العهد الجديد من الرسائل وأناجيل ورؤيا، إلا بعد أن نكون قد قدّمنا عرضاً شاملاً لمحتويات إنجيل يوحنا نفسه . لذلك جاء هذا الباب متأخراً من جهة الترتيب المنهجي في الدراسة، ولكنه جاء في صميم موضعه من جهة المادة والعرض اللازمين لعمل المقارنات .

الفصل الأول

الرسائل المنسوبة للقديس يوحنا

توجد علاقة صميمية بين رسائل القديس يوحنا وإنجيله مما لا يدعُ هناك أي شك في نسبة إنجيل يوحنا لنفس كاتب الرسائل. علماً بأن الرسالة الأولى تأتي عُفْلاً من أسهاء، أما الثانية والثالثة فتأتيان باسم الشيخ أو الكاهن πρεσβύτερος ولكن كلها تحمل الطابع الرسولي.

والرسائل تأتي بمفهومها الوعظي كشرح لدستور الإنجيل القائم على الحوادث التاريخية من آيات وتعاليم، وقد سُجِّل كلُّ منها في أوانه وموضعه.

والرسالة الأولى بالذات تصور ما جاء في الإنجيل إنما في أسلوب شرحي ووعظي، ولكن بالرغم من التشابه المتوازي في الفكر والتركيب بين الرسالة والإنجيل إلا أنه يبقى بعض الاختلافات في الإتجاهات العامة:

أ - ففي الرسائل نجد النظرية التعليمية قائمة على إبراز بشرية المسيح، بينما نجد في الإنجيل أن الإتجاه كله متجه ناحية إظهار مجده الإلهي. فالثقل التعليمي في الرسائل واقع كله على أن المسيا - أي المسيح - رجاء الأمم هو هو «يسوع»: «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله» (يو: ٤: ٣ و ٢)، مما جعل كاتب الرسالة ينشغل في إثبات إنسانية المسيح الكاملة ويسوق التيار التاريخي في حياة المسيح إلى الروحيات المثالية. وهذا يتمشى تماماً مع عمل الواعظ والمبشر، في مقابل عمل الإنجيلي الذي يقوم على الدعم التاريخي لتصديق الدعوة.

ب - كما يوجد فارق هام في النظرة إلى الآخريات، أي الأمور الخاصة باليوم الأخير والقيامة والحياة الأبدية وما يتبع ذلك. فالإنجيل ييرُّ في تعليمه على مجيء الرب (٢١: ٢٢)، (٣: ١٤) كما ييرُّ على ذكر اليوم الأخير (٦: ٤٠ و ٤٤)، ويذكر الدينونة العتيدة (٥: ٢٨) كل هذه يلمسها لمساً رقيقاً

دون أن يركّز عليها أو يجعلها هدفاً خاصاً لتعليمه. بعكس ما جاء في الرسائل، فاستعلان المسيح (٢٨:٢) وحضوره يبرزان كحقائق هامة ومعمورية يركّز عليها وينتظر وقوعها تاريخياً وفي العالم. فإنه سيأتي تماماً كما أتى بالجسد: «لأنه قد دخل إلى العالم مُضَلُّون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتياً (مستقبلاً) في الجسد» (٧٠٢). «والآن أيها الأولاد اثبتوا فيه حتى إذا أظهر يكون لنا ثقة ولا نخجل منه في مجيئه.» (٢٨:٢٠١)

ج - كذلك هناك فارق واضح في موضوع الشفاعة *ἰλασμός* عند الآب، فهي في الرسالة واضحة ودقيقة دقة كاملة أكثر منها في الإنجيل، وكذلك الإقرار بالخطايا:
- «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.» (١٠١: ١٠٨)
- «وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كَفَّارَة *ἰλασμός* لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً.» (٢٠١: ٢٠١)

د - كذلك في الرسالة الأولى يبرز القديس يوحنا موضوعاً جديداً وهو «المسحة» التي ينالها المسيحيون: «وأما أنتم فلکم مسحة من القدس وتعلمون كل شيء» (٢٠١: ٢٠)، «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد، بل كما تعلمكم هذه المسحة عنها عن كل شيء وهي حق وليست كذباً، كما علمتكم تثبتون فيه.» (٢٧: ٢٠١)

والقديس يوحنا يذكرها في سفر الرؤيا أيضاً بصورة عملية عالية القدر ومجيدة للغاية:
- «... ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض (ممسوح) الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة (ممسوحين بالروح القدس) لله أبيه له المجد والسلطان إلى أبد الأبدين آمين.» (رؤ ١: ٦٠٥)

هـ - ومعروف في التقليد الكنسي والشرحي أن الرسالة هي من تأليف القديس يوحنا اللاهوتي، أما كلام الإنجيل فهو فوق أنه موحى به من الروح القدس حسب تقليد الكنيسة، فهو أيضاً كلام المسيح منقولاً، وله طابع الأصالة ومأخوذاً على أنه قاعدة أساسية وقضية إلهية مسلمة بسلطان إلهي.

ولكن الواضح أن القديس يوحنا أخذ كلام المسيح ومعجزاته وصاغها، لتكون صورة حية تشهد بواقعها الإلهي بما يصلح أن يكون إنجيلاً للإيمان يقوم على أساس التقليد الرسولي. وبناء على ذلك نجد القاعدة التاريخية في الإنجيل قد انكسرت في الرسائل ولم يعد لها التوقيع الزمني أو ملاسبات

الظروف بل انطلقت التعاليم حرة ومطلقة تصلح لكل تاريخ.

و - كذلك نجد كلام الرسائل مكشوفاً وواضحاً لا يحتاج إلى تأويل. أما كلام الإنجيل فله تيارات تحتية، محمولٌ على الرمز يحتاج إلى شرح وتفسير كما هو واضح من المقارنة الآتية، حيث سيجد القارئ التوازي المدهش بين الإنجيل والرسائل، كما يتضح أن الرسائل كأنها الشرح والتفسير المطابق تماماً وأحياناً الرد أو الحل لسؤال كيف؟

الإنجيل

الرسائل

٣ : ١٦ «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

١ يو ٤ : ٩ «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به».

٨ : ١٢ «أنا هو نور العالم، من يتبعني لا يمسي في الظلمة بل يكون له نور الحياة».

١ يو ١ : ٥-٧ «الله نور وليس فيه ظلمة البتة. إن قلنا أن لنا شركة معه وسلكنا في الظلمة نكذب ولسنا نعمل الحق. ولكن إن سلكنا في النور كما هو في النور فلنا شركة بعضنا مع بعض».

١٥ : ٢٣ «الذي يبغضني يبغض أبي أيضاً».

١ يو ٢ : ٢٣ «من ينكر الابن ليس له الآب أيضاً ومن يعترف بالابن فله الآب أيضاً».

٣ : ١١ «إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا».

١ يو ٢ : ٢ «الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا».

٥ : ٣٢-٣٤ «الذي يشهد لي هو آخر وأنا أعلم أن شهادته التي يشهد بها هي حق. أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق. وأنا لا أقبل شهادة من إنسان».

١ يو ٥ : ٩ «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه».

٥ : ٢٤ «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» .

٥ : ٣٨ «ولست لكم كلمته ثابتة فيكم» .

١ يو ٣ : ١٤ «وكلمة الله ثابتة فيكم» .

٦ : ٥٦ «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه» .

١ يو ٤ : ١٥ «من اعترف أن يسوع هو ابن الله فإله يثبت فيه وهو في الله» .

٨ : ٢٩ «والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه» .

١ يو ٣ : ٢٢ «ومهما سألتنا ننال منه لأننا نحفظ وصاياه ونعمل الأعمال المرضية أمامه» .

٨ : ٤٤ «ذاك كان قتالاً للناس من البدء» .

١ يو ٣ : ٨ «لأن إبليس من البدء يخطيء» .

٨ : ٤٦ «من منكم يبغتنني على خطية» .

١ يو ٣ : ٥ «ليس فيه خطية» .

٨ : ٤٧ «الذي من الله يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» .

١ يو ٤ : ٦ «نحن من الله، فمن يعرف الله يسمع لنا، ومن ليس من الله لا يسمع لنا» .

١٠ : ١٥ «وأنا أضع نفسي عن الخراف» .

١ يو ٣ : ١٦ «بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا» .

١٢ : ٣٥ «الذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب» .

١ يو ٢ : ١١ «من يبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ولا يعلم أين يمضي» .

١٣ : ٣٤ «وصية جديدة أنا أعطيتكم أن تحبوا بعضكم بعضاً، كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً» .

١ يو ٣ : ٢٣ «وهذه هي وصيته أن تؤمن باسم ابنه يسوع المسيح ونحب بعضنا بعضاً كما أعطانا وصية» .

١٥ : ١٠ «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي». ١ يو ٤ : ١٦ «ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله
فيسنا. الله محبة، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله
والله فيه».

١٥ : ١٨ «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد
١ يو ٣ : ١٣ «لا تتعجبوا يا إخوتي إن كان العالم
يبغضكم».

١٦ : ٢٤ «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا
١ يو ١ : ٤ «ونكتب إليكم هذا لكي يكون
تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً».

١٦ : ٣٣ «ثقوا أنا قد غلبت العالم».
١ يو ٥ : ٤ «هذه هي الغلبة التي تغلب العالم
إيماناً».

٢٠ : ٣١ «وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع
هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم،
١ يو ٥ : ١٣ «كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنون باسم
حياة باسمه».
ابن الله لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي
تؤمنوا باسم ابن الله».

كذلك نقدم على التوازي مجمل التعاليم التي قدمها القديس يوحنا في بداية إنجيله وهي من تأليفه
في مقابل ما جاء في رسالته الأولى:

الرسالة

١ : ١ «الذي كان من البدء... من جهة كلمة
الحياة».

١ : ٢ «... ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت
عند الآب».

١ : ٩ «كان النور الحقيقي... آتياً إلى العالم».
٢ : ٨ «إن الظلمة قد مضت والنور الحقيقي الآن
يضيء».

الإنجيل

١ : ١ «في البدء كان الكلمة...
وكان الكلمة الله».

١ : ١٢ «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً ٣ : ٢١ «أنظروا أية محبة أعطأنا الآب حتى أن يصيروا أولاد الله» .
نُدعى أولاد الله... أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله» .

١٢ : ١ «... أي المؤمنون باسمه» .
٥ : ١٣ «أنتم المؤمنين باسم ابن الله» .

١٣ : ١ «الذين وُلدوا ... من الله» .
٥ : ١٦ «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله» .

١٤ : ١ «والكلمة صار جسداً وحل بيننا» .
٤ : ٢ «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله» .

١٤ : ١ «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» .
١ : ١ «الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه» .

١٨ : ١ «الله لم يَرَهُ أحد قط» .
٤ : ١٢ «الله لم ينظره أحد قط» .

هذا التطابق بين رسالة القديس يوحنا الأولى وبين إنجيله، بل وهذا الإنضباط في المعنى البالغ الدقة والصحة، والذي نجده في رسالته التي كتبها مبكراً جداً عن إنجيله، يشهد بلا نزاع أنه كان يحمل كل تعاليم إنجيله بين ضلوعه قبل أن يضع إنجيله. كما يتضح لدى القارئ أننا أمام معلم رسولي عالي القدر والقدرة لم يحد عن الحظ الرسولي في تعليمه أو في إنجيله، بل ارتفع به إلى القمة!!

الفصل الثاني

العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا

يلاحظ القارئ في إنجيل يوحنا ألفاظاً واصطلاحات تُستخدم في الأسفار الرؤيوية، وبالأخص سفر دانيال وكذلك سفر الرؤيا مثل:

١ - اسم «ابن الإنسان» واسم «المسيح»، وهما الإسمان المحبوبان اللذان كانا دائماً على لسان المسيح.

٢ - كذلك تعبير «ملكوت الله»، و«ملكوت المسيح»، ويجمعها بالنهاية في قوله: «ولكن الآن ليست مملكتي من هنا.» (يو: ١٨: ٣٦)

٣ - كذلك يذكر إنجيل يوحنا «قيامه الأجساد من القبور» (يو: ١١ و ٢٨: ٤٣)، وبعدها يذكر الدينونة (٢٩: ٥) سواء للذين فعلوا الصالحات أو للذين فعلوا السيئات. وهذا التعبير ورد بنفس التعبير في رؤيا دانيال ١٢: ٢٢. ثم يطوّر مفهوم القيامة ومفهوم الدينونة ويجعلها من أفعال الحاضر الزمني (يو: ٢٥ و ٢٤: ١١ و ٢٤-٢٦ و ٣١: ١٢)؛ وهذا يوضح أن الخط الرؤيوي يغلب على روح الإنجيل.

٤ - كما يذكر الإنجيل أن «ابن الإنسان» هو الذي سيدين، وهذا تعبير رؤيوي (يو: ٢٧). هذا يمهّد الذهن لقبول العلاقة بين كاتب الإنجيل وكاتب سفر الرؤيا.

ويُعتبر سفر الرؤيا من حيث المذهب التعليمي وسيطاً بين الثلاثة الأناجيل الأولى وإنجيل يوحنا، ويكوّن حلقة اتصال بينها.

والأفكار التي تضع الخطوط الأساسية في إنجيل يوحنا نجدتها واردة بصورة ما في سفر الرؤيا، ولكنها صورة متطورة من تعاليم الرسل في عصرها الأول. وقد نشأت إثر الظروف القاسية التي

دخلت فيها الكنيسة بعد خراب أورشليم والهيكل ووقوع الكنيسة في اضطهاد ظالم من روما، بعد أن أخذت بذنب اليهود دون تفریق .

وبالرغم من ذلك، فإن سفر الرؤيا ينسجم عن قرب مع إنجيل يوحنا في التعاليم وترتيب الأفكار حتى أنه يُظهر سفر الرؤيا كأنه البذرة التي انطلق منها إنجيل يوحنا بطبيعة التقدم الذي تفرضه الحياة الروحية في الكنيسة .

نقاط التلاقي بين سفر الرؤيا وإنجيل القديس يوحنا:

إن نقاط التلاقي بين السفرين هي أكثر كثيراً مما يظن القارئ العادي لأول وهلة . فالفكرة الرئيسية فيها كليهما واحدة!!

١ - فكل منها يقدم صورة للصراع الهائل بين قوى الخير والصلاح وقوى الشر الهدامة . ولكن في إنجيل يوحنا يُصاغ هذا الصراع على أساس أخلاقي ومُدرَكات واضحة لاهوتية؛ أما في سفر الرؤيا فيقدم نفس الصراع إنما في مناظر وصور رمزية .

إنجيل يوحنا يصيغ القوى المتصارعة في مسمياتها المطلقة، كالنور والظلمة والحياة والموت والمحبة والبغضة والحرية والعبودية .

أما سفر الرؤيا فيقدمها في أشخاصها: الله والمسيح والملكوت والكنيسة في مقابل الشيطان والوحش والنبي الكذاب .

ولكن الشخصية المركزية في كلا السفرين هي المسيح، الذي حينما يبلغ نصرته النهائية ينتهي التاريخ وتبلغ المناظر أوجَ كما لها . أما النصره فتتعدد على شخص المسيح أولاً ثم أعماله . ولكن هذه النصره الحقيقية تبدو دائماً في هيئة خذلان ظاهري: ألم، ذبح، دم، صليب، موت:

« هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة، وقد غسلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم في دم الخروف . » (رؤ:٧:١٤)

« وهم غلبوه بدم الخروف وبكلمة شهادتهم ولم يجبوا حياتهم حتى الموت . » (رؤ:١٢:١١)

« ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض . الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه . » (رؤ:١:٦و٥)

— «وستنظره كل عين والذين طعنوه وينوح عليه جميع قبائل الأرض. نعم آمين.»
(رؤ: ٧)

— «لأنك دُججت واشتريتنا لله بدمك.» (رؤ: ٩)

— «مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والعنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة.» (رؤ: ١٢)

وفي كلا السفرين يكون ظهور مجد المسيح واستعلان قدرته وسلطانه من بعد امتحان وأزمة عنيفة ومحكمة: «فلم يستطع أحد في السماء ولا على الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح السفر ولا أن ينظر إليه (سفر خطايا العالم والقضايا المرفوعة من الشيطان ضد خطاة الأرض). فصرت أنا أبكي كثيراً لأنه لم يوجد أحد مستحقاً أن يفتح السفر ويقرأه ولا أن ينظر إليه. فقال لي واحد من الشيوخ: لا تَبْكُ، هوذا قد غَلَبَ (على الصليب) الأسدُ الذي من سبط يهوذا، أصلُ داود، ليفتح السفر ويفكَّ ختومه السبعة.» (رؤ: ٥-٣)

ويضطلع سفر الرؤيا بشرح تاريخي مثالي يحلل فيه المجري المأساوي لعدم الإيمان ومقاومة الحق حتى الموت، الذي يوازيه في إنجيل يوحنا مجمل الأصحاح الثامن، والذي ينتهي بالحقيقة السافرة لعدم إيمان اليهود ومقاومتهم وبغضتهم الشنيعة للمسيح حتى تدبير القتل: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذلك كان قتالاً للناس من البدء» (يو: ٨: ٤٤)؛ في مقابل سفر الرؤيا: «والتين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولدها متى وُلدت. فولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصاً من حديد واختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه.» (رؤ: ١٢: ٥٤)

كذلك وبوضوح سافر: «أنا أعرف أعمالك وضيقتك وفقرتك مع أنك غني. وتجديف القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.» (رؤ: ٢: ٩)

— «هأنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون، هأنذا أصيرهم يأتون ويسجدون أمام رجلك ويعرفون أنني أنا أحببتك.» (رؤ: ٣: ٩)

كذلك في كلا السفرين يعاني المؤمنون مرارة الإضطهاد والتشريد ولا متقد، إلا بالتمسك بالإيمان وحفظ شهادة المسيح ووصاياه حتى الموت؛ ففي إنجيل يوحنا نقراً:

— «سُيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْجَامِعِ، بَلْ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يَقْدُمُ خِدْمَةَ اللَّهِ.»
(يو:١٦:٢)

— «إِنْ كَانَ الْعَالَمُ يَبْغِضُكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَنِي قَبْلَكُمْ... إِنْ كَانُوا قَدْ اضْطَهَدُونِي فَسَيُضْطَهَدُونَكُمْ.» (يو:١٥:١٨ و٢٠)

— «اثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي. إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي.» (يو:١٥:١٠ و٩)

— «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ وَلَكِنْ حَزْنُكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ... فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ عِنْدَكُمْ الْآنَ حُزْنٌ وَلَكِنْ سَأُرَاكُمْ أَيْضاً فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَلَا يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرْحَكُمْ مِنْكُمْ.» (يو:١٦:٢٠ و٢٢)

وفي مقابل ذلك نقرأ في سفر الرؤيا:

— «فَغَضِبَ التَّنِينَ عَلَى الْمَرْأَةِ (الْكَنِيسَةِ) وَذَهَبَ لِيَصْنَعَ حَرْباً مَعَ بَاقِي نَسْلِهَا الَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَصَايَا اللَّهِ وَعِنْدَهُمْ شَهَادَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.» (رؤ:١٢:١٧)

— «هنا صبر القديسين هنا الذين يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع.» (رؤ:١٤:١٢)

— «أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك وأنت لا تقدر أن تحتمل الأشرار وقد جرّبت القائلين أنهم رسل وليسوا رسلاً فوجدتهم كاذبين وقد احتملت، ولك صبر، وتعبت من أجل اسمي ولم تكِلْ...»

لا تخف البتة مما أنت عتيد أن تتألم به. هوذا إبليس مزعم أن يلقي بعضاً منكم في السجن لكي تُجَرَّبُوا ويكون لكم ضيق... كن أميناً إلى الموت... أنا عارف أعمالك وأين تسكن حيث كرسي الشيطان وأنت متمسك باسمي ولم تنكر إيماني... من يغلب فسأعطيه أن يأكل من المن الخفي وأعطيه حصاة بيضاء وعلى الحصاة اسم جديد.» (رؤ:٢:٢ و٣ و١٠ و١٣ و١٧)

٢ — وسفر الرؤيا كالإنجيل لا يفقل فيها القديس يوحنا الخصوصية التي لليهود الذين ابتدأ منهم الخلاص للعالم كله «لأن الخلاص هو من اليهود» (يو:٤:٢٢). ولكن ينتهي الخلاص لعمومية العالم كله: «هوذا يأتي مع السحاب وستنظره كل عين، والذين طعنوه (اليهود)، وينوح عليه جميع قبائل الأرض» (رؤ:٧:١)؛ «فحدثت أصوات عظيمة في السماء قائلة قد صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه فسيملك إلى أبد الأبدين» (رؤ:١١:١٥)؛ «وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وملكه وسلطان مسيحه.» (رؤ:١٢:١٠)

٣ - والملاحظ أن كلاً من إنجيل يوحنا وسفر الرؤيا موثَّق ومختوم بالشهادة، ليكونا على مستوى العمومية. وهي شهادة متعددة السلطة والسلطان، وعلى رأسها شهادة الرب يسوع نفسه لضمان خلاص كل من يتمسك بالمسيح والإنعتاق من غضب الله وهلاك الموت، الأمر الذي كَفَّله كلُّ من الإنجيل وسفر الرؤيا بسخاء!

فنقرأ في مستهل سفر الرؤيا هكذا:

— «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبيده ما لا بد أن يكون عن قريب ويبيته مُرسلاً بيد ملاكه لعبيده يوحنا، الذي شهد بكلمة الله — وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه.» (رؤ١:١٠١)

— «كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح.» (رؤ١:٩)

— «اسجد لله، فإن شهادة يسوع هي روح النبوة.» (رؤ١٩:١٠)

أما إنجيل يوحنا فروح الشهادة فيه تغطي الإنجيل كله.

٤ - وفي سفر الرؤيا نرى أن التركيز على بشرية المسيح مع الشهادة «شهادة يسوع»، وهذا ما اختصره الإنجيل في الآية: «والكلمة صار جسداً» (يو١٤:١٤)، يرتقي أيضاً إلى الإستعلان الصريح لنبوة المسيح لله: «هذا يقوله ابن الله» (رؤ١٨:٢٠ — أنظر أيضاً رؤ٢٧:٢٧ و٣:٥). ثم من إعطائه «المجد والسلطان» للمسيح (رؤ٥:١٣) على مستوى الله، جنباً إلى جنب مع «الجالس على العرش»، ينكشف شخص المسيح كما جاء في الإنجيل: «أنا والآب واحد.» (يو١٠:٣٠)

٥ - ومن روح سفر الرؤيا التي تتعلق بتجسد المسيح وظهوره الإنساني، تنبثق العلاقة القوية بين سفر الرؤيا وإنجيل يوحنا والتي تقوم على تنازل الله وسكناه مع الإنسان، كدليل مباشر على نجاح المسيح في أداء رسالة الفداء والمصالحة النهائية مع الله.

فكما نقرأ في إنجيل يوحنا: «أجاب يسوع وقال له إن أحببني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يو١٤:٢٣)؛ يرد عليه سفر الرؤيا بمطابقة فريدة: «هأنذا واقف على الباب وأقرع (القلوب المُحِبَّة) إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ٣:٢٠)؛ «وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم.» (رؤ٢١:٣)

مقارنة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا:

بقدر ما يوجد بين السفرين من تطابق في الأفكار الهامة التي تحكم مسار المحتوى كله، إلا أنه توجد أيضاً مواضيع مواجهة عامة بين الإثنين نلخصها كالآتي:

١ - **موضوع المجيء الثاني:** في سفر الرؤيا نجد هو الموضوع الرئيسي، ولكن في إنجيل يوحنا لا يضعه في الوضع الرئيسي، بل يتلامس معه دون تركيز.

٢ - **الدينونة:** بقدر وضوح موضوع المجيء الثاني العلني في سفر الرؤيا، كذلك الدينونة، في حين أن إنجيل يوحنا يجعل من الدينونة عملاً روحياً حيث كل واحد يدين نفسه ويحاكمها على ضوء الإنجيل: «من ردائي ولم يقبل كلامي فله من يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير» (يو ١٢: ٤٨). هذا بالنسبة لليوم الأخير، ولكن في مواضع أخرى يجعل الدينونة منفصلة عن الزمن: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو ٥: ٢٤)

أما في سفر الرؤيا فتأتي الدينونة واضحة: «ثم رأيت عرشاً عظيماً أبيض والجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء (انتهاء الزمن) ولم يوجد لها موضع، ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة، ودين الأموات مما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم. وسلّم البحر الأموات الذين فيه وسلّم الموت والهاوية الأموات الذين فيها ودينوا كل واحد بحسب أعماله.» (رؤ ٢٠: ١١-١٣)

٣ - **منظر الختام** في سفر الرؤيا سماء جديدة وأرض جديدة، أي تجديد العالم؛ في حين نجد إنجيل يوحنا يجعل الختام «في بيت أبي منازل كثيرة» (يو ١٤: ٢). فلو انتبهنا لقول المسيح على الهيكل «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة...» (يو ٢: ١٦)، ثم قوله أيضاً على الهيكل: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه» (يو ٢: ١٩)، ثم التفسير الذي انتهى إليه التلاميذ لما قال المسيح: «وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو ٢: ٢١)، من هذا نستطيع أن نفهم أن «في بيت أبي منازل كثيرة» تعني الكنيسة السماوية، أي جسده، وحيث «المنازل» هي مقام كل عضو في جسد المسيح السري!

٤ - **النصرة والتغيير النهائي** في سفر الرؤيا نراها من الخارج، وبالقوة، وفي مضمون المستقبل الزمني ومصوّران بتصوير مادي، في حين يقدم إنجيل يوحنا النصر والتغيير اللذين يمارسهما المؤمن في الداخل بالروح وبتأثير روحي. وهما يتمان في الحاضر، حيث الحاضر الإلهي في المسيح هو استعلان

المستقبل بعينه، أي بمعنى آخر أن الخلاص والتغيير ونوال الحياة الأبدية كل هذا يتم منفصلاً عن الزمن.

٥ - الصراع بين الخير والشر: في سفر الرؤيا يمثل بمناظر عديدة، كمعركة مهولة بين المسيح وبين اليهودية الكاذبة، وعبادة الأوثان، والسلطة الرومانية الإمبراطورية المضطهدة، وكل حليف لها أو خليفة، كذلك وبالأكثر مع النبوة الكاذبة. في حين يقدمه إنجيل يوحنا على حقيقته كصدام خفي ولكن دائم بين النور والظلمة، وبين الحق والباطل، وبين البر والخطية.

٦ - أدوات الشر والباطل: في سفر الرؤيا وحوش وتنانين ذات مناظر مفزعة وكأنها أرواح متجسدة منظورة. في حين يقدمها الإنجيل في إطار روح التزييف، وتعاليم فاسدة، وشهوات الشر الداخلية.

٧ - أعمال الله: يقدمها سفر الرؤيا كحياة ملؤها الأحران والتعب، تتخللها الإنجازات والصراخ ليتدخل الله بالنقمة ويعطي النصر والسلام الدائم. في حين يقدم إنجيل يوحنا أعمال الله كلها متركرة في شخص المسيح، ومتعلقة به أساساً و كلياً، الذي عندما يفتقد قلب أحبائه بحضوره الإلهي يملأ الحياة فرحاً وسروراً ونعيماً في وسط أحران الدنيا دون أن يتأثروا بها.

٨ - شكل المسيحية وطبيعتها:

أ - إذا نظرناها في سفر الرؤيا بمنظار يهودي متنصر، أي من خلال جوزمانها، فإننا نرى الكنيسة بالخيال اليهودي الذي كان يشتهي أن يرى ويعيش زمن المسيا. فالكنيسة هي التكميل الضمني لنبوات العهد القديم، وخطوطها العريضة في العالم كمثل إسرائيل الجديدة النموذجية الشاملة للعالم: «وسمعت عدد المحتومين مئة وأربعة وأربعين ألفاً محتومين من كل سبط من بني إسرائيل...» (رؤ:٧:٤)

وفيها أورشليم الجديدة، وهيكلها الإلهي، عوض ما خربه الرومان: «مَنْ يَغْلِبْ، فَسَأَجْعَلُهُ عَمُوداً فِي هَيْكَلِ إِلهِي وَلَا يَعُودُ يَخْرُجُ إِلَى خَارِجِ (الطرد من المجمع)، وَأَكْتُبُ عَلَيْهِ اسْمَ إِلهِي وَاسْمَ مَدِينَةِ إِلهِي أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ إِلهِي وَاسْمِي الْجَدِيدِ.» (رؤ:٣:١٢)

— «لَمْ أَرَفِهَا هَيْكَلًا.» (رؤ:٢١:٢٢)

أما العبادة فهي على مستوى الطهارة بالفكر اليهودي: «لأن خارجاً الكلاب (النجاسة) والسحرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان وكل من يحب ويصنع كذباً... ولا تكون لعنة في ما بعد.

وعرش الله والخروف يكون فيها وعبيده يخدمونه.» (رو ٢٢: ١٥ و ٣)

ب — فإذا رجعنا إلى إنجيل يوحنا ونظرنا إلى المسيحية فيه بنظرٍ مسيحي صافٍ أي من خلال رؤية المؤمنين في زمان كتابة الإنجيل (سنة ١٠٠ م)، فالمسيحية يُنادى بها باعتبارها الحق المكمل الخالص؛ حيث تظهر اليهودية كعدوٍ مقاوم لكلمة المسيح في العالم، كذلك تظهر معزولة عن المسيحية تماماً وخارجاً عنها، متعمّنة، لا يُحسب لها حساب: «أجابوا (اليهود) وقالوا له أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع... أنتم من أب هو إبليس.» (يو ٨: ٣٩ و ٤٤)

٩ — النظرة إلى الله والتعبير عنه:

في سفر الرؤيا يُنظر إلى الله بنفس نظرة العهد القديم، فهو «القادر على كل شيء (الكلي القدرة)» (رؤ ٨: ١)، «الكائن والذي كان» (رؤ ٨: ١ و ١١: ١٧)، والذي يتمم دينونة عادلة على كل العالم (رؤ ١١: ١٨).

ولكن لا يذكر السفر شيئاً قط عن محبة الله، وإرساله لابنه، ولكنه يذكر الروح والكنيسة: «الروح والعروس يقولان تعال» (رؤ ٢٢: ١٧).

في حين يستعلن إنجيل يوحنا الله في صفاته الجوهرية كآب وابن، ويستعلن عمل الله الآب فيما يخص محبته للعالم الخاطيء، كما يستعلن صلته السرية الدائمة بالعالم وغرضه من وجود العالم وخطة الخلاص العظمى التي أضمرها الله منذ قبل إنشاء العالم. ويذكر الروح القدس بأسمائه وأعماله المتعددة.

١٠ — كما يوجد بين السفرين نقاط اختلاف واضحة في اللغة، سواء في الكلمات أو في الأسلوب. لذلك فالإختلاف بين وجهات النظر تزداد مع اختلاف اللغة.

ويلاحظ أن عدم انتظام الأسلوب في سفر الرؤيا لا يُنسب كثيراً للجهل باللغة، بقدر ما يُنسب إلى عدم التدقيق في اختيار الألفاظ. ويُعزى ذلك للغرائب والمفازع التي رآها القديس يوحنا، وفي نفس الوقت لا ننسى أن الكاتب يكتب بلغة غريبة عليه.

على أنه يمكن اعتبار إمكانية التغيير إلى أفضل، إذا وضعنا في الحسبان فارق الزمن الطويل منذ بدأ الكاتب يخاطب القوم الذين يكتب بلغتهم؛ ونقص الزمن من كتابة سفر الرؤيا إلى كتابة إنجيل يوحنا، بمعنى أن القديس يوحنا أتقن اللغة اليونانية بعد ما مكث في أفسس ما يزيد على ثلاثين سنة! لأن كتابة سفر الرؤيا تمت بحسب حسابات العلماء بعد خراب أورشليم والهيكل سنة

١٧٠م، وإنجيل يوحنا كما علمنا تم حوالي سنة ١٠٠م.

وبالرغم من أن كثيرين من العلماء يقطعون بعدم نسبة سفر الرؤيا للقديس يوحنا بصورة جازمة، يقف بعض من أشهر وألمع العلماء مثل «و. بوسيت» W. Bousset الذي كتب أعظم تفسير لسفر الرؤيا باللغة الألمانية، وكذلك «ر. هـ. تشارلز» R.H. Charles الذي كتب مجلدين في حلقة I.C.C. للشرح باللغة الإنجليزية ويعتبر أكمل شرح ظهر في هذا الموضوع. وكلا المؤلفين يؤكدان أنه بالرغم من الاختلافات ذات القيمة في الأسلوب والمحتوى التي توحى باختلاف المؤلف في كل من الإنجيل وسفر الرؤيا، إلا أن التشابه بينهما في الجمل والتعاليم تُظهر أن هناك بالقطع علاقة كبيرة بين نفس كاتب الإنجيل وكاتب سفر الرؤيا^(١).

ويقدّم العالم الألماني المشهور «جوهانس فايز» نظريته التي تقول إن كتابة سفر الرؤيا والرسائل والإنجيل تمت من وسط حلقة خاصة بنفس الكتاب في نفس المكان ونفس الزمان تقريباً، ولها نفس التركيب الواحد!

هذه هي باختصار شديد نقاط الإتفاق والاختلاف بين سفر الرؤيا وإنجيل يوحنا. ولكن هذه النقاط في الاختلاف والوفاق يمكن استقراء نتائج لها:

أ — فالاختلافات بين السفرين إنما تُعزى إلى اختلاف في ظروف كتابة كل منهما. على أنه لا يوجد ثمة تناقض بينها ما يمس شخصية الكاتب، أي أن الاختلاف ليس بالدرجة التي تنتهي بنا إلى القطع باختلاف شخصية الكاتبين. علماً بأن الكنيسة القبطية تؤمن أن كاتب سفر الرؤيا هو القديس الرسول يوحنا بن زبدي.

ب — بدراسة محتوى السفرين، يتضح أن كتابة سفر الرؤيا أقدم من كتابة إنجيل يوحنا، وهي أقل وضوحاً وأقل ترتيباً سواء في الفكر أو الأسلوب. ولكن موضوع سفر الرؤيا يحمل أفكاراً تقدمية عن زمن كتابة الأناجيل الثلاثة الأولى سواء في أسلوب الشرح أو الرموز الحية.

ومن المؤكد أن سفر الرؤيا كُتب بعد أن ختم القديس بولس الرسول رسائله، بل بعد استشهاده الحزين مع القديس بطرس الرسول.

كما نلاحظ أن سفر الرؤيا قريب من الرسالة إلى العبرانيين ورسالتَي بطرس الرسول ورسالة يهوذا، التي فيها لا تزال المسيحية ماسكة بتلايب العهد القديم.

¹ Howard, W.F., op. cit., p. 14.

وأخيراً، وبينما نجد سفر الرؤيا يلخّ على سرعة مجيء الرب، كرسالتي بطرس الرسول، وذلك بسبب عنف الإضطهاد والضغط الذي كان واقعاً على الكنيسة آنئذ، نجد أن مجيء الرب في إنجيل يوحنا له معنىً روحي واقعي في الحاضر المُعاش الآن. لهذا فإن إنجيل يوحنا يُعتبر أنه بمثابة الردّ الروحي على صراخ سفر الرؤيا. فمادة إنجيل يوحنا صقلتها السنين، وأضاءت لها الحوادث، فازدادت ثراءً وواقعية روحية بمرور الزمن.

وكان ضياع مركز الديانة اليهودية بتحطيم أورشليم والهيكل وتشريد اليهود، هو البداية الحاسمة المتألفة التي رسّخت أقدام المسيحية، وسار بها الروح على دروب العالم الواسع يرشد أقدام الرسل أينما ساروا إلى الحق كل الحق حسب الوعد.

وهكذا يقع سفر الرؤيا كحلقة ربط بين الأنجيل الثلاثة وإنجيل يوحنا، فتعاليم سفر الرؤيا عن المسيح وأعماله تُظهر نوع التقدم في الإستعلان الذي سار فيه السفر بعد الأنجيل الثلاثة. ومن الأوصاف الآتية يتضح للقارئ مدى التقدم في التعبير عن صفات المسيح وأعماله:

+ الأسد الغالب من سبط يهوذا، أصل وذُرِّيَّة داود، كوكب الصبح المنير: رؤو: ٥، رؤو: ٢٢: ١٦.

+ دُبج، مصلوب، مطعون، قام حيّاً من الأموات: رؤو: ١١: ٨ و ٥: ٩ و ١: ٧ و ١: ٥.

+ غسلنا بدمه من خطايانا، اشترانا بدمه لله: رؤو: ٥: ٥ و ٩: ٩.

+ أعطانا الغلبة بدمه: رؤو: ١٢: ١١.

+ رُفِع في مجد وكرامة، وأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة: رؤو: ١٢: ١٢.

+ شهادته هي روح النبوة: رؤو: ١٩: ١٠.

+ رئيس كهنة متمنطق على صدره: رؤو: ١٢: ١٢.

+ «ابن الله»، «كما أخذت أنا أيضاً من عند أبي» رؤو: ١٨: ٢ و ٢٧: ٢ و ٣: ٥.

+ ابن الإنسان: رؤو: ١٢: ١٢.

+ القدوس الحق: رؤو: ٣: ٧.

+ كلمة الله: رؤو: ١٩: ١٣.

+ ملك الملوك ورب الأرباب: رؤو: ١٧: ١٤.

+ الأجناد التي في السماوات يتبعونه (رب الجنود): رؤو: ١٩: ١٤.

+ الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر: رؤو: ٨: ١ و ١٧: ١٧.

+ قائم مع الله في المجد والكرامة والسلطان: رؤو: ٥: ١٣.

+ صارت له مع الله كل ممالك العالم، وسيملك إلى أبد الأبدين: رؤى: ١١: ١٥.

وهكذا يلاحظ القارئ أن سفر الرؤيا يعطي المسيح كل ألقاب الله في العهد القديم. وفي الوقت الذي تخلو فيه الثلاثة الأناجيل من أي ذكر للمسيح قبل تجسده، نجد سفر الرؤيا يعطي تلميحات بخصوص وجوده السابق للتجسد، فيصف المسيح:

١ - بالألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر: ٨: ١ و ١٧: ١.

٢ - الكائن والذي كان والذي يأتي، القادر على كل شيء: ٨: ١.

٣ - بداء خلقه الله (العلة الأولى للخلق): ١٤: ٣.

٤ - كلمة الله: ١٩: ١٣.

وهذه هي الإرهاصات الأولى التي وُضعت خطوط إنجيل يوحنا على ضوءها. فالقدس يوحنا سمع بأذنه اسم ابن الله «الكلمة»، فلم يأخذها من غنوسيين أو غيرهم. وهكذا نتحسس بداية معرفة «الوَعَس»، ولكن في غلاف من مفهومات وألقاب العهد القديم الخاصة بالله وحده. فإذا كان رسول ما قد استطاع أن يسمع ويرى «المعلم» الذي كان يتبعه كتلميذ بهذه الأوصاف كلها، ويُزيد عليها أنه رأى القوات السماوية تعطيه الخضوع والولاء والعبادة والسجود وتتبعه، فلا يوجد أية صعوبة في فهم كيف ارتفع هذا الرسول والتلميذ الرائي - دون أن يأخذ الفكر البشري بالعنف بل في هواده وتوذة روحية - ليرى الحقيقة في السر الأزلي الذي كان مخفياً، أي: «في البدء كان الكلمة... والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده»!! (يو: ١: ١٤ و ١٥)

وفي الختام، ومن دراسة الأناجيل الثلاثة وبعدها سفر الرؤيا ثم إنجيل يوحنا على التتابع، يظهر لنا بالتام كيف استطاع الوحي الإلهي أن يرتفع بالفكر البشري تحت الظروف المواتية والمتتالية لكي يصل إلى إعلان ملء مجد المسيح ابن الله، ليس مرة واحدة ولكن خطوة خطوة، مستعيناً بتعاليم الأنبياء: «لأننا لم نتبع خرافات مصنعة، إذ عرفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا معانين عظمته، لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سمعنا هذا الصوت مُقبلاً من السماء، إذ كنا معه في الجبل المقدس. وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبتت التي تفعلون حسناً إن انتهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم، إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم.» (٢ بط: ١٦: ١-١٩)

الفصل الثالث

العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى

ما هو الإنجيل وكيف نقرب إليه؟

«إنجيل» كلمة ليست عربية بل يونانية صرف: εὐαγγέλιον (إفانجيليون)، وهي من

مقطعين:

الأول — εὐ يعني سار أو مفرح.

والثاني من كلمة ἀγγελία وتعني خبر أو رسالة أو بشارة. فبادىء ذي بدء ينبغي أن نعلم أننا نتعامل مع إنجيل، أي مع الخبر السار أو البشارة المفرحة. فهو ليس مؤلف أدبي أو علمي أو تاريخي، بل رسالة خلاص مبهجة جاء بها المسيح معلناً عن كشف أو استعلان أو انفتاح طريق الخلود والحياة الأبدية وبدء زمان الأخرويات. «ما أجمل على الجبال قدمي المبشر المُخبر بالسلام، المبشر بالخبر، المُخبر بالخلاص، εὐαγγελιζόμενος، القائل لصهيون: قد مَلَكَ إِلَهُكَ» (إش ٥٢: ٧). فالمبشّر بالسلام وبالخلاص يقول: قد مَلَكَ الإله!

ويسوع المسيح الذي في الأناجيل الثلاثة بَشَّرَ بإنجيل الله: «وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول قد كَمُلَ الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مر ١: ١٤ و١٥). فالمسيح الذي بَشَّرَ بإنجيل «مُلِكِ الله»، استعلن في النهاية أنه هو هو «إنجيل الله» كما يراه ويعلم به القديس بولس:

«بولس عبداً ليسوع المسيح، المدعو رسولاً المُفَرَّزُ لإنجيل الله الذي سبق فوعده به بأنبيائه في

الكتب المقدسة عن ابنه...» (روا ١: ٢١)

وكما تراه الكنيسة وتعيشه، فإنجيلها هو ربنا يسوع المسيح، الألف والياء فيه! فالمناداة بالكلمة الشفهية عن استعلان الخلاص الذي تم في المسيح وبه، التي قالها المسيح عن نفسه، كُتبت بعد

ذلك في كتاب هو الإنجيل، مسجلاً فيه كل ما قال المسيح وعمل، وبالدرجة الأولى موته وقيامته، حتى يقبله الناس ويؤمنوا به فيخلصوا.

فإذا أقدم العلم والعلماء ليفحصوا «الإنجيل» على مستوى كلماته وتراكيبه وحروفه وأسلوبه الأدبي فقط، دون أن ينتبهوا لمحتواه الروحي الأساسي، يكون العلم والعلماء قد عثروا عثرة بليغة تكاد تكون مميتة في فهم الإنجيليين وقصدتهم الذي كتبوا من أجله الأناجيل.

فهل أقدم الإنجيليون على تسجيل أناجيلهم بقصد سرد رواية حياة يسوع الناصري كسفر أخبار أيام وأقوال وأعمال فقط؟ هذا ما توهمه العلماء النقاد، وكان هو الباب الخاطيء الذي دخلوا منه فتاهوا وهم يبحثون عن صحة التواريخ وأوليات الكلام وأواخره، وأشكاله ومصادره، ومعقولية الحوادث وتصنيفها، وإخضاعها للمقابلات بين هذا الإنجيل وذاك.

وهكذا عندما بدأت المقارنات بين الأناجيل على المستوى التاريخي والحرفي واللفظي، ظهر في الحال إنجيل يوحنا أنه مخالف لبقية الأناجيل الثلاثة، فابتدأت تسلط عليه أضواء النقاد؛ واصطدموا حتماً، وبالضرورة، بالمفارقات والمتضادات بين إنجيل يوحنا والثلاثة الأناجيل لأنهم سقطوا تحت مقتل الحرف: «الحرف يقتل» (٢ كو ٣: ٦)، وأما الروح فقلت من بين أيديهم وعقولهم المتصارعة مع الحق الإلهي المحتبىء وراء الحرف المكتوب. وهكذا انطمست معالم التركيب الروحي العميق في الإنجيل أمام عقولهم، ليس في إنجيل يوحنا فحسب بل وكل الأناجيل.

تمايز إنجيل يوحنا عن الثلاثة الأناجيل الأخرى:

ليس من العسير على أي قارئ أن يلحظ الفارق في الرواية وإبراز شخصية المسيح، عندما يقرأ الأناجيل الثلاثة، ثم يدخل في قراءة إنجيل يوحنا.

فإنجيل يوحنا يوضّح، بما لا يدعو إلى الشك، أن المسيحية فيه قد بلغت مرحلتها المتقدمة في الفكر، وأن الكنيسة دخلت دوراً حاسماً في التاريخ. فقد انقضت ما يقرب من ٥٠ سنة بين كتابة الأناجيل الثلاثة وكتابة إنجيل يوحنا^(١).

هذه النظرة من نحو الأناجيل، وتفوق إنجيل يوحنا عليها، أمر ثابت في التقليد الآبائي في شرح إنجيل يوحنا. وفي هذا يقول القديس أغسطينوس:

[إن الأربعة الأناجيل، أو بالحري الأربعة الكتب التي للإنجيل الواحد؛ نرى فيها القديس

¹ Leon-Dufour, Xavier, The Gospel & History, p. 41.

يوحنا الرسول، ليس بعدم استحقاق من جهة معرفته الروحية يُمثّل بالنسر الذي ارتفع بتعاليمه أعلى وأكثر سموّاً من الثلاثة الأناجيل الأخرى. وارتفاعة بتعاليمه هذه (عظاته) رفع قلوبنا بالمثل. لأن الثلاثة الإنجيليين تمشوا مع الرب على مستوى الأرض كما مع إنسان، أما فيما يختص بلاهوته فلم يتكلموا إلا قليلاً. أما هذا الإنجيلي — يوحنا — فقد نأى عن الأرض والتشي فيها، إذ أَرعد علينا من عليّ منذ افتتاح حديثه، وحلّق مرتفعاً ليس فوق الأرض وكل دائرة الكون أرضاً وساءً؛ بل وفوق جيوش الملائكة وكل طغمات القوات غير المنظورة، حتى أتى إلى مَنْ خلق العالمين. [٢]

وبالرغم من أن التقليد الكنسي يؤكد أن القديس يوحنا كان على دراية بالأناجيل الثلاثة وكتب إنجيله على هذا الأساس، إلا أن رأي العلماء المشهورين والمقتدرين في أبحاث الكتاب المقدس ومن دول كثيرة، استقر على أن إنجيل يوحنا مستقلٌ تماماً عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، بمعنى أنه لم يأخذ عن إنجيل آخر، وإن كان على دراية حتمية بالتقليد الرسولي الذي استخدمته الأناجيل الأربعة على السواء.

ومن العلماء المعتدّ بهم حديثاً مَنْ قال إن إنجيل يوحنا أخذ من الأناجيل الأخرى، مثل العالم المشهور Barrett C.K.، وخاصة من إنجيل مرقس، لأن هناك عدة حوادث وأحاديث جاءت بنفس ترتيبها هنا وهناك. ولكن انبرى له العالم Leon Morris (٣) سنة ١٩٧١م عميد جامعة ملبورن بأستراليا، وفنّد أقواله وبراهينه وأضعفت من حججه، ونقد جدوله الذي تعب فيه طويلاً، وأثبت صحة رأي العلماء القائلين باستقلال إنجيل يوحنا تماماً.

ونحن نرى — وبحسب التقليد القبطي الذي يقول أن القديس يوحنا هو كاتب سفر الرؤيا وإنجيله — أن انفراد إنجيل يوحنا عن باقي الأناجيل هو بسبب استلامه أموراً أكثر استعلاناً، خاصة فيما استلمه مباشرة من المسيح في الرؤيا. ومَنْ يدري ماذا أخذ بعد الرؤيا؟ وكان يجب أن يكون هذا واضحاً ومعلوماً عند الجميع.

ونحن لا نريد أن نقارن أيضاً أو نوفّق بين الأربعة الأناجيل على مستوى الحرف، بل على مستوى الروح العميق.

2 St. August., Hom. on Gosp. of St. John, tract. XXXVI.

3 Morris, Leon, The Gosp. accord. to St. John, p. 51.

ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل، وما يقابله في إنجيل القديس يوحنا:
يأتى تشبيه ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل على شكل أمثلة من أمور الحياة الأرضية، فثلاً يُشبه ملكوت السموات بحبة خردل، أو بشبكة ألقيت في البحر، أو بقمح زرع وأخذ ينمو... إلخ. ثم ينتهي بنا إلى سؤال محير: وما هو ومن هو ملكوت الله؟

في إنجيل يوحنا يأتى بنفس التشبيه بعينه، ولكن ليس على «ملكوت الله» بل على «المسيح نفسه»!! فالمسيح يشبه نفسه بأمر الحياة الأرضية: «أنا هو الباب»، «أنا هو الطريق»، «أنا هو الكرمة»، أو يشبه نفسه بحبة الحنطة، التي وقعت لتموت ثم تقوم وتنمو لتأتى بشمر كثير!! (يو: ١٢: ٢٤). وواضح هنا أن إنجيل يوحنا يضع المسيح نفسه موضع ملكوت الله (٤) وبهذا يشرح ما هو ملكوت الله الذي ركزت عليه الثلاثة الأناجيل!!

وهنا فهمنا أن ملكوت الله هو امتلاك الله للإنسان، ودخول الإنسان في ملك الله، في شخص المسيح نفسه!!!

فتشبيه ملكوت الله بحبة خردل أخذت تنمو حتى صارت شجرة تتأوى فيها طيور السماء، هذا التشبيه وحده يحتاج إلى تفسير، فيأتى إنجيل يوحنا ويقول شارحاً ومُضيفاً الإستعلان الخفي في المثل، وهو المسيح نفسه! لأن حبة الخردل أو حبة الحنطة سيان، يتحتم أن تقع لتموت أولاً ثم تقوم. وهنا يضع المسيح نفسه موضع هذه الحبة، فيُصلب ويموت ويُدفن في الأرض، ويقوم كشجرة كبيرة أو كنيسة، يملك عليها الله، أو كرمة حقيقية ذات أغصان تتأوى فيها طيور السماء أي أبناء الله، يأويهم المسيح في حضنه، أو كأعضاء في جسده يرعاهم ويعولهم!

هكذا يستطيع إنجيل يوحنا أن يعطي التفسير لكافة الأمثال التي جاءت في الثلاثة الأناجيل، على أساس أن التشبيه يقوم بالنسبة لشخص المسيح نفسه — فالمسيح أعطى بحياته وموته وقيامته ما يكفي لشرح كل ما يخص الإنسان في الحاضر والمستقبل. وليس من الصعب بعد أن فك القديس يوحنا في إنجيله الرمز في المثل، أن يعود القارىء لشرح لنفسه كل أمثال المسيح.

بهذا يُعتبر إنجيل يوحنا — بسبب قوة الإستعلان الذاتي للمسيح فيه — شارحاً ومكتملاً لكل ما جاء في الثلاثة الأناجيل مكوّناً منها وحدة واحدة أو إنجيلاً واحداً. حتى إنه بدون إنجيل يوحنا، تبدو الثلاثة الأناجيل كسؤال يحتاج إلى حل!

(٤) وهذا يتفق تماماً مع سمة إنجيل يوحنا في تسليط الأضواء على شخص المسيح نفسه، في كل ما يتضمنه هذا الإنجيل من أحاديث وتعاليم ورموز ومعجزات. وقد سبق الإشارة إلى ذلك.

المسيح في الأربعة الأناجيل:

الثلاثة الاناجيل الأولى أبرزت المسيح في صورته البشرية، أي أنها ركزت على تأنُّس الإله، وطبعاً لم تُغفل لاهوته إذ هو مُعلن في سببونه وقيامته.

فجاء إنجيل يوحنا وأبرز المسيح في صورته الإلهية، أي أنه ركز على لاهوت المسيح ولم يُغفل الجسد أيضاً إذ أعلنه واضحاً: «والخلمة صار جسداً وحلَّ بيننا» (يو: ١٤)!!

ومن هذا الجدول البسيط الآتي لبعض المواقف يتبين، إلى حدِّ ما، هذه المقابلة المكتملة لبعضها:

إنجيل يوحنا

[التركيز على اللاهوت]

يو ١ : ١٤ و ١٥

الميلاد الأزلي أو البنوة الأزلية على الأصح:

«في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» ... «والكلمة صار جسداً».

يو ١ : ١٤ و ١٦

«وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجدداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً، ... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا. ونعمة فوق نعمة».

يو ٩ : ٣٥ و ٣٨

معجزة المولود أعمى:

«فضى واغتسل وأتى بصيراً... وقال له أتؤمن (بابن الله)» ... من هو يا سيد لأؤمن به؟ ... قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو. فقال أومن يا سيد، وسجد له».

الثلاثة الأناجيل

[التركيز على الصورة البشرية]

مت ١ : ١ و ١٨

،، ميلاد،، المسيح الجسدي:

+ «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود...»
+ «أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا...».

لو ٢ : ٥٢

«كان ،، يتقدم،، في الحكمة والقامه والعمه عند الله والس».

مت ٩ : ٢٧

معجزة الأعميين:

«تبعه أعميان يصرحان ويقولان: ارحنا يا ابن داود».

مت ١٢ : ٨-١

كسر السبت والتشبيه بدادود:

«فجاء تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل
ويأكلون. فالفريسيون ... قالوا ... لا يحل فعله في
السبت.
فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود...
فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً».

يو ٥ : ١٦-١٨

كسر السبت والتشبيه بالله الآب نفسه:

« كان اليهود يطردون يسوع ويطلبون أن يقتلوه لأنه
عمل هذا في السبت.
فأجابهم يسوع أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل ...
... لم ينقض السبت فقط بل قال أيضاً أن الله أبوه
معادلاً نفسه بالله».

مر ٦ : ١ ؛ مت ١٣ : ٥٤

وطن المسيح الأرضي:

«وخرج من هناك وجاء إلى وطنه وتبعه
تلاميذه».
«ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجامعهم».
«أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق؛ أنتم من هذا
العالم أما أنا فلست من هذا العالم».
«الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو
خبر».

يو ٨ : ٢٣ و ١٨ : ١ و ١٦ : ٢٨ و ٣ : ١٣

وطن المسيح السماوي:

«خرجت من عند الآب، وقد أتيت إلى العالم،
وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب».
«ليس أحداً صعد إلى السماء إلا الذي نزل من
السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء».

مت ٢٦ : ٣٦-٣٩

في مواجهة الصليب، مواجهة الجسد للموت:

«اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك... وابتدأ
يحزن ويكتئب. فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى
الموت... اسهروا معي... وخرّ على وجهه وكان
يصلي...».

يو ١٧ : ١ و ٤ و ٥ و ١٨ : ٤

في مواجهة الصليب، مواجهة اللاهوت للموت:

«أيها الآب قد أتت الساعة. مجد ابنك ليمجدك
ابنك أيضاً».
«أنا مجدتك على الأرض. العمل الذي أعطيتني
لأعمل قد أكملته. والآن مجدني أيها الآب عند
ذاتك بالمجد الذي كان لي عنده قبل كون
العالم».

«وخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه».

لو ٢٣ : ١١٥٤

أمام بيلاطس: مجرد إنسان محتقر:

«إني لا أجد علة في هذا الإنسان».

«فاحتقره هيرودس».

يو ١٨ : ٣٣-٣٧

أمام بيلاطس: ملك ومُلْكُه ليس من هذا العالم:

«ودعا يسوع وقال له أنت ملك اليهود؟...»

أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم!...»

فقال له بيلاطس أفأنت إذن ملك؟ ... أنت

تقول أني ملك. لهذا قد وُلِدْتُ أنا ولهذا قد أتيتُ

إلى العالم لأشهد للحق.

لو ٢٤ : ٤١ و٤٣ و٥١

بعد القيامة: تحقيق صحة الجسد:

«قال لهم أعنذكُم ههنا طعام؟... فأخذ وأكل

فدامهم».

«وأصعد إلى السماء».

يو ٢٠ : ٢٨ و١٧

بعد القيامة: تحقيق لاهوت المسيح:

«أجاب توما وقال له: ربي وإلهي...».

«إني أصعد إلى أبي».

من هذه المقابلة، يتضح بأجلى بيان مقدار تركيز إنجيل يوحنا على استعلان لاهوت المسيح في جميع المواقف وعلى كافة المستويات، وكأنه يشرح الأناجيل الثلاثة قولاً على قول؛ هم يشهدون على تأسس الإله وكيف سلك كواحد من بني البشر، ويوحنا يشهد للاهوته الفائق كإله يسكن بين بني البشر^(٥). لهذا لم يكن في منهج القديس يوحنا أن يوقِّع حياة المسيح تاريخياً على دقائق الزمان وثوابيه، لأنه كان مشغولاً باستعلان الأزلية فيما يخص المسيح في لاهوته وفي علوِّ مجده وأسراره، وبالنهاية انتهى إلى ما يقصده: «وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله!!» (يو: ٢٠: ٣١)

ولكي يأخذ القارئ فكرة خاطفة عن رؤية إنجيل يوحنا للمسيح اسمعه وهو يقول: «خرجتُ من عند الآب، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أتركُ العالم وأذهب إلى الآب»!! (يو: ١٦: ٢٨)

فبالرغم من الخروج والمجيء والذهاب على مستوى الحركة الزمنية والمكانية، التي هي قصة

(٥) ويعلق على هذا العالم K.E. Schäfer بقلم شناكبرج: [نحن نرى المسيح في إنجيل يوحنا من خلال شفافية واضحة، ... مثل الثلاثة الأناجيل أيضاً. والفكرة التي أعمت كثيرين من العلماء أن المسيح ظهر كإله فقط في إنجيل يوحنا وكأنسان فقط في الأناجيل الأخرى قد انتهت تماماً اليوم. وقد تأكدنا مرة أخرى أن مسيح الأناجيل الثلاثة حتى وفي إنجيل القديس مرقس هو أيضاً شخصية إلهية.] Cited by Schnack. op. cit. p. 14 n. 14.

الأناجيل الثلاثة المتحركة داخل إطار الزمن أي التاريخ، يبق المسيح كما هو في إنجيل يوحنا: «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب» (يو: ١٨: ١)، «ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو: ٣: ١٣). وكأما يتمجد الزمان إلى لحظة، ويتلاشى المكان من الرؤيا العينية، ليُستعلن المسيح ومكانته فوق الزمان والمكان – وبلغت سفر الرؤيا: «الكائن، والذي كان، والذي يأتي» (رؤ: ١: ٨)؛ «والحي، وكنتُ ميتاً، وها أنا حي إلى أمد الأبدين» (رؤ: ١: ١٨)

وهكذا نجد في الأناجيل الأربعة صورة للمسيح صحيحة متكاملة تماماً، ومن الأربعة الأناجيل يتكون منهج اللاهوت الكامل الذي دخلت فيه الكنيسة. مرت به ثلاثة مجامع مهيبه وثلاثة قرون طويلة مع جهاد الإيمان الدامي، خرجت بعدها باستعلان وحدة الناسوت واللاهوت فصارت الكنيسة بلاهوتها التوحيدى ضامنة وحدة الأناجيل الأربعة. مرت الأناجيل الأربعة ضامنة لكيان الكنيسة كمصدر لحياتها وبقائها.

ومن هنا وبالتالي، نرى التقليد الكنسي حارساً لصحة العقيدة ووحدة الأناجيل. فقد تسلمت الكنيسة القبطية من آباء الكنيسة العظام من بدء العديس اكليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، وهو تلميذ بنتينوس مدير المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية وقد خلفه عليها سنة ١٩٠م، تسلمت منه هذا التسجيل الهام الذي وصلنا عن طريق كتاب: «تاريخ كنيسة ليوسابوس القيصري»:

[وفي ذلك الوقت كان يوحنا الرسول والإنجيلي الذي كان يسوع يحبه، لا يزال حياً في آسيا يدير كنائس ذلك الإقليم، إذ كان قد عاد من منفاه في الجزيرة بعد موت دوميتيان. واكليمندس في كتابه المعنون: «كيف يتسنى للغني أن يخلص» يحدد الوقت الذي عاد فيه يوحنا من منفاه) قائلاً: «لقد عاد من جزيرة عظمتس إلى أفسس بعد موت الطاغية» (أي دوميتيان سنة ١٩٨م). [٦]

[وأيضاً يقدم اكليمندس تقليد الآباء الأولين عن ترتيب الإنجيل في الوجه التالي فيقول... وآخر الكل لما رأى يوحنا أن المظهر البشري τὰ σωματικόν قد استُوفي في الأناجيل (الثلاثة)، لذلك أَلَّف إنجيله الروحي πνευματικόν وذلك برجاء من ألبانه وباستئارة الروح القدس.] [٧]

٦ . . . seb. H. III, 1, 1.

٧ Ibid. VI 1: ٦-7.

وهكذا نرى كيف أن تاريخ الكنيسة يحفظ لنا تراثنا التعليمي سليماً من جهة الاتجاهات الروحية واللاهوتية في الأناجيل الأربعة. وهذا يقرره أخيراً العلماء بعد بحوث مستفيضة استمرت ما يقرب من قرن كامل من الزمان. فيقول العالم لايتفوت: [إن إنجيل يوحنا هو المفتاح الذي به نستطيع أن ندرس عليه الأناجيل الأخرى. لأن الرابطة بين إنجيل يوحنا وبقية الأناجيل الثلاثة هي رابطة تقليد واحد متكامل.]^(٨)

كما يُعتبر القديس أغسطينوس أقوى من دافع عن إنجيل يوحنا ووحدته مع الأناجيل الثلاثة الأخرى. وقد كانت تعاليمه ذات تأثير بليغ في كل العصور الوسطى^(٩).

أهم نقاط التلاقي والاختلاف بين إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى:

أما النقاط الأساسية التي تجمع بين نقاط التلاقي والاختلاف في إنجيل يوحنا مع الثلاثة الأناجيل الأخرى فيمكن أن نختصرها كالآتي:

أ - الأناجيل الأربعة يجمعها إطار واحد، يبدأ بمعمودية المسيح في الأردن وينتهي بالآلام والصلب والقيامة، حيث تُستعلن فيها اللحظة الحاسمة لإنفتاح الأبدية واستعلان الخلاص كأعظم حدث حمله التاريخ البشري الذي يكوّن المركز الحقيقي لقوة الإنجيل كما يصف ذلك سفر أعمال الرسل بمنتهى القوة والاختصار:

«أنتم تعلمون الأمر الذي صار في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل بعد المعمودية التي كرز بها يوحنا. يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة، الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلّط عليهم إبليس، لأن الله كان معه. ونحن شهود بكل ما فعل في كورة اليهودية وفي أورشليم. الذي قتلوه معلّين إياه على خشبة. هذا أقامه الله في اليوم الثالث وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم. لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات. وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله دياناً للأحياء والأموات. له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا.»
(أع ١٠: ٣٧-٤٣)

ثم في أع ١٣: ٢٢-٣٢:

«... وأقام لهم داود ملكاً الذي شهد له أيضاً إذ قال: وجدتُ داود بن يسى رجلاً حسب قلبي الذي سيصنع كلَّ مشيئتي. من نسل هذا حسب الوعد أقام الله لإسرائيل مخلّصاً يسوع. إذ سبق

⁸ Lightfoot, R.H., St. John Gospel, pp. 26-42.

⁹ St. August., De Consensus Evang. 26.4.

يوحنا فركز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل. ولما صار يوحنا يكمل سعيه جعل يقول مَنْ تظنون أي أنا؟ لست أنا إياه. لكن هوذا يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن أحلّ حذاء قدميه. أيها الرجال الإخوة بني جنس إبراهيم والذين بينكم يتقون الله، إليكم أرسلت كلمة هذا الخلاص. لأن الساكنين في أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا. وأقوال الأنبياء التي تُقرأ كل سبت تمموها إذ حكموا عليه. ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت طلبوا من بيلاطس أن يقتل. ولما تمموا كل ما كُتب عنه أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبر. ولكن الله أقامه من الأموات. وظهر أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم الذين هم شهوده عند الشعب. ونحن نبشركم بالموعد الذي صار لأبائنا».

ب — الأناجيل اهتمت بتاريخ المسيح قبل تاريخ ميلاده. فالقديس متى والقديس لوقا اهتمتا بذكر النسل الذي انحدر منه. فالأول أوصله إلى إبراهيم أب الآباء لأنه كتب لليهود، والثاني أوصله إلى الله لأنه كتب للأمم أي كل العالم.

والقديس يوحنا تتبع ما قبل التاريخ، ميلاده في السجلات السماوية عينها. وهكذا اشتركت الأناجيل في تسليط الضوء على ما قبل الميلاد أي التجسد، كلٌّ من منظور رؤياه.

ج — المسار التاريخي المحقق والذي له القيمة الذاتية العظمى في الأناجيل الأربعة هو خط سير المسيح في كرازته من الجليل إلى أورشليم، الذي يقدمه كل إنجيل من زاوية لاهوتية معينة تعطي له الصبغة التقليدية الحقيقية التي تقوم عليها رواية الإنجيل. هذا المسار عينه يقدمه إنجيل يوحنا مع تركيز شديد حسب وجهة نظر لاهوتية غاية في الحكمة وعمق المعنى والأصالة، إذ يوضح في هذا المسار المرات العديدة التي صعد فيها إلى أورشليم لحضور كل الأعياد الرسمية، التي إذا توقعت على الزمن أشارت إلى ثلاث سنوات كاملة في الخدمة، وكانت هي الحكم الأعلى لحصر طول خدمة المسيح على الأرض. كما أوضحت، من جهة أخرى، القيمة الإلهية لبروز خدمة المسيح في أورشليم والهيكل التي سبق أن تركزت عليها كل النبوات بتكرار لا يمل.

د — طُبوغرافية الأناجيل الأربعة موزعة بالتساوي على جميعها ما عدا إنجيل يوحنا، إذ يقدم فوق التقليد الذي سارت عليه الثلاثة الأناجيل مواقع جديدة لمدن وقرى ومواقع وأسماء في فلسطين ذات أصالة وعراقة، حقق مصداقية أسمائها ومواقعها بكل دقة علماء الآثار والبرديات الحديثة، مما يشير إلى تقليد عريق ممتد قبل وبعد ما سجله الثلاثة الأناجيل. وهذا مجد ذاته أضاف إلى «الإنجيل»، ككل، مساحة جديدة لمعرفة أكثر وأدق تشمل التاريخ والجغرافيا وإضافات لحوادث وأعمال دخلت في حوزة الإنجيل ككل. ونلخصها في الآتي:

- ١ - بيت عَثْبَة عبر الأردن حيث كان المعمدان يعمد (٢٨:١)، (٤٠:١٠).
- ٢ - بيت صيدا باعتبارها الجديد أنها وطن بطرس وأندراوس وفيلبس (٤٤:١).
- ٣ - قانا الجليل حيث صنع الرب المعجزة الأولى (١:٢-١١)، كذلك معجزة شفاء خادم الملك (٤٦:٤-٥٤)، وباعتبارها وطن نشأته (٢:٢١).
- ٤ - عين نون بقرب سالم (٢٣:٣)، وهو موضع آخر من المواضع التي كان يعمد فيها المعمدان.

- ٥ - بئر يعقوب في السامرة، وكذلك سوخار (٤:١١ و٣٩).
- ٦ - بركة بيت حسدا والخمسة الأروقة في أورشليم (٢:٥).
- ٧ - مدينة طبرية على بحيرة جنيسارت (٦:٢٣ و١:٢١).
- ٨ - بركة سلوام في أورشليم (٩:١١ و١١).
- ٩ - أفرام في بيرية (١١:٥٤).
- ١٠ - جباثا أي الرصيف بقرب البريتوريم (١٧:١٩).
- ١١ - قبر المسيح في بستان (١٩:٤١ و٢٠:١٥).

هـ - أضاف إنجيل يوحنا إلى خدمة المسيح في الثلاثة الأناجيل جزءاً هاماً للغاية لم يُذكر في الثلاثة الأناجيل، وهي خدمته المبكرة في اليهودية قبل ظهوره في الجليل، حيث يذكر فيها حوادث دقيقة غاية في الأهمية:

- ١ - البعثة الرسمية التي أرسلتها السلطات الدينية من أورشليم لإستجواب يوحنا المعمدان (يو:١٩-٢٨).
- ٢ - وصف يوحنا المعمدان لشخصه ورسالته وشهادته للمسيح (١:٢٩-٣٤).
- ٣ - انضمام التلاميذ الأوائل للمسيح الذين انتقلوا من مدرسة يوحنا المعمدان ليلتحقوا بالمسيح، وذلك في (١:٣٥-٥١).
- ٤ - ذكر المعجزة الأولى في عرس قانا الجليل وإظهار مجده (١:٢-١١).
- ٥ - تطهير الهيكل في أورشليم في بداية خدمته (٢:١٣-٢٢).
- ٦ - الحديث مع نيقوديموس وتوضيح معنى المعمودية بالماء والروح ولزومها الحتمي (٣:١-١١).
- ٧ - ممارسة التلاميذ لعمل العماد في اليهودية (٣:٢٢-٣٠).
- ٨ - العودة إلى الجليل عبوراً بالسامرة (٤:١-٤٢).
- ٩ - المعجزة الثانية في قانا الجليل (٤:٤٦-٥٤).

وهذه الأعمال كلها كانت تهدف إلى توضيح أسس الإيمان واستعلان المسيح بالكلمة والآية.

و — خطاب الوداع بعد العشاء مجمله المطول الذي يشمل أسس العلاقات الوطيدة والحميمة مع أولاده ومحبيه، الذين أحبهم إلى المنتهى؛ حيث تتركز فيه كل الوصايا والنصائح التي جاءت متفرقة في الأناجيل الأخرى. ويلاحظ أن مادة حديث الوداع في إنجيل يوحنا تأتي روحية أخروية مطروحة للإيمان والممارسة، مع وعد أكيد بإرسال الروح القدس، وهي تقابل في المكان من رواية الإنجيل عامة حديث المسيح الخاص لتلاميذه في الثلاثة الأناجيل الأخرى عن علامات الأزمنة الأخيرة (الأخرويات) في صورتها الزمنية الأرضية وتكوين صورة لمجتمع التلاميذ بعد انطلاق الرب.

ز — صلاة المسيح بنبرة رئيس كهنة أعظم يتشفع وكأنه قائم في الأقداس العليا بهيئته الملكية؛ وهي مزدحمة بصور لاهوتية للعلائق التي تربط الآب بالإبن وبالكنيسة.

ح — تحويل خط المعجزات في الثلاثة الأناجيل من الصورة الإعجازية، كحوادث خارقة للعادة يُستدلُّ منها ضمناً أن أصبح الله فيها، إلى آيات في إنجيل يوحنا تشير بالتعليم الذي يرافقها إلى شخص المسيح لإستعلان لاهوته وإرسالته مباشرة. فالهدف واحد ولكن عرض المعجزات وشرحها يختلف. والاختلاف ينتهي إلى ائتلاف في النهاية لخدمة معنى الإنجيل.

ط — أخيراً، الأسرار التي حددتها الأناجيل بصورتها الليتورجية العملية المصوّرة بالحركة أخذها إنجيل يوحنا كما هي دون الناحية العملية، وشرحها على المستوى اللاهوتي.

التقابل بين إنجيل القديس يوحنا ،
وكل من إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس لوقا :

أولاً: التقابل بين إنجيل القديس يوحنا وإنجيل القديس مرقس: (١٠)
أ - التقابل في المواضيع والتحركات :

إنجيل القديس مرقس

إنجيل القديس يوحنا

| | |
|---------------------------|---|
| ٨-٤ : ١ | عمل المعمدان وشهادته : ١٩-٣٦ |
| ١٤ : ١ | مغادرة اليهودية والذهاب إلى الجليل : ٣-٤ |
| ٤٤-٣٤ : ٦ | إطعام الجموع : ١٣-١٦ |
| ٥٢-٤٥ : ٦ | السير على الماء : ١٦-٢١ |
| ٢٩ : ٨ | إعتراف بطرس : ٦٨-٦٩ |
| ٤٦ و ٣٢ و ١ : ١٠ و ٣٠ : ٩ | مغادرة الجليل نحو أورشليم : ٧-١٠-١٤ |
| ٩-٣ : ١٤ و ١٠-١ : ١١ | دخول أورشليم والدهن بالطيب : ١٢-١٥ |
| | و ١٢ : ١-٨ |
| ٢٦-١٧ : ١٤ | العشاء الأخير والتنبؤ بالتسليم : ١٣ : ١ و ١٧ : ٢٦ |
| ٥٢-٤٣ : ١٤ | القبض : ١٨ : ١-١١ |
| ٨ : ١٦-٥٣ : ١٤ | الآلام والقيامة : ١٨ : ١٢-٢٠ : ٢٩ |

ب - التقابل في الألفاظ التي باليونانية بصورة حرفية :

٢٧ : ١ : « هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي
٧ : ١ : « وكان يكرز قائلاً : يأتي بعدي من هو أقوى
مني الذي لست أهلاً أن أنحني وأحل سيور
الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه » .
حذائه » .

¹⁰ Barrett, C.K., The Gospel Acc. to St. John, pp. 34,35,36.

١: ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٤:

«أنا أعمد بجماء». «رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه». «فهذا هو الذي يعمدكم بالروح القدس». «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله». «الذي سررت به».

١: ٨ و ١٠ و ١١:

«أنا عمدتكم بالماء وأما هو فسيعمدكم بالروح عليه». «وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه. وكان صوت من السموات: أنت ابني الحبيب الذي سررت به».

٦: ٧ و ٩ و ١٠ و ١٣:

«أجابه فيلبس: لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً». «هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان». «عشبوهم أنتم ليأكلوا فقالوا له أتمضي ونبتاع خبزاً بمئتي دينار ونعطيهم ليأكلوا». «كم رغيماً عندكم. اذهبوا وانظروا ولما علموا قالوا خمسة وسمكتان». «إجعلوا الناس يتكئون وكان في المكان عشب كثير». «فجمعوا ومالوا اثنتي عشر قفة من الكسر من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين». «فأمرهم أن يجعلوا الجمع يتكئون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر». «ثم رفعوا من الكسر اثنتي عشر قفة مملوءة ومن السمك. وكان الذين أكلوا من الأرغفة نحو خمسة آلاف رجل».

٦: ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٣ و ٤٤:

«فأجابهم بطرس: ... ونحن قد آمننا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي».

٦: ٥٠:

«فقال لهم: أنا هو لا تخافوا».

٦: ٢٠:

«فقال لهم: أنا هو لا تخافوا».

٨: ٢٩:

«فأجاب سمعان بطرس: ... ونحن قد آمننا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي».

٦: ٦٨ و ٦٩:

«فأجاب سمعان بطرس: ... ونحن قد آمننا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي».

:١٣:١٢

«والذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون يصرخون: أوصنا مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل» .

:٣:١٢

«فأخذت مريم مناً من طيب ناردين خالص كثير الثمن، ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها» .
«وفيا هو في بيت عنيا في بيت سمعان الأبرص وهو متكئ، جاءت امرأة معها قارورة طيب ناردين خالص كثير الثمن فكسرت القارورة وسكبته على رأسه» .

:٥:١٢

«لماذا لم يُبَع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويُعطى للفقراء» .
«لأنه كان يمكن أن يباع هذا بأكثر من ثلثمائة دينار ويعطى للفقراء» .

:٨:١٢

«لأن الفقراء معكم في كل حين وأما أنا فلست معكم في كل حين» .
«لأن الفقراء معكم في كل حين ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيراً وأما أنا فلست معكم في كل حين» .

:٢١:١٣

«ولما قال يسوع هذا اضطرب بالروح وشهد وقال: الحق الحق أقول لكم أن واحداً منكم سيسلمني» .
«الحق أقول لكم أن واحداً منكم سيسلمني» .

:٣٨:١٣

«الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات» .
«الحق أقول لك إنك اليوم في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات» .

:١٠:١٨

:٤٧:١٤

«ثم أن سمعان بطرس كان معه سيف فاستله «فاستل واحد من الحاضرين السيف وضرب عبد وضرب عبيد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى. رئيس الكهنة فقطع أذنه». وكان اسم العبد ملخس».

:١٩:١٩

:٢٦:١٥

«وكتب بيلاطس عنواناً ووضعه على الصليب «وكان عنوان غلته مكتوباً ملك اليهود». وكان مكتوباً يسوع الناصري ملك اليهود».

وتعليق العالم شناكنبرج على هذا التوافق في المواضيع والمواضع، وفي الحوادث والأحداث في كل من إنجيل القديس مرقس والقديس يوحنا، وأيضاً في التشابه الحرفي واللفظي في الآيات، يقول إنه يُحتمل جداً أن يكون القديس يوحنا قد اطلع مباشرة على أقوال مختصرة من إنجيل مرقس وأعاد صياغة الكلام، أو ربما يكون قد بلغه مجمل التقليد الذي ينسب للقديس مرقس بواسطة السماع فقط، أو ربما يكون هناك مصدر واحد مختصر أخذ منه الجميع، كلٌّ بقدر وعيه ولغته وأسلوبه، مما أنشأ بعض الاختلافات. ولكننا نظلم النصوص إذا قلنا إن القديس يوحنا كان عنده النص الحرفي لإنجيل مرقس. (١١)

ثانياً: التقابل بين إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا:

إن الصلة الوثيقة بين الإنجيلين تدعونا هنا لمزيد من الإهتمام أيضاً.

١ — السؤال الذي كان قد حيرَّ الشعب في البداية: هل يوحنا المعمدان هو المسيح؟

لوقا ٣: ١٥: «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح؟»

يو ١٩: ٢٠ و١: «وهذه هي شهادة يوحنا، حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت. فاعترف ولم ينكر وأقرَّ إني لست أنا المسيح».

٢ — صيد السمك الوفير: حيث يذكر لوقا وحده هذه الحادثة، ولكن في بدء الخدمة:

لوقا ٥: ١-١١: «يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً ولكن على كلمتك أتتني الشبكة، ولما فعلوا ذلك أمسكوا سمكاً كثيراً جداً فصارت شبكتهم تنخرق».

11 Schnackenburg, op. cit., p. 29,30.

يوحنا ٢١: ١-١٩ : «وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئاً. ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطئ... فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن، فتجدوا. فألقوا، ولم يعودوا يقدرّون أن يجذبوها من كثرة السمك».

٣ - دهان الطيب: في إنجيل مرقس ومتى يوصف الدهان أنه للرأس، ولكن إنجيل لوقا يتفق هنا مع إنجيل يوحنا في نفس التقليد بالنسبة لدهن الرجلين:

لوقا ٧: ٣٦-٥٠ : «وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة، إذ علمت أنه متكئ في بيت الفريسي جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع وكانت تمسحها بشعر رأسها وتقبّل قدميه وتدهنها بالطيب».

يوحنا ١٢: ٣ : «فأخذت مريم مناً من طيب ناردين خالص كثير الثمن ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشعرها».

٤ - أختنا بيت عنيا: خدمة مرثا؛ وعود مريم.

لوقا ١٠: ٣٨-٤٢ : «وفيا هم سائرون، دخل قرية فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أخت تُدعى مريم، التي جلست عند قدمي يسوع، وكانت تسمع كلامه. وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة فوقفت، وقالت: يا رب أما تُبالي، فإن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقلّ لها أن تعينني. فأجاب يسوع وقال لها: مرثا مرثا، أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد. فاخترت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها».

يوحنا ١٢: ٣ و٢ : «فصنعوا له هناك عشاءً. وكانت مرثا تخدم، وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه. فأخذت مريم مناً من طيب ناردين...»

٥ - دخول أورشليم: اتفاق كل من إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا في ذكر الهتاف بالمسيح «كملك»، وذكر الفريسيين فقط:

لوقا ١٩: ٣٨ و٣٩ : «مباركُ الملك الآتي باسم الرب. سلامٌ في السماء ومجدٌ في الأعالي».

«وأما بعض الفريسيين من الجمع فقالوا له: يا معلم انتهر تلاميذك».

يوحنا ١٢: ١٣ و١٩ : «وكانوا يصرخون: أوصتاً، مباركُ الآتي باسم الرب ملك إسرائيل».

«فقال الفريسيون بعضهم لبعض: أنظروا إنكم لا تفنون شيئاً؛ هوذا

العالم قد ذهب وراءه» .

٦ - على العشاء الأخير: حيث يعطي إنجيل لوقا بعض الكلمات التي تكشف عن وجود حديث مطول لم يسجّل (إلا في إنجيل يوحنا):

لوقا ٢٢: ٢٤-٢٨: «وكانت بينهم مشاجرة من منمهم يُظن أنه يكون أكبر (بطرس أم يهوذا)» .

«وأما أنتم فليس هكذا. بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم» .

«لأن من هو الأكبر؟ الذي يتكئ أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكئ ولكن أنا بينكم كالذي يخدم» .

يوحنا ١٣: ٤-١٤: «وابتداً يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان مئزرًا بها. فجاء إلى سمعان بطرس...» .

قوله هنا فجاء إلى سمعان بطرس يكشف أن أحد التلاميذ سبق بطرس! هل هو يهوذا؟ غالباً. وهل المشاجرة على من يجلس بجوار الرب على العشاء كانت بينها؟ غالباً. فلما صمم يهوذا أن يغسل أولاً، وغُسل، وهذا لم يرق للمسيح، قال تعليمه عن مَنْ ينبغي أن يكون الأول، ومَنْ السيد. وكذلك لم يعجب بطرس الذي أراد أن يُظهر بجاجة يهوذا، فلما جاء عليه الدور بعد يهوذا رفض أن يغسله المعلم لإظهار الإلتزام بالإلتزام تجاه المعلم والرب.

وبعد أن غسل الرب أرجلهم جاء دور التوبيخ: «أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون، لأني أنا كذلك. فإن كنتُ وأنا السيد والمعلم قد غسلتُ أرجلكم، فأنتم يجب عليكم (كتلاميذ ومُرسلين) أن يغسل بعضكم أرجل بعض...» هنا كلمة «أتفهمون» موجهة للمتشاجرين سواء ليلة العشاء أو في القرن العشرين، من رؤساء كراس وطوائف وممل. وهي توضح أنه إنما يقدم درساً عملياً لخطأ حدث وهو المشاجرة، والتي أمسك القديس يوحنا عن ذكرها حسب خط الفكر الإنجيلي السائر عليه أن لا يُظهر عيوب التلاميذ.

لوقا ٢٢: ٣٥: «حينما أرسلتكم بلا كيس ولا مزود هل أعوزكم شيء» .

يوحنا ١٣: ١٦: «الحق الحق أقول لكم أنه ليس ... رسول أعظم من مُرسِله...» .

وواضح هنا أن خدمة غسل الأرجل ارتبطت بالإرسالية وطقس المرسلين. والمسيح أعطاهم مثلاً لخضوع بعضهم لبعض في عمل الإرسالية، إذ وهو الذي أرسلهم وسيرسلهم، غسل أرجلهم

باعتبار أن التلاميذ عبيد الرب وهو السيد الذي أرسلهم والذي غسل أرجلهم، ليكون هذا طقساً
أبدياً للمرسلين، لا كبير فيهم ولا صغير. بل الكبير والسيد هو العبد والخادم.

والعجيب أن التقليد الذي يقدمه إنجيل لوقا ربط إتضاع الخدمة بعمل الإرسالية أيضاً؛ مما يوضح
بلا شك أن المحور الأساسي الذي كان يقوم عليه تعليم الرب من جهة غسل الأرجل، كطقس
إتضاع الخدام والمرسلين، مربوط أصلاً بالإرسالية.

٧ - يهوذا وليلة القبض:

لوقا ٣: ٢٢: «فدخل الشيطان في يهوذا الذي يدعى الإسخريوطي وهو من جملة الإثني
عشر».

يوحنا ٢: ١٣: «فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان
الإسخريوطي أن يسلمه».

لوقا ٥٣: ٢٢: «لكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة».

يوحنا ١٣: ٣٠: «فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت وكان ليلاً».

يوحنا ١٩: ١١: «لم يكن لك عليّ سلطان البتة».

يوحنا ٤: ٩: «يأتى ليلاً حين لا يستطيع أحد أن يعمل...» (انتهاء عمل المسيح بظهور
سلطان الظلمة).

يوحنا ١١: ١٠: «إن كان أحد يمشي في الليل يعثر لأن النور ليس فيه» (سلطان الظلمة
في غياب النور).

يوحنا ١٢: ٣٥: «فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (عدم الإيمان بالنور
دخول في الظلمة).

لوقا ١٢: ٣٩: «اعلموا هذا أنه لو عرف رب البيت في أية ساعة يأتي السارق لسهر...»

يوحنا ١٨: ٤٥: «وكان يهوذا مسلّمه (الخص الذي جاء لينقب دار الحجبة) يعرف

الموضع...»

«فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه (رب البيت الذي يعرف في أية
ساعة سيأتي السارق...))».

٨ - إنكار بطرس: إنكار بطرس لثاني مرة ولثالث مرة ليس أمام جارية، كما جاء في إنجيل
مرقس وإنجيل متى. وليس جزافاً أن يتفق إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا أن الإنكار الثاني والثالث كانا
أمام رجل آخر وليس جارية.

لوقا ٢٢: ٥٨-٦٠: «وبعد قليل رآه آخر وقال: أنت منهم فقال بطرس: يا إنسان لست أنا» .

«ولما مضى نحو ساعة واحدة أكد آخر قائلاً بالحق هذا أيضاً كان معه لأنه جليلي أيضاً فقال بطرس: يا إنسان لست أعرف ما تقول» .

يوحنا ١٨: ١٨ و ٢٥-٢٧:

«وكان العبيد والحذّام واقفين وهم قد أضرموا جبراً لأنه كان برّذ...» .
«وسمعان بطرس كان واقفاً يصطلي فقالوا له: ألسنت أنت أيضاً من تلاميذه. فأنكر ذلك وقال: لست أنا. قال واحد من عبيد رئيس الكهنة، وهونسيب الذي قطع بطرس أذنه: أما رأيتك أنا معه في البستان؛ فأنكر بطرس...» .

٩ - المحاكمة أمام بيلاطس: ليس أمراً بسيطاً أن يقرر كل من الإنجيليين القديسين لوقا ويوحنا أن الوالي الروماني أعلن ثلاث مرات أن يسوع كان بريئاً، وأن الشعب (كما في الإنجيلين)، وليس الرؤساء، كانوا في موضع المسؤولية الظاهرة. كما يتضح من الإنجيلين أنه ليست هناك ملامة على الوالي الروماني، أكثر مما هو واضح في كل من إنجيل متى وإنجيل مرقس.

لوقا ٢٣: ٤ و ١٤ و ١٥ و ٢٠ و ٢٢:

«فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع: إني لا أجد علّة في هذا الإنسان» .

«وقال لهم: قد قدتم إليّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان علّة مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضاً» .

«فناداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع...» .

«فقال لهم ثالثة: فأبي شر عمل هذا؟ إني لا أجد فيه علّة للموت» .

«ولما قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود وقال لهم: أنا لست أجد فيه علّة واحدة» .

يوحنا ١٨: ٣٨:

«فخرج بيلاطس أيضاً خارجاً وقال لهم: أنا أخرجهم إليكم لتعلموا أفي لست أجد فيه علّة واحدة» .

١٩: ٦ و ٤:

«قال لهم بيلاطس: خذوه أنتم واصلبوه لأنني لست أجد فيه علّة» .

١٠ - الآلام: هنا يتفق إنجيل لوقا مع إنجيل يوحنا في كونها لم يذكر شرب الخل لإحداث تخدير لرفع المعاناة الشديدة والآلام. وذلك بعكس إنجيل متى وإنجيل مرقس.

١١ - إرسال الروح القدس:

لوقا ٢٤: ٤٩: «وها أنا أرسل إليكم موعد أبي. فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعلي».

يوحنا ١٥: ٢٦: «ومتى جاء المعزّي (الباراكليت) الذي سأرسله إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينشق، فهو يشهد لي».

ويعلّق العالم شناكنبرج على هذا التوافق الشديد بين تقليد الإنجيل في إنجيل لوقا وفي إنجيل يوحنا، ويقول:

[ليس من السهل أن يتجاهل الإنسان هذا التوافق الذي يربط بين الإنجيلين في موضوع التقليد وتاريخه. ولكنه ليس بالدرجة التي تجعلنا نقرر أن القديس يوحنا كان أمامه إنجيل لوقا أو رجع إليه في تدوين إنجيله، كما يقول العالم باريت Barrett والعالم لي Lee، ولا حتى يجوز أن نتصور أن يوحنا قابل لوقا واستقى منه شيئاً من مراجعه، ثم استعادها بالذاكرة كما يقول كوميل Kümmel].

ولكن من المعقول أن نقول إن القديس لوقا رجع إلى المصادر التي لها دراية بما يعرفه القديس يوحنا أو إلى نفس القديس يوحنا، ولكن ليس العكس؛ خاصة وأن القديس لوقا أعلن في إنجيله أنه استقى معلوماته من الذين «كانوا معاً حيناً وحُدّاماً للكلمة»؛ خاصة وأن رواية الميلاد بكل أسرارها ودقائقها تكشف ببيان عن أن القديسة العذراء مريم كانت وراء هذه البيانات السرية والخطيرة. ومعروف أن القديسة مريم كانت تعيش مع القديس يوحنا.

مجمال الأبحاث التي انتهى إليها العلماء من جهة علاقة

إنجيل يوحنا بالثلاثة الأناجيل الأخرى:

١ - كون القديس يوحنا اعتمد في تدوين إنجيله على نصوص الثلاثة الأناجيل، فهذا أمر غير محتمل.

٢ - التقابل الوارد بين إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس يوحنا في مواضع متعددة، يطرح احتمال إطلاع القديس يوحنا على نصوص أولى من التقليد الذي اعتمد عليه القديس مرقس في تدوين إنجيله.

٣ - التقابل الوارد بين إنجيل القديس لوقا وإنجيل القديس يوحنا، لا يوحى قطعاً باحتمال إطلاع القديس يوحنا على نصوص كتابية للقديس لوقا، ولكن التقابل بينها يشرحه وحدة التقليد الذي اعتمد عليه كلٌّ منهما، وتقليد القديس يوحنا يبدو أسبق تاريخياً في بعض النواحي من تقليد بقية الأناجيل.

٤ - تقليد القديس يوحنا على وجه العموم يبدو فريداً، حرّاً، لا يعتمد على ما ورد في الإنجيل الثلاثة.

٥ - إنجيل القديس يوحنا لا يُصدر أحكاماً، لا ضمناً ولا من قريب أو من بعيد، على ما ورد في الأناجيل الثلاثة.

٦ - كذلك فإنجيل يوحنا له أسلوبه المنفرد به وطريقته في عرض مواضيعه وحوادثه، ولا يظهر منه أي بادرة تثبت أنه يصحح ما ورد في الأناجيل الأخرى أو يحل محله.

٧ - كون إنجيل يوحنا على دراية بالتقليد سواء شفاهياً أو على هيئة نصوص متفرقة - والذي استقتت منه الأناجيل الثلاثة موادها - أمر وارد، بل وواضح أن إنجيل يوحنا يفترض في قرائه وسامعيه أنهم على دراية بكل ما جاء في التقليد القديم والذي انتشر عن طريق الكرازة في كل الأنحاء، وصار معروفاً ومحفوظاً ومدروساً لدى كل الحُدّام والوعاظ والمبشرين؛ سواء من دقائق سر العماد أو سر الإفخارستيا أو خدمة الكنيسة، أي الليتورجيات أو قوانين الرسل من جهة السلوك ووصايا الإيمان. بل وإن الجميع يعرف عن معجزات المسيح أكثر مما أورده هو في إنجيله.

وكان للقديس يوحنا ملاحظات على أسس الإيمان والتعليم السائد في الكنائس عن حياة المسيح، وهي التي أنارت روحه حتى وجد أنه قد وُضع عليه، بل تحتم، أن يكتب إنجيله، حتى يجعل هذه الأسس عينها التي للإيمان أكثر عمقاً وتجذراً في الحق والحياة الأبدية، وأن تكون ذات معرفة لاهوتية مكشوفة وقوية بالرب.

٨ - من جهة الروايات التصويرية لحياة المسيح وتحركاته وأقواله وأمثاله الحيّة المبدعة التي تغطي كل أحوال الناس وحياتهم وأفكارهم وسلوكهم وهمومهم وآمالهم، فإن إنجيل يوحنا يبدو فيها مفسّطاً جداً عن الأناجيل الأخرى، بل ومختصراً وملتزماً وحذراً أشد الحذر عن بقية الأناجيل الثلاثة التي انطلقت على سجيّة الفكر تروي بلا حذر وبلا هدف محدد مسبقاً عمّا رأت وسمعت وتركت للقارئ أن يستخلص لنفسه ما ينفعه.

ولكن إنجيل يوحنا يعطي معلومات لاهوتية جد خطيرة وكثيرة، بل ووفيرة، أكثر من كل الأناجيل الثلاثة مجتمعة، أحكم القديس يوحنا حبكها بالروح على مستوى الرواية والتاريخ. ولكن أي رواية وأي تاريخ؟ رواية كسّتهم من النور خاطف ومصوّب لقلب القارىء، لا يلوي يمينا أو يساراً حتى يصيب هدفه الذي وُضع الإنجيل كله من أجله: لاهوت المسيح! بل إن إنجيل يوحنا صاغ الروايات الأخرى صياغة في قالب لاهوتي، لا تُقرأ إلا على مستوى الرؤية الأعلى والهدف الأسمى، سواء حيننا طرح رواية المعمدان وشهادته، أو حيننا عرض للآلام وأينها ومعانيها، أو لقيمة الصليب ومجد المصلوب عليه في اليوم والساعة حيث وحين كان يُدبج الحروف تماماً!

٩ - إنجيل يوحنا يطرح أمام القارىء الباحث تقليداً رسولياً موازياً لما جاء في الثلاثة الأناجيل، يحمل رسوخاً في الأصالة وفي الأقدمية الزمنية، يضارع الثلاثة الأناجيل ويمثلها على كتفيه. فهو يقدم خدمة المسيح في اليهودية قبل خدمة الجليل من الأصحاح الأول وحتى الثالث، وبعد الجليل من الأصحاح السابع حتى الحادي عشر، في حين اقتصرت الأناجيل الثلاثة على خدمة المسيح في الجليل فقط وانشغلت بها حتى الصلب.

ويركّز إنجيل يوحنا على أعياد اليهود جميعاً في هيكل أو شليم حيث يحضرها المسيح جميعها، ويخصها بالمعاني الإلهية الجديدة التي أعطت للعهد الجديد جدّته. ففي عيد المظال تذكّار التيه والصخرة والماء، حين يحتفل اليهود بذكرى الماء، فيقف المسيح في الهيكل وينادي: «إن عطش أحد فليُقبِلْ إليّ ويشرب. من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح...» (يو: ٧: ٣٧-٣٩). ولما جاء ميعاد إيفاد المنارتين العظيمتين في بيت النساء - وهذا تذكّار لعمود النور الذي كان يرافقهم في ليل التيه - وقف المسيح قائلاً: «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو: ٨: ١٢)

وفي عيد الفصح وفي بكور خدمته دخل الهيكل، «ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقرأ وغنماً وحماماً...» (يو: ٢: ١٤)، «طرد... الغنم والبقر وكبّ دراهم الصيارف وقلب موائدهم. وقال لباعة الحمام: ارفعوا هذه من هنا» (يو: ٢: ١٥ و١٦). فقد انتهى عهد الذبائح جميعاً، والخلاص لم يُعدْ بذهب ولا فضة!!.

وهكذا تتعبّ إنجيل يوحنا فصول القصة والرواية يستخلص منها الجوهر — πνευματικόν — بعد أن استنفذت الأناجيل الأخرى جمال المظهر — σωματικόν (١٢) — وهذا واضح غاية

(١٢) راجع ص ٢١ وهو اقتباس يوسابيوس في كتابه تاريخ الكنيسة لتقليد كليمنس الإسكندري عن الدافع لكتابة إنجيل يوحنا.

الوضوح في:

أ - قصة الخمس الخبزات (١٣) والسمكتين، فبعد أن عرضتها الأناجيل الثلاثة في أسلوبها القصصي الإعجازي المبدع، أخذها إنجيل يوحنا كما هي ليعرض عليها شرح حقيقة الخبز الحي النازل من السماء، أساساً ومنطوقاً للإفخارستيا بكل أسرار لاهوتها ومفهومها الروحي!! وهكذا قدم إنجيل يوحنا التقليد الرسولي عينه مقروءاً على مستوى العقيدة والإيمان والحق والحياة. له صيغة القِدَم التي للتاريخ وجَدَّة الروح التي للحياة.

ب - في قصة تفتيح عيني الأعمى، التي جاءت مثيلاتها في الثلاثة الأناجيل كقصة إعجاز لرحمة الله على يدي المسيح، يأخذها القديس يوحنا ويوضح أن المولود أعمى إشارة إلى احتجاب نور المسيح عن المولودين من الرحم، ثم يقول المسيح للأعمى: اذهب اغتسل في بركة سلوام، حيث تأتي كلمة «اغتسل» بمعنى العماد في اللغة اليونانية، هنا تبدأ قصة الأعمى لتهدف إلى كشف سر المعمودية. ثم يقول الإنجيل أنه أتى بصيراً، ليشير إلى موهبة الإستنارة، ليدخل هذا الإصطلاح في علم لاهوت الأسرار في الكنيسة في وصف العماد.

ولكن إنجيل يوحنا لا يكتفي بالعماد فقط ليكون وحده فعل استنارة حقيقياً، لذلك يبحث عنه المسيح فيجده في الهيكل (عابداً) فيقول له: هل تؤمن بإبن الله؟ ويعرّفه المسيح بنفسه فيؤمن، ثم يسجد سجوداً حقيقياً، وهكذا يضع الإنجيل الإيمان ختماً للمعمودية حتماً، والسجود فعلاً ملازماً ضرورياً.

فانظر، أيها القارئ، كيف يضع إنجيل يوحنا اللمسات الروحية واللاهوتية والإيمانية والعبادية في القصة التي وردت في الثلاثة الأناجيل كمجرد معجزة، ليشرّع بها ومنها قانون الإيمان بالأسرار والعبادة للكنيسة على ممر الدهور.

ج - وإذا أخذنا حديث الرب مع نيقوديموس «معلم الناموس لإسرائيل»، نرى كيف يكمل إنجيل يوحنا توضيح قوة سر العماد في معناه اللاهوتي والخلاصي، كحتمية لا مناص منها لرؤية ملكوت السموات والدخول إليه، فالعماد هنا على مستوى «الميلاد الثاني» للإنسان ليصير الإنسان

(١٣) ولا تزال الكنيسة القبطية تحتفظ ضمن ممارستها للإفخارستيا بعدد «الخمس الخبزات» في تقديم الحمل، إشارة وتحقيقاً لسر الإفخارستيا في هذا الرقم الذي يشير إشارات مبدعة إلى مجيء المسيح من صلب الخمسة الأسفار لتوراة العهد القديم، وإلى مجيء المسيح بعد خمسة آلاف سنة من عناء بني آدم بعد خروج أبيهم آدم من لدن الله مطروداً، وإلى اكتمال أجيال غضب الله على بني العصاة «لا تسجد لمن ولا تعبدن» لأنني أنا الرب إلهك إله غير أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبعثي» (خر ٥: ٢٠)، في المسيح وبه أشرق الجيل الخامس جبل الإحسان ومجبة الله.

بواسطته طفلاً مرة ثانية مبرراً بالروح، « كخليقة جديدة » بجد ذاتها، كما من آدم ثاني بفعل الروح القدس — روح الله، وليصير إنساناً روحياً بعد الترابي ليرث مُلك الحياة الأبدية مع الله. وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد شرح الموقفين معاً (الحديث مع نيقوديموس ومعجزة المولود أعمى)، مُستعِلناً فيها ومنها سر حضور المسيح كنور، وسر فعل المسيح الخلاصي كولاة، وسر الروح للخلقة، كل ذلك مكنوزاً ومختوماً عليه في سر المعمودية .

١٠ — إن كل اختلاف عثر عليه النقاد بين إنجيل يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى هو اختلاف في الحرف، يَحْتَمُه الأسلوب الأدبي وقصد الراوي. ولكنه هو هو بعينه ائتلاف بالروح ما بعده ائتلاف، ولكن إذا قُرئ بالروح وليس على مسطرة التاريخ!

ويصوّر العالم شناكنبرج صورة بديعة لإنجيل يوحنا بقوله:

[إن الموضوع الأساسي عند يوحنا الذي أخذه على نفسه بشجاعة وجرأة هو: أن يضع الحدود والمعالم الواضحة لشخصية المسيح المهيبة، الذي أتى بالخلاص واستعلن لنا آفاق الخلود؛ وأن يكشف عن بهاء مجد الكلمة اللوْعس من واقع حياته على الأرض وحلوله بيننا؛ وأن يوضح أهمية حوادث الخلاص الذي تَمَّ والدايم كما هو إلى الأبد، والذي كان قد اختزنه لنا الماضي؛ وأن يسجل لنا الكلمات التي قالها مرة ابن الله عندما دخل إلى العالم، لكي تُسمع بعد ذلك بلا انقطاع. وتبقى كما هي مُلحّة تفرض ذاتها. وكان هاجس يوحنا الأوحده أن يُعرّف يسوع بين الناس أنه هو المسيح الحاضر في جماعته، سواء في الكلمة الملقاة على الأسماع أو في العبادة أو الأسرار.

وكان اشتياق يوحنا الذي كان يبثُّ بالروح القدس حسب وعد المسيح، أن يربط ويوثق زمن المسيح وأيامه بأيام الروح القدس (التي نحيهاها): «وأما متى جاء ذلك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأموار آتية؛ ذلك يمجّدي لأنه يأخذ مما لي ويخبركم... ويدنّركم بكل ما قلته لكم» (يو ١٦: ١٣ و١٤ - ٢٦: ١٤)، لأن يوحنا كان يدرك أن الروح سوف يُعطي بكلمة المسيح (٦: ٦٣)، وفي الأسرار التي فيها يتحقق فعل الخلاص ويشمر (١٩: ٣٤ - ١ يوس ٥: ٦)، بواسطة الكنيسة التي حملت رسالة المسيح وتبنت فيه المتكلم والمبشّر وسلطانته أيضاً لخلاص الإنسان (٢٠: ٢٢). [١٤]

14 Schnackenburg, op. cit., p.43.

الباب السادس

شرح ونقد إنجيل القديس يوحنا

على مدى العصور

الفصل الأول

شرح إنجيل القديس يوحنا

عند آباء الكنيسة

تراث الشرق

شرح العلامة أوريجانوس:

هذا العملاق الإسكندري الذي أرهق التاريخ بسيرته وبلبل أفكارنا بعقيدته، كتب شرح إنجيل يوحنا بناءً على رجاء أحد أصدقائه المدعو أمبروسوس. كتب الخمسة الأجزاء الأولى في الإسكندرية سنة ٢٢٥م^(١)، وذلك قبل رسامته كاهناً في قيصرية سنة ٢٢٨م. ثم جاءت الإضطرابات التي دخل فيها فتوقف العمل. الباقي من الشرح كتبه في المنفى ثم في قيصرية. ويقول يوسابيوس المؤرخ إن كل ما وصل إليه من شرح أوريجانوس لإنجيل يوحنا يقع في ٢٢ كتاباً. ويقول القديس جيروم إنها تقع في ٣٤ كتاباً. ويقول روفينوس إنها تقع في ٣٢ كتاباً. أما الواقع والحاضر بين أيدينا الآن فهي ثمانية كتب فقط، وهي تحوي أجزاءً من الشرح متفرقة حتى الأصحاح الثالث عشر من عدد ٢-٣٣. ويقدر العلماء أن ما كتبه يتجاوز الخمسين كتاباً^(٢).

ويقول العلامة «وستكوت» أسقف دورهام، إن شرح أوريجانوس يحوي أخطاءه وإبداعاته معاً وبأعلى قياس، وهو شرح مطوّل ولكن متقطع ينتهي ناحية التأمل والتخيّل، ولكن تربطه أفكار سامية ونبيلة ومضات من الحق.

ويُعتبر أوريجانوس، في مجال شرح الإنجيل، صاحب مدرسة جديدة في الأدب اللاهوتي. ويقول

¹ Euseb., Hist. Eccl. VI.24,1.

² Westcott, The Gospel according to Saint John, p. xcvi.

العلامة شناكنبرج إن أوريجانوس كتب شرحه لإنجيل يوحنا بقصد تفنيد ومقاومة شرح الغنوسيين المزيف لإنجيل يوحنا الذي كتبه أحد أئمتهم المدعو «هيراكليون»، وأن شرح أوريجانوس أصيل بحسب عقيدة الكنيسة (٣).

وقد استخرج أوريجانوس المعاني الروحية العميقة من آياته، ولكنه استخدم المجاز أو الإستعارة التمثيلية (أي مشبهاً شيئاً بشيء ليبلغ إلى معنى أعمق) إلى حد كبير. كان ملتصقاً دائماً في شرحه إما بالتقليد اليوناني أو اليهودي. وقد بلغ منتهى العمق في استعلان عظمة «كلمة» الله التي كانت محتبسة تحت ستار الحرف في العهد القديم وخاصة في حادثة «تطهير الهيكل» (الكتاب العاشر: المقطع ٢٣)، وفي المقابل في كيف بلغ «الكلمة» إلى قامة التواضع وذلة (العبد) في العهد الجديد في حادثة «غسل الأرجل» (الكتاب ٣٢: المقطع ٤)، مذكراً بثوب معفر بتراب الأرض.

وأوريجانوس لم يشأ في شرحه أن يلغي الحرف في المعنى، ولكنه حاول دائماً أن يتجاوزه فيقول: [إني أعتقد أن كل الأسفار حينها تبلغ إلى معناها الكامل والصحيح، فهي تبقى مجرد مدخل إلى معرفة الأسس البسيطة للإيمان. فكّر قليلاً في بر يعقوب التي شرب منها الآباء وأبناؤهم يوماً ما، فهم الآن لا يشربون منها ولا أبناؤهم لأن لهم الآن مشرباً أفضل عما كان، لأن الماء الذي يعطيه المسيح الآن هو أسمى من المكتوب.] (كتاب ١٣: مقطع ٥)

وكان مفتاح الأمان والضمان للشرح الصادق الأمين عند أوريجانوس الذي يضبط الكلام ويتفوق عليه هو:

أولاً: سلطان كنيسة المسيح المقدسة (الكتاب ٥: مقطع ٨).

ثانياً: التعليم الرسولي فيما يختص بمعرفة الأسرار (الكتاب ١٠: مقطع ١٨).

أما نقطة الهجوم التي ركّز عليها أوريجانوس ضد الغنوسيين، فهي أنهم [وضعوا شرحاً جزافياً يتناسب مع أفكارهم وليس له شهادة من التقليد] — (كتاب ٢: مقطع ١٤ وكتاب ١٣: مقطع ١٧).

والمضمون العام لشرح العلامة أوريجانوس يهدف نحو ترسيخ الإيمان المسيحي عامة والإيمان بالأمور المستقبلية أي الأخرويات. أما أسفار العهد القديم التي يمثلها «بر يعقوب»، [فهي إذا

(٣) توجد بعض التفسيرات في شرح أوريجانوس تُعتبر خارجة عن التقليد الصحيح والعقيدة.

³ Schnackenburg, The Gospel according to Saint John, p. 202.

فُهمت جيداً فإنها تؤدي إلى المسيح وتصيح حينئذ بالحق تنبع إلى حياة أبدية.] (كتاب ٣: مقطع ٦). [وكلمة المسيح الآن تقودنا إلى الفصح الثالث، حيث البصخة اليهودية هي الفصح الأول، وفصح المسيح الحمل الذي دُبِح لأجلنا هو الفصح الثاني. أما الفصح الثالث فهو الذي نعيّده معاً في ألفة المعيّدين مع ربوات ملائكة بلا عدد في الفصح الأكمل للخروج السعيد.] (الكتاب العاشر: مقطع ١٨).

واستخدام الإستعارة عند العلامة أوريغانوس، ولو أنها تبدو غريبة على أسمعنا (الكلام هنا للعلامة «شناكنبرج» وهو كاثوليكي غربي)، ولكن إذا استوعبنا هذه الطريقة وانتهينا إلى خلفيتها، نجد وراءها معرفة عميقة لكلمة الله التي تجسدت في اللوغس المتجسد ولكن بقيت هكذا محتجبة، حتى إنه لا يمكن تفريغ كل ما تحويه من الشرح.

+++

والخطوة التالية بعد العلامة أوريغانوس في شرح إنجيل القديس يوحنا تأخرت كثيراً: من سنة ٢٢٥م حتى سنة ٣٩١م أي أكثر من قرن ونصف، ولم تأت من الإسكندرية بل أتت على يد مدرسة أنطاكية وهي المنافسة لمدرسة الإسكندرية.

وكان هناك اختلاف في التراث الفكري بين الإسكندرية ويمثلها العلامة أوريغانوس، وبين أنطاكية ويمثلها القديس يوحنا ذهبي الفم^(٤).

أنطاكية تبحث في الأسفار المقدسة عن معناها المقدس الواضح.

الإسكندرية (وقيصرية وفيها أوريغانوس) تبحث في الأسفار المقدسة عن شخص المسيح.

أنطاكية تطعن في استخدام الإستعارات والتأملات كونها تهدم القيمة الواقعية للإنجيل كوثيقة تاريخية تمتُّ إلى الماضي وتحوله إلى تعابير من الخيال (كذا).

والإسكندرية تسخر من أنطاكية وتسمي كل من يتمسك بجرافية الكلمة أنه جسدي!

غير أنه لم يكن بين أنطاكية والإسكندرية صراع أو تعارض، بل بالعكس كان هناك اتفاق عريض مؤسس على أهمية التقليد في الشرح أهمية مطلقة.

على أن العلامة أوريغانوس كان يرمي بثقله نحو اكتشاف الصور البارعة للمسيح من خلال

⁴ Quasten, Patrology II, p. 122.

الإلهام الذي تحويه الكلمة مجد ذاتها، أكثر من انحصاره في حوادث الإنجيل. فكل سطر في الإنجيل مملوءٌ بأسرار المسيح المذخرة والمدفونة خلف السطور.

ولكن أنطاكية انشغلت بالبحث عن صور المسيح في العهد القديم.

وما اختلاف الأسلوب في الشرح بين المدرستين إلا اختلاف في الفكر. فالإسكندرية مدرسة المُثُل Idealism والتأملات Speculation ، التي تستمد انتسابها من أفلاطون؛ أما أنطاكية فهي مدرسة الواقعية Realism (الحسية) والتجريبية Empiricism ، التي تستمد انتسابها من أرسطو. فالأولى تميل إلى التصوُّف؛ والثانية تميل إلى العقلانية.

وكان القديس يوحنا ذهبي الفم أشهر تلامذة مدرسة أنطاكية؛ وكان ثيودور المبسوتي أشهر متطرفيها!!

ولكن للأسف، فالعقلانية الأنطاكية انتهت بمدرسها إلى الهرطقة على يد لوسيان معلم أريوس.

وفي ختام الكلمة عن شرح إنجيل يوحنا للعلامة أوريجانوس، يتحتم أن نعترف أنه إذا كان القديس أناسيوس قد حطم أريوس والأريوسية في مصر والعالم كله معتمداً على إنجيل يوحنا، فالعلامة أوريجانوس هو الذي حطّم الغنوسية في مصر وأيضاً في العالم معتمداً أيضاً على إنجيل يوحنا(°).

شرح القديس يوحنا ذهبي الفم:

القديس يوحنا ربيب المدرسة الأنطاكية بكل مذكراتها الفكرية. بليغ وحكيم لذلك دُعي بذهبي الفم.

قدّم ٨٨ عظة على إنجيل القديس يوحنا مسجّلة كلها ومحفوظة في مجموعة الباترولوجيا جريكا أي الآباء الذين كتبوا باليونانية (PG 59). وهي عظات جاءت أقصر من عظاته على إنجيل القديس متى. ألقاها حوالي سنة ٣٩١م. وكل عظة لم تكن تستغرق أكثر من ١٠-١٥ دقيقة. وكان يلقيها في الصباح. وأسلوبها جدي لأنه كان يوجهها نحو الأريوسيين الذين كانوا يستخدمون الآيات التي تحقّر وتصعّر من المسيح. لهذا بلور القديس ذهبي الفم نظرية التنازل συγκατάβασις بالنسبة لله ليصنّفها تهجّم الأريوسيين على بشرية المسيح وضعفه. ويقصد بها القديس ذهبي الفم كيف جسّد

⁵ Barrett, op. cit., p. 116.

الله كلمته في الإنجيل على هيئة الإنسان ولغته. وهذا التعبير اللاهوتي يقف مساوياً لتعبير العلامة أوريجانوس في استعلان معنى الكلمة في الأسفار، غير أن القديس ذهبي الفم لم يتبع الخط الروحي مثل العلامة أوريجانوس.

وكعيّنة من الشرح^(٦) اللاهوتي للقديس يوحنا ذهبي الفم نقدم بلسان المسيح المقطع الآتي:
[أنا الإله وابن الله بالحق، وأنا من جوهره البسيط المبارك، لست في حاجة أن يشهد لي أحد، وحتى إذا لم يشهد أحد فأنا لا أفقد شيئاً من جوهره. ولكن لأني أهتم بخلاص الكثيرين قد نزلت إلى هذا الإلتضاع حتى أطلب شهادة لي من إنسان.] (العظة ٦)

ويعود يشرح هذا الموضوع مراراً وتكراراً هكذا:

[لأنه صار ابن بشر، الذي هو ابن الله ذاته، حتى يجعل بني الإنسان أولاد الله. لأن العالي إذا التأم مع الخطيئ فهذا لن يمس كرامته؛ في حين أنه يرفع الآخر من الخسيس، وهذا هو الحادث مع الرب. فهو لم يُنقص من طبيعته شيئاً بتنازله هذا Condensation، ولكنه رفعنا نحن الذين كنا في العار قعوداً، ومن الظلام جلوساً انتشلنا إلى نوره العجيب.] (العظة الحادية عشر)

ومثل العلامة أوريجانوس، يعتبر القديس يوحنا ذهبي الفم أنه ليس للهرطقة المفصولين عن الكنيسة الحق في استخدام الأسفار المقدسة، لأن الأسفار تستمد حقها من حق الكنيسة.

ويقول العلامة «وستكوت» أن شرحه واستشهاده بالآيات واضح، شديد الحيوية وبلغ؛ ولكن القارئ إذ يؤخذ بأسلوبه، تفوته المعاني والإتجاهات السرية التي للإنجيل نفسه^(٧).

شرح القديس كيرلس الإسكندري:

هو واحد من أعظم قديسي الكنيسة الأولى، لذلك يدعى بالكبير. ألّف شرحه لإنجيل يوحنا من بداية سنة ٤٢٥ م. ولم يكمل إلا سنة ٤٢٨ م. أسلوبه كما يصفه «كوستن»^(٨) أبعد من أن يكون جذاباً للقارئ، متداخلاً، وأحياناً يتجاوز الحد في التماهي في الشرح، مزخرف، جميل، ولكن محتوياته تكشف عن عمق الفكر وغنى في الآراء، مجادل واضح ذو حجّة، تأملاته ومحاجاته تكشف عن موهبته كمؤلف وتجعل من كتابه منابع لتاريخ العقيدة والعلم المسيحي بالدرجة الأولى.

⁶ Quasten, op. cit., III, p. 439.

⁷ Westcott, op. cit., p. xcvi.

⁸ Quasten, Patrology III, p. 119.

وفي مقدمة شرحه نبّه أنه سيعطي عناية خاصة إلى المعنى العقيدي للنص، ودحض تعاليم الهرطقة. والقديس كيرلس يجهد في شرحه ليثبت أن الإبن له جوهر الآب، وأن الآب والإبن كلٌّ منها له شخصه القائم.

وهو يقف معارضاً لمدرسة أنطاكية. وواضح أنه ألّف شرحه لإنجيل يوحنا قبل قيام نسطور، لذلك لم يذكر في كتابه شيئاً عن نسطور، كما لم يذكر الإصطلاح المحبب عنده «الثيوتوكس» (والدة الإله) الذي نحته خصيصاً لمقاومة بدعة نسطور. كما يُعتبر شرحه لإنجيل يوحنا هو أول تأليفه في الشرح. وقد احتفظ لنا الزمن بكل شرحه للإنجيل في اثني عشر كتاباً كلها موجودة، ونسبها للقديس كيرلس مُثَبِّتة، ما عدا الكتابين السابع والثامن اللذين ضاعا ولم تصل لنا منها إلا أجزاء قليلة مشكوكٌ في صدق نسبتها للقديس كيرلس^(٩).

ولكن بالرغم من ذلك يبقى هذا الشرح ذخيرة عقائدية آبائية. ويعبّر القديس كيرلس فيه عن أن لغة البشر عاجزة عن أن تستوفي الحق الإلهي فيه كما يجب؛ أو أن تكشف عن مقدار تنازل الكلمة في الأسفار كما يقتضي بالعدل.

أما رأينا الخاص في شرح القديس كيرلس لإنجيل يوحنا، فهو كنز لاهوتي وروحي وكنسي وسرائري مليء بالدرر المخفية وراء الجدل العنيف ضد الهرطقة، وهو يحتاج إلى صبر كثير وكثير جداً لكي يستوعب القارئ كوزره.

ويقول العالم «وستكوت» عن شرحه: أنه بشرح القديس كيرلس الكبير يكون قد انتهى عصر كبار سُراخ الإنجيل للعصر الآبائي.

القديس أثناسيوس:

وفي مجال القيمة الشرحية لإنجيل يوحنا لا نستطيع أن ننسى القديس أثناسيوس، فهو وإن لم يصدر شرحاً لإنجيل يوحنا، ولكنه أقام لاهوته على «تجسد الكلمة»، وحارب حروب الرب ضد أريوس بسلاح إنجيل يوحنا، ووضع أساس الأرثوذكسية راسخاً معتمداً على هذا الإنجيل، فحوّل مجرى المسيحية في العالم: «العالم كله ضدك يا أثناسيوس»، وأجاب أثناسيوس ومعه إنجيل يوحنا: «وأنا ضد العالم».

⁹ Quasten, op. cit., III, p. 123.

تراث الغرب

شرح القديس أغسطينوس:

يقول قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية عن كتاباته وشروحاته هكذا: [إن أهمية القديس أغسطينوس تكمن في قدرته الفذة في فهمه للحق المسيحي... وبدون هذه الألفية الفكرية (موهبة) وعمق الإدراك الروحي، كان لا يمكن أن يأخذ اللاهوت الغربي شكله المعروف لنا الآن.]^(١٠)

قدم القديس أغسطينوس شرحه لإنجيل يوحنا ضمن عظات - جاءت في مقالات سنة ٤١٤-٤١٦ م. ويقول عنها العالم «وستكوت»^(١١) إنه فيما كان القديس يوحنا ذهبي الفم ضعيفاً في بعض نواحي شرحه، برز القديس أغسطينوس فيها قوياً لا يُجَارَى. ولكن جهله باللغة اليونانية خانه كثيراً في تبني بعض المعاني غير الصحيحة للكلمات. ولكن ذكاءه الفذ جعله يدخل بالرغم من ذلك في المعنى الأصيل الذي يقصده الإنجيل، وبمنتهى الوعي والبصيرة التي ربما تفوت على شارح آخر عالم لغات متضلع في اليونانية. ولكن من الصعب جداً ترجمة شرحه الذي جاء باللاتينية ترجمة تصيب كل الأعماق التي انتهى إليها.

ويقول عنه «شناكنبرج»^(١٢) إن أسلوبه يخلو من الحاجة ويتجاوز المناوشات العقائدية. وشرحه في إنجيل يوحنا بلغ منتهى النضج اللاهوتي. فهو ينطلق مباشرة نحو التأمل بالآية دون التوقف على معاني الكلمات. ومثل نظرائه الآباء القديسين الأوائل، ركز بصورة أساسية على اللاهوت، يعجبه بالآيات ويقدمه طعاماً للمسيحي يسند إيمانه في وسط فوضى الهراطقة. وعظاته هذه لا تزال محتفظة بمحظوتها ومكانها الأثيل في الخدمات الكنسية لدى الغرب، شأنها شأن القديس يوحنا ذهبي الفم في الشرق.

¹⁰ Op. cit. p. 107.

¹¹ Op. cit. p. xciv.

¹² Schnackenburg, op. cit., p. 205.

الفصل الثاني

تتبع حركة شرح إنجيل القديس يوحنا

في العصر الحديث

في ضوء عمليات النقد والدفاع

نقدّم للقارئ مختصراً للبحث الذي قام به العالم H.R. Reynolds في المقدمة التي كتبها لشرح إنجيل يوحنا في مجموعة Pulpit Commentary المجلد السابع عشر.

— منذ عصر ما بعد الرسل حتى نهاية القرن السابع عشر لم يرتفع صوت واحد ينتقد إنجيل يوحنا من حيث أصالة مؤلفه، القديس يوحنا اللاهوتي، ومادته، وعلاقته الصحيحة بالإنجيل الثلاثة الأخرى، وخطه التاريخي.

— ولكن بدأ النقاش في التباين بين الأنجيل الثلاثة والإنجيل الرابع في أوائل القرن الثامن عشر افتتحه العالم «لُكليرك» Le Clerc (١) (١٦٥٧—١٧٣٦) مع العالم Lampe ، وعلى مدى قرن من الزمان استمر هذا النقاش الذي بلغ حد الصراع .

— ثم هدأت حدة هذا النقاش إلى أن أشعله العالم الإنجليزي «إيفانسون» Evanson (٢) (١٧٣١—١٨٠٥)، وذلك سنة ١٧٩٢ . وللأسف، أنه بالرغم من تهاة وزنه الروحي فقد كان أثره مسموماً في أوروبا . وقد قام في المقابل له في ألمانيا الناقد «إيكermann» Eckermann

(١) وهو أرميني الأصل، عالم لاهوتي، وأستاذ مادة الكتاب المقدس، وأستاذ فلسفة، منهجه عقلي . وقد طعن في أصالة التوراة لموسى النبي . وهو متحرر الفكر غير تقليدي . عدو القواعد التعليمية، أعطى للعقل حق نقد الإيمان .

(٢) وهو ضد الثالث ولا يؤمن بلاهوت المسيح . ويُعتبر أول من أشعل الهجوم ضد إنجيل يوحنا، منكر أن يكون القديس يوحنا هو كاتبه . ولا يؤمن إلا بإنجيل القديس لوقا .

(١٧٩٦)، وبعده الناقد الأكثر خطورة «برتشneider» (١٨٢٠).

— وقام «برايستل» Priestel مع العالم «سمبسون» Simpson بالرد.

— ولكن دخل معركة النقد لاهوتي ألماني شديد الوطأة اسمه «هردر» Horder Gotesied (١٧٤٤—١٨٠٣)، معلناً أن القديس يوحنا إنما كان يتعامل في إنجيله مع «مسيح نموذجي» وليس «مسيح التاريخ — (هكذا)». وبذلك بدأت المدرسة الألمانية وتزعمت النقد.

— فقامت مدرسة لاهوتيي روما بالرد، وتصدّت لكل هذا النقد، وآزرها العالم الكاثوليكي «هوج» Leunord Hug (١٧٦٥—١٨٤٦)، وبعض العلماء اللوثريين وأهمهم الألماني المستشرق «أيشورن» Eichorn (١٧٥٢—١٨٢٧)، وهو أستاذ ضليع في الإنجيل واللغات الشرقية ومادة الفلسفة في جامعة جوتنبرج. وهو أول من أحيا علم المقارنات العلمية والبحث الدقيق لإثبات صحة الأناجيل من الكتابات الشرقية والمخطوطات القديمة الأخرى. وآزره في الرد العالم Koind.

— وبأعمال هؤلاء المدافعين توقفت حركة المقاومة.

— ولكن بعد ذلك بقليل انفجرت حدة النقد السليبي المتحرر على يد «برتشneider» (٣) سنة ١٨٢٠. وقد تمادى في التفريق بين المسيح في إنجيل يوحنا والأناجيل الأخرى. وقد رد عليه كل من «أولهوزن» و«لوكة» Lüke.

— وكانت ألمانيا في ذلك الوقت مفتونة بمواهب «شلايرماخر» (١٧٦٨—١٨٣٤)، وهو لاهوتي ألماني عبّر عن «الإيمان بأنه الإحساس بالاعتماد الكلي على الله». وقد تأثر به كثيراً العالم المشهور «هارناك». وكان «شلايرماخر» معجباً بإنجيل يوحنا أشد ما يكون الإعجاب. وقد انبرى للنقد السليبي الموجّه لإنجيل يوحنا حتى أوقفه. وكان واسع التأثير بأسلوبه التقوي والتأملي. وقد تأثر به أيضاً العالم والمؤرخ الكنسي الليتورجي (اليهودي الأصل) «نياندر» وتنصّر على يديه وتعمّد. وهدأت حدة النقد ضد إنجيل يوحنا حتى سنة ١٨٣٥.

— ثم قام «شترأوس» (١٨٠٨—١٨٧٤)، وهو لاهوتي ألماني هاجم حياة المسيح وأنكر أن يكون القديس يوحنا الرسول هو صاحب إنجيل يوحنا. وكان له أسوأ الأثر على كل المدرسة اللاهوتية البروتستانتية في توبنجن، وازداد تأثيره حتى طرد منها. ولكن عاد «شترأوس» نفسه بتأثير

(٣) لاهوتي ألماني أشد من هاجم صحة الخط التاريخي في إنجيل يوحنا، وذلك سنة ١٨٢٠.

العالم اليهودي المنتصر الفذ «نياندر» Neander (١٧٨٩-١٨٥٠) الذي حاججه حتى رده إلى الصواب. فعاد وصحح إيمانه في الطبعة الثالثة من كتابه (١٨٣٨). ولكنه عاد إلى نقده ومهاجمته لإنجيل يوحنا في الطبعة الرابعة من كتابه سنة ١٨٤٠، محاولاً بذلك مهادة مدرسة توبنجن Tübingen التي قامت في ذلك الوقت لمساندة «شترابوس» في نقده السلبي لإنجيل يوحنا، مدعية أنه من وضع متأخر عن القرن الأول بمائة سنة، ولا علاقة له بالقدّيس يوحنا الرسول، وأنه من تأليف غنوسي.

وحينما ظهرت مؤلفات «فايس» C.H. Weisse سنة ١٨٤٠ الذي اعتبر أن إنجيل يوحنا ما هو إلا قصة خيالية مؤلفة غير واقعية، انبرى له العلامة «فورمان» Formann ونقد نظريته ودحضها بمقدرة عالية فأسكته. ولكن الأثر السلبي ما فتى يشتعل تحت التراب.

— وانضم إلى حركة النقد «بور» F.C. Baur (١٨٠٩-١٨٨٢). وهو لاهوتي ألماني فاق «شترابوس» في نقده، وهو مؤسس مدرسة توبنجن النقدية على أسس تاريخية. كما انضم إليه أيضاً «شويجلر» (١٨١٩-١٨٥٧)، و«زكّلر» Zeller، مؤكّدين أن إنجيل يوحنا من وضع سنة ١٦٠.

— وازدادت حركة النقد بواسطة مدرسة توبنجن على يد «ألبرت توما» Albrecht Thoma (١٨٨٢)، و«هولتزمان» Holtzmann (١٨٨٥) اللذين جاهاً بأن تعاليم القدّيس يوحنا مأخوذة من رسائل القدّيس بولس الرسول.

— وفي أوج عصر المدرسة النقدية السلبية المتحررة التي يُعتبر أصحابها خارج دائرة الإيمان السليم، قامت مدرسة «النقاد المعتدلين»، كما سماهم التاريخ. وبالرغم من صدق النوايا لدى هؤلاء في الجري العلمي وراء الحقيقة التاريخية، كما يقولون، إلا أنهم أضروا بالإنجيل أكثر مما نفعوا، وأساءوا إلى حرارة الإيمان وقوة تماسك الكنيسة في كل أنحاء أوروبا وأمريكا دون أن يدروا، بسبب تنشيط ذهن الشباب في النقد وضياع هيبة الإنجيل والإيمان المسيحي عامة؛ وإليهم يعود السبب في هبوط مستوى الإيمان واضمحلال التقوى وضياع الشباب وتخبُّط رجال الدين وتمرد الإكليروس الكاثوليكي على النمط التقليدي والسلوك التقوي. لذلك فعليهم دينونة لا يعرف قسوتها إلاّ الديّان.

ويتزعم هذه المدرسة — غير بعض الذين سردنا أخبارهم — وعلى مدى السنين كل من: برونو Bruno Bauer، «فردناند» Ferdinand، «شفجلر» Schwegler، «يوليخر» Jülicher، «رفيل» Reville، وآخرهم تاريخياً وأكثرهم تأثيراً على العلماء الآخرين هو العالم الكاثوليكي

«لويزي» Loisy (١٨٤٧-١٩٤٠)، وهو «مودرنست» أي تقدمي، ناقد متحرر غير منضبط، كان يدرس إنجيل يوحنا على أساس أنه من وضع ما بعد منتصف القرن الثاني، مؤكداً ذلك كحقيقة لا تُنقض. حتى ظهرت بردية رايلاند في صعيد مصر تؤكد في المقابل أن الإنجيل من وضع لا يتجاوز القرن الأول بأي حال، وكانت لطمه له. وكان إيمانه الكاثوليكي متزعزعاً خاصة بعد أن درس على «رينان» الفيلسوف والمؤرخ (الملحد). وكان قد وصل إلى أستاذية كرسي الأسفار المقدسة بالرغم من ميوله نحو عقيدة الـ pantheism أي تأله الكون أي أن الكون والله أو الله والكون شيء واحد، وهي عقيدة هندية الأصل. وأخيراً انتهى إلى مجرد مدرس تاريخ في الكوليج دي فرانس. والعجيب أنه ما من شارح حديث لإنجيل يوحنا إلا ويتخذ شرح لويزي هذا مرجعاً له.

— وفي الوقت الذي تضافرت فيه العقول الجبارة لهدم إنجيل يوحنا بالنقد السلبي غير البتاء، كانت هناك مجموعة من العلماء من مختلف الجنسيات يمدوهم روح الإيمان والتقوى والعلم أيضاً للدفاع عن صحة إنجيل يوحنا وأصاله مستواه الروحي، وحققوا أن كاتبه هو القديس يوحنا الرسول بن زبدي، وأن الخط التاريخي فيه أشد صحة مما كان يظن هؤلاء النقاد، وأن منهجه اللاهوتي والسراري والكنسي فائق القيمة، وقد استخدم معظمهم المنهج التقليدي في البحث العلمي الدقيق. وأثبت معظمهم أن إنجيل القديس يوحنا من وضع نهاية القرن الأول سنة ١٠٠ م.، أو ربما أقل قليلاً. الأمر الذي أثبتت البرديات التي اكتشفت بعد ذلك بنصف قرن صحة وصدق أبحاثهم. ولكن لا تخلو هذه الأبحاث والشروحات من الهنات التي يملها الفكر العلمي، فتقف ذات لون باهت يسهل فرزها إزاء ضوء الإيمان الأرثوذكسي الساطع.

وأهم هؤلاء العلماء بوجه عام ومختصر هم:

العالم الألماني «بليك» Bleck (١٧٩٣-١٨٥٩)، الألماني «دي وت» De Wette ، «رويوز» Reuss ، «لوثاردت» Luthardt ، «جوديت» Godet ، «زهن» Zahn ، «شانز» Schanz ، «كناينبور» Knabenbaur ، «لپين» Lepin ، «جراندميزون» «شانز» Schanz ، «تلمان» Tillmann ، «لاجرانج» Lagrange .

أما العلماء ذوو الشهرة العالمية القدامى والمحدثين الذين استطعنا الحصول على شرحهم لإنجيل يوحنا، واطَّلعنا على أبحاثهم ودراساتهم، إما مباشرة أو عن طريق تعليقات لعلماء آخرين عنهم، فنأتي على ذكرهم هنا بشيء من التفصيل دون أن نستطرد في بقية المؤلفين العديدين ذوي الشهرة المحدودة في بلادهم والذين لم نغفل ذكرهم أثناء الدراسة والتعليق والشرح.

١ - اللاهوتيون العلماء التقليديون ذوو الشهرة العالمية،

وشروحاتهم للإنجيل القديس يوحنا:

وهم المعتبرون البقية الباقية من المحافظين القدامى الذين يمتون بشيء كثير إلى فكر الآباء القديسين الأوائل. والعجيب أن معظمهم له سيرة في التقوى مشهود لها، ومؤلفاتهم تُعتبر أهم ما يمكن أن يتشقف به أي دارس للإنجيل دون خطر كثير.

وهم حسب ترتيب ظهور شروحاتهم لإنجيل يوحنا زمنياً كالآتي:

١ - هنجستنبرج: HENGSTENBERG, ERNEST WILHELM

(١٨٠٢-١٨٦٩)

لاهوتي ألماني درس على نياندر. أصدر شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٨٢١ على أسس دفاعية عن الإيمان والأخلاق والتقوى الشخصية. يستشهد فيه بالآباء القديسين الأوائل وعلى خلفية غزيرة من العهد القديم. ولكن المؤلف يخلو من الأبحاث العلمية للكلمات والمواضيع. وهو مؤلف قيم في مجلدين ضمن مجموعة «كلارك» للمكتبة الكاثوليكية اللاهوتية.

٢ - ثولوك: THOLUCK, F. AUGUST

(١٧٩٩-١٨٧٧)

درس على نياندر. لاهوتي ألماني تقي.

قاوم العقلانية في ألمانيا في جيله. أخرج شرح إنجيل يوحنا سنة ١٨٢٧ لتثبيت الإيمان وتقويم الأخلاق. له دراسات تقوية. كان ذا تأثير أخلاقي كبير على جيل الشباب، فكان راعياً من الدرجة الأولى.

٣ - ماير: MEYER, H. AUGUST WILHELM

(١٨٠٠-١٨٧٣)

عالم ألماني. كاهن زاول خدمته بنجاح. ضليع في اللاهوت. شرح الأناجيل كلها ومنها إنجيل يوحنا وسفر الأعمال ورسائل القديس بولس الرسول بين سنة ١٨٣٢-١٨٥٢. وهي تُمدح من كافة العلماء والمؤلفين، فقد استوفى كل أصول الشرح الدقيق واهتم بمعاني الكلمات لأنه كان ضليعاً في اللغة اليونانية. أُعيد طبع مؤلفاته العديد من المرات، وخرجت باللغة الإنجليزية في عشرين مجلداً، ولا تزال تُطبع، وهي متداولة حتى اليوم.

٤ - بليك : BLEEK, FRUDRICH

(١٨٩٣-١٩٥٩)

لاهوتي ألماني محافظ، أستاذ شرح الإنجيل. أخرج شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٩٤٠ على أصول تقليدية. محاجج ومدافع عن الأصول التقليدية مع أنه باحث ومحلل.

٥ - وستكوت : WESTCOTT, B.FOSS

(١٨٢٥-١٩٠١)

إنجليزي. أسقف دورهام. صديق العمر للعالم لايتفوت.

مؤلف لتاريخ الأسفار المقدسة وقانونها، ولشرح مقدمات الإنجيل. أستاذ لاهوت سابق في كمبردج. نفّح وصحّح الإنجيل باللغة اليونانية. أخرج شرحه القيم لإنجيل يوحنا ورسالته سنة ١٨٨١ بحسب الأصول اليونانية آية آية على مثال شرح المدرسة الإنجليزية. كرّس نفسه لمساعدة الإرساليات التبشيرية. ورعاية الطلبة روحياً في كمبردج ولا تزال هناك المؤسسة التي تحمل اسمه. ذاع صيته بسبب شرحه لإنجيل يوحنا، إذ اعتُبر لدى لاهوتيي كل إنجلترا وأوروبا بأجمعها أساساً لا غنى عنه لكل شرح مهما كان. تمسك بالناحية التقليدية، سواء للشرح أو للمعنى أو التاريخ أو صحة نسبة الإنجيل الرابع لكتابه القديس يوحنا الرسول والتلميذ، وأفرد لذلك جزءاً كبيراً من كتابه يصح أن يكون كتاباً مفرداً. له بصيرة نافذة نحو عمق المعاني. واعتمد في بعض الأحيان على شروحات الآباء القديسين الأوائل. ورفع من رؤية المسيح الإله المتجسد.

٦ - هوسكنز : HOSKYNs, SIR EDWYN CLEMENT

(١٨٨٤-١٩٣٧)

لاهوتي إنجليزي حديث محافظ تقي. عميد إحدى كليات كمبردج.

إشتهر بسبب مؤلفه «مسيح الثلاثة الأناجيل»، الذي فيه حاجج وبرهن أن المدعو «يسوع التاريخ» لدى البروتستانت الأحرار ليس يسوع التاريخ في شيء ولا يمت للتاريخ. ودافع عن الأناجيل بشدة ضد مدارس النقد وهو عقائدي، موضوعي المبدأ. للأسف مات دون أن ينتهي من الورقات الأخيرة في مؤلفه اللاهوتي في شرح إنجيل يوحنا الذي بدأه سنة ١٩٢٣، والذي أكمله له F.N. Davey سنة ١٩٤٠.

وقد عارض وحاجج النقاد. مُتّبناً وحدة وأصالة إنجيل يوحنا. وأبرز المعنى والمعيار اللاهوتي فيه ككل. جمع بين أسلوب الآباء القديسين مستشهداً بهم، وبين البحث العلمي الحديث برصانته ودقته. وقد كان لهذا العالم تأثيره الروحي على كافة طلبة اللاهوت في جيله، وترك أثره اللاهوتي

٧ — دود: DODD, Charles Harold

(١٨٨٤-١٩٧٣)

إنجليزي لاهوتي متخصص لدراسة العهد الجديد، خادم إنجيل للكنيسة. أستاذ لاهوت في مانسفيلد وأكسفورد ومنشستر وكامبردج.

تعيّن سنة ١٩٥٠ رئيس هيئة إعادة ترجمة الإنجيل. يتمسك بسلطان الإنجيل ويؤلف له، وبسلطان التقليد الرسولي والمناداة بالإنجيل. واهتم وكتب عن الأخريات كما جاءت في العهد القديم، وبتحقيقها في كلمات المسيح من جهة مجيء ملكوت الله، وكيف تمت بالتجسد وأثرها على البشرية. كذلك كتب عن خط الخلاص في المسيحية كما أعلنه الله على مدى التاريخ الكتابي وتحقق بقيامة المسيح. كما قدّم لكتابه عن إنجيل يوحنا سنة ١٩٥٣، وأضاف إليه أبحاثاً أخرى سنة ١٩٦٣ فيما يختص بالخط التاريخي.

وقد جاهد هذا العالم المتحفظ بأقصى طاقته لكي يملأ الفجوات التي استحدثها النقاد في إنجيل يوحنا من جهة الخط التاريخي فيه، ومنايع النصوص، ومدى أصالة النقل والتسجيل في حدود الإيمان، ولكنه تمشى مع العلم والعقل والمنطق إلى أقصى الحدود التي يسمح بها الإيمان، ولكنها خرجت به اضطراراً عن أصالة التقليد.

ويقرر هذا العالم في مقدمة كتابه للإنجيل هكذا: [لقد نحيت جانباً الأسئلة التي تختص بالنقد الخالص]، مما يفيد صدق إيمانه. كما كتب في خاتمة كتابه بحثاً مقتضباً للغاية عن الخط التاريخي لإنجيل يوحنا مدافعاً عنه قدر ما يحتمله «المنطق». كما أثبت هذا العالم المدقق [أن وراء إنجيل يوحنا تقليداً رسولياً أقدم في أجزائه من التقليد العام الذي يقف خلف الثلاثة الأناجيل الأخرى.] (٤)

٨ — باريت: C.K. Barrett

إنجليزي. لاهوتي. لغوي. أسقف دورهام. أصدر كتابه عن «شرح إنجيل القديس يوحنا» سنة ١٩٥٥ معتمداً على النص اليوناني. تشابك مع الفكر النقدي وظل يتأرجح بين إغراء الأخذ به والدفاع ضده. لذلك، فبالرغم من أصالة الشرح على النص اليوناني إلا أن الخلفية غير صلبة. وقد ظل مأخوذاً بآراء بولتمان Bultmann العالم الألماني الناقد الذي لا يؤمن بالمعجزات ولا بالحوارق،

4 C.H. Dodd: Hist. Trad. in the Fourth Gospel, p. 423.

ولكنه خالفه وقاومه في أمور كثيرة. وقد ردّ ردوداً قوية ومقنعة على نظرية إحلال بعض أجزاء في إنجيل يوحنا موضع الأخرى، وعلى نظرية دخول مؤلفين كثيرين للإنجيل غير كاتبه (أنظر كتابه ص ١٨-٢٠).

كما تحدى بولتمان في قوله إن القديس يوحنا فقد الرؤية الواضحة للكنيسة، لأن الكنيسة غير موجودة في إنجيل يوحنا في نظر بولتمان. فردّ عليه «باريت» في كتابه ص ٧٨ بقوله: [إن يوحنا كان أكثر وعياً من أي إنجيلي آخر بوجود الكنيسة]، مقدّماً صلاة المسيح من أجل كل من يؤمن بالمسيح في كل أنحاء العالم هكذا: [«ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم» (يو: ١٧: ٢٠). وعاد واستشهد بالمسيح في إنجيل يوحنا، حينما طوّب كل شعب المسيح الذين يؤمنون به دون أن يروا المسيح أو معجزاته: «لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوى للذين آمنوا ولم يروا» (يو: ٢٠: ٢٩). بل وفي بداية إنجيل يوحنا رفع القديس يوحنا الكنيسة الجديدة لتحل محل المرفوضة: «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله، أما كل الذين قبلوه — أي المسيحيون — فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون بإسمه» (يو: ١١ و١٢)، موضحاً أنهم ليسوا أولاد إبراهيم بعد بل أولاد الله] — أي المولودون له من الماء والروح.

٩ — رايغوند براون: Raymond E. Brown = وينطق ريمون بالفرنسية.

أستاذ لاهوت أمريكي في ولاية بلتيمور. عالم كاثوليكي متحرر.

أصدر شرحه لإنجيل يوحنا في جزئين ضمن مجموعة «أنكور بايبل» Anchor Bible (١٩٦٦-١٩٧١). ويقول عن نفسه أنه حصد ثمار أفضل الأبحاث والآراء التي خرجت لجميع المؤلفين كاثوليك وبروتستانت. عارضاً إياها ضمن آرائه الخاصة في عرض زاخر بالفكر. وهو، في مضمونه العام، تقليدي ومدافع عن أصالة الإنجيل وتقليده وتاريخه ضد جميع عناصر النقد لكافة الثقّاد مع هتّات لا يخلو منها الفكر الحرّ منها كان.

١٠ — لايتفوت: Lightfoot

لكي لا يرتبك القارئ الباحث في هذا الإسم، يلزم أن نفرق بين ثلاثة بهذا الإسم كلهم

إنجليز:

الأول: John Lightfoot

(١٦٠٢-١٦٧٥)

وهو يهودي ربي متنصّر — كان علامة زمانه وأسدَى أفضالاً في شرح نصوص العهد الجديد. وكان منجماً لذخائر المعرفة، لم يتفوق عليه أحد من بعده. وشغل مناصب رئاسية في جامعتي

الثاني : Joseph Barber Lightfoot

(١٨٢٨ - ١٨٨٩)

وهو أسقف دورهام - كان أستاذاً للاهوت . وأحد الذين راجعوا الإنجيل باليونانية - الإنجليزية . وقد اهتم بأبحاث العهد الجديد . واشتغل في إخراج مجموعة أبحاث الآباء الرسولين وأظهر في ذلك مقدرة علمية عالية .

ومن جهة إنجيل يوحنا فقد اشترك مع العلامة اللاهوتي الألماني Zahn (١٨٣٨ - ١٩٣٣) (وهو أيضاً أبائي محافظ بارع أَلَّف شرحاً لإنجيل القديس يوحنا سنة ١٩٠٨) . وقد اشترك الإثنان في مقالة ضد حاخام يهودي يدعى «بار صليبي» ، أوضحا فيها أصالة إنجيل القديس يوحنا وسمو مستواه الروحي والتاريخي . وأثبتا أن تاريخ كتابة إنجيل يوحنا لا يتعدى سنة ١٠٠ م .

الثالث : Robert Henry Lightfoot

(١٨٨٣ - ١٩٥٣)

عميد إحدى كليات أكسفورد ، وكتب كتابه في شرح إنجيل القديس يوحنا ، ولكنه توفي قبل أن يصدره وأخرجه له C.F. Evans سنة ١٩٥٦ . ويتميز بالدقة والحرص الشديد في البحث والرد على النُّقَّاد الشكليين . له إيمان مسيحي عميق صامت . وكان له تأثير تقوي بليغ على طلبة أكسفورد في أيامه .

١١ - شناكنبرج : Schnackenburg Rudolf

(١٩١٤ -)

عالم كاثوليكي ألماني - أستاذ لاهوت في جامعة فورزبرج . أخرج شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٩٦٥ . هو شارح للأسفار المقدسة قدير ، متحفظ تقليدي ، يسير في خطه الفكري حسب أصول تعليم الكنيسة بدقة وحسب أصول العلم بمنتهى الدقة . قد قيَّضه الله والتاريخ ليرد على أصحاب التحرر الفكري في النقد السلبي والشك كأساس لكل شرحهم ، أمثال «بولتمان» الذي يقول عنه قاموس أكسفورد : «قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية» في صفحة ٢٠٦ بالحرف الواحد : [وفي كتابه «عن المسيح سنة ١٩٢٦» تمادى في نقده إلى الحد الذي قرر فيه تجاهل وإنكار العمل الفدائي للمسيح بل وتعاليمه الأخلاقية - وذلك بمنتهى النقد والشك معاً ووضع ثغرة بل فجوة بل جفوة بين الإيمان والتاريخ . ونادى بجمتية إخلاء أسفار العهد الجديد من (الخرافات Entmythologisierung) . وهو لا يعتبر أن الميلاد البتولي من العذراء للمسيح ليس وحده هو

الخرافة فحسب بل إن الإنجيل كله مبنيٌّ على الخرافات]. هذا هو بولتمان المرجع الذي تهافت عليه جميع النقاد الذين شرحوا الإنجيل في أوروبا وأمريكا حتى اليوم.

نقول إن الله قيَّص لنا هذا العالم القدير شناكنبرج ليكبح جماح هؤلاء النقاد الذين أتلَّفوا الإيمان والكنيسة بإفراط.

وعن شناكنبرج يقول العلماء الذين باشروا بأبحاثه:

[إن «مشكلة إنجيل يوحنا» التي أزعجت وكدَّرت كل باحثي العهد الجديد إلى ما يقرب من مائتي سنة — قد أرسى هذا العالم حلولاً لها. وفوق الأسئلة المطروحة للبحث والفحص التي تخص إنجيل يوحنا مثل علاقته بالثلاثة الأناجيل الأخرى واختلاف تكوينه الكلامي من جهة الشكل والمصادر التي يعتمد عليها، كان ولا يزال الهمُّ الأول — الذي أغفله جميع النقاد — هو رسالته الروحية كأساس للديانة. وهذا المجال عينه هو الذي اهتم به شناكنبرج في إنجيل يوحنا: «فهو شرح لاهوت». وإن كان لم يضع ثقله على المشاكل اللفظية والكلامية أو المقارنات أو الأحوال التاريخية، إلا أنه عرض لها وخاض فيها بقدر ما يمكن أن تعطي معرفة أفضل لرسالة الخلاص المذاعة في هذا الإنجيل الذي أثبت أنه أغنى الأناجيل].

وشناكنبرج هو صاحب المبدأ القائل: [الذي يهمننا للغاية هو قصد كاتب الإنجيل وليست آراؤنا نحن فيما كان لازماً عليه كيف يدوّن إنجيله بحسب معاييرنا نحن عن التاريخ]^(٥). علماً بأن هذا العالم استشهد بجميع كتب الآباء القديسين الأوائل ولم يترك مرجعاً كنسياً واحداً إلا واستشهد به.

٢ — مدارس شرح إنجيل القديس يوحنا في الوقت الحاضر:

(بحسب رؤية العالم شناكنبرج)

أولاً: المدرسة الألمانية النقدية:

وقد وضع بولتمان بضمته عليها، فهي لا تزال تحت تأثير شرحه لإنجيل يوحنا الذي أرجع أصوله إلى التعاليم الغنوسية، وجرّده من أسمى ما فيه بدعوى تنقيته من الخرافات، وعلى الأخص إلغاؤه لحقيقة الفداء. وقدم تحليله ببراعة العقل الذي أخذ بالعقول. وبحسب رأينا فإنه أحلَّ حذق النقد بدل قناعة النعمة. ويعتبره العلماء المفتونون به أنه بلغ القمة في أسلوب الشرح اللاهوتي التقدمي.

⁵ Schnackenburg, op. cit., p. 24,25.

أما رأي المتحفظين والكنسيين من زملائه الألمان^(٦)، فهو أنه قد أصاب الذين يتبعونه بالغثيان بسبب تعقيداته في إرجاع أصول الإنجيل إلى عديد من الجذور اليونانية والغنوسية وحتى الإيرانية والوثنية!!، مما جعل حل النقد الذي طال زمنه في هذا المجال فوق الإحتمال. وقد صيغ بولتمان طريقة شرحه وتفسيره لبشارة القديس يوحنا بالوجودية، وأقام لاهوته على التطبيق الوجودي أي مواجهة لاهوت المسيح بالواقع العملي في الحاضر الزمني بالنسبة للإنسان. أما كيف يكون ذلك مع أنه جرّد اللاهوت من عمل النعمة والإعجاز وتدخّل الله الفائق، فهذا وإن كنا نندهش له، إلا أن هذا – رغمًا عن أنفسنا – صار موضة العصر في شرح إنجيل يوحنا عند المدرسة الألمانية النقدية ومن يتبع رأيها وهم الأكثرون.

ثانياً: المدرسة الإنجليزية التقليدية:

وهي قائمة على أعمال رجال عظماء حقاً تبوأوا المراكز العليا في الكنيسة وفي العلم والتقوى بالدرجة الأولى. وأهم هذه الأعمال هي للعالم «هوسكنز» و«دودد» من الأنجليكان. وقد تبوّأت مركزاً سامياً بسبب التزامهم بالتقليد والآباء. وقد بقيت مدرستهم حيّة حتى هذا اليوم علماً بأنها استقت أصولها التقليدية الرزينة ممن سبقوهم مثل العالم «وستكوت» الذي لا يزال شرحه منذ ٨٠ عاماً متداولاً حتى اليوم. وقد نأت المدرسة الإنجليزية بنفسها حتى اليوم عن التحليل والنقد الحرفي.

وفي مواجهة المدرسة الألمانية الحديثة، قام العالم الإنجليزي التقي الأسقف باريت C.K. Barrett وقدم شرحه اللاهوتي الدقيق القائم على أصول الشرح التقليدي عند الإنجليز وهو التعمق في النص والالتزام بمعنى الكلمات والآيات في مواضعها. ويُعتبر شرحه عملية موازنة رائعة وملفتة للأنظار بحسب رأي شناكنبرج الألماني. كذلك العالم اللاهوتي جون مارش عميد كلية مانسفيلد في أكسفورد الذي قدم شرحه سنة ١٩٦٨.

ثالثاً: المدرسة الألمانية التقليدية:

ويتزعمها فريقان متفقان: الفريق البروتستانتي وأهم علمائه:

Kümmel, T. Zahn, A. Schletter, F. Büchcel

والكاثوليك وأهمهم شناكنبرج. وهؤلاء يقفون الآن في مواجهة هذا التيار النقدي العنيف يصدونه بأقصى قدر من الدراسة والمعرفة والإتزان مع تمسكهم بالإيمان الصحيح والتقليد. ويساندهم بالطبع

الكاثوليك من أوروبا وأمريكا أمثال: Raymond E. Brown, Xavier Léon-Dufour, S.J.

ولاجرانج Lagrange

⁶ Schnackenburg, op. cit., p. 211.

وعلى العموم فإن المدرسة الحديثة التقليدية انتحت ناحية الشرح اللاهوتي لإنجيل يوحنا متمسكة بالنص وبالمعنى الحرفي للكلمة والآية قبل كل شيء، لتُخرج الكنوز المخفية في هذا الإنجيل.

وإلى هنا نكتفي بهذا القدر الضئيل من عرض كتب الشرح لإنجيل يوحنا عند الغرب والتعرف على أهم شارحيها. والذي يريد أن يدرس إنجيل يوحنا لا يستثقل مشقة البحث. وطالما كان القارئ أو الباحث والشارح متسلحاً بالإيمان عن وعي مسيحي، فسوف يسخر له الروح معرفة الحق مها اختفت وراء الأغلفة التي يصطنعها العقل البشري.

الفصل الثالث

النقد الموجّه لإنجيل القديس يوحنا

والرد عليه

كنا نود أن لا نشغل فكر القارئ القبطي، وهو بوجه عام صاحب فكر إيجابي وتقليدي، بهذا الموضوع المثير. ولكن إذ قد أقحم على الكنيسة في كل العالم وبالتالي على جميع المؤمنين، شاءوا أو أبوا، هذا الصراع الخاص بالخط التاريخي في إنجيل يوحنا؛ وذلك ليس من طرف معلم واحد أو مدرسة فكر معينة، بل من جميع مدارس اللاهوت في كافة أنحاء العالم حيث يتزعم هذا الفكر جماعات من ألمع أساتذة اللاهوت ومن جميع الطوائف في أوروبا وأمريكا على السواء؛ لذلك فإننا ونحن لا نريد أن يظل القارئ والدارس القبطي خالي الذهن من جهة هذا النقد، بل هذا الصراع الفكري العالمي، خاصة وأن كثيرين من شبابنا وربما بعض رجال الكهنوت يدرسون في هذه المعاهد أو ينقلون عنها؛

لذلك، حاولنا عرض خلاصة لنواحي هذه الدراسات النقدية، والرد عليها قدر الإمكان.

ويقدم لنا العالم اللاهوتي الأمريكي الكاثوليكي «رايموند إي براون» Raymond E. Brown ملخص هذه الإنتقادات في مقدمة كتابه الحديث في إنجيل يوحنا في الجمل الآتية:

[في نهاية القرن السالف وفي السنين الأولى من القرن العشرين الحالي، دخلت مدارس المعرفة في حقبة من التطرف الشكّاك نحو هذا الإنجيل (إنجيل يوحنا). وقد وضعوا تاريخاً لكتابته متأخراً للغاية، إذ جعلوه من إنتاج منتصف القرن الثاني الميلادي، كما ادّعوا أنه نتاج الفكر اليوناني، وجرّدوه نهائياً من أي قيمة تاريخية مدّعين أن لا علاقة له بيسوع الناصري إلّا في القليل: وحتى النواة الصغيرة التي تمتّ للحقيقة التي اتخذها المؤلف أساساً لعمله هي في اعتقادهم منقولة من الثلاثة الأناجيل... ومن نافلة القول أن نذكر أن قلّة من الناقدين هم الذين كانوا يعتقدون أن هذا الإنجيل يحمل مجرد ظل علاقة بيوحنا بن زبدي

الرسول والتلميذ. وإن بعضاً من هذه المواقف الشكّائية وبالأخص المتعلقة بكتابه،
والمصادر التي أخذ منها مادته لا تزال تتردد في تأليف بعض من المع العلماء حتى اليوم.

ولكن المكتشفات الأثرية والبردية من النصوص القديمة التي ظهرت أخيراً، وقد أصبح
لها الأثر البليغ غير المرتقب؛ جعلتنا نتحدى، عن علم وأصالة فكرية، كل وجهات النظر
النقدية التي كانت قد وظّدت أقدامها وأخذت طابع الرسوخ ظلاماً. والآن، أدركنا كم
كانت الأسس التي بُنيت عليها هذه التحاليل الشكّائية الضخمة أنها تافهة وقابلة
للكسر. [١]

ولا يزال أمامنا الهجوم السافر الذي بلا أي أساس الذي قام به «كيرسوب ليك»
Kirsopp Lake منذ أربعين سنة فقط، وها نحن نورده بالحرف الواحد:
[إنجيل يوحنا قد يحتوي على متناثرات قليلة من التقليد الحقيقي، ولكن على العموم هو قصة
خيالية تعتمد على الوهم (كذا).] [٢]

وقد علق على قوله هذا أحد اللاهوتيين التقليديين المدافعين عن الإنجيل وهو العالم هنتر
A.M. Hunter بقوله: [هذا الحكم لا نسمعه عادة إلا بخصوص كتب الهرطقة].

ولكن بعد ذلك ليس بكثير، بل وفي غضون ثلاثين سنة، ردّ عليه العالم الباحث دودد
C.H. Dodd في بحثه الذي أخرجه عن: «التاريخ في إنجيل يوحنا» بقوله: [إن وراء إنجيل يوحنا
تقليداً قديماً — أقدم من الثلاثة الأناجيل، ومستقلاً عنهم، هو جدير بالتقدير التام لخطورته، لأنه
سيعيننا في التعرف على الحقائق التاريخية التي تخص الرب يسوع المسيح.] [٣]

كما ينتهي هذا العالم الأمريكي الكاثوليكي في بحثه لإنجيل يوحنا في طبعته الأخيرة سنة ١٩٨٤
إلى الحقيقة الآتية: [ونحن نؤمن أن إنجيل يوحنا يقوم على تقليد راسخ من الأقوال والأعمال
للمسيح. وهذا التقليد في بعض نواحيه واضح أنه أصيل وأولي. كما نؤمن أن إنجيل يوحنا يعطينا
معلومات تاريخية صحيحة عن المسيح لم يحتفظ بها أي من الأناجيل الثلاثة.] [٤]

1 Brown, Raymond, p. XXI.

2 Albert Schweizer Jubilee Book p. 431.

3 Dodd, C.H., The Hist. Trad. in the fourth Gospel, p. 433.

4 Brown, Raymond, op. cit., p. 41.

أولاً: المصادر المزعوم أنها أثّرت على القديس يوحنا في كتابة إنجيله

وسنعرض أولاً إلى الإدّعاءات التي تقول أن إنجيل يوحنا أخذ مادته من أصول غير مسيحية.

وبادىء ذي بدء نقول:

إن إنجيل يوحنا كُتب باللغة اليونانية، وفي مدينة أفسس إحدى مواطن الحضارة اليونانية. وقبل أن يدخلها القديس يوحنا الرسول بحوالي ٥٠٠ سنة، كان فيها الفيلسوف هيراكليطوس Heraclitus أول من استخدم لفظة «اللوعس» أي «الكلمة». لذلك يظن كثير من العلماء أن بعض أسفار العهد الجديد مدين نوعاً ما للفلسفة اليونانية، كما تمادى غيرهم من العلماء في اعتبار إنجيل يوحنا يردد أفكاراً لأفلاطون مثل قوله: «أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق.» (يو: ٨: ٢٣)

Υμεις εκ των κάτω εστε, εγω εκ των ανω ειμι.

كذلك «الخبز الطبيعي Natural»، و«الخبز الحقيقي Real».

غير أنه لا تقلقنا هذه التصورات؛ فالأفلاطونية كانت تملأ جو العالم آنئذ، وقد رشح منها كثير من الإصطلاحات في التعاليم العبرية.

كما أتى غيرهم من العلماء مَنْ قال إن إنجيل يوحنا أخذ عن «فيلو» الفيلسوف اليهودي الإسكندر المعاصر للمسيح وللقديس يوحنا الرسول. ولكن لم يستطع أحد قط أن يبرهن هذا الزعم^(٥). فلقد ظل الفيلسوف اليهودي حامل الصيت حتى في أيام زمانه، بينما صار إنجيل يوحنا وهو تحت الفحص المجهرى نحو أُلّفي سنة شامخ الرأس، يسك بناصية عالم الروح والإيمان والحب والعبادة والتصوف المسيحي واللاهوت، في أعلى وأعمق مُدركاته!!

١ - فلسفة هيرميس وإنجيل يوحنا^(٦):

كثير من العلماء، ومنهم C.H. Dodd، غرّتهم المشابهة بين الكتابات التصوفية التي نشأت في مصر المسماة Hermetic writings، وكان لها أتباع رحيون وفلاسفة. ونحن لا نستخف بهذا التراث، ولكن التحقيقات أثبتت أنه من عصر متأخر عن زمن الإنجيل.

هذه الكتابات تأخذ اسمها من الإله المدعو Hermes Trismegistus، وهو اللقب اليوناني للإله المصري توت Thoth، وتعاليمه عبارة عن عدة رسائل أهمها الرسالة المدعوة Poimandres،

⁵ Hunter, A.M., Accord. to St. John, p. 33.

⁶ Ibid., p. 24.

وهي لجماعة الهرماتيين الذين كانوا يعيشون في مدينة الأقصر بصعيد مصر كجماعة إخوة روحيين fellowship حوالي القرن الثاني الميلادي^(٧). وكانت لهم مواهب روحية فائقة. وهم يُعتبرون الورثة الشرعيين لحكام مصر وأسرارها. وفلسفتهم تخلط بين الأفلاطونية والرواقية الهلنسية مع موارث الشرق، سواء الهند أو مصر، لتخرج بتعاليم تصوفية عن الخلاص بالمعرفة.

وبالرغم من وجود بعض انطباقات بين هذه التعاليم وبين إنجيل يوحنا، إلا أن تاريخ هذه التعاليم لم يتحقق تزامنه مع إنجيل يوحنا. فهي لا تزال محصورة بين القرن الثاني والقرن الثالث بعد الميلاد. لذلك، فمن المستحيل القول بأن إنجيل يوحنا اقتبس من اصطلاحاتها، بل ربما العكس. ولقد تأكد ذلك بعد ظهور بعض الآثار المكتشفة حديثاً، والتي توضح أن هذه الكتابات المنسوبة لهذه الجماعات أخذت وجودها باللغة اليونانية بعد القرن الثاني^(٨).

٢ - الفلسفة الغنوسية وإنجيل القديس يوحنا : Gnostics

كان العالمان «رايتزنشتين» Reitzenstein و«بوسيه» Bousset أول من نادى بالتأثير الذي جرى على إنجيل يوحنا من الغنوسية وفلسفتها، وذلك في السنين الأولى من القرن العشرين. وقد تبنت نظرتها بشيء من الإصرار والتمادي كل من العالمين W.Bauer & Bultmann. وذلك في العصر الحديث.

والمسألة الغنوسية مسألة عويصة ومعقدة. وقد قرر العالم J. Munck^(٩) أن: [الغنوسية كمصطلح علمي لم يُقبل حتى الآن بوجه عام بتحديدات علمية مُتفق عليها]. وكل ما هو معروف منها الآن هو الثنائيات التي تقوم عليها كأساس لكل تعاليمها.

والغنوسية تؤمن بالوسائط المتعددة بين الله والإنسان، ومنها وسائط معادية. وهي تقول بأن النفس البشرية هي شرارة إلهية حبيسة المادة، وأن المعرفة وحدها كفيلة بأن تخلص النفس من الشرور وتوصلها إلى النور، وأن الذين يبلغون ذلك قليلون. وهي فلسفة معقدة على العموم، وكانت محدودة بين الذين يعرفونها.

وفلسفة الغنوسية تقوم، مثل جميع ديانات الفراعنة والشرق القديم، على فكرة أن الله سيخلص العالم بواسطة عملية موت وقيامه حيّة، وأن الداخلين في هذه الديانات عليهم أن يمارسوا طقوساً

⁷ Wagner, O.H., U.S.A. The Light of Egypt. T.H. Burgoyns, 1889, 2 Vols.

⁸ Hunter, A.M., idem.

⁹ CINTI (Current Issues in New Testament Interpretation), New York, 1962.

وأسراراً معينة تختلف باختلاف الديانة والعصر لكي يصيروا معدودين لهذا الإله، وأنهم سيقومون بعد الموت بقوى كوكبية تحفظهم من الموت. فالخلاص عند الغنوسيين لم يكن أكثر من تأملات وتعاريف ومسرّات عقلية وممارسات تصوفية، كانت تقتحمها قوى سحرية ينهزم أمامها العقل.

وواضح أن المسيحية، وبخاصة إنجيل يوحنا، تقف كواقع تاريخي مشاهد، مشهوداً له وفقاً بالروح؛ في مقابل هذه القصص الخرافية التي من نسج الخيال والتي لم تكن إلا إرهافات من الروح البشرية وهي تنزع إلى الخلاص، الذي كان قد أعدّه الله، وسبق وتنبأ عنه جميع الأنبياء القديسين منذ القِدَم، ولكن بصورة معتمة جداً.

وماذا حدث بظهور إنجيل يوحنا؟ لقد انحسرت كل هذه الديانات، وتلاشت كما تتلاشى الخرافة أمام الحقيقة، لأن إنجيل يوحنا – وإن كان قد استخدم بعض ألفاظ أو اصطلاحات الغنوسيين – فقد كان ذلك لأنه كان يكتب إلى الوسط الذي كانوا يعيشون فيه وأثروا عليه، بل وكان يكتب لهم هم أيضاً ولكثير من المسيحيين الذين كانوا قد انضموا إليهم. وأقوى تشبيه عملي يمكن أن نقدمه لهذه المقابلة بين المسيحية في إنجيل يوحنا والغنوسية، هو ما جاء في سفر الخروج بخصوص الحقيقي والسحري هكذا: «وَقَعْلًا هَكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ: طَرَحَ هَرُونَ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عِبِيدِهِ فَصَارَتْ ثَعْبَانًا. فَدَعَا فِرْعَوْنَ أَيْضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عِرْفَاوُ مِصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ، طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتْ الْعِصَى ثَعَابِينَ. وَلَكِنْ عَصَا هَرُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَّهِمْ.» (خر: ١٠-١٢)

وهكذا عاشت المسيحية وتنصّر الغنوسيون، وعاش إنجيل يوحنا وصار دستور الإيمان لكل مسيحيي العالم. واندثرت الغنوسية بكل تعاليمها وكتبها.

وإن كان إنجيل يوحنا قد تأثر كذلك ببعض الأفكار والعبارات اليونانية، فيقول العالم باريت (١٠): [وهل ننسى أن فلسطين كانت جزءاً من العالم اليوناني؟ وكلٌّ من العنصر الفلسطيني الحر واليوناني الحر أيضاً هو موجود في كافة أسفار العهد الجديد، ولا يمكن فصلها، ولكنها ملتحمان معاً ومتفقان معاً في إبراز شخص يسوع المسيح. ولم يكن إنجيل يوحنا وحده الذي ظهر فيه العنصر اليوناني، فالعنصر اليوناني كان قد ضُغَط بشدة على المضمون والشكل للتراث اليهودي].

ولكن بظهور مخطوطات وبرديات نجح حمادي سنة ١٩٤٦ وهي مكتبة للغنوسيين، عُثِر فيها على إنجيلهم الأساسي إنجيل الحق، وإنجيل توما مترجماً بالقبطية عن اليونانية، وفيها شخصية المسيح

¹⁰ Barrett, op. cit., p. 32.

بأوصاف مزيفة تطابق تعاليمهم؛ بهذه المكتشفات أصبحت المقارنة سهلة وواضحة بين إنجيل يوحنا وهذه المزيّنات الهلينية الأصل، كما تأكّد أن زمان انتشار هذه الفلسفة كان في القرن الثاني، أي بعد إنجيل يوحنا، وإن كان يُعتقَد أن لها جذوراً وثنية أقدم. ويقول العلامة «و. ف. ألبرايت» W.F. Albright (١١) أن هؤلاء الغنوسيين الذين شغلوا بال آبائنا القديسين إيرينيوس وهيبوليتس مدة في مواجهات ساخنة، هم في حقيقتهم أسوأ بكثير مما ظنّوهم، فالخط الوثني ظاهر في تعاليمهم. وإنجيل يوحنا يحمل ضمناً ما يصلح أن يكون قطعاً لخط الرجعة على جميع تعاليمهم. وكذا تعاليم الدوسيتيين الذين كانوا يدّعون أنهم فرع من الغنوسية أيضاً. كل هؤلاء شجبهم إنجيل يوحنا دون مواجهة.

٣ - المانديون وإنجيل القديس يوحنا:

المانديون يدعون أيضاً بالناصرين Nasareans أي «النصاري». وأصل تسميتهم Manda من كلمة «ماندا» التي تعني «المعرفة»، أي جماعة المعرفة. وهم قسم من الغنوسيين يتخذون القديس يوحنا المعمدان شقيقاً لهم ويعتبرون أنفسهم من أتباعه. وبعض من هذه الشيعة لا يزال يعيش إلى الآن في جنوب العراق. وعندما قام العلامة الألماني «ليدزباركي» Lidzbarki بترجمة كتبهم (١٩١٥-١٩٢٥)، وأهمها الجنزا أو الكنز Treasure وهو من القرن السابع، ظهر فيها بعض ألفاظ متشابهة مع إنجيل يوحنا مثل الحياة والنور والمجد ورموز الماء والخبز والراعي، وتعاليم عن فاد نزل من السماء إلى عالم الظلمة ليبارس الفداء لأتباعه قبل عودته إلى السماء. وفي الحال انتشرت حتمى «الماندية» بين العلماء، إذ وجدت كل أدوات التشابه في التعليم مع إنجيل يوحنا. وأشد من أصابت هذه الحتمى كان هو العلامة الألماني «بوتمان» للأسف، الذي ظن، بل أقدم على القول، أن هذه الشيعة أقدم من المسيحية؛ ولكنه لم يستطع أن يوفر لهذا الظن أي برهان. إذ أن كل ما يعرفنا عن هذه الشيعة إنما هو كتابات القرن السابع الميلادي، حيث لا يُذكر فيها القديس يوحنا المعمدان بإسمة الإنجيلي بل بإسمة العربي «يحيى» بن زكريا. والمعتقد أن هذه الشيعة فرع شارد من المسيحية، وأتباعها من أشد أعداء المسيحية. وكانوا يدعون أنفسهم «نصاري» وقت الغزو الإسلامي حتى يهربوا وراء «أهل الكتاب». وكانت لهم صلة بجماعة الإيبينيين (١٢).

ومن أسرارهم تكرار المعمودية لمساعدة الروح على ترك الجسد بعد الموت. ولكن للأسف ليست أمامنا مراجع كافية لكشف الغطاء عن هذه الجماعة، لأن كل مراجعهم لا تزال باللغة الألمانية،

11 Albright, W.F., The Background of the New Testament and its Eschatology, Cambridge University Press, 1965, p. 162.

12 Hunter, A.M., op. cit., p. 23-33.

إلا مرجع مختصر للمؤرخ العلامة نياندر^(١٣) مترجم إلى الإنجليزية، وهو الذي أعطانا صورة مبسطة عن العلاقة القائمة بين «الإبيونيين» Ebionites والنصارى أي «المانديين» الذين كانوا يقدّسون يوحنا المعمدان وينسبون إليه كل مواهب إيليا، لما كانوا يعتبرون أورشليم (قبل خرابها) أنها مدينة الله. وكانوا يعيشون على أمل عودة المسيح السريعة ليعيد لأورشليم أمجادها وملوكيتها لحكم الألف سنة (هكذا). وقد كان الإبيونيون بؤرة فساد بالنسبة للشعب المسيحي الذي تأثر بهم.

ويمدنا أوريجانوس^(١٤) - بصفة خاصة - ببعض الأخبار عن وجود بقايا لهم (في زمانه) في فلسطين. واستطاع أن يعرف أنهم قسمان: قسم يؤمن بميلاد المسيح الإلهي من العذراء، وقسم يرفض ذلك. كذلك يمدّنا جيروم^(١٥) بمعلومات تفيد أن جماعة أخرى منهم كانت تعيش في «بيريه» بسوريا في القرن الرابع، وكانوا يُعرفون باسم «النصارى» Nazareth، وكانوا يقاومون العزوبية ويأمرون بالزواج، وهؤلاء هم الذين عُرفوا بعد ذلك بالماندية.

٤ - مخطوطات وادي القمران وإنجيل القديس يوحنا:

وهي الكتابات التي اكتُشفت حديثاً في التلال المطلّة على البحر الميت. وأهم هذه المخطوطات هي: «منهج التلمذة» وهو كتاب قوانين الجماعة، و«العهد الدمشقي»، و«شرح على حبقوق»، و«دَرَج التطويبات»، و«دَرَج الشهادات»، و«حرب أبناء النور ضد أبناء الظلمة». وهذه المخطوطات تحمل بقايا تعاليم حياة الأسينيين، وهم جماعة رهبان اليهود، وتعاليمهم يهودية تقدمية تقترب من تعاليم العهد الجديد، ومن إنجيل يوحنا بصفة خاصة. وتغطي هذه الكتابات حقبة زمنية تنحصر بين نهاية القرن الثاني قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي. وربما يكون القديس يوحنا قد اطلع على شيء منها.

وأول عالم جمع بين تعاليم هؤلاء الأسينيين وبين إنجيل يوحنا، هو العالم K.G. Kuhn، وذلك سنة ١٩٥٠. وأهم هذه التعاليم، المتقابلات: أولاد النور وأبناء الظلمة، الخير والشر، الذين يعملون الحق علماً بأن الحق لا يُعمل بل يُعرف فقط في المنهج الفكري اليوناني. إذن، نحن في عمق تراث العهد القديم حيث يتركز تعليمهم: «كل مَنْ يعمل الحق يكره الخطأ»، و«كل مَنْ اختار الخطأ فهو يسلك في الشر ويخاف من الحق». هذه الإصطلاحات قريبة من لغة إنجيل يوحنا.

ولكن الروابط بين هذه الكتابات وبين إنجيل يوحنا تبدو ضعيفة. فزعماء النور وزعماء الظلمة

¹³ Neander, General Ch. Hist., vol. II, 13-34.

¹⁴ Origen, C. Cels., I, V, c. 61.

¹⁵ Hieronymos, Commentar in Jsai. I. IX. c. 20.

هي مخلوقات في تعاليم القمرايين – فزعيم النور هو ملاك – ولكن في إنجيل يوحنا النور مشخّص في المسيح ابن الله؛ كذلك فإن معركة أبناء النور ضد أبناء الظلمة لن تنتهي إلا بالمعركة الفاصلة القادمة، وهي عقيدة يهودية عامة من حيث المبادئ العامة التي تحكم العالم. أما في إنجيل يوحنا فهذه المعركة انتهت على الصليب بالنصرة الأبدية لحساب النور وأبناء النور، وبالقيامة داس المسيح على رأس رئيس الظلام وكل جنوده. «الآن النور يضيء»!! «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (يو ١٢: ٣١)

وعندما قال القديس يوحنا في الأصحاح الأول أن «النور الحقيقي» كان آتياً إلى العالم لم يقصد نور المعرفة أو نور معرفة الناموس ولا نور الفكر، إنما نور الحياة الأبدية، نور استعلان الخليقة الجديدة «الجالسون في الظلمة وظلال الموت أشرق عليهم نور» نور الحياة!! هذه هي الحياة الجديدة بالروح. هذا الفهم بعيداً غاية البعد عن مفهومات وادي القمران بالنسبة للنور وأبناء النور وحرّب أبناء النور!!

فإذا كان رد القمرايين على السؤال كيف أصير «ابناً للنور»؟ هو بأن أسلك بجرّفة الناموس وأتتلمذ لمعرفة التوراة! فإن ردّ إنجيل يوحنا هو أن أؤمن بالمسيح!! وبالإختصار، فالفارق الأعظم بين تعاليم وادي القمران وإنجيل يوحنا هو شخص يسوع المسيح ابن الله المتجسد. وهذا غائب عن فكر، بل وعن خيال عبّاد وادي القمران.

إن الضبّعة الكبرى التي واكبت اكتشاف مخطوطات وادي القمران قد خمدت بعد التمعن فيما تعنيه الكلمات والمسمّيات والإصطلاحات. فهي وإن كانت متشابهة مع إنجيل يوحنا، ولكن مدلولها يختلف اختلافاً لا وفاق فيه على الإطلاق.

ه – فيلو العلّامة اليهودي وإنجيل القديس يوحنا:

لقد وُلد العلّامة فيلوس سنة ٢٠ قبل الميلاد، وتوفي سنة ٤٩ ميلادية. وهو إسكندري المولد والوطن. وقد آل على نفسه أن يصالح العبرية والهليلينية، ونحو هذه الغاية ركّز كل كتاباته الغزيرة، شارحاً وموضحاً المعاني الدفينة التي احتوتها نصوص العهد القديم بطريقة روحية فلسفية تجريدية لا تخلو من إبداع.

وقد امتد أثره امتداداً ضعيفاً لا يُذكر بين يهود الإسكندرية، ولكن بلغت تعاليمه، عن طريق الصدفة، إلى مدينة أفسس بأسيا الصغرى بنزوح أحد تلاميذه إلى هناك، وهو أبُلُوس المذكور في سفر أعمال الرسل (أع ١٨: ٢٤ و ٢٥): «ثم أقبل إلى أفسس يهودي اسمه أبُلُوس إسكندري الجنس رجلٌ فصيح مقتدر في الكتب. كان هذا خبيراً في طريق الرب، وكان وهو حار بالروح يتكلم

ويعلم بتدقيق ما يختص بالرب عارفاً معمودية يوحنا فقط» .

وقد كان، في غالبية الأمر، تلميذاً لفيلو قبل أن ينتهي في علمه بأسفار العهد القديم إلى حقيقة الرب يسوع المسيح. وعن طريق أبُلُوس هذا، عرفت أفسس شيئاً عن اللوغُس الذي اتَّخذه فيلو أساساً لشرح التوراة وعماداً لمذهبه اللاهوتي الفلسفي .

ولكن ليس هذا معناه أن أبُلُوس أو فيلو أخصب إنجيل يوحنا بمعرفته الفلسفية، ولكن كل ما يمكن أن يُقال أن كل استفادة القديس يوحنا لا تخرج عمّا استفادته الكنيسة من أبُلُوس قبل أن يعتمد ويقبل المسيح على يدي أكيليا وبريسكلا. أو كما كان بولس الرسول وعاءً صالحاً لقبول معرفة الرب يسوع المسيح بسبب غيرته على معرفة الله والحق. أي أنه بسبب ما أضفاه فيلو من معرفة روحية بالأسفار المقدسة، وبعد ما أرساه القديس بولس الرسول أيضاً، فقد تهيأ لأهل أفسس استعداد صالح لقبول إنجيل يوحنا بمستواه اللاهوتي الفائت . .

وقد كان فيلو يهودياً مُخْلِصاً لميراثه يدين بالخضوع الكلي للتوراة، معطياً إياها السلطان المطلق. ولكنه كان يطرق الآيات بفكر قد تشبَّع بالفلسفة الأفلاطونية الرواقية إلى الدرجة التي استطاع أن يحوّل فيها كل اصطلاح طقسي أو ناموسي في التوراة إلى إحساس روحي محض، كذلك يحوّل كل إحساس روحي إلى اصطلاح أفلاطوني رواقي. وكان يجني من عمله هذا تركيبة عظيمة للديانة اليهودية لدى العالم اليوناني.

ولكن هناك فرق شاسع بين مذهب فيلو الذي يرفع حقائق التوراة إلى المثال المطلق الأفلاطوني، وبين إنجيل يوحنا الذي يقدم المثال المطلق الإلهي في حالة متجسدة ملموسة ومنظورة.

فثلاً، نحن نجد في كلِّ من إنجيل يوحنا وكتابات فيلو هذه الحقيقة: «الله نور». أما فيلو فقد التقطها من المزمور «الرب نوري وخلصي» (مز ٢٧: ١)، فرفع هذه الحقيقة إلى فكر تأملي مجرد، قرر بعده أن «الله نور» ثم استرسل في هذا المعنى، ثم يستخرج بطريق المنطق ما يلي: [بما أن الله هو النور فهو يرى ذاته، وهو قادر أن يعلن عن ذاته. وبما أنه بالنور يرى النور (اقتباس من مزمور آخر)، فالله لا يمكن أن يرى إلا بواسطة الله]. والذي يقرأ هذا، يظن أنها مطابقة إلى حد ما لما جاء في إنجيل يوحنا: «أنا هو نور العالم»، «من يتبعني فلا يمشي في الظلمة»، «أنا أشهد لنفسي وشهادتي حق»، «ولا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب إلا بي». ولكن بالرغم من المشابهة المعنوية إلا أن هناك خطأ فاصلاً يفصل كلام فيلو المصنَّع عن كلام إنجيل يوحنا الصادر من منبع النور؛ كما تفصل العين الحاذقة الوردية الصناعية عن الوردية الطبيعية الحيّة. فيلو يتكلم عقلياً عمّا استطاع

أن يدركه بالتأمل، وإنجيل يوحنا يتكلم الله فيه عن نفسه كنور حقيقي أظهر ذاته للعالم، فاستنار؛ كما فتح عينني المولود أعمى فرأى نور العالم. فأية مطابقة هذه تلك التي يراها النقاد بين فيلو والإنجيل؟

كذلك فإن كُلاً من فيلو والإنجيل يقول إن: «الله ينبوع ماء حي»، وبهذا يمكن أن يقع الناقد في ضلالة الإقتباس، أي اقتباس الإنجيل من فيلو! ولكن فيلو قرأ آية إرميا النبي: «تركوني أنا ينبوع المياه الحية» (إر ٢: ١٣)، التي تُقرأ أيضاً «ينبوع الحياة». ثم تأمل فيلو في مفهوم الماء، وفي الحال قال إن الماء هو كلام التوراة، أي الحق أو الحكمة أو الحياة ذاتها، وانتهى بذلك فيلو إلى القول أن الله هو المصدر أو الصلة الأولى أو المثال الأول للحياة والحق والحكمة.

فمن يقرأ لفيلو هذا الكلام يتذكر قول الإنجيل: «من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو ٤: ١٤). وهنا أيضاً يظهر الفارق الشاسع بين الإثنين، فالأول كرسام يرسم الماء على الحائط للعطشان، والثاني يقدّم ماءً حقيقياً يروي العطشان رياً. وهنا المسيح إنما يحقق قول إرميا النبي، لأنه قد جاء ليكمل النبوة بالفعل والعمل. فإرميا كان يتنبأ عن المسيح، فإذا تكلم المسيح بما قال إرميا فهو إنما يتكلم عن نفسه بالحق، فهو صاحب العهد القديم بكل نبواته: «فإن شهادة يسوع هي روح النبوة» (رؤ ١٩: ١٠). ولكن إذا تكلم فيلو عمّا قاله إرميا، فهو، في حقيقة الأمر، يتكلم عن المسيح، ولكن دون أن يدري^(١٦).

٦ - أسفار الحكمة وإنجيل القديس يوحنا:

الأسفار التي تتكلم عن «الحكمة» في العهد القديم إما من الأسفار المعتمدة من الأسفار القانونية الأولى مثل سفريّ الأمثال والجامعة، أو من تلك الأسفار المعتمدة أسفاراً قانونية ثانية مثل سفريّ الحكمة وحكمة يشوع بن سيراخ، أو من الأسفار غير القانونية ولكن المعتمدة لدى الباحثين مثل سفر أخنوخ.

ومن قراءة هذه الأسفار يتضح لنا أن إنجيل يوحنا كان في تقديمه للمسيح قبل التجسد بأنه هو «الكلمة» و«الإبن الوحيد» مُشخّصاً تشخيصاً كاملاً، أي بلغة اللاهوت كأقنوم إلهي قائم في الله ومع الله، كان ذلك بإلهام الروح القدس الفائق، بحيث لم تخرج أوصافه عن الخط النبوي الذي

¹⁶ - ICC, Bernard, pp. 93,94.

- Hoskyns, op. cit., p. 158.

- Dodd, C.H., op. cit., pp. 54-74.

كان قد سبق الروح وأعطى ظلالاً عنه في أسفار الحكمة. ولكن معرفة القديس يوحنا بـ «الكلمة» هي معرفة اختبارية مُعاشة، ولم يستمدّها من دراسة أسفار الحكمة ولا أية كتب أخرى: «الذي رأيناه بعيوننا... ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة.» (١يو١: ١٠)
ويتضح هذا التوافق من الجدول الآتي (١٧):

| أسفار الحكمة | إنجيل يوحنا |
|--|---|
| «الرب قناني (جعلني) أول طرقة.» «كنت عنده.» | ١: ١ «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله.» |
| «خالق الإنسان بحكمتك.» «كنت عنده صانعاً.» «الرب بالحكمة أسس الأرض.» | ٣: ١ «كل شيء به كان.» |
| «الحكمة صانعة كل شيء.» | |
| «مَنْ يَجِدُنِي يَجِدُ الْحَيَاةَ.» «الحكمة ضياء النور الأزلي.» | ٤: ١ «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس.» |
| «إذا قيسست بالنور تقدمت عليه.» «لأن النور يعقبه الليل أما الحكمة فلا يغلها الشر.» | ٥: ١ «والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه.» |

¹⁷ Hunter, op. cit., p. 33.

- ١٠:١ «كان في العالم» . سيراخ ٦٥:٢٤ «إني خرجت من فم العلي
بكرراً قبل كل خليقة .
وجعلت النور يشرق في
السموات على الدوام
وغشيت الأرض كلها
بالضباب» .
- ١٠:١ «والعالم لم يعرفه» . أم ٢٩:١ «رفضوا الحكمة» .
- ١١:١ «جاء إلى خاصته
وخاصته لم تقبله» . أخنوخ ٢:٤٢ «ذهبت الحكمة لتجعل
مسكنها بين الناس فلم تجد
لها مكاناً» .
- ١٢:١ «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً
أن يصيروا أولاد الله» . حكمة ٢٧:٧ «تحل في النفوس القديسة
فتنشئ أجباءً لله وأنبياء» .
- ١٤:١ «وحلّ بيننا» . سيراخ ٨:٢٤ «والذي صنعني عيّن مقر
مسكني وقال اسكنني في
يعقوب» .
- «مجد ابن وحيد لأبيه» . حكمة ٢٢:٧-٢٥ «فإن فيها ،، الروح الفهم ،،
القدّس ،، المولود الوحيد ،،
بخار قوة الله ، وصدور مجد
القدير الخالص» .

قدّم هذه المقابلة الجيدة الإختيار العالم رندل هرّس J. Rendel Harris (١٨)، وفيها يتضح
أمام القارئ مقدار القرّبي الشديدة في الأسلوب والمعنى بين أسفار الحكمة وإنجيل يوحنا، وكيف أن

¹⁸ Harris, J. Rendel, The Origin of the Prologue to St. John, G 1917.

الحكمة يقدمها الوحي مشخّصة قائمة مع الله، وعند الله، وأمام الله. وكثيراً ما كان ينتقل كاتب سفر الحكمة من الحكمة إلى الله ومن الله إلى الحكمة، في العمل، دون أدنى تفریق أو خذراً!! حيث تتقارب بصورة ملفتة للنظر أوصاف الحكمة وأوصاف الكلمة عند القديس يوحنا، وكلاهما يأتي مُعبّراً عن فكر الله، وعمل الله، وإرادة الله، لا على مستوى الفكر الخالص أو مجرد العمل، بل ككيان قائم بذاته متغلغل في الكون وفي الإنسان والخلقة.

والقديس بولس الرسول يلمح هذا ويعبّر عنه هكذا: «بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله وبراً وقداسة وفداء.» (١ كو: ٣٠)

ولكن مهما كان التشابه والتقابل والتناسق بين الحكمة و«الكلمة» عند القديس يوحنا، إلا أن «الكلمة» يظل متميزاً بتفوق شخصي في وضوح بلغ عظمته وتفردّه حينما بلغ حد الظهور العلني متجسداً!! «والكلمة صار جسداً» ومتأنساً «كإبن الإنسان»، ليستعلن في نفسه ومرةً واحدة وإلى الأبد سِرَّ أبوة الله التي اكتمل حنانها وحبها في شخص يسوع المسيح نحو العالم والإنسان الخاطيء!!

ثانياً: النقد الموجّه للخط التاريخي في إنجيل القديس يوحنا

وهذا النقد بنوع خاص شغل العلماء المحافظين والتقليديين، وخاصة الأتقياء منهم، بل وأقَصَّ مضاجعهم. وقد حاولوا جميعاً، كلٌّ منهم حسب قامته في الإلهام والمعرفة، معاً، أن يرد على احتجاجات المؤرخين العلميين ويصدّ الشفغات التي فتحوها للتئيل من الأصالّة التاريخية لهذا الإنجيل؛ كما يقول العالم اللاهوتي التقليدي هوسكينز: [إن الدراسة الحديثة للإنجيل الرابع قد ألقت على الكنيسة مشكلة ضاغطة ألا وهي مشكلة التاريخ]^(١٩). ثم يعود ويسخر من هؤلاء العلماء الملتزمين بالعلم التاريخي حينما أرادوا أن يطبّقوا علمهم على منهج إنجيل يوحنا بقوله:

[إن كاتب الإنجيل الرابع من ناحيته يضغط أكثر على قرّائه بعمق لاهوتي متفتح نحو ما هو أكثر أهمية من مشكلة التاريخ، وما هو محيّر أيضاً — لأي فكر علمي — حينما يطرح «جسد» يسوع ابن الإنسان للأكل، ودمه للشرب!! ثم يضغط أيضاً بضرورة أن يتذكر الناس كل ما قاله^(٢٠) (يو: ١٤: ٢٦)؟

¹⁹ Hoskyns, op. cit., p. 58.

(٢٠) الإعتقاد هنا لم يصبح على دقة الكاتب أو دقة التسجيل أو دقة التاريخ أو دقة الفهم، إنما على الروح القدس.

مرة أخرى نقول: جسد، دم، أكل، شرب، وضرورة تذكُّر كلامه؟؟ إنه صعب أن يتصور الإنسان مثل هذه اللغة التي تصعق الفكر، وبالأكثر حيننا نحاول أن ننظر من خلالها إلى العنصر التاريخي! ولكن وبإصرار أكثر لا يقنع كاتب الإنجيل أن يستقر فكر القارئ حتى على نوعية وأهمية التاريخ هنا، بل يعود ويزحزح الفكر: «الروح هو الذي يجي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً!!» (يو: ٦٣: ٦٣)

إذن، على قياس الروح القدس وقيادته فقط تصبح كلمات المسيح ذات قيمة وقدرة عال: «الكلام الذي أكلكم به هو روح وحياة» (يو: ٦٣: ٦٣). ولكن إذا لم يفهموا كلام المسيح فالعلّة تكون هنا أن المسيح نفسه «ككلمة» = لوغُس قد فات عليهم هم إدراكه: «لماذا لا تفهمون كلامي. لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي (كلمتي = لوغُس) τὸν λόγον τὸν ἑμὸν» (يو: ٤٣: ٤٣). والنتيجة بالضرورة أن كلمات المسيح تحتاج لفهمها إلى شرح خاص من الروح ومن الحق فقط! «وأما المعزّي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب بإسمي فهو يعلمكم كل شيء ويدرككم بكل ما قلته لكم» (يو: ١٤: ٢٦)...

فإذا أخذت كلماته باعتبار أنها رواية تاريخية وحسب، فإنها تصبح تافهة للغاية وبلا معنى! «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته^(٢١)، يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلّم أنا به من نفسي.» (يو: ١٦ و١٧)

نعم، هذه هي شهادة كاتب الإنجيل شهادة تنطلق كقطعة خنجر في قلب العالم!! ذلك إن كان العالم هو العالم الذي أوجَد نفسه بنفسه وأن له نظامه وحقّه الطبيعيين (أي إن كان بلا تاريخ إلهي)، وهي أيضاً الشهادة التي يطرحها الإنجيل الرابع كقطعة أيضاً في قلب التاريخ، إن كان التاريخ هو التاريخ الذي يحوي في طيّاته برهانه نفسه ومعناه الذي يقبل وحده التحليل والوصف.

بل لا نبتعد عن الصواب إذا ما قلنا أن المسيح نفسه كان مهتدداً في وجوده — إن كان كما تصوره اليهود — قد ظهر على مسرح التاريخ «بتأكيد من ذاته وحسب» مبتدريّن إِيَّاه بسؤال التحدي: «مَنْ تجعل نفسك؟» (يو: ٨: ٥٣)، حيث إذا أزداد كلمة واحدة فيكون هذا هو التجديف! وهنا نقف ونلتفت إلى ما كان يدور في ذهن كاتب الإنجيل آنئذ، إذ علينا أن نتصور أي وعي للتاريخ وأي إحساس كان يتجاوب في قلبه حينئذ عن مشكلة التاريخ. هنا الكاتب كان بصدد مشكلة لا يمكن التهرب منها، فحقيقة موت وحياة يسوع الناصري تاريخياً كان يتحتّم أن تدعمها معرفة بتعاليمه وأعماله وظروف موته بالقدر الذي

(٢١) أي مَنْ أراد في قلبه أن يعمل حسب مشيئة الله، تفتح بصيرته ويعرف في الحال مصدر تعليم المسيح.

يكفي لكي يتجرأ ويكتب، لا عجالة عن أصول الديانة المسيحية، ولكن إنجيلاً! [٢٢]

وفي النهاية يقول هذا العالم المدافع عن الأصالة التاريخية لإنجيل يوحنا:
[ونحن نصرُّ على أن كاتب الإنجيل الرابع لم يضع بإنجيله ملحقاً تاريخياً لإضافة شيء على المعرفة التاريخية للكنيسة الأولى، بل إنه أعاد لها صياغة التاريخ الإنجيلي برُمَّته، وذلك بمقتضى تقارير ذات أصالة من واقع تعاليم المسيح وأعماله. وقد صنع الكاتب هذا ليس بسلطان شاهد عيان كرَسُول، بل بسلطان أعظم، كتلميذ كان يسوع نفسه يحبه، وقد ائتمنه وأسرَّ إليه بمعنى حياته وموته! ... بهذا يكون الإنجيل الرابع قد أصبح هو الوثيقة التاريخية بالدرجة الأولى، أما الثلاثة الأناجيل الأخرى فهي، من بعده، وثائق أيضاً تاريخية لها أهميتها، ولكن ليس بينها من تناقض، وليس فيها ما يتعارض مع التاريخ بحسب قصد الإنجيل الأسمى.] [٢٣]

22 Ibid., pp. 58,59.

23 Ibid., pp. 67,68.

الرد على النقد التاريخي لإنجيل القديس يوحنا

١ - إنجيل القديس يوحنا له هدف محدد يتجاوز مفهوم التاريخ:

إنجيل يوحنا له هدفه المحدد الذي يسعى إليه كاتبه القديس يوحنا منذ أول كلمة فيه، ليكمله بالروح حسب مشيئة الله المستعلنة له. تماماً كما نقرأ للقديس لوقا في مطلع إنجيله عن الهدف المحدد الذي أوحى به الروح القدس له ليكمله حسب مشيئة الله المعلنة له. أما القديس لوقا فكان هدفه أن يستعرض تاريخ قصة الأمور المتيقنة عنده كما سلّمها له الذين كانوا معانين وخداماً «للكلمة»، أي المسيح منذ البدء. ووعد الكاتب أن يكون ذلك بالتدقيق ليتأكد القارئ من صحة الكلام الذي سمعه سابقاً بالنقل الشفهي (لوقا: ١-٤).

أما القديس يوحنا فهدفه المحدد له من الروح سجله في ختام إنجيله، حينما أحس بالروح أن الذي كتبه فيه الكفاية ليحقق الهدف. وهدفه كان إيمان القارئ بشخص يسوع المسيح إيماناً يكفيه ليستعلن منه أن يسوع المسيح هو ابن الله؛ لأن هذا الإيمان، كان القديس يوحنا متيقناً أن القارئ سوف ينال الحياة الأبدية «باسم» المسيح (يو ٢٠: ٣٠ و٣١). والقديس لوقا، إن كان قد اعتمد في سرد رواية إنجيله على ما تسلمه من الذين عاينوا المسيح وخدموا الكلمة أي التلاميذ: «أتم الذين تعجبتم معي في التجديد»؛ فالقديس يوحنا كان هو الذي عاين الرب يسوع وخدم معه كتلميذ امتاز عن جميع التلاميذ الآخرين بأن يسوع كان «يحبّه». وهذه الكلمة «يحبّه» تشير إشارة بليغة إلى ما وراءها: «الذي يحبني، أحبه وأظهر له ذاتي». وبالفعل نتيقن نحن من إنجيله أن الرب أعلن له «ذاته». وكلمة «ذاته» - أي ذات المسيح - تفيد «هَنْهُ هو»، وما هي «صلته بالله»، وسر «عمله ورسالته». وهذا هو بعينه ما سلّمه إلينا القديس يوحنا في إنجيله. وقد كان هذا هدفه من بدء الإنجيل حتى نهايته.

إذن، فإنجيل يوحنا لم يأت قصة ولا مجرد سرد أخبار مسموعة أو منقولة كما هي عن المسيح، ولكن استعلاناً لشاهد عيان موثمن لدى المسيح نفسه كتلميذ محبوب مفتوح العينين والسمع، يشهد أن يسوع المسيح نفسه هو ابن الله. ولهذا الهدف اختار القديس يوحنا من بين الأقوال التي قالها الرب وسمعها هو والأعمال التي رآها هو، ما يثبت للقارئ أن المسيح هو ابن الله. والقديس يوحنا لم يُلزم نفسه ولا ألزم القارئ - كما تعهد القديس لوقا - أنه سيتبع الخط التاريخي بدقة لحياة السيد المسيح من البداية حتى النهاية، كما قال القديس لوقا، بل قال بكل وضوح إن: «آيات أُنخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب» (يو ٢٠: ٣٠). أي أنه تخلى عن الرتبة

التاريخية كما نخل عن أن يكتب كل ما رأى وسمع، لأنه واحد من التلاميذ الذين صنعت قدامهم هذه الآيات. ولكنه اختار ما يختص بهدفه فقط: «وأما هذه (الآيات) فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله؛ ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة بإسمه.» (يو: ٢٠: ٣١)

٢ - تحرك الأصحاحات نحو الهدف اللاهوتي:

وواضح من إنجيل يوحنا، كيف خضع والتزم بهذا الهدف بكل دقة، سواء في مجموعه ككل أو في أجزائه التي يقدمها الكاتب لتخدم قضية الإيمان بيسوع المسيح ابن الله، لينال القارئ والسامع حياة بإسمه. لذلك نلحظ بشيء من الإندهاش روح الإلهام واضحة وكيف ينمو خط الإستعلان نمواً متزايداً متزناً نحو هذه الغاية بكل انتباه كلما اقتربنا من النهاية. كما نلحظ أن خط النمو الإستعلاني هذا يربط بإحكام بين الحوادث والأقوال، وينتقل بها جميعاً في قوة وانسجام وترابط، وكأن الأصحاحات حيّة تسير مع القارئ، لا يُترك منها كلمة واحدة، بل الكل يتحرك معاً صوب الهدف!

على أن هذا التوقيع للحوادث والأقوال توخى الإلتزام بالخط التاريخي قدر ما يسمح به الحال، لأن حركة الإنجيل مرتبطة أساساً بهدف لاهوتي صميم. فالقارئ المتفتح الوعي والبصيرة يمكنه أن يلحظ عدم غياب الخط التاريخي هذا من داخل الحركة الإستعلانية.

فِعْوَضُ أن يبدأ الإنجيل بقصة ميلاد المسيح زمنياً على مستوى التاريخ المدني كبقية الأناجيل، قدّم لنا هذا الميلاد بعينه وما هو قبل الميلاد أيضاً، إنما على المستوى اللاهوتي. إذ قال أولاً: «في البدء كان الكلمة... وكان الكلمة الله» (يو: ١: ١)، ثم «والكلمة صار جسداً وحل بيننا.» (يو: ١: ١٤)

وِعْوَضُ أن يقدم يوحنا الممدان على مستوى التاريخ كعمد للمسيح، قدّمه كشاهد لاهوتي لبنوة المسيح لله «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو: ١: ٣٤)، وأنه سيعمد بالروح القدس. وأضاف شهادة أخرى للمسيح تشير إلى نهاية عمله الخلاصي بالصليب حيناً قال الممدان: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو: ١: ٢٩). وهكذا حملت الشهادة كل ما يختص بالمسيح لاهوتياً!!

وحياة السيد المسيح العلنية التي يقدمها إنجيل يوحنا تبتدىء في عمق الزمن وعمق الله معاً: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده، مجدٌ وحيدٌ لأبيه، مملوءاً نعمة وحقاً» (يو: ١: ١٤). وهكذا تفصح الآية أن «الكلمة» صار ابن الإنسان، وهو ابن الله، بآن واحد.

ثم أنهى إنجيل يوحنا حياة الرب العلنية بالموت، وباستعلان مجد الإبن معاً: «أيها الآب قد أتت الساعة، مجد ابنك.» (يو ١٧: ١)

والآن، فلينظر القارئ ويحكم هل يمكن أن يكون تلاحم بين التاريخ واللاهوت أكثر من هذا تلاحماً؟ أو بين الزمن والأبدية؟

وبديهي أن يدرك القارئ أن ما كان يحتفظ به القديس يوحنا من الحضور الإلهي في ذهنه وتقييمه لدقائق حياة المسيح وربطها بالهدف، كان من المستحيل أن يتخلى عنه لحظة واحدة لكي ينتبه مجرى التاريخ فيبحث، مثل القديس لوقا، عن أوغسطس قيصر روما في ذلك الزمان وعن كيرينوس والي سوريا، أو يبحث مع القديس متى عن هيرودس ملك البلاد وخوفه على عرشه، أو يتبع منهج القديس مرقس في البحث عن حياة المعمدان الخاصة في البراري وليسه وبر الإبل وأكله العسل والجراد. هذا كله كان، في الحقيقة، يخرج عن منهج الروح الذي كان يعمل في قلب يوحنا وفكره، فلم يكن يلمع في ذهنه إلا شخص يسوع المسيح المستعلن في بنوته الأزلية لله. ونحو هذا الهدف ركز فكره وقلمه وذاكرته وروحه متحسناً قصاصات الورق أو الرق التي كان قد سجل عليها مذكراته منذ أيامه الأولى مع المعلم.

لهذا كان القديس يوحنا يكتب على خلفية حية تحمل صدق تاريخها معها دون بحث منه أو عناء. فلم تفقد هذه الخلفية ضياء الحق واللاهوت فيها. لذلك، فإنه في توقيعاته للحوادث، ومهما استطرد فيها، فإن القارئ يشعر أن القديس يوحنا وهو يكتب ويسجل أقوال الرب وأعماله لم يكن يعمل حساب الثقاد والمتشككين، المعتبرين عالة على الإنجيل، بل نحاهم من رؤيته ومن إنجيله منذ البداية: «الذي لا يؤمن قد ديتن» (يو ٣: ١٨). وكان يكتب عن الحق وقد التزم به، وكان يسجل عن «الحياة» فأنحصر فيها. فلا الطابع الرسولي المتميز بسلطانه، ولا الأمانة التاريخية، أصاب أي منها أدنى انحراف على مدى الكتاب كله، بالرغم من أنه كان عليه أن يصيغها بلغة اليونان بينما هي حاضرة في ذهنه برطانها الآرامية (الآرامية هي لغته الوطنية).

٣ — مميزات القديس يوحنا التي أهلتها لإستعلان أسرار المسيح،
وتدوين الإنجيل:

وهناك سؤال محير يطرح نفسه على فكر القارئ إذا هو انتحى ناحية الفحص العقلي أو الفهم المنطقي: وهو إلى أي مدى يستطيع رسول — مثل القديس يوحنا — أن يسترجع حياة المسيح، حتى وإن كان كمشخص كان يعاشره بلا تحفظ، إذ كيف يسجل ما قاله المسيح وما عمله والمناقشات التي دارت بدقتها المتناهية والأحاديث المطولة وصلاته السرية الخاصة للآب كما سجلها في إنجيله؟

مع ما كانت تنطوي عليه هذه المناقشات والأحاديث من اتجاهات خفية في ذهن المسيح أو ذهن الجموع أو الأفراد المجادلين؟ هذا وبعد عدد عديد من السنين يزيد عن نصف قرن؟ علماً بأنها لم تسجّل في الأناجيل الأخرى؟

وللد على هذا السؤال البالغ الأهمية بالنسبة لحياة القارىء نقول:

إن كان «ابن الله - الكلمة» قد تجسد، أو بتعبير القديس بولس الرسول «الله ظهر في الجسد»، إذن فهنا استعلان فائق قد حدث بالفعل، وقد حدث ومعه مجاله الإستعلاني لفتح بصيرة الإنسان، وهذا ما حدث وما كان قائماً في ذهن القديس يوحنا، وقد حمّله الروح مسئولية استعلان هذا الحدث الإلهي. والإستعلان في ذاته كمّ روحيّ هائل لا يتناقص قط بمرور السنين، بل يزداد توهجاً ولعناً في الذهن، لأن من صميم طبيعة استعلان الله الإمتداد والإنتشار في كيان الإنسان إلى مالا نهاية. بهذا يكون إنجيل يوحنا يُشكّل فيضاً إلهامياً من الإستعلانات المتتابعة المقترنة بالحوادث لكشف أسرار الله استعلاناً وهي «طبيعته الذاتية»، التي هي طبيعة المسيح؛ والتي استطاع القديس يوحنا بالجهد أن يصيغ لها حدوداً بالقلم، فاختار من ألوف الحوادث والأقوال والآيات ما يستطيع أن يقدمه ليغطي حياة المسيح كلها باختصار بالغ دون أن يخرج عن التقليد الرسولي المعروف والمذاع في الأناجيل آنذاك.

هذا الجهد الروحي المبذول، بالرغم من ضخامته، اعتبره القديس يوحنا قاصراً ومقتصراً في استيعاب كل أطراف حياة المسيح وكل ما قال وعمل، وعبر عن ذلك بتصوره أن العالم كله لا يسع الكتب أو المكتوب إن هي استوعبت حياة المسيح بدقائقها!!! «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب.» (يو ٢٠: ٣٠)

«وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كُتبت واحدة واحدة، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة.» (يو ٢١: ٢٥)

(أ) أما كيف سجل القديس يوحنا أحاديث المسيح، وبالأخص الصلاة الأخيرة في أصحاب ١٧ بعد العشاء الأخير بما تحتويه من أسرار وعمق لاهوتي ومخاطبة مباشرة للآب تُعتبر كلها أحاسيس وعواطف ذاتية (علماً بأن القديس يوحنا حسب ما نعرفه عنه من الأناجيل الأخرى لم يحتل وحده بالمسيح بعد العشاء الأخير، وأنه كان نائماً ولم يستطع أن يسهر في جثسماني بحسب القديس لوقا، وكان المسيح بعيداً، وعلى بعد رمية حجر من القديس يوحنا، ومعه بطرس ويعقوب الثلاثة الذين اختارهم المسيح أن يكونوا بقربه وقت الصلاة التي قدمها بعرق يتصبب كالدم)؛ فتي وكيف عرف يوحنا دقائق هذه الصلاة؟

للإجابة نقدم أولاً هذه الآيات :

١ - «قد كلمتكم بهذا بأمثالٍ ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثالٍ بل أخبركم عن الآب علانية» (يو ١٦: ٢٥). وهذا ما قاله المسيح للتلاميذ قبل صلاته المسجلة في الأوصاح ١٧ بدقائق؟! :

٢ - «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذلك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه.» (يو ١٦: ١٣ و١٢)

وهذا قاله يسوع لتلاميذه قبل صلاته المسجلة في أوصاح ١٧ مباشرة.

٣ - «أيها الآب البار... عرّفْتهم اسمك، وسأعرّفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به...» (يو ١٧: ٢٥ و٢٦)

بخصوص الآية رقم (١):

والآن متى أتت هذه الساعة التي تكلم عنها المسيح التي كلمهم فيها عن الآب علانية؟
+ واضح، إذن، أن ما كتبه القديس يوحنا لا يقع تحت بند «الكلام بأمثال» - الأناجيل الثلاثة - بل هي إخبار عن الآب علانية، وهي التي تشمل كل تعاليم المسيح في إنجيل يوحنا عن الآب، ومعها الصلاة في الأوصاح ١٧. هذه هي كلها الكلام عن الآب علانية، وهو من تعليم المسيح المباشر للقديس يوحنا بالروح القدس.

وهذه الساعة هي ما بعد القيامة، لأن «قد أتت الساعة» هي ساعة الصليب. ولكن «تأتي ساعة» هي بالضرورة ما بعد ساعة الصليب.

بخصوص الآيتين رقم (٢) و(٣):

كذلك ما هي الأمور التي لم يكونوا يستطيعون أن يحتملوها حتى قبل هذه الصلاة؟ وقالها لهم بعد ذلك؟

ومتى عرّفهم المسيح بالمزيد عن اسم الآب بعد أن صُلب أمامهم؟

+ إذأ الأمور التي لم يكونوا يحتملونها والتي اضطلع بها الروح القدس بعد حلوله، والتعريف الإضافي الذي يختص بإسم الآب، فهو ما اكتسبته الكنيسة بالروح القدس، سواء في إنجيل يوحنا أو على مدى القرون الأربعة الأولى، وهو الذي بواسطته دافعت عن إيمانها وانتشر وجودها في كل أنحاء العالم ولا يزال. إذن، كان يتحتم أن يتكلم المسيح علانية عن الآب، وبدون أمثال، في إنجيل يوحنا - الذي خلا من الأمثال بالفعل - حتى يكون الله صادقاً، وحتى نعرف الأمور التي لا

يَحْتَمِلُهَا أَي إِنْسَانٌ بِدُونِ نِعْمَةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ .

(ب) كذلك السؤال الذي قد يطرحه الفاحص العقلائي: كيف ومتى عرف القديس يوحنا حديث السامرية مع المسيح؟ علماً بأن التلاميذ كانوا قد ذهبوا لبيتاعوا طعاماً.

(ج) أو كيف ومَتَى عرف القديس يوحنا الحديث الذي دار بين بيلاطس والمسيح؟

نقول: إذا لم يكن المسيح هو الذي قصَّ على يوحنا ما حدث، وإذا لم تكن هي السامرية نفسها، وإذا لم يكن بيلاطس، الذي تنصَّر وتعمَّد بحسب التقليد، هو الذي قصَّ ما دار بينه وبين المسيح، وإذا لم يكن القديس يوحنا موجوداً بالفعل دون بقية التلاميذ مع المسيح على برِّ يعقوب؛ فالرد قد يمتد أيضاً ليشمل معظم أحاديث المسيح، وهو كالآتي:

معروف جيداً ومسجَّل في سفر الرؤيا أن طبيعة القديس يوحنا طبيعة رؤيوية، أي أن روحه حرة تستطيع في أي وقت أن تدخل في مجال الروح الخالص لترى حوادث في غاية من الدقة والتسلسل والخطورة، وتسمع حديثاً حدث أو سيحدث سيَّان، بل وتسمع حواراً درامياً حزيناً بين أرواح الذين قُتلوا وبين المسيح. وأُعطي للقديس يوحنا أن يعي بالروح ويفهم ويتذكر ويسجل بعد ذلك كل ما سمع بالحرف الواحد، وأن يصف ما رأى بمنتهى الدقة دون أن يزيد أو يُنقص، رغماً عن أن ما رأى يفوق العقل والوصف. وكان محدِّث القديس يوحنا مرة ملائكة معيَّن للتفهم والتعريف، ومرة كان المسيح نفسه وهو في مجده. كذلك ومن سفر الرؤيا عرفنا وتأكَّدنا كيف أن المسيح كان يعرفه بالأمر، مرة بالرموز ومرة بالعلَن جهاًراً، فتعلم يوحنا كيف يعبر وكيف يسجل. لذلك أصبح واضحاً أمامنا إمكانية استقبال القديس يوحنا لكل المعارف والمفاهيم، سواء في ماضيها أو مستقبلها، سيَّان، وذلك من مصادرها العليا بلا عناء، سواء بإملاء، أو إعلان الروح، أو بإرشاد الملاك بكل ما تم على مستوى حياة المسيح، بل ومن الأشخاص الذين تكلموا مع المسيح بأنفسهم، لأن «أرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء.» (١ كو٤: ٣٢)

وهل ينسى الفاحص العقلائي أن المسيح نفسه تحدث بنفسه حديثاً مطوَّلاً في سفر الرؤيا — وذلك بعد قيامة المسيح وصعوده بما لا يقل عن ثلاثين سنة أو يزيد؟ بل وأمر القديس يوحنا أن يكتب ما سمع ورأى في سفرٍ وأن يعلنه للناس: «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبده ما لا بد أن يكون عن قريب، ويبيِّنه مرسلأ بيد ملاكه لعبده يوحنا الذي شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه.» (رؤ١: ١ و١٠١)

فإن جاء سفر الرؤيا برموز وأمثال، فقد أُعطي ليوحنا أن يكتب إنجيلاً ليس برموز وأمثال، بل

بما أخبره المسيح عن الأب علانية. ألم يُعِد المسيح بذلك؟ وهوذا قد حقق وعده.

كذلك لو فحصنا الأمر ذاته مع القديس بولس الرسول، نجد بصريح منتهى الوضوح أنه لم يستلم إنجيله من إنسان، بل ولم يتعلمه من إنسان، بل قد استلمه وتعلمه من المسيح مباشرة بإعلان: «وأعترفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بَشَّرْتُ به إنه ليس بحسب إنسان، لأنني لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته، بل بإعلان يسوع المسيح.» (غل ١: ١٢ و١١)

أليس هذا مثالاً حياً وشهادة ناطقة يمكن أن ندرك بها كيفية كتابة الأناجيل؟ وسرد حوادثها وتسجيل كلماتها؟ لكي نطمئن تماماً أن كل ما لا نعرف مصدره، بالتحقيق أو بالمقارنة أو حتى بالعقل، فحتماً يكون مصدره الإعلان الفائت، لأننا نتعامل مع إنجيل الله وليس كتاب تاريخ. وليكن في الحسبان أن القديس بولس لم ير المسيح بالجسد إطلاقاً. والقديس بولس الرسول كان يعرف تماماً أنه ليس له فقط أعطي إنجيل، بل ولبقية الرسل، وخاصة الذين تعامل معهم، وهم بطرس ويعقوب ويوحنا المعتبرين أعمدة الكنيسة. «أنه بإعلان عرفني بالسرّ — كما سبقْتُ فكتبْتُ بالإيجاز — الذي بحسبه حيناً تقرأونه تقدرون أن تعرفوا دراتي بسر المسيح، الذي في أجيالٍ أُخر لم يُعرَّف به بنو البشر، كما قد أُعلن الآن لرُسُلِهِ القديسين وأنبياؤه بالروح» (أف ٣: ٥-٣). واضح إذن أن بني البشر عليهم أن يخضعوا لمعرفة إعلان يسوع المسيح فيما يخص إنجيله إن كانوا يريدون الإيمان به، لا أن يبحثوا عن مصدره الذي أعطي فقط لرسله وأنبياؤه بالروح.

وفي النهاية هنا نقول ما يقوله التقليد الرسولي، أن مَنْ يريد أن يقرأ الإنجيل أو يفحصه، عليه أن يضع في اعتباره أنه يقرأ أو يفحص على أساس أنه يتبع قصد كاتب الإنجيل وما يريد أن يعلنه ويبشّره به، باعتبار أن مادة الإنجيل هي تقرير يشمل البشارة ملتحمة بالتاريخ. وليس له أن يقرأ على أساس كيف كُتِب، أو ما ينبغي أن يُكتب عليه إنجيله من معايير نضعها حسب قصدنا. لأن القصد الأول والأخير من القراءة أو البحث هو الوصول إلى الإيمان، والإيمان في البداية والنهاية هو تصديق ما فوق التاريخ، وتسليم الفكر والقلب والحياة كلها له — أي لله. علماً بأن القديس يوحنا الرسول يقدم لنا إنجيله أو المسيح من خلال إيمانه! وهذا لا يمتنع من أن نستخدم كل أسلحة العلم لبلوغ اليقين لإيماننا، ولزيد من المعرفة والفهم، حيث يبقى العلم أو كل العلوم في موضع الخادم للحقيقة لا سيداً عليها.

ولكن أن نبحث عن الحَبْك التاريخي في صياغة عمق روحي هائل مثل هذا له هدفه الروحي الأوحد، فهذا مطلب تعسفي مباحك.

٤ — إنجيل القديس يوحنا اختص بالناحية اللاهوتية المعتمداً على
التقليد الرسولي العام:

لم يقل إنجيل يوحنا أنه الإنجيل الوحيد، بل هو كُتِبَ بعد أن استوفت الأناجيل الأخرى كل ما يختص بالتاريخ المدني الروماني واليهودي، وبعد أن تتبعت التاريخ الأبائي حتى إبراهيم وآدم، واستوفت طوبوغرافية الأرض التي سار عليها المسيح وتنقّل بين ربوعها، وبعد أن رصدت السنين والشهور والأيام والليالي حتى استوفت الإطار الإنساني الذي يخص المسيح من كافة الوجوه. هكذا قال التقليد الأبائي الكنسي بأعلى صوته مؤكداً أن القديس يوحنا كتب إنجيله الروحي بإلحاح زملائه بعد أن استوفت الأناجيل الأخرى ما يخص الأمور الظاهرة أي الجسدية التي للمسيح، والقديس يوحنا نفسه كتب على هذا الأساس.

ويقول التقليد الكنسي:

[إنه اعتمداً على صحة ما جاء إلينا من فم الشيخ، كتقليد، أن القديس يوحنا آخر الإنجيليين حيناً رأى أن الأناجيل الموجودة اهتمت بالحقائق الجسدية — أي التي تخص الجسد *τὰ σωματικά* — في تسجيلها وإذ ضُغِط عليه من قِبَل أحبائه، تحرك بالروح من قِبَل الله وكتب إنجيله الروحي *πνευματικὸν εὐαγγέλιον*] (٢٤)

(إكليمندس الإسكندري)

(سنة ١٥٠-٢١٥)

ونحن لا يمكن أن نغفل شهادة الآباء القديسين الأوائل وأساقفة الكنائس العظمى، التي بها استطاع إنجيل يوحنا أن يقف أمام أعنف التيارات المعادية للإيمان، لأنه يحمل جوهر الإيمان بالمسيح ودقائق العناصر اللاهوتية التي أقامت الهيكل العام للإيمان المسيحي مع الأناجيل الثلاثة.

ولقد واجه المسيح نفسه مثل هذه الأفكار فقد سأل تلاميذه يوماً: «مَنْ يقول الناس إنني أنا؟» (مت ١٦: ١٣، مر ٨: ٢٧، لو ٩: ١٨). وكان المسيح بهذا السؤال يسبق ويخاطب علماء اللاهوت في هذه الأيام الذين يطالبونه — كما طالبه اليهود «مَنْ تجعل نفسك؟» (يو ٨: ٥٣) — بتحقيق ذاته تاريخياً في إنجيل يوحنا. فكان رد التلاميذ أن بعضهم يقول: «إنه إيليا». وهكذا تطوح التاريخ ألف سنة عن الواقع أمام عيونهم. لأن التقييم المباشر للإستعلان الباهر يليهي الذهن عن مفردات التاريخ. ولكن رسوخ الإستعلان الإلهي في ذهن القديس يوحنا وامتداده وقوّه وانتشاره على مسافة زمنية كبيرة للغاية (نصف قرن ويزيد) مع نضوج الشيخوخة، كل هذا جعله قادراً حقاً أن يحيط

²⁴ Clement of Alex., cited by Euseb. Hist. Eccl., VI, 14,7; cited by Westcott, op. cit., p. XXXV.

بحدود هذا الإستعلان في اختصار مدهش ، دون أن يتوه في شعاب التأمّلات أو غيبوبة الرؤى .

فالواقعية في إنجيل يوحنا قوية ، والواقع هو دائماً ابن أمين للتاريخ . فالقديس يوحنا قبل أن يكتب إنجيله ، كان يملك في مخازن قلبه المضيء وثائق تاريخية حدثت أمامه في الزمان والمكان تتعلق بهذه الإعلانات الإلهية ، والتي هي على أعلى ما يمكن من الخطورة ، إذ تختص بالكنيسة وحياة العالم وتطور البشرية ، أو تمن عليها هذا القديس بكل ذخائرها . وكان يجتريها كل يوم ويحكي عنها ويعظ ، فكان بريقها يزداد مع الأيام ويتوضح . وأخيراً ، وبعد إلحاح أحبائه ورؤساء الكنائس السبع من حوله مع جميع أولاده صمّم أن يكتب ، فكان الإنجيل . وهو عبارة عن وثائق تحمل مفرداتها ومجملها الإستعلان الخاص بحياة وخلص العالم !! ولكن لأن مادة هذه الوثائق تختص بلاهوت الإبن ومستقبل البشرية والحياة الأبدية ، فمن المعقول أن يتضاءل فيها العنصر التاريخي كعنصر حرّ منفرد بجوار الأغوار اللاهوتية . ولا لَوَمَ على الكاتب ؛ إذ كان يكفيه أن يكون أميناً للحادثة اللاهوتية أولاً وقبل كل شيء ، فهي التي يهدف إليها .

وكما كان القديس يوحنا ، كذلك كانت الكنيسة في القرن الأول والثاني . فقد اعتبر القديس يوحنا أن كل ما غاب في إنجيله هو مسجّل في التقليد الرسولي الذي يحفظه الناس كما هو في الأناجيل الثلاثة . لأن التقليد الشفاهي بتاريخه ودقائقه كان متواتراً ومحفوظاً في الكنيسة كلها آنئذ ، بل وكان المادة الحية للوعاظ والأساقفة يكتبون ويعظون ويعلمون منه . فتعاليم القديس بولس الرسول كانت تملأ كل آسيا واليونان وروما . وبالإطلاع على رسائل القديس بوليكارپوس (استشهد سنة ١٥٥م عن ٨٦ سنة) تلميذ يوحنا الرسول وأسقف أزمير ، يتضح أن كل التقليد الرسولي في الثلاثة الأناجيل وتعاليم إنجيل يوحنا — دون النص — حاضرة في كتاباته !! وكذلك تعليم القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية ، وهو تلميذ القديس يوحنا ؛ وأيضاً تعاليم القديس إيرينيئوس الذي صار أسقفاً على ليون بفرنسا ، وهو تلميذ بوليكارپوس ، فهو أصلاً مواطن أزميرلي (من سميرنا) (١٣٠ — ٢٠٠م) ، وهو المحسوب أنه أبو التقليد . إذن ، فالقديس يوحنا كتب إنجيله معتمداً على أساس التقليد الرسولي بتاريخه ودقائقه . والمعروف والمتداول في كل الكنائس آنئذ ، وليس كإنجيل منفرد . لذلك نجده لا يستطرد في المجال التاريخي .

والواقع أن مرّةً هذا الصراع الفكري ضد الخط التاريخي لإنجيل يوحنا ، هو بالأساس في فكر ووعي هؤلاء العلماء القدامى والمحدثين الذين طفحوا بالنقد الميرير تجاه غياب العنصر التاريخي من إنجيل يوحنا ؛ وذلك بسبب عدم القدرة الإيمانية في هؤلاء لرؤية الزمانيات ملتحمة مع الأبديات ، سواء في شخص المسيح نفسه أو في أقواله وأعماله . ومما سبق وقلنا يتبين للقارىء زَيْفُ هذا النقد ،

فالأناجيل عموماً وإنجيل يوحنا على وجه الخصوص، ليست وثائق تاريخية تُحاسب على صحة أو دقة التاريخ فيها، بل هي «وقائع روحية»، أو «حوادث إلهية» تمت في صميم الزمن، كما سبق وقلنا: ف«الله ظهر في الجسد» بحسب القديس بولس الرسول، أو «الكلمة صار جسداً» بحسب القديس يوحنا التلميذ والرسول، تماماً كما جاء في إنجيل لوقا «فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يُدعى ابن الله» (لو ١: ٣٥). فسجل ميلاده محوّل من سجل سابق مركزه السماء بعيداً عن أيدي المؤرخين. أو كما قال القديس يوحنا في رسالته الأولى «الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١ يو ١: ٢). فالله دخل التاريخ الإنساني واقتحم الزمن، ليس بالرؤيا ولا في حلم ولا بصوت يسمعه القلب كما في العهد القديم، بل على واقع إنساني حيّ منظور وملمس، هو الرب يسوع المسيح. وهذه معجزة التجسّد، وهي معجزة الله والإنسان.

فالآن، لا يمكن فصل العنصر الإلهي الخالص عن العنصر الزمني الخالص، كما يقول ويؤكد علم اللاهوت عن اتحاد اللاهوت بالإنسان في المسيح — الذي هو أساس التضادّ بين الزمنيّ والأبديّ — الذي صار توافقاً واتحاداً في المسيح. فهذا الاتحاد غير منقسم ولا منفصل، فن جهة اللاهوت لم يحدث له أي تغيير بعد التحامه بالإنسان وزمن الإنسان، سوى الظهور والإستعلان عن طريق الكلمة والمعجزة والآية. ولكن الزمن هو الذي انفتح على اللاهوت لما انفتح اللاهوت له، فرأى ما لا يرى وسمع ما لا يخطر على قلب بشر. والإنسان والزمان أخذوا ما لم يكن لهما أصلاً. فالمسيح كإنسان سار على الماء، فأين الجاذبية الأرضية وأين رغبة الأعماق واللجج؟ كما غطّى اللاهوت ضعف الجسد وألغى سلطة الموت ومحنة الزمن، فالمسيح أقام لعازر من الموت بعد أن أثنى، والمسيح نفسه قام من بين الأموات في اليوم الثالث: «فأين شوكتك يا موت؟ وأين غلبتك يا هاوية؟» (١ كو ١٥: ٥٥)، وأين أنت أيها التاريخ؟

— «فأقول هذا أيها الإخوة الوقت منذ الآن مُقْتَصَر... والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه، لأن هيئة هذا العالم تزول، فأريد أن تكونوا بلا هم.» (١ كو ٧: ٢٩-٣٢)

هذا هو طغيان المستقبل على الحاضر الزمني في المسيحية. أو كما قال المسيح لتلميذ دعاه فأراد أن يدفن أباه أولاً: «دَعِ الموتي يدفنون موتاهم، وأما أنت فاذهب وناذ بملكوت الله» (لو ٩: ٦٠)، أو كما وضعها القديس متى: «اتبعني، ودَعِ الموتي يدفنون موتاهم» (مت ٨: ٢٢). وهذا هو طغيان الروح والحياة الأبدية في المسيحية على أمور العالم الزائلة!!!

كل هذا صار لحساب الإنسان ليدخل ويمتد في الحياة الأخرى، الحياة الأبدية غير الزمنية. لذلك، فالذي يريد أن يقرأ الإنجيل، أيّ إنجيل، أو يدرسه؛ فإن لم يكن له الحاسة الإيمانية، أي

البصيرة الروحية المفتوحة على الله بحسب الوعي المسيحي التقليدي الصادق، فهولن يدرك هذا الإلتحام الذي أكمله المسيح - الكلمة المتجسد - في نفسه، التحام الأبدي والزمني، الإلهي والإنساني معاً. أما الذي يريد أن يفصل العنصر الإنساني في المسيح عن العنصر اللاهوتي ليعتبر في «يسوع التاريخ»، أو يوقع حياة المسيح على الأصول التاريخية، فسيفصل بين ما هو إنساني وما هو لاهوتي. مع أن المسيح لن يُعرف ولن يُستعلن إلا إلهاً متجسداً. لذلك فإن محاولة توقيع حياة المسيح على الزمن استرضاءً للعقل وعلم أصول التاريخ وإراحةً للمنطق، هي نكسة تشبه نكسة توما: «إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع إصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه، لا أومن.» (يو: ٢٠: ٢٥)

إذن، فالذي يتحتّم على كل لاهوتي أن يفهمه أن التاريخ والعنصر الزمني لدى الإنسان الجديد، أخذ طبيعة جديدة بعد الإيمان بتجسد ابن الله وموته وقيامته من بين الأموات وإرساله الروح القدس. فبعد أن كانت الحادثة الزمنية - كولادة إنسان مثلاً - تؤول بعد حدوثها بكل دقائقها وصحتها وفن تسجيلها إلى سجل الأموات وتصير إلى العدم، صار الآن تاريخ البشرية الجديدة أو الزمن الجديد الحي في الإنجيل يوزّع للأحياء وليس للأموات، ويسجّل في السموات: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في ٣: ٢٠) - كإنسان يعتمد ويؤمن بالمسيح ويعيش بالتقوى والمحبة الأخوية - فهذا كما يقول القديس يوحنا (عن نفسه) «قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو: ٥: ٢٤، ١٤: ٣)، وسيظل حياً «ولن يموت إلى الأبد» كما قال المسيح ووعده، وسيكتب اسمه في سفر الحياة، وإيمانه سيؤدّ إيماناً لآخرين، وهكذا إلى أبد الأبد. «لأنكم لم تأتوا إلى جبل ملبسوس... بل... إلى وسط العهد الجديد يسوع، وإلى دم رشّ يتكلم أفضل من هابيل.» (عب ١٢: ١٨-٢٤)

كذلك، فإن كل ما لمسّه المسيح وتبناه من الإنسان وزمانيات الإنسان سواء بيده أو بالكلمة، فإنه تجل وأخذ طبيعة جديدة أو خلقة جديدة أو خلقة ثانية: كالماء، والخمر، والخبز، والجسد، والدم، والأعمى، والمشلول، والكسيح، والميت، والقبر، حتى الموت نفسه تحول إلى حياة؛ فأين مَطْلَب منطق التاريخ؟ وأين رتبة الزمن ومادته؟ وكيف نقرب هذه المواد عقلياً بعد تحولها؟ ونكاد نقول قول القديس بولس الرسول إن نظام الزمن وحتمية التاريخ، بقسوته وبهمومه وأحزانه وأوجاعه، كان مؤدّبنا طوال أزمنة ما قبل المسيح؛ وبعد أن صرنا في المسيح، فلسنا بعد تحت رحمة أنظمة الزمن وحتميات ومنطق التاريخ، بل تحت رحمة الحياة الجديدة الأبدية ونعمة رب الحياة وتدير الروح القدس.

لقد كان حقاً ما قاله الآباء والأنبياء بالروح عن زمن المسيح أنه «أواخر الأيام» أو «الأيام الأخيرة»، وأنه «ملء الزمن»، أو «ملء الدهور»؛ بمعنى أنه بمجيء المسيح يكون قد اكتمل «زمان العقوبة» للإنسان، وانتهى «تاريخ اللعنة» وحكم الموت، وابتدأ «زمان الحياة»، زمان الروح القدس الذي أعطى التاريخ الإنساني أبعاداً جديدة ومعنىً جديداً وثوباً جديداً.

٥ - مقياس التاريخ يتجه ناحية الظاهر،

ومقياس اللاهوت يتجه نحو الجوهر:

اللاهوت الذي نوى أن يفحص ويُقيّم التاريخ الزمني في إنجيل يوحنا، يلزمه أن لا يغفل مقياس التاريخ الحقيقي اللاهوتي الذي تعيش به الكنيسة الحياة الأبدية وتحيا خلاصها فيه ألي سنة، حتى أصبحت هي بحد ذاتها شهادة لصدق الإنجيل. وعليه أن يفرز بروحه ويتحسس بحسه الإيماني حركته، أي حركة التاريخ اللاهوتي وهدفه، ولا مانع أن يقارن بينه وبين التاريخ الزمني ليعرف ويُطبّق سرعة حركة الكنيسة الروحية والخلاصية بالنسبة لمسار العالم والزمن على مرّ السنين، فينقد الكنيسة وليس حق الإنجيل!!

إن وقوف العالم اللاهوتي الذي يحكم بالتاريخ ويحتكم له ضد حادثة من حوادث الإنجيل باعتبارها لم توفّر الشروط العلمية للحادثة الزمنية ولظهورها وقياسها الزمني بحسب العقل وعلم التاريخ الأصولي، إنما هو يحاول أن يطمس معالم تدخّل الله في الحادثة الزمنية، الذي هو جوهر الحادثة، أو كمنّ يحاول أن يختزل المسيح إلى مجرد إنسان «يُدعى يسوع».

فالذي يقف أمام معجزة تحويل الماء إلى خمر بالنسبة إلى مفهومها الزمني كأن في ذلك ترفاً بحسب منظرها الخارجي، يفقد في الحال تقييم قوة التحويل الإلهية التي ابتدأ بها الله أعماله في المسيح وبالمسيح في جوهر المادة، ليبرهن أن العتيق قديم وشاخ، وأن الكل يَلْزَم أن يولد من جديد ليصير جديداً. وكأنه يقول للتلاميذ وكل العالم: هذا هو معنى وحقيقة رسالتي أن أُحوّل الماء إلى خمر، أُحوّل الميت إلى حياة والحياة إلى فرح، وأن ليس بالتطهير بالماء ينجو الإنسان من الدنس والخطية بل بشرب الروح والدم يخلص ويتقدس. ثم إذا هو نظر إلى كمية الخمر البالغة في حجمها أمراً فائقاً لحد التعلُّل، إذ أن الستة الأجران ماءً تحولت بحجمها إلى خمر بما يساوي ١٢٨ جالوناً، فيرى في هذا الكم الهائل دعوة إلى عدم الإتران والإدمان.

فهذه الرؤيا النقدية تنحصر فقط في فكر الإنسان الناقد فتُفقد في الحال رؤيا المجد، لأنها تطمس معالم اليد العالية التي تدخلت في تشكيل هذا الرقم، والسرّ الذي يختفي وراء هذه الوفرة

والكثرة، وهو الإشارة الواضحة إلى التحوُّل المقصود من يؤس الحاجة في القديم: «ليس لديهم خمر (فرح)»، إلى ملء البهجة والوفرة والمسرة الروحية بسبب حضور الله بتدخُّل العريس الحقيقي في حفلة عرس الإنسان. وكأن المسيح حيناً قال للخدم: «استقوا الآن» ينبِّه نظر اللاهوتي القدير أن يكمل من عنده قول الأنبياء «من ينبوع الحياة مجاناً» الذي يفيض بلا حدود.

وإذا لاحظ القارئ يجد أن التعظيم والمغالاة الرقمية أمرٌ مقصودٌ في إنجيل يوحنا على وجه العموم. فالسامرية كان لها خمسة أزواج وحتى الذي معها ليس زوجها (منتهى الفجور)!!، والأعمى أعمى منذ ولادته (منتهى الشقاء)!!، والمقعد له ٣٨ سنة (منتهى الذل)!!، والخمر المحوَّل ١٢٨ جالوناً (منتهى الوفرة)!!، والخبز: خمس خبزات لخمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطفال (منتهى السخاء)!!، ولعازله أربعة أيام في القبر وقد أنتن (منتهى اليأس)!! . والإنجيل لم يختَر هذه الأرقام، ولكن الذي اختارها حقاً هو المسيح عن قَصْدٍ ليُجري فيها عمله، وليستعلن فيها سلطانه على فك الحدود الضيقة والميتة والذليلة البائسة، والإنطلاق بقلب الإنسان وفكره المحدود إلى رَحْبٍ وفرح اللامحدود واللازمي!!

كذلك، إذا توقف اللاهوتي الذي يقيس الإنجيل والمسيح بمقياس الزمن وشروطه ومتطلباته إزاء حديث مطوَّل، أو وصف معجزة الخمس الخبزات التي أطعم بها المسيح خمسة آلاف بكل دقائقها؛ فيرى فيها خروجاً عن حدود المنطق الزمني، مُستَنقِصاً من القديس يوحنا كمؤرخ إنجيلي كيف يؤرخ لحادثة يزعم أنه رآها وذلك بعد خمسين سنة من حدوثها؛ فإن مثل هذا المؤرخ اللاهوتي يكون قد فقد عاملين أساسيين هما اللذان يسندان هذه الحادثة.

الأول: وهو الشرح الذي قدمه إنجيل يوحنا بضم المسيح عن سر هذا الخبز، وعن معنى الكثرة والوفرة فيه حيناً قال أن هذا الخبز هو في الحقيقة جسده المقدس، وأنه مُزَمَع أن يمزقه على الصليب ويطرحه على العالم كله، وليس على خمسة آلاف فقط، ليأكل منه الإنسان ويشبع ويفيض.

وهنا أيضاً عودة إلى سر التحوُّل، فبعد أن كان الإنسان يأكل خبزه بعرق جبينه والآكلون يموتون بعد حين، صار الإنسان مُحَوَّلاً أن يأكل من خبز السماء والآكل منه لا يموت، إذ هو خبز الحياة الأبدية. وهكذا تَمَّت النبوة «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل شيء كلمة»، تخرج من فم الله» (تث ٨: ٣، مت ٤: ٤). وتَمَّت كما ذكرها الإنجيل في المسيح، هوذا: «الكلمة صار جسداً» (يو: ١٤)!! و«خذوا كلوا هذا هو جسدي» (مت ٢٦: ٢٦، مر ١٤: ٢٢). [خذوا كلوا منه كلكم لأن هذا هو جسدي] (القداس الإلهي). إذن، فعجزة الخمس الخبزات تكون قد استوفت أسبابها واستُعلِنَ الحق المخفي في مظهرها.

العامل الثاني: وهو الرواية: فإن كان القديس يوحنا يؤرخ لأعمال «الكلمة»، وهذا واضح منذ بدء إنجيله، فالأنجيل الأخرى أخذت على نفسها أن تضع اللمسات التاريخية، كُلُّ في مجاله بصدق وإحكام، وذلك في هذه القصة التي تحمل كل المواصفات التاريخية هكذا: «فصوا في السفينة إلى موضع خلاء... فراهم الجموع... فتراكضوا إلى هناك من جميع المدن مشاة... فتحزن عليهم... وبعد ساعات كثيرة... الموضع خلاء والوقت قد مضى... إصرفهم... ليبتاعوا لهم خبزاً... أعطوهم أنتم لياًكلوا... كم رغيفاً عندكم... خمسة وسمكتان... فأمرهم أن يجعلوا الجميع يتكئون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر. فاتكأوا صفوفاً صفوفاً مئة مئة وخمسين خمسين. فأخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره إلى السماء وبارك ثم كسّر الأرغفة وأعطى تلاميذه ليقدموا إليهم. وقسّم السمكتين للجميع. فأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا من الكسر اثنتي عشرة ففة مملوءة ومن السمك. وكان الذين أكلوا من الأرغفة نحو خمسة آلاف رجل.» (مر: ٦: ٣٢-٤٤)

إذن، لا يمكن أن يحكم التاريخ على هيكل هذه القصة بالزّيف، لأن مظهرها مطابقٌ للتاريخ، كما لا يمكن أن يحكم التاريخ على المسيح في إنجيل يوحنا أنه خرج عن حدوده فيما عمل، لأن جوهر القصة مطابقٌ لهدف لاهوتي أكمله المسيح في قلب التاريخ.

وحيثما يتوقف اللاهوتيون المدافعون عن التاريخ إزاء معجزة إقامة لعازر من الموت، يطرحون مشكلتين: الأولى: هل أو كيف نصدق أن المسيح أقام لعازر من الموت حقاً؟ والمشكلة الثانية: لماذا لم يذكر الإنجيليون الثلاثة هذه المعجزة أيضاً وهي هامة؟

والرد على المشكلة الأولى نقول: إن المسيح سبق وأعلن مراراً أنه سيقم الموتى موقى الخطية وموقى القبور! وسواء في إنجيل يوحنا «الحق الحق أقول لكم: إنه تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يوه: ٥: ٢٥)، «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوه: ٢٨ و ٢٩)؛ وكذلك في الأنجيل الأخرى «أما يوحنا فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه وقال له: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟ فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران. العُمي يُبصرون والعمْرَج يمشون والبُرْص يطهّرون والصُّمُّ يسمعون والموتى يقومون...» (مت: ١١: ٢-٦، لو: ٧: ٢٢)؛ فواضح هنا من كلمة «الموتى» التي أتت بالجمع، أن المسيح أقام عدة أموات وليس لعازر فقط. ويروي الإنجيليون أيضاً قصة إقامة ابن أرملة ناين، وابنة يابرس. بهذا تكون رواية إقامة لعازر من الموت مدعّمة من التاريخ المتعرّف به في الأنجيل الثلاثة الأخرى.

أما المشكلة الثانية: أن الأناجيل الأخرى لم تذكر حادثة إقامة لعازر من الموت؛ فمن متابعة خدمة المسيح نجد أن الثلاثة الأناجيل لم تذكر خدمة المسيح في اليهودية التي بدأت مع يوحنا المعمدان، والتي ذكرها إنجيل يوحنا فقط في الأصحاحات (١-٣)، (٧). ويذكر إنجيل يوحنا فقط دون باقي الأناجيل أنه دعا له خمسة تلاميذ من هناك. وهذا مسجّل في كتاب «تلمود» اليهود (٢٥).

ويلاحظ في رحلة المسيح إلى اليهودية قبل الصليب بأسبوعين تقريباً حينما وصله خبر مرض لعازر، أن إنجيل يوحنا لم يذكر وجود التلاميذ الإثني عشر، ويبدو واضحاً أن كثيراً من تلاميذه كانوا غائبين عن هذه الرحلة، ومنهم غالباً القديسين متى وبطرس، وهما اللذان تفرّع منها التقليد الرسولي في الأناجيل الثلاثة. وهذا قد يكون هو السبب الأساسي في عدم ذكر حادثة إقامة لعازر من الموت، واكتفى الإنجيليون الآخرون بذكر حادثتي إقامة ابن أرملة نايين وابنة يائرس كما رأوهما، واكتفى يوحنا بذكر إقامة لعازر من الموت.

واهتمام القديس يوحنا بذكر حادثة إقامة لعازر من الموت دون غيرها، فذلك يعود إلى أهمية لاهوتية رفعت القصة إلى أقصى خطورتها التاريخية، إذ التحمت بموت المسيح وقيامته لأنه، كما سبق وقلنا، فإن السبب الأساسي الذي من أجله اجتمع السنهدريم وقرر قتل المسيح المذكور في إنجيل مرقس وكذلك كل من إنجيل متى وإنجيل لوقا، أنه تم بعد عملية تطهير الهيكل التي أجراها المسيح قبل الصلب بأسبوع واحد، ولكن إنجيل يوحنا ذكر عملية تطهير الهيكل في بداية خدمته مشيراً بذلك إلى سلطانه وإلى مفهوم رسالته في جملتها. أما السبب الأساسي الذي اجتمع السنهدريم من أجله فجعله بعد إقامة لعازر من الموت: «فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه.» (يو ١١: ٥٣)

وبتحقيق أدق المؤرخين واللاهوتيين رُئي أن تاريخ تسلسل الأحداث والأسباب لقتل المسيح صحيحة في إنجيل يوحنا، ومدعّمة للتاريخ بدرجة كبيرة.

وهكذا نجد أن تركيز المدارس النقدية على معجزات المسيح في إنجيل يوحنا فاقدة للرؤية اللاهوتية، بل وللرؤية التاريخية الصحيحة المنسجمة مع الإنجيل.

وبهذا يثبت لنا أن الهيكل العام لإنجيل يوحنا مترابط، يسير بالحوادث والكلمات ككل متحرك نحو هدف لاهوتي خطير لا ينبغي إغفاله، بل يلزم تثبيت النظر إليه إذا أراد أي إنسان أن يفهم الإنجيل أو ينقده، فهو ينتهي إلى علاقة حية بين الله والإنسان كواقع لا يحتاج إلى برهان، لأن

25 Hunter, A.M., op. cit., p. 58.

الكنيسة تعيشه في ملء صدقه وهي تتحرك نحوه عبر الزمان دون توقّف، حتى تبلغ إليه ويبلغ فيها الإنسان إلى مكانته الأولى في حضن الله .

٦ - منطق التاريخ يلزم أن يخضع لمنطق اللاهوت:

قيمة التاريخ أو الزمن في إنجيل يوحنا هي «الإستعلان» الإلهي موقعاً على التاريخ والزمن خطوة خطوة، وبهذا يكون قد أصبح للتاريخ والزمن الإنساني قيمة إلهية جديدة، ويكون هناك بالنهاية استحالة أن يخضع الإستعلان الإلهي الذي هو جوهر الحادثة للزمن وللتاريخ البشري الذي هو مظهر الحادثة. فالإستعلان قد يختار خطوة متقدمة لاهوتياً على خطوة متأخرة زمنياً حسب قياس عمل الروح وإلهام النعمة وغاية الإستعلان. أي أن الزمن فيما يخص المسيح عليه أن يخضع للإستعلان ويقبل بالترتيب الإستعلاني الذي جاء في الإنجيل، ويراجع نفسه، فربما يُرغمه الإستعلان لجعل «الأحد» قبل «السبت» كما سجّل القديس يوحنا حادثة تطهير الهيكل في مستهل إنجيله وبداية الخدمة، أي قدمها ثلاث سنوات عن ما سجلته الأناجيل الأخرى في ختام الخدمة ونهاية الإنجيل قبل الصليب مباشرة، فاستحسن المؤرخون اللاهوتيون هذا العمل جداً مع أنه مخالف لمنطق التاريخ. لأن الترتيب الإستعلاني هو السيد والسائد، وقد جاء ليعيد صياغة التاريخ الذي أفسده الإنسان أو الذي أفسد الإنسان، سيّان .

وهنا كان اعتراض المسيح العنيف على الذين آخذوه كيف يصنع معجزة شفاء لأعمى أو كسيح يوم السبت؟ لأن هذا العمل في مضمون الفكر الناموسي نقضٌ للتاريخ وإهانة لكرامة السبت الزمني وقداسته أما رد المسيح فكان بالإيجاب، أي: نعم أنا أنقض التاريخ بالرغم من الوصية حتى لا يسود الزمن على الله الذي هو واضعه وخالقه: ف«أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يوه: ١٧)، بمعنى أن «عمل الله الإستعلاني» لا يخضع للتاريخ ولا رتبة الزمن: ف«السبت إنما جُعِلَ لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت» (مر ٢: ٢٧). والإنسان خُلِقَ قبل السبت، فإن كان السبت خُلِقَ أو أقامه الله ليعلم الإنسان، فكيف يكون الزمن بالنسبة لأمر الله أو لإستعلان شخصه أو طبيعته؟؟ ف«ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (مت ١٢: ٨) أي خالقه، أي أعلى من السبت وأسبق وأبقى. فكلُّ ما كان يعملهُ المسيح هو قبل السبت، حتى ولو كان في السبت، بمعنى أن تدبير الله هو قبل الزمن وأزلّي في أصله وقنْشُهُ، «لأنه متممٌ أمرٍ وقاضٍ بالبر، لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض.» (رو ٩: ٢٨)

وبهذا يكون تحليل قضايا إنجيل يوحنا من قِبَل اللاهوتيين التقديين تاريخياً أي زمنياً، أمراً مشيناً للإيمان المسيحي وللمعنى الخلاص والإستعلان شخص يسوع المسيح والآب! وكان الأجدد والأصح أن

يُحلَّل الاستعلان على مستواه الخاص به، فيكون هو تاريخ الإنجيل الصحيح .

٧ - التحليل التاريخي لحياة المسيح لا يصلح وحده أن يكون

قاعدة للإيمان:

التحليل التاريخي العلمي للحوادث، أي التاريخ الحرّ، يقيّم الحادثة على أساس العِلَّة والمعلول، أي السبب والأثر، مع تقييم القيمة الظاهرية من الشيء أو الموضوع أو الإنسان بالنسبة لغيره من الحقائق التي على نفس مستواه سواء من جهة أي إنسان أو عمله .

وهذا النوع من التحليل التاريخي لا يستقيم تطبيقه على حوادث وأقوال المسيح وشخصه . بل لا يمكن ولا يصح، وليس من الحق أو العدل، لأن المسيح - بأقواله وأعماله - يحمل الحق في جوهره وليس في مظهره أو في مظهر أعماله . فالمسيح في مظهره «عَبْدٌ مَتَأَمٌّ»؛ وفي جوهره إله ممتجد . وهذه كلها يستحيل قياسها على أشخاص آخرين أو أعمال لأشخاص آخرين . والمسيح يؤكِّد ذلك: «لو لم أكن قد عملتُ بينهم أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيري لم تكن لهم خطية» (يوه١: ٢٤) . فكل آيات المسيح وتعاليمه لا تقيّم ولا توصف بلغة التاريخ، لأنه لا توجد ثوابت أخرى يُقاس عليها لا من جهة شخصه ولا من جهة أعماله . فبالأولى، لا يُحكّم عليها من أحد بل هي تحكّم على كل أحد .

صحيح أن الثلاثة الإنجيليين وقَّعوا حياة المسيح على التاريخ قدر ما استطاعوا، هذا حسب الظاهر، وهذا حسن . ولكن من أجل أن الأناجيل الثلاثة أخذتها الكنيسة هكذا على المستوى التاريخي كقصة متيقّنة عندها وجعلتها أساساً لإيمانها، نقول إنه بسبب هذا الأمر نفسه انطلق القديس يوحنا في آخر القرن الأول لتاريخ الكنيسة - حينما رأى أن الكنيسة اكتفت بظاهر حياة المسيح ليكون هو إنجيلها وبشارتها بملكوت الله - انطلق مُساقاً من الروح القدس ليستعلن لاهوت المسيح من داخل حياة المسيح هذه وتعاليمه نفسها التي قدّمها الأناجيل الأخرى في ظاهرها التاريخي . وهذا هونص التقليد الكنسي الذي استلمته الكنيسة عن القديس إكليمنديس الإسكندري الذي سجّله له يوسابيوس القيصري وأذاعه . يقول القديس إكليمنديس:

[إنه اعتماداً على صحة ما جاء إلينا من فم الشيوخ كتقليد أن القديس يوحنا آخر الإنجيليين حينما رأى أن الأناجيل الموجودة اهتمت بحقائق الظروف الخارجية $\tau\alpha\ \sigma\omega\mu\alpha\tau\iota\kappa\acute{\alpha}$ في تسجيلها، وإذ صُنِط عليه من قِبَل أجبائه تحرك بالروح من قِبَل الله وكتب إنجيله الروحي = $\tau\omicron\ \pi\upsilon\epsilon\upsilon\mu\alpha\tau\iota\kappa\omicron\nu\ \epsilon\upsilon\alpha\gamma\gamma\acute{\epsilon}\lambda\iota\omicron\nu$.] (٢٦)

²⁶ Euseb. Hist. Eccl., VI, 14,5-7.

لذلك، فعلى مدى إنجيله كله أرسى القديس يوحنا كل مفردات المنهج اللاهوتي منطوقاً بضم المسيح، ومُنْتخَباً من تعاليمه وآياته ليقدم إيمان الكنيسة التي بَتَّتْ عليه لاهوتها وعقيدها، والتي دافعت به عن كيانها مقابل الهرطقة الذين تضافروا على مدى أربعة قرون لهدمها، مستخدمين ضدها أسلحة المنطق والتاريخ والتعاليم المزيّفة.

٨ - صيغ الأفعال الزمنية فقدت حدودها بدخول الله إلى ملء الزمن:

القديس يوحنا وهو يكتب عن «الحق» كان يعلم ماذا يكتب، ولمن يكتب، ولماذا يكتب. وعلماء اللغة أثبتوا أن لغة إنجيل يوحنا جاءت في معظمها في صيغة المستقبل، فقد كان يرى التاريخ أمامه بما سيأتيه الزمن، وعمل له ألف حساب. والمسيح كان يتكلم عن نفسه بالصيغة الحاضرة الدائمة «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، لأنه كان يرى نفسه في لاهوته ويتكلم عن الأزلية القائمة فيه: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو ٨: ٥٨)، هي لغة تسمو فوق الزمن والتاريخ معاً. كما يعبر بالصيغة الدائمة القائمة عن علاقته الأزلية بالآب: «الآب يحب الإبن» (يو ٣: ٣٥؛ ٥: ٢٠). فإذا تكلم المسيح عن الإنسان الذي يؤمن به، فإنه يرفع عنه ثقل الزمن ويحصره معه في الأبدية بصورة غاية في الروعة والإعجاب: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩)، «من آمن بي ولو مات فسيحيا.» (يو ١١: ٢٥)

وهكذا جاءت صيغ الماضي والحاضر والمستقبل في إنجيل يوحنا لا تخدم التطور الزمني كما جاءت في الأناجيل الأخرى، كأن تقول عن المسيح «وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس» (لو ٢: ٥٢)، بل كلها جاءت لتخدم تدرج استعلان طبيعة المسيح بقدر استيعاب إيمان الناس: «ومن هله نحن جميعاً أخذنا نعمة فوق نعمة» (يو ١٦: ١٦)، «مجدتُ وأمجد أيضاً» (يو ١٢: ٢٨). كما اتجهت أفعال الخلاص نحو الأخرويات، ولكن في صورتها الحاضرة: «إن آمنت ترين مجد الله» (يو ١١: ٤٠). ولقد ألمحت الأناجيل الأخرى إلى هذه الحقيقة: «وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مر ١٤: ١٥)؛ أين التاريخ هنا وأين الزمان؟ لقد وضعه الرب خلف ظهره: «قد كمل الزمان» - حتى يستطيع أن يبدأ الكرازة بالأزليات والأخرويات التي تدفقت وأشرقت على الإنسان النائم الجالس في الظلمة وظلال الموت. فالمسيح لم يبلغ الزمن، ولكن استعلن الملكوت من فوقه فأضاء ظلماته.

فإذا حاول اللاهوتيون أن يورّخوا «ليسوع التاريخ» كما يقولون، فإنهم يفصلونه عن لاهوته، ويُفسدون كرازته ويُخفون مجد الأخرويات وحضورها في الزمن.

ويلاحظ القارئ أن مجيء الروح القدس في ملء الزمن - في اليوم الخمسين لقيامته الرب - هو الذي كشف الأخويات لروح الإنسان، وجعلها حاضرة في قلبه وروحه وعاملة فيه في حاضره الزمني. فالباراكليت في إنجيل يوحنا منوط به استعلان الأخويات وتذوقها، وهذه وظيفته بالأساس: «ونخبركم بأموار آتية» (يو ١٦: ١٣). وبهذا تجلّي الزمن في حاضره عند الإنسان بواسطة الروح القدس، وصار جزءاً لا يتجزأ من المستقبل الأبدي - والروح القدس لم يُلغِ الزمن، بل استعلن فيه الأبدي.

وهذا هو المعنى الخفي وراء قول المسيح: «الحق أقول لكم: إن من القِيَام ههنا قوماً لا يدوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة» (مر ٩: ١)، والقديس يوحنا شهد بذلك: «الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه... فإن الحياة أظهرت... ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١يو ١: ٢٠١)، مشيراً بذلك إلى مجيء الروح القدس ومعه ملء الملكوت وطبيعته. المستقبل هنا دخل في الحاضر الزمني.

وقول المسيح في إنجيل يوحنا: «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩): هنا الرؤيا ليست للجسد مع أنها في الجسد. فهي ليست في السمات الزمنية للمسيح، وإلّا فلن يروا فيه إلّا إنساناً «مضروباً من الله ومذلولاً» (إش ٥٣: ٤)، «مكروه الأمة وعَبْد المتسلّطين» (إش ٤٩: ٧)، بل هي رؤيا الإيمان من خلال كلامه وأعماله واسمه المعلن دائماً: «أنا هو» (يهو الكائن بذاته)، ومن خلال قيامته بعد موت الفداء الذي أكمله. هذه كلها أكملها في الجسد في وسط الزمان ولكن ليست بالجسد. لذلك يعثر فيه اللاهوتيون الذين يؤرّخون «ليسوع التاريخ». فجسد المسيح لا يؤمّن به في ذاته، بل في اللاهوت المستعلن فيه، فنرى فيه قوة الله وبرّه وقداسته وفدائه لنا، حيث تتركز كل آمال الإنسان وخلص البشرية الذي هو وعد الله للعالم: «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبتّي... إذا لست بعدُ عبداً بل ابناً وإن كنتُ ابناً فوارثٌ (أنت) لله بالمسيح.» (غل ٤: ٤-٧)

٩ - التاريخ يبحث في الماضي والإنجيل يعيش المستقبل:

والأمر الذي فات على المؤرخين اللاهوتيين، الذين دخلوا في سباق النقد للإنجيل يوحنا كونه لم يأخذ الخط التاريخي أساساً لروايته، (مع أنه لم يُقل أنه يكتب رواية، بل تحقيقاً لاهوتياً انتخبه من أقوال المسيح وتعاليمه التي بناها على معجزات جعلها آيات لصدق ما يقول ويعلم)، نقول أن الذي فاتهم هو: أن المؤرخ مهما توخّى الدقة في بحثه وراء الحقائق نفعاً للحقيقة - كما يقولون - فهو يبحث في الماضي، والماضي فقط! لأن التاريخ لا يبحث في الحاضر ولا المستقبل؛ ولكن الإنجيل

وهو البشارة المفرحة، يعيش في الإسخاتولوجي (الأخرويات) أي المستقبل، هادفاً إلى غاية لاهوتية حية قائمة في الحاضر وممتدة في المستقبل، ولا تأخذ من الماضي إلا مزيداً من استعلانها، وصدقاً لتكميلها.

فالزمن عند إنجيل يوحنا هو «الآن» الممتد والماسك بالأبدية: «مَنْ كَانَ حَيًّا (الآن) وَأَمَّنْ بِي فَلَنْ يَمُوتَ، وَإِلَى الْأَبَدِ»،. لماذا؟ لأن المسيح وهو هو «القيامة والحياة» حضر في «الآن» أو «الآنِيَّة الزمنية»، وهو الأزلي الأبدي بآن واحد: «يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء» (رؤ ١: ٨). لذلك أصبح لا قيمة للماضي في عُرف الإنجيل إلاً بالقدر الذي يجاوب به على الحاضر ويحل مشاكله.

فشلاً، ليس قيمة بعد لكل أسفار العهد القديم إذا لم تشترك مع النعمة في حل مشكلة الضمير الملوَّث بالخطية الذي يئن تحت ثقل اللوم والدينونة واللعنة والموت؟!!!! المسيح أعطى الحلَّ لهذه المحنة العظيمة التي يعيشها الإنسان في حاضره، فلا بد أن تُطَبَّق على كل حاضر لكل إنسان آتٍ إلى العالم، وبالتالي لكل البشرية وإلى نهاية الدهور. علماً بأن هذا الحل أي الخلاص الأبدي الذي أكمله المسيح لكل إنسان، يمتد بأثر رجعي على كل عاملي الصلاح الخائفين الله منذ بدء الدهور. وهكذا غطى المسيح العجز الزمني، وأنهى على قصور التاريخ وأينته، بل أدخل الماضي في نور استعلانها.

دخول المسيح في الزمن الإنساني تحت التاريخ، أعطى للزمن والتاريخ معنىً متسعاً جديداً، إذ ألغى الناموس بأحكامه ودينونته — الناموس باعتباره قاضي التاريخ والمؤدَّب الزمني — وبهذا أعطى لماضي الإنسان شرحاً جديداً مبهجاً، إذ كشف غطاءه الأسود، واشتعلت جنين «الخلاص والحق والحياة الأبدية» الذي كان مُصَوِّراً في أحشائه ولم يُقَوَّ على ولادته، «هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة، لأن الأجيَّة دَنَّتْ إلى المولد، ولا قوة على الولادة». (إش ٣٧: ٣)

فالتجسُّد جلَّى التاريخ — أي غيَّر هيأته — وأعلن في صميم حركته قصد الله السعيد، فأفقدَّ التاريخ الإنساني عتامته. فأخذ التاريخ في الإنجيل مسحة الله، وأصبح يضيء بنور الله أمام خطي السائرين فيه. «ومفديُّ الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنُّم وفرح أبديٍّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهَّد» (إش ٣٥: ١٠). كما أخذ الإنجيل، بحكم الضرورة والاستعلان الذي حدث، أخذ يُوَرِّخ لمستقبل الكنيسة، لأنه وضع أقدامها على عتبة ملكوت الله الأبدي: «توبوا لأنه قد اقترب منكم ملكوت الله»؛ ثم غرس الملكوت في داخل قلب الإنسان الميت فطعمه بالحياة: «ها ملكوت الله داخلكم». وهكذا بدأت الكنيسة تكتب أعمالها حسب

أقواله، وهي متأكدة أنها لن تفقد كيانها في مسار الزمن، مهما تكتلت عليها جحافل الظلمة: «أن الظلمة قد مَضَتْ والنور الحقيقي الآن يضيء» (١ يو٢: ٨)، «إني أنا حيٌّ فأنتم ستموتون». (يو١٤: ١٩)

الكنيسة الآن تمخر عباب بحر التاريخ الزمني في داخل قارب النجاة صوب شاطئ الأبدية السعيدة، بزمن وتاريخ آخر غير زمن الشمس والقمر وتحرك الأرض، هوزمن الخلاص؛ فذاك يؤرِّخ للعالم، وهذا يؤرِّخ للسما. «لأن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلّصاً». (في ٣: ٢٠)

إنجيل يوحنا، ومعه بقية الأناجيل، كتب المنهج الجديد للكنيسة، ليس بتسجيل الزمن وتوقيع الحوادث، ولكن بكلمات المسيح التي هي روح وحياة، وبأعماله التي هي أعمال الآب التي تخصُّ خلاص الإنسان وحياته الجديدة. وقد رتبها القديس يوحنا بحسب درجات استعلان المسيح وقصد الله ترتيباً لاهوتياً هو نفسه التاريخ اللاهوتي الذي بدأ: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله» (يو ١: ١)، وتوقف قليلاً عند محطات إلتحام الأبدية بالزمني «والكلمة صار جسداً» (يو ١٤: ١٤)، ثم «الكلمة المتجسد مصلوباً وقتياً»، ثم «مدفوناً»، ثم «قائماً وجالساً عن يمين الآب حيث كان أولاً».

هذه هي رحلة الزمن الخلاصي وتاريخ الفداء: «خرجتُ من عند الآب، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أترك العالم، وأذهب إلى الآب» (يو ١٦: ٢٨). هذا هو تاريخ المسيح الذي يؤرِّخ له الإنجيل. وواضح أنه تاريخ إلهي فائق، سماي في جوهره، ولكنه يلقى ظلّه على الأرض. وهذا التاريخ اللاهوتي عينه سلّمه الروح في إنجيل يوحنا للكنيسة لتعيشه وتحيا به، ناظرة إلى فوق، وتترجى غايته، برجاء أثبت من الحاضر نفسه: «لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة وإلاّ فإنني كنت قد قلت لكم. أنا أمضي لأُعدّ لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وأخذكم إليّ». (يو ١٤: ١-٣)

والمسيح لكي يُحيي تاريخ الكنيسة لتعيش أزمنة التجلي المستقبلية، أرسل إليها روحه القدس ليعلم لها الأخرويات، ويلقنها الحق «كل الحق»، حتى لا يعود الفكر البشري قادراً أن يزيّف لها الحقائق أو يُخفي عنها النور الأبدي الذي تعيش على هداه وتسير في نوره، حتى تتم لها أزمنة الغربة لتؤخذ في المجد. فالكنيسة تحمل المسيح وتسير به، مستوطنة في السماء وهي على الأرض. فأصبحت بمؤمنها هي التجسد، هي المسيح المستعلن في أبناء الله، المحمولة بالروح لتسير فوق الزمن.

لذلك، إذا تدخل العالم اللاهوت ومعه مقياس الزمن الطبيعي - الذي ينظر دائماً إلى الوراء - لنيقيس به قامة المسيح في الحوادث والأعمال المعمولة، فهو فوق أنه يخطيء فإنه يعطل مسار التاريخ الحقيقي أو الإلهي المندفَع إلى الأمام وإلى فوق، ويظلمه أشد الظلم. فالنقد «غير الحقيقي»، أي الذي يصطدم بالحق، يوقف حركة الكنيسة بإعثار أولاد الله، فيعرق مسيرة الخلاص ويحمل دينونة تعثرها الذي تعانیه الآن في كل أوروبا وأمريكا.

- إنتهى الكتاب -

وبليه كتاب شرح إنجيل القديس يوحنا

صورة النسر رمز إنجيل يوحنا

لقد أعطى التقليد المسيحي لكل إنجيلي من الإنجيليين الأربعة شعاراً خاصاً، يُفصح عن المضمون الفكري العام للإنجيل المختص به. وقد أُعطى للقديس يوحنا الإنجيلي رمز «النسر»، لأنه حلّق في سموات الروح وأعطانا صوراً خاطفة للمسيح في وجوده قبل التجسّد.

والصورة المرسومة هي لنسرٍ جسور، اقتنص سمكة ضخمة. والسمكة في التقليد المسيحي المبكر جدّاً هي شعار المسيحي الذي كان يتعارف به المسيحيون مع بعضهم، برسمها أو بكتابته اسمها IXΘΥΣ وهذه الحروف الخمسة هي اختزال اسم المسيح وصفته، وتعني: «يسوع، المسيح، ابن، الله، المخلص».

فالصورة تعني القدرة الفائقة للقديس يوحنا على استعلان اسم المسيح وصفاته.